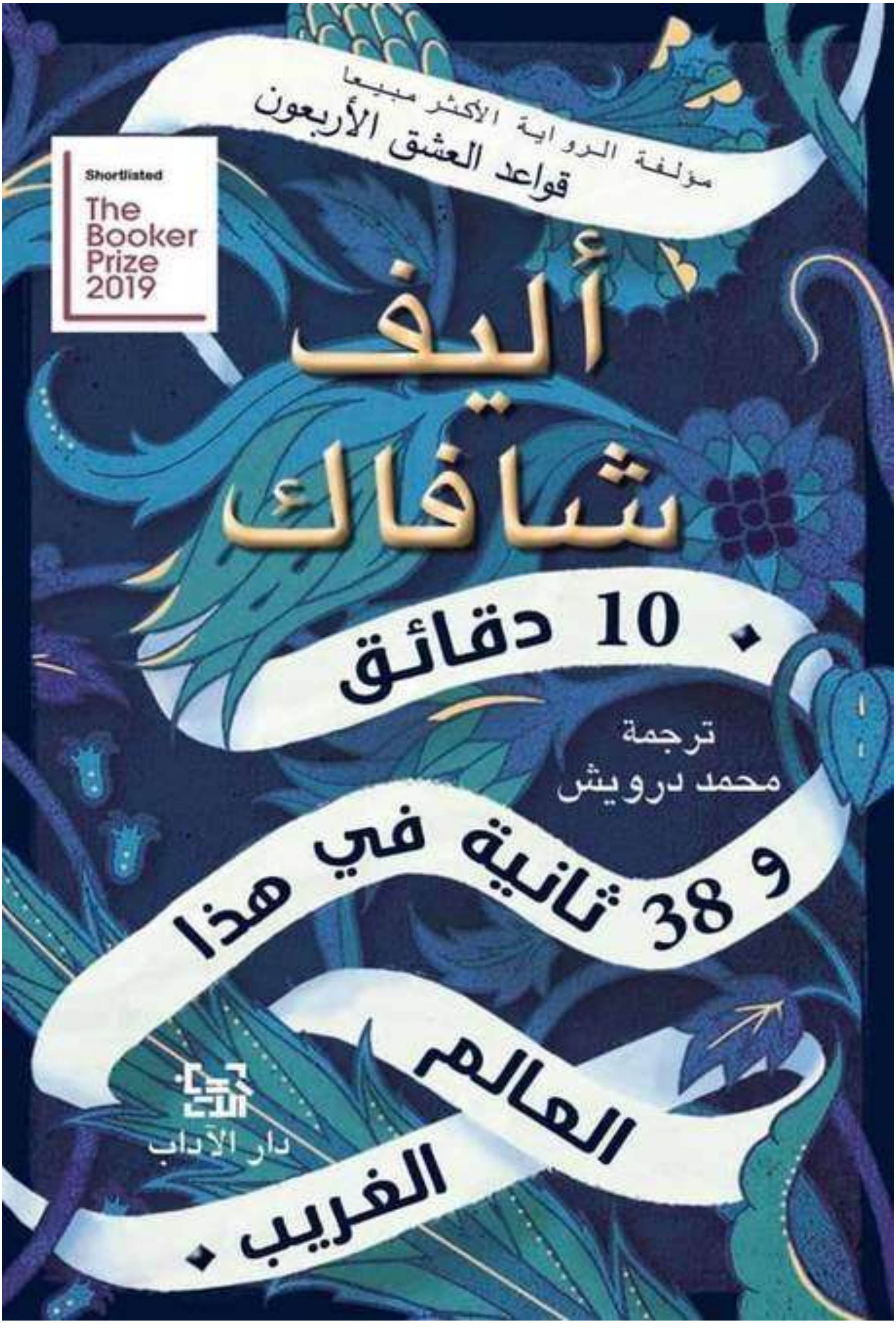
مؤلفة الرواية الأكثر مبيعا
قواعد العشق الأربعون
Shortlisted
The Booker Prize 2019
أليف شافاك
10 دقائق
ترجمة
محمد درويش
و 38 ثانية في هذا
العالم
الغريب
دار الآداب

10 دقائق و38 ثانية في هذا العالم الغريب

أليف شافاك

ترجمة محمد درويش

دار الآداب

شكرًا @مكتبةpdf

الإهداء

إلى نساء إسطنبول

وإلى مدينة إسطنبول

التي كانت ولا تزال مدينة أنثى.

أليف شافاك

(مرَّة أخرى، سبقني الآن بقليلٍ في الرحيل عن هذا العالم الغريب. لكنّ هذا غير مهمّ؛ فنحنُ، الذين نؤمنُ بالفيزياء، نعرفُ أنّ الفصلَ

بين الماضي والحاضر والمستقبل ليسَ سوى وهمٍ عنيدٍ لا سبيل إلى إنكارهِ)

ألبرت آينشتاين ... في وفاة أقرب أصدقائه، ميشيل بيسو

10دقائق و38 ثانية

كان اسمُها ليلى.

ليلى التكيلا(1) هو الاسمُ الذي اشتُهرتْ به بين أصدقائها وزبائنها. كانوا ينادونها بليلى التكيلا في العمل وفي البيت؛ البيت الذي كان لونُه بلون الخشب الورديّ، ويقعُ في طريقٍ مسدودٍ مرصوفٍ بالحجارة عند رصيف المرفأ، ما بين كنيسةٍ وهيكلٍ يهوديّ، وسط دكاكين تبيع المصابيحَ والكباب . في الشارع الذي يضمّ بين جوانبه أقدمَ المواخير المجازة في إسطنبول.

لكنْ، إنْ قُدِّر لها أن تسمعَكَ وأنت تتفوّه باسمها على ذلك النحو، فقد تشعرُ بالإهانة، ثمّ تقذفكَ مازحةً بفردة حذاءٍ من أحذيتها ذات الكعب العالي المستدقّ.

ـ الآن، يا عزيزي، لا في الماضي. اسمي الآن ليلى التكيلا.

لم تكن لتوافق، ولو مرَّةً واحدةً في ألف سنة، على أن يكون الكلامُ عليها بصيغة الماضي. إنّ مجرّد التَّفكير في ذلك يُشْعرها بالضَّعَةِ والانهزام، وهذا آخرُ ما تريد أن تشعر به في هذا العالم.

لا، بل ستُصرّ على استعمال صيغة الحاضر، وإنْ باتت تدرك إدراكًا يبعثُ الكآبةَ في نفسها أنَّ قلبها قد توقَّف عن الخفقان قبل قليل، وأنَّ أنفاسها انقطعَتْ على حين غرَّة، وأنْ لا فائدة من إنكار وفاتها، بصرف النَّظر عن زاوية النَّظر إلى حالتها.

لم يدرِ أحدٌ من أصدقائها بالأمر بعدُ. فَهُمْ، في هذا الوقت المبكِّر من الصباح، غارقون في النوم، وكلٌّ منهم يحاول أن يجد وسيلةً يَخرج بها من متاهة أحلامه. تمنَّت ليلى لو كانت في البيت أيضًا، مدثَّرةً بالأغطية الدافئة، وقطُّها يجثم عند قدمَيْها والنعاسُ يُغالبه. كان القطّ مصابًا بالصَّمم التامّ، وكان ذا لون أسود باستثناء بقعة بيضاء على إحدى كفَّيْه. أسمَتهُ «السيِّد تشاپلن» تيمُّنًا بتشارلي تشاپلن، لأنَّه كان يعيش في عالمٍ صامتٍ خاصٍّ به، على غرار أبطال السينما في بداياتها.

كانت ليلى لتَهَبَ أيَّ شيء لقاء وجودها في شقَّتها الآن. إلَّا أنَّها راقدة هنا، في منطقةٍ من ضواحي إسطنبول، على الجهة الأخرى من ساحة كرة قدم مظلمة ورطبة، وداخل حاوية نفايات معدنيَّة ذات مقابض مكسوَّة بالصدأ وبِقشيْرات الطِّلاء. كانت حاويةً ذات عجلات، ويبلغ ارتفاعُها أربعَ أقدام على الأقلّ، وعرضُها قدمًا واحدة. أمَّا ليلى، فطولها خمسُ أقدام وسبعُ بوصات. ويُضاف

إليها ثماني بوصات أخرى، هي مقدارُ ارتفاع حذائها المستدَقّ الأرجوانيّ الذي ما يزال في قدميْها.

ثمَّة أشياء كثيرة كانت ترغب في معرفتها. لذا لبثَتْ تفكِّر في اللَّحظات الأخيرة من حياتها، وتطرح على نفسها سؤالًا عن الخطأ الذي حدث . وكان هذا التَّفكيرُ تمرينًا عبثيًّا ما دام يَصْعب فكُّ ألغاز الزمن، وكأنَّه كرةٌ من الغَزْل .

كان لونُ بشرتها قد أخذ يتحوَّل إلى الأبيض الرَّماديّ، على الرَّغم من أنَّ خلاياها لا تزال مُفعمةً بالنشاط. ولم تستطع منعَ نفسها من أن تلاحظ اختلاجَ أشياء كثيرة داخل أعضائها وأطرافها. لطالما افترضَ الناسُ أنَّ جسدَ الميِّت لم يَعُد أكثرَ حياةً من شجرةٍ مقتلعةٍ أو قرمةٍ جوفاءَ مُجرّدةٍ من الوعي. لكنْ لو تسنّى لليلى نصفُ فرصة، لأقسمَتْ على النقيض من ذلك: بأنَّ الجثّة مُفعمةٌ بالحياة.

لم تكن قادرةً على تصديق أنَّ وجودها الفاني قد انتهى إلى غير رجعة. فقبل يومٍ واحدٍ لا غير، كانت قد مرَّت بحيّ پيرا، وكان ظلُّها ينسابُ على امتداد الشوارع التي أُطلق عليها أسماءُ القادة العسكريّين والأبطال القوميِّين. وفي ذلك الأسبوع بعينه، تردَّد صدى ضحكاتها في خانات غالاتا وكورتولوش ذاتِ السقوف الواطئة،

وأوكارِ توفاني الصَّغيرة الخانقة، التي لا يظهر أيٌّ منها في دليل المسافرين أو على الخرائط السياحيَّة. إنَّ إسطنبول التي عرفتْها ليلى ليست إسطنبولَ التي تريد وزارةُ السياحة أن يراها الأجانب.

كانت في اللَّيلة الماضية قد تركَتْ بصماتِ أصابعها على كأس ويسكي، فضلاً عن أثرٍ من عطرها . المعروف بعلامة بالوما بيكاسو، وكان قد قدَّمه إليها بعضُ أصدقائها بمناسبة عيد ميلادها . على وشاحٍ من حرير، قذفتْ به جانبًا فوق سرير أحد الغرباء في جناحٍ في الطابق العلويّ من أحد الفنادق الفخمة. وفي السَّماء العالية، كان هلالُ الأمس واضحًا منيرًا يتعذَّر الوصولُ إليه، مثل أثرٍ باقٍ من ذاكرةٍ سعيدة. كانت لا تزال جزءًا من هذا العالم، وكانت الحياة لا تزال في أعماقها، فكيف يمكن أن تكون قد رحلتْ؟ كيف يمكن أن ينتهي وجودُها وكأنَّها حلمٌ تلاشى مع انبلاج أوَّلِ تباشيرِ الفجر؟ قبل بضع ساعات، كانت تغنِّي وتدخِّن وتسبّ وتفكِّر... حسنًا، إنَّها لا تزال تفكِّر في هذه اللَّحظة. والمدهش في الأمر أنَّ عقلها كان يعمل بكلِّ قوَّته . وإنْ لم يكن أحدٌ يدري إلى متى سيظلّ كذلك! تمنَّت لو كان في وسعها أن تعودَ وتخبرَ الجميعَ بأنَّ الموتى لا يموتون من فورهم، وأنَّ في مستطاعهم مواصلةَ التَّفكير في الأشياء، بما فيها موتُهم. ثمّ قلّبتْ في الأمر مليًّا، وأدركتْ أنَّ

الناس سيصابون بالرُّعب والهلع إنْ هُم عرفوا ذلك. من المؤكَّد أنّ هذا ما سيصيبها أيضًا لو كانت حيّةً وعلمتْ بالأمر.. لكنّها شعرَتْ أنَّ من المهمّ أن يعرفوا .

بدا لليلى أنّ البشر يكشفون عن نفادٍ بالغ في الصبر حينما يتعلّق الأمر بالمراحل الفاصلة في حياتهم. فهم، أوَّلًا، يفترضون أنَّ الإنسان يصبح على نحو تلقائيٍّ زوجًا أو زوجةً في اللَّحظة التي يتفوَّه فيها بكلمة «أوافق». بَيْدَ أنَّ الحقيقة هي أنَّ الزواج يتطلَّب سنواتٍ طويلةً كي يدرك كلٌّ منهما كيف يكون زوجًا. وعلى نحوٍ مشابهٍ، يتوقَّع المجتمع أن تَدْخل غرائزُ الأمومة ـ أو الأبوّة ـ حيَّز العمل حالما يُرزق المرءُ بطفل. والحقّ أنَّ المرءَ قد يصرف وقتًا طويلًا حتَّى يتبيّنَ كيف يصبح أبًا، أو جدًّا. كذلك الأمر بخصوص التقاعد والشيخوخة، إذ كيف يمكنك أن تُكيِّفَ نفسَكَ حالما تغادر الدَّائرةَ التي أَفنيْتَ فيها نصفَ عمرك وبدَّدتَ معظمَ أحلامك؟ ليس هذا سهلًا. كانت ليلى تعرف معلِّمين مُتقاعدين يستيقظون في السَّابعة صباحًا، ويستحمُّون ويرتدون ثيابًا أنيقة، ثمَّ يتهالكون من وراء طاولة الفطور، ليتذكَّروا بعدئذٍ أنّهُ لم يعد لديهم عمل؛ هؤلاء كانوا لا يزالون قيد التكيّف.

لعلَّ الأمر لا يختلف كثيرًا حين يخصّ الموتَ. فالناس يعتقدون أنَّ المرءِ يتحوَّل إلى جثَّة ميّتة ما إنْ يلفظ آخرَ أنفاسه. بَيْد أنَّ الأمور ليست كذلك تمامًا. فكما أنَّ هنالك درجاتٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصى بين الأسود الفاحم والأبيض الناصع، فإنَّ هناك أيضًا مراحلَ متعدِّدةً لِما يُسمَّى «الرَّاحة الأبديَّة». فلو كان هناك حدّ يَفْصل بين عالم الحياة وعالم الآخرة، فلا بدَّ من أن يكون هذا الحدُّ قابلًا للنفاد، شأنه في ذلك شأن حجرٍ رمليّ. هذا ما توصَّلتْ إليه ليلى.

كانت في انتظار شروق الشمس؛ فمن المؤكَّد أنَّ شخصًا ما سيَعْثر عليها ويخرجها من هذه الحاوية القذرة. لم تتوقَّع أن تَصْرف السُّلطاتُ وقتًا طويلًا للتَّعرُّف إلى هويَّتها. كلُّ ما يتعيَّن على هذه السُّلطات عملُه هو تحديدُ ملفِّها. فعلى مدى سنين طويلة، خضعَتْ للتَّفتيش والتَّصوير وطبعِ بصمات الأصابع، فضلًا عن الاعتقال مرَّاتٍ كثيرةٍ، لدرجة أنّه لم يَعْنِها عددُها. لمخافر الشرطة في الشوارع الخلفيَّة رائحةٌ مميّزة: منفضاتُ سجائر مملوءةٌ بأعقاب من الأمس، وبقايا قهوة في فناجين مثلومة، وأنفاسٌ نتنة، وخِرَقٌ مبلَّلة، ورائحةٌ فاسدة منبعثة من مباول لا تستطيع أيُّ مادةٍ أن تُزيلها. يتشاركُ الضبَّاطُ والجُناةُ غُرفًا ضيّقةً ومُكتظّة. ولطالما أدهشَ ليلى أن تتساقط خلايا الجلد الميّتة لرجال الشرطة

والمجرمين على الأرضيَّة نفسها، ثمّ يزدردها عثُّ الغبار نفسُه، من دون تمييزٍ أو تَحيُّز. وعلى مستوًى لا تراه أعيُنُ البشر، تجد الأضدادَ وقد امتزجتْ بطرقٍ تفوق أيَّ توقُّعات.

وفكَّرتْ ليلى أنَّ السُّلطات سوف تُبلغ أُسرتَها بعد أن تتعرَّف إلى هويَّتها. كان أبواها يقطنان في مدينة ڤان التاريخيَّة ـ التي تَبعد عنها ألفَ ميل. لكنّها لم تتوقَّع منهما الحضورَ ونقلَ جثَّتها، لأنَّها أخذتْ في الحسبان أنَّهما قد نبذاها منذ زمن طويل: «لقد ألحقتِ بنا الخِزيَ والعار، وصرنا حديثَ الجميع من وراء ظهورنا.«

ولهذا، فإنَّ على الشرطة أن تذهب إلى أصدقائها عوضًا من ذلك؛ أصدقاؤها الخمسة: سِنان المُخرِّب، ونالان الحنون، وجميلة، وزينب 122، وحُميْرة هوليوود.

لم يراود ليلى التكيلا أيُّ شكٍّ في أنَّ أصدقاءها سوف يَحْضرون إليها بأسرع ما يستطيعون. كانت تتخيَّلهم وهم يُقْبلون نحوها، بخطواتٍ متعجِّلة ولكنَّها متردِّدة، وعيونٍ ملأى بالصدمة، وأسًى لا يزال في أطواره الأولى، وحزنٍ جديدٍ لم يستقرّ عميقًا بعد. انتابها شعور سيِّئ لأنّها ستضطرُّ إلى وضعهم في هذا العذاب المؤلم

على ما يبدو. لكنّ عزاءها أنّهم لا بدّ من أن ينظّموا لها جنازةً رائعة. كافور وبخور وموسيقى وزهور . وبخاصَّة زهور الورد الحُمْر المتوهِّجة، والصُّفر البرَّاقة، والحمر القانية. زهور كلاسيكيّة، وسرمديّة، ولا تُضاهى. زهور التوليب الرَّفيعة الشأن أكثر ممَّا ينبغي، والنرجس الرقيق على نحوٍ مبالَغٍ فيه، والزنابقُ . تتسبّبُ لها الزنابقُ بالعطاس. لكنّ الورودَ مثاليَّةٌ . مزيج من فتنةٍ شبقيّةٍ وأشواكٍ حادَّة.

رويدًا رويدًا، لاحت تباشيرُ الفجر. خطوطٌ من الألوان . القرنفليّ الضّارب إلى الصُّفرة، والبرتقاليّ بلون شراب المارتيني، والفراولة بلون شراب المارغريتا، والأسود البارد . تنسكبُ فوق الأفق، من الشرق إلى الغرب. وفي غضونِ ثوانٍ قليلة، أخذتْ أصداءُ الأذان تتردَّدُ من المساجد القريبة، من غير أيّ تزامنٍ بينها. وفي مكان بعيد، أعلنَ البوسفور عن استيقاظِه من نومه الفيروزيّ، مُطلِقًا تثاؤبًا عظيمًا. وعاد أدراجَه إلى المرفأ قاربُ صيدٍ، وهو ينفث دخانَ محرِّكه. وتدحرجتْ موجةٌ عاليةٌ على مهلٍ باتِّجاه الجزء المطلّ على الشاطئ. كانت المنطقة، ذات يوم، تنعم ببساتين الزيتون والتين، إلى أن جرفتها الجرّاراتُ لفسح الطريق أمام أبنيةٍ جديدة ومرائِبِ سيَّارات. وفي مكانٍ ما، تحت أجنحة الظلام الذي لا يزال يُرخي

سدوله، تعالى نباحُ كلبٍ بدافع إحساسه بالواجب أكثر من شعوره بالانفعال والإثارة. وعلى مقربةٍ من المكان، سقسق عصفورٌ سقسقةً جريئةً وعالية، فردَّ عليه آخر، لكنّه لم يكن ردًّا بهيجًا بهجةَ العصفور الأوَّل. إنَّها جوقةُ الفجر. وبات في ميسور ليلى أن تسمع دمدمةَ شاحنةِ خدمةِ التَّوصيل على الطريق المليئة بالحُفر، وهي تصطدم بحفرةٍ تلو حفرة. وعمَّا قريب سيصمّ الأذنَ ضجيجُ وسائل المواصلات المبكِّرة في ذلك الصباح. حياةٌ في أوجِ طاقتها.

عندما كانت ليلى التكيلا حيّةً، كان غالبًا ما يتملَّكها العجبُ، والقلقُ أحيانًا، من الأشخاص الذين يتفكّرون بهوسٍ في نهاية العالم. كيف بمقدور العقول التي تبدو سليمةً أن تستنزفَ نفسَها إلى هذا الحدّ بكلِّ هذه السيناريوهات الحمقاء عن الكويْكبات والكُرات الناريَّة والمذنَّبات التي ستوقِعُ الخرابَ على كوكب الأرض؟ وبالنسبة إلى ليلى، ليست نهايةُ العالم أسوأَ ما يُمكن أن يحدث. وأمَّا احتمالُ فناء الحضارة، الفوريِ والمطلق، فإنَّه لا يبعث فيها نصفَ الذُّعر الذي تتسبّبُ به فكرةٌ بسيطةٌ: ليس لموتنا الفرديّ أيُّ تأثير في نظام الأشياء، وستواصل الحياةُ مسيرتَها كالسَّابق، بوجودنا أو من دوننا. هذا ما كان يفزعُ ليلى شديدَ الفزع.

***

غيَّر النسيمُ من وجهته ضاربًا في طريقه ساحة كرة القدم. ثمَّ شاهدتهم: أربعة صبيان في سنّ المراهقة يفتِّشون في وقت مبكِّر في النفايات، يدفع اثنان منهم عربةً مملوءةً بالزجاجات البلاستيكيَّة والعلَب التالفة، بينما يسيرُ الثالث، ذو الكتفَيْن المترهِّلَتَيْن والركبَتَيْن الملتويَتَيْن، إلى الوراء حاملًا كيسًا قذرًا وملوَّثًا وثقيلًا إلى أبعد الحدود. وأمَّا الرَّابع، فكان واضحًا أنَّه زعيمهم، إذ سار في المقدِّمة، مختالًا، ومنتفخًا مثل ديكٍ صغير السنّ في حالةِ عراك. كان الأربعة يتَّجهون نحوها، ويمزحون هازلين.

استمرُّوا في السَّير.

توقَّفوا عند حاوية نفايات في الجهة الأخرى من الطريق، وراحوا يفتِّشون فيها: زجاجات شامبو، وعلب عصير ولبن، وصناديق بيض... كانوا يلتقطون كلًّا من هذه الكنوز، ويضعونه على ظهر العربة، بحركاتٍ سريعةٍ تنمّ عن خبرةٍ ومهارة. عثر أحدهم على قبَّعة جلديَّة قديمة، فضحك وهو يعتمرها، وسار بخطواتٍ مبالَغٍ فيها، واضعًا يديْه في جيبيْ بنطاله الخلفيَّيْن، مقلِّدًا بذلك أحدَ أفراد العصابات الذي لا بدّ من أن يكون قد رآه في فيلمٍ ما. وعلى

الفور، خطف الزعيمُ القبَّعةَ، ووضعها على رأسه. لم يعترض أحد. وبعد أن حملوا من حاوية النفايات ما حملوه من حاجيَّات، استعدُّوا للذهاب. ولخيبةِ أمل ليلى، ظهر أنَّ الصِّبْية قد استداروا للسَّيْر في الاتِّجاه المعاكس.

ـ هه! إنَّني هنا.

وكأنّ الزعيم سمع استغاثةَ ليلى، فرفع رأسه ببطءٍ باتِّجاه الشمس التي كسرتْ عينه، وراح من تحت انكشاف الضوء يتفحّص المكان حوله، وجال ببصره في الحاوية إلى أن لمحها، فرفع حاجبَيْه، وارتعشت شفتاه قليلًا.

ـ أرجوكَ، لا تهرب

لم يهرب، ولكنَّه نطق بصوتٍ خافتٍ شيئًا للآخرين، فراحوا يحدِّقون فيها، وعلى وجوههم أماراتُ الذهول نفسها. أدركتْ ليلى حداثةَ أعمارهم؛ كانوا لا يزالون فتيانًا، هؤلاء الصبيان الذين يتظاهرون بأنَّهم رجال.

تقدَّم زعيمُهم خطوةً صغيرةً إلى الأمام، ثمَّ خطوةً أخرى. سار في اتّجاهها كما يقترب فأرٌ من تفَّاحةٍ سقطتْ من مكانٍ ما ـ قَلِقًا

وهيَّابًا، ولكنْ سريعَ الحركة ومصمِّمًا أيضًا. اكفهرَّ وجهُه حين ازداد قربًا ورأى ما هي عليه.

. لا تخف.

صار الآن بجانبها، قريبًا بحيث تمكَّنتْ من ملاحظة بياض عينَيْه المتَّقدتَيْن احمرارًا والضاربتَيْن إلى الصُّفرة. أدركتْ أنَّه كان يشمّ الصمغَ، هذا الصبيّ الذي لا يتجاوز الخامسةَ عشرة، وكان من شأن إسطنبول أن تتظاهرَ بالتَّرحيب به وإيوائه، قبل أن ترميَه جانبًا وكأنّه لعبةٌ قماشيّةٌ بالية، في وقتٍ لم يتوقَّعه إلَّا قليلًا.

. اتَّصِلْ بالشرطة، يا بنيَّ. اتَّصلْ بالشرطة كي يتمكَّنوا من إبلاغ أصدقائي.

ألقى نظرةً سريعةً، يمينًا وشمالًا، ليطمئنَّ إلى خلوِّ المكان من أيّ مراقِبٍ أو أيّ كاميرات مراقبة في الجِوار. تقدَّم ومدَّ يَده إلى قلادة عنق ليلى . علبة صغيرة ذهبيَّة، وفي وسطها زمرُّدةٌ متناهيةُ الصغر. وفي حيطةٍ وحذرٍ شديدَيْن، كأنَّه يخشى أن تنفجر في كفِّه، لمسَ القلادة، وشعر ببرودة معدنها المريح. ثمَّ فتح العلبةَ، فوجد صورةً داخلها، فما كان منه إلَّا أن أمسكَها، وراح يتفحَّصها برهةً وجيزةً. فاستدلَّ على المرأة، وإنْ كانت أصغرَ سنًّا منها؛ أمَّا الرجل،

فكان ذا عينَيْن خضراوَيْن، افترَّ ثغرُه عن ابتسامة مهذَّبة، وشعرٍ طويل مصفَّف على نحوٍ يعود إلى زمنٍ آخر. بدت أماراتُ السَّعادة على وجهَيْهما؛ فهما عاشقان، مغرمٌ أحدهما بالآخر.

على ظهر الصُّورة، كتابةٌ تقول: «د/ علي وأنا..... ربيع سنة 1976».

وعلى جناح السُّرعة، جذب الزعيمُ العلبةَ الصَّغيرة، وحشر جائزتَه في جيبه. وإذ أدركَ الآخرون الواقفون بهدوء وراءه ما فعله، فقد عزموا على تجاهله. لعلّهم صغارُ السنّ، إلَّا أنَّهم يتمتَّعون بما يكفي من الخبرة والتجربة في هذه المدينة التي تجعلهم يعرفون متى يتصرَّفون تصرُّفًا ذكيًّا، ومتى يسلكون سلوكَ الأخرس.

غير أنَّ فتًى واحدًا منهم تقدَّم خطوةً وتجاسر على السُّؤال، وإنْ بصوتٍ هامسٍ:

ـ أهيَ... أهيَ على قيد الحياة؟

ردَّ الزَّعيم:

ـ لا تكن غبيًّا. إنَّها ميّتة كالبطَّة المطبوخة.

. يا لها من امرأةٍ مسكينة! مَن هي؟

مدَّ الزعيم رأسَه إلى الجانب، وراح يتفحَّص ليلى كأنَّه يراها أوَّل مرّة، يتفحَّصها نزولًا وصعودًا، والابتسامةُ مشرقةٌ على وجهه مثل حبرٍ سُكِب فوق ورقة، وقال:

. ألا يمكنكَ أن ترى، أيُّها البليد؟ إنَّها عاهرة .

سأل الصبيُّ الآخر بجدِّيّة:

. أتظنّ ذلك؟

بدا أنّه خجول وبريء، إذ لم يقدرْ على تكرار الكلمة.

. هذا ما أعرفه، أيُّها الأبله.

هنا، استدرك الزَّعيم قليلًا باتِّجاه المجموعة، وقال بصوتٍ عالٍ مؤكِّدًا:

. سوف ينتشر خبرُها في كلِّ الصحف، وفي قنوات التلفاز! سوف تصيبنا الشهرة! وحين يأتي الصحافيُّون إلى هنا، دعوني أتكلَّم. اتَّفقنا؟

على مسافةٍ بعيدة، زمجر محرِّكُ سيَّارةٍ عند بداية الشارع المؤدِّي إلى الطريق الرَّئيس، وانزلقتْ وهي تستدير، وامتزجتْ رائحةُ العادم بلسعة الملوحة العابقة في الرِّيح. في تلك السَّاعة المبكِّرةِ التي بدأ فيها نورُ الشمس يلامس المنائرَ والسطوحَ والأغصانَ العاليةَ لأشجار الأرجوان الزاهية، كان الناسُ يهرعون في هذه المدينة، متأخِّرين عن الوصول إلى مكانٍ آخر.

القسم الأوَّل

العقل

- 1 -

دقيقة واحدة

بدأ وعيُ ليلى التكيلا، في الدَّقيقة الأولى التي أعقبتْ موتَها، يتلاشى على نحوٍ بطيءٍ وثابت، شأنَ المدّ المنحسر عن الشاطئ. وأصبحتْ خلايا دماغها محرومةً من الأوكسجين بعد أن خلت من الدم، ولكنَّها لم تتوقَّف تمامًا. لم تتوقَّف على الفور. فقد راح بديلُ الطاقة الأخير يُنشِّط أعدادًا لا تُحصى من الخلايا العصبيَّة ليربط بعضَها ببعض، وكأنَّها ترتبط أوّلَ مرَّة. ومع أنَّ قلبها توقّف، فقد ظلّ دماغُها يقاوم، وكأنَّه يقاتل حتّى النهاية. فدخل الأخير في حالة من الوعي الحادّ، وكان يراقب موتَ الجسد، بيْد أنّه لم يكن مستعدًّا لتقبُّل نهايته نفسه. انتعشتْ ذاكرتُها انتعاشًا كبيرًا، وباتت توّاقةً ومتحمِّسة، تجمع أجزاءً من حياةٍ تُسرع باتِّجاه النهاية، فتذكَّرَتْ أشياءَ لم تعرفْ قطّ أنَّها قادرة على تذكُّرها، أشياءَ اعتقدتْ أنَّها ضاعت منها إلى ما لا نهاية. أمَّا الزمن، فبات مائعًا، يفتقر

إلى الثبات؛ وراحت موجاتٌ سريعةٌ من الذكريات يمتزج بعضُها ببعض، وتعذَّر الفصلُ بين الماضي والحاضر.

كانت أوَّلُ ذكرى مرَّت بعقلها هي ذكرى الملح. شعورُها به وهو يوضَع على جسدها، ومذاقه على لسانها.

رأت نفسَها طفلةً في مرحلة الرضاعة. عاريةً وزلقةً ومحمرَّةً. كانت قبل ثوانٍ قليلةٍ قد خرجتْ من رحم أمِّها، ومرَّت بطريق مبلَّل وزلق، وقد استحوذ عليها خوفٌ لم تعرفْه من قبل، وها هي الآن في حجرةٍ مكتظّةٍ بأصواتٍ وألوانٍ وأشياءَ مجهولة. ورقّط نورُ الشمس، المنبعثُ من بين النوافذ الزجاجيَّة الملوَّنة، غطاءَ السَّرير، وانعكس على صفحة الماء في حوض الغسيل الخزفيّ، على الرَّغم من أنَّه كان نهارًا قارسًا من نهارات كانون الثاني. في ذلك الماء بعينه، غمست امرأةٌ طاعنةٌ في السنّ، ترتدي ثوبًا بظلالِ ألوانِ الأوراق الخريفيَّة. وهي القابلة. منشفةً وعصرتْها، فساح الدمُ على امتداد ساعدها.

. ما شاء اللَّه! ما شاء اللَّه! إنَّها بنت.

ثمّ أخرجتْ من داخل صدريَّتها قطعةً من حجر الصوَّان، وقطعت «الحبلَ السرّيّ». لم تستخدمْ سكِّينًا قطّ، ولا حتّى مقصًّا لهذا

الغرض، إذ كانت تجد فعاليَّتَهما وكفايتَهما الباردتَيْن غيرَ مناسبتَيْن للتَّرحيب بطفلةٍ في هذا العالم، وهي مهمَّة تتَّصف بالفوضى والقذارة. كانت العجوز تحظى باحترامٍ شديدٍ في الحيّ، وكان السُّكَّان يعتبرونها، على الرَّغم من عزلتها وغرابة أطوارها، ذاتَ قدُرات عجيبة . من أولئك الذين يمتلكون وجهَيْن في شخصيَّاتهم: وجهًا أرضيًّا، وآخرَ سماويًّا؛ ويعتقدون أنَّها تستطيع في أيّ وقت تشاء أن تكشف عن أيٍّ منهما، شأنها شأن قطعة نقدٍ معدنيَّة تُقذَف في الهواء.

« بنت»، تَردّد صوتُ الأمّ الشابَّة التي كانت ترقد فوق سريرٍ بأربع قوائم من الحديد المطاوع، وكان شعرُها البنِّيّ العسليُّ الفاتح مبلَّلًا بالعرق، وفمُها يابسًا كالتراب.

راودها القلقُ من أن تكون على تلك الحال أيضًا. ففي وقتٍ مبكّرٍ من الشهر، كانت تتنزّه في الحديقة بحثًا عن شِباك العناكب في الأغصان المتدلِّية فوقها. وحين شاهدتْ إحداها، دفعتْ بكلّ رفق إصبعَها فيها. راحت بعد ذلك تتفحَّص المكانَ على مدى بضعة أيَّام؛ فإذا عاودت العنكبوتُ بناءَ الثقب، فذلك يعني أنَّ المولود ذكر. إلَّا أنَّ بيت العنكبوت لبث ممزَّقًا.

كان اسمُ الشابَّة بِينّاز. ويعني ألفَ مُداهنة. كانت في التاسعة عشرة، وإنْ شعرتْ أنَّها أكبر سنًّا في هذا العامّ. كانت شفتاها ممتلئتَيْن، وأنفُها رقيقًا شامخًا. وهو ما يُعَدُّ شيئًا نادرًا في هذا الجزء من البلد. وكان وجهُها طويلًا، وذقنُها مدبَّبًا، وعيناها سوداوَيْن مرقَّطتَيْن برقط زرقاءَ مثل بيوض الزرزور. وكانت على الدوام رشيقةَ القوام، رقيقة البنية، غير أنَّها لاحت الآن أكثرَ رشاقةً ورقَّةً من ذي قبل، بثوب نومها الكتّانيّ الطحينيّ اللَّون. ثمَّة ندوبٌ واهية وقليلة، أثرٌ من آثار مرض الجدريّ على وجنتَيْها، سبق لأمّها أن أخبرتها ذاتَ مرَّة أنَّها علامةٌ تدلّ على أنَّ نور القمر داعبها وهي نائمة. لقد اشتاقت إلى أمِّها وأبيها، وإلى إخوانها وأخواتها التسعة، وجميعُهم يقطنون في قريةٍ تبعد بضع ساعات. كانت أسرتها تعيش في فقرٍ مُدقِع. تلك حقيقة غالبًا ما تذكَّرتْها منذ اليوم الذي دخلتْ فيه هذا البيت بصفة عروسٍ جديدة.

- كُوني ممتنَّة، إذ لم تكوني تملكين أيَّ شيء حين جئتِ إلى هنا.

وغالبًا ما راود بينّاز التَّفكيرُ بأنَّها ما تزال لا تملك أيَّ شيء. فكلُّ ممتلكاتها كانت عابرةً، غيرَ مستقرَّة وبلا جذور، مثل بذور الهندباء البرِّيَّة. فما إنْ تَهبَّ نسمةٌ قويَّةٌ، أو يهطل المطر، حتَّى ينتهي أمرُها وكأنَّ شيئًا لم يكن. وكان عبئًا ثقيلًا على صدرها أن تفكِّر في

احتمال طردِها من هذا البيت في أيِّ وقت. وإذا ما وقعت الواقعة وطُرِدتْ، فإلى أين تذهب؟ لن يوافق والدُها أبدًا على عودتها إليه، خصوصًا أنَّ لديه ذلك العددَ الكبيرَ من الأفواه التي يضطرّ إلى إطعامها. لذا سيتعيَّن عليها أن تتزوَّج من جديد. لكنْ لا ضمانَ أن يكون الزواجُ المقبل أكثرَ مدعاةً للسَّعادة من زواجها السَّابق، أو أن يناسب الزَّوجُ الجديد هواها على نحوٍ أكثر! ثمَّ مَن ذا الذي سيتزوَّجها وهي امرأة مطلّقة، امرأة مُستعمَلة؟ كانت مُثقلةً بهذه الشكوك وهي تتجوّل في أرجاء البيت، وفي غرفة نومها، وداخل رأسها، وكأنّها ضيفٌ متطفِّلٌ. وظلّت كذلك حتّى الآن. سيكون كلُّ شيء مختلفًا بولادة هذه الطفلة. هذا ما طمأنتْ نفسَها به. فهي لن تشعر بعد اليوم بأيّ حرج، ولن يتهدَّدها أيُّ خطر.

ألقت بينّاز نظرةً خاطفةً إلى الباب خلافًا لرغبتها، فشاهدت امرأةً مفتولةَ العضلات واسعةَ الفكَّيْن، واقفةً وإحدى يدَيْها على خاصرتها، والثانيةُ على مقبض الباب. كأنَّها تفكِّر إنْ كانت ستبقى أمْ سترحل. وعلى الرَّغم من أنَّها كانت في بداية الأربعينيَّات من عمرها، فإنَّ وشومَ الزمن على يدَيْها، والتَّجاعيدَ من حول فمها الرَّقيق رقَّةَ الشفرة، جعلتها تبدو أكبرَ سنًّا. أمَّا على جبينها، فثمَّة خطوطٌ عميقة، تجاعيدُ غير متناسقة ومبكِّرة، أشبه ما تكون بحقلٍ

محروث. كان مصدر تجاعيدها في أغلبها هو العبوس والتدخين . إذ لا تتوقّف طوال ساعات النهار عن تدخين التبغ المهرَّب من إيران، واحتساءِ الشاي المهرَّب من سوريا. أمَّا شعرها القرميديّ الأحمر . الذي يعود الفضلُ فيه إلى وفرة الحنَّة المصريَّة . فكان مفروقًا في وسطه، ينتهي بضفيرةٍ طويلة تكاد تلامس خصرَها. وكانت ذات عينَيْن بلون ثمرة البندق، مُحدّدتَي الحافتيْن تحديدًا فيه قَدرٌ كبيرٌ من العناية باستخدام أكثر أنواع الكحل سوادًا. لم تكن هذه المرأة ضرَّةَ بينّاز؛ فالزوجة الأولى هي سوزان.

حدَّقت المرأتان بعضهما إلى بعض، فلاح الهواءُ من حولهما ثقيلًا، دالًّا على قرب حدوث تطوُّرات غير متوقَّعة إلى حدٍّ ما، مختمرًا ومنتفخًا كأنَّه قطعةٌ من العجين. كانت المرأتان تشغلان الحجرةَ نفسَها على مدى أكثر من اثنتي عشرة ساعة، إلَّا أنَّهما أصبحتا الآن في عالمَيْن مختلفَيْن. فقد أدركتا أنَّ ولادة هذه الطفلة ستغيِّر من مكانة كلّ منهما في الأُسرة مرَّةً وإلى الأبد. فالزوجة الثانية سوف تتبوَّأ القمَّة، وذلك على الرغم من شبابها ومجيئها قبل مدَّة قصيرة لا أكثر.

أشاحت سوزان بنظرتها، ولكنْ ليس لمدَّة طويلة. وحين عادت بأنظارها من جديد، لاح على وجهها قدرٌ من الصلابة والجمود، لم يسبق وجودُهما من قبل. أومأتْ برأسها في اتِّجاه الطفلة، وسألت:

. لماذا لا تُصدِر أيَّ صوت؟

امتقع وجهُ بينّاز، وسألتْ بدورها:

. نعم، هل من خطب؟

قالت القابلة وهي تنظر نظرةً باردةً إلى سوزان:

. ليس ثمَّة خطب. ينبغي أن ننتظر

غسلت القابلةُ الطّفلةَ بماءٍ مُقدَّس من بئر زمزم . هديّة من حاجٍّ عاد قبل وقتٍ قصير من أداء مناسك الحجّ. وأزيلت الدِّماء والمادَّة المخاطيَّة كلُّها.

تضايقت الطفلة وتلوَّت بانزعاج، وظلّت كذلك حتَّى بعد الاستحمام، كأنَّها كانت تحارب نفسَها، بوزنها البالغ ثمانية أرطال وثلاث أونصات.

سألت بينّاز وهي تلفّ شعرَها بين أناملها، كعادتها التي لازمتها منذ سنة:

ـ أيمكنني أن أحملها؟ إنَّها... إنَّها لا تبكي.

قالت القابلة بنبرةٍ قاطعة:

ـ آه، هذه البنت سوف تبكي.

وسرعان ما كفّت لسانَها، إذ كانت عبارتُها صدًى يشبه الفألَ السيِّئ. ثمَّ بصقَتْ بسرعة على الأرض ثلاث مرَّات، ووطأتْ بقدمها اليُمنى قدمَها اليسرى، وذلك من شأنه ألّا يَسْمح للحدس المشؤوم ـ إنْ حصل ـ بالمضيّ إلى مكانٍ أبعد.

ران صمتٌ مُربِك، في حين راح كلُّ اللواتي كنَّ في الحجرة ـ الزوجة الأولى، والزوجة الثانية، والقابلة، وجارتان أُخريان ـ يتفرَّسن في وجه الطفلة بعيون مترقِّبة.

سألتْ بينّاز من دون أن يكون سؤالُها موجَّهًا إلى أحد معيَّن، بصوتٍ واهٍ أرقّ من الهواء:

ـ ما الأمر؟ أخبِرْنني الحقيقة.

فبعد أن أُجهضتْ ستَّ مرَّات في غضون سنين قليلة، وكان كلُّ إجهاض أكثرَ إنهاكًا من سابقه، وأصعبَ على النسيان، لزمتْ هذه المرَّةِ طوال مدَّة الحمل جانبَ الحيطة والحذر إلى أبعد الحدود. فلم تلمسْ ثمرةَ خوخٍ واحدة كيْلا يمتلئَ وجهُ المولودة بالزُّغب. ولم تستعملْ أيَّ نوعٍ من أنواع البهار أو الأعشاب في طبخ الطعام كيْلا تولد الطفلةُ وعلى وجهها النمشُ أو الشامات. ولم تشتمّ رائحةَ الورد كيْلا تولد الطفلةُ بوحمةٍ بلونِ النبيذ البرتغاليّ على جسمها. ولم تقصّ ولو مرَّةً واحدةً شعرَها خشيةَ أن ينتهي حظُّ الأُسرة نهايةً سريعة. كما أنَّها امتنعتْ عن دقّ المسامير في الجدار، كيْلا تصيب عن خطأ رأسَ غولٍ نائم. وأمَّا بعد حلول الظلام، فكانت تقضي حاجتها في مبولة داخل حجرة النوم، إذ كانت تُدرك جيِّدًا أنَّ الجانّ يقيمون حفلات زفافهم قرب المرافق الصحِّيَّة. وتمكَّنتْ من تفادي النَّظر إلى الأرانب والجرذان والقطط والنسور والشياهم والكلاب السائبة. وحين زارَ حيَّهم موسيقيٌّ جوّالٌ، يرافقه دبٌّ راقص، وخرج الجيرانُ كلُّهم من بيوتهم لمشاهدة العرض، رفضَت الانضمامَ إليهم خشيةَ أن يولد جنينُها مغطًّى بالشعر. وكلَّما صادفتْ في طريقها شحَّاذًا، أو مجذومًا، أو عربةً لنقل الموتى، استدارتْ وعَدَتْ في الاتِّجاه المعاكس. وكانت، في صباح كلّ يوم،

تأكل ثمرةَ سفرجل بأكملها، كي يولد الجنينُ وعلى وجهه غمَّازتان. كما أنَّها كانت تنام في كلِّ ليلة واضعةً سكِّينًا تحت وسادتها، لتطردَ الأرواحَ الشرِّيرة. وأمَّا بعد الغروب، فكانت تجمع خفيةً الشعرَ من فرشاة شعر سوزان وتحرقه في الموقد، كي تقوِّضَ من سلطة ضرّتها.

وما إنْ بدأتْ تباشيرُ الولادة حتّى راحت بينّاز تعضّ عضَّة واحدة على تفَّاحة حمراء حلوةِ المذاق وطريَّةٍ من أثر الشمس، وها هي الآن على الطاولة المجاورة لسريرها وقد انقلب لونُها إلى البنِّيّ رويدًا رويدًا. وفي وقتٍ لاحقٍ، سوف تُقطَّع هذه التفَّاحةُ إلى عدد من الشرائح، وتوزَّع على نساء الحيّ اللَّواتي لا يتمكنَّ من الإنجاب، وبهذا قد يستطعن الحمل في يومٍ من الأيَّام. كما أنَّها رشفتْ عصيرَ الرّمان المُثلّج من فردة حذاء زوجها اليُمنى، ونثرت الثمار في أركان الحجرة الأربعة، ووثبتْ من فوق مكنسةٍ وُضِعتْ على الأرض قرب الباب ـ لتكون بذلك حاجزًا يَطرد الشيطانَ. ومع اشتداد آلام الانقباضات، الواحد بعد الآخر، كانوا يطلقون كلّ الحيوانات من أقفاصها في البيت لتسهيل المخاض، وكذلك طيور الكناريّ والعصافير. وكان آخر ما أَطْلقته من وعائها الزجاجيّ سمكة البيتا، المزهوَّة والوحيدة. ولا بدَّ أنَّها تسبح الآن في جدول

ماءٍ على مسافة ليست بعيدة، زعانفُها ترفرف زرقاءَ مثل الياقوت الصفيريّ الأزرق الصافي. وإذا ما بلغت السَّمكةُ الصَّغيرةُ بحيرة الصودا، التي كانت هذه البلدةُ الأناضوليَّةُ الشرقيَّة تشتهر بها، فلن تكون فرصتُها كبيرةً في البقاء على قيد الحياة في المياه المالحة المشبَّعة بالكاربونات. لكنْ إذا ما ذهبتْ في الاتِّجاه المعاكس، فقد تصل نهرَ الزاب الكبير. وإذا ما توغَّلتْ أكثر في رحلتها، فربَّما تصل دجلةَ، ذلك النهرَ الأسطوريَّ النابع من جنَّة عدن.

كلّ هذا، من أجل أن يولد الجنينُ في أتمّ الصحَّة والعافية.

ـ أريد أن أراها. أفي وسعكِ إحضارُ ابنتي؟

ما إنْ طرحتْ بينّاز هذا السُّؤال حتَّى جذبت انتباهَها حركةٌ ما. فقد فتحت سوزان البابَ، هادئةً، كأنَّ فكرةً عابرةً مرّت بها وانسلَّت خارج الغرفة. لا ريْب في أنَّها كانت تبغي إيصالَ خبر الولادة إلى زوجها ـ زوجِهما. وهنا تيبَّس جسدُ بينّاز برمّته.

كان هارون رجلَ تناقضاتٍ واضحةٍ جدًّا: فتراه يومًا كريمًا ومحسنًا على نحوٍ مدهش، وفي يومٍ آخر مستغرقًا في ذاته، مشوَّشَ الفكر إلى حدٍّ صارم. ولأنّه كان أكبرَ إخوته، فقد تعيّن

عليه أن يربّي أخوَيه بنفسه على إثر رحيل والديْه في حادث سيَّارة حطَّم عالمَهم. ورسمتْ تلك المأساةُ شخصيَّته، فجعلته يغالي في حماية أسرته والعناية بها، ويرتاب في الغرباء ولا يثق بهم. كان يدركُ أحيانًا أنَّ شيئًا ما في أعماقه قد انكسر، فتساوره رغبةٌ شديدةٌ في إصلاح ذلك الكسر . غير أنَّ هذه الأفكار لم تتَّجه به في أيِّ وجهة. فقد كان مولعًا بالمشروبات الكحوليَّة، وإن كان يهاب الدِّينَ بالدرجة نفسها. فما إنْ يحتسي كأسًا جديدةً من العَرَق حتّى يُطلِقَ الوعودَ الكبيرة لندمائه، ثمَّ يصحو بعد ذلك مثقَلًا بالإثم، فيُطلق وعودًا أكبر لله. ولئن صَعُب عليه لجمُ لسانه، فقد أثبت جسدُه أنَّه لا يزال يمثِّل تحدِّيًا أكبر له. فكلَّما حملتْ بينّاز منه، انتفخ كرشُه. وكان الجيران يضحكون من وراء ظهره ضحكًا خفيًّا، وإنْ لم ينتفخ كرشُه انتفاخَ بطن زوجته. وكانوا يردِّدون وهم يديرون أعينهم:

ـ هذا الرجل ينتظر مولودًا من جديد. ولكنَّ المشكلة أنَّه لا يستطيع الإنجابَ بنفسه!

كان هارون يريد ابنًا أكثر من أيّ أمرٍ آخر في هذا العالم. ولم يكن يرغب في ولدٍ واحدٍ، بل كان يُخبِر كلّ من كان يرغب في الإصغاء إليه أنَّه سوف يُرزق بأربعة صبيان، وأنَّه سوف يسمِّيهم:

تاركان وتولغا وتوفان وطارق(2). لكنْ لم تنجب له سوزان أيّ ذرِّيَّة، على الرَّغم من مرور سنواتٍ طويلة على زواجه بها. ثمّ عثر كبارُ رجال الأُسرَة على بينّاز . وكانت فتاةً لا تتجاوز السادسة عشرة. وبعد مرور أسابيع على المفاوضات بين الأُسرتَيْن، تزوَّج هارون وبينّاز زواجًا دينيًّا غير رسميّ، بحيث لا تعترف به المحاكمُ الدينيَّة في حال حصول أيّ مشكلة مستقبلًا. إلَّا أنَّ هذه التفاصيل لم يهتمّ أحد بذكرها. فجلس الاثنان على الأرض، أمام الشهود، قبالة الإمام الأحول الذي أصبح صوتُه أكثرَ رزانةً عندما انتقل بالكلام من التركيَّة إلى العربيَّة. أمَّا بينّاز فقد لبثتْ تتفرَّس في السجادة طوال ذلك الوقت، وإنْ لم تتمكَّن من تفادي النَّظر نظراتٍ خاطفةً إلى قدمَي الإمام. كانت جواربه ذاتَ لون بنِّيّ فاتح يشبه الطِّين المشويّ، عتيقةً ومهلهلةً. ومع كلِّ حركة من حركاته، كانت إحدى إبهامَيْ قدمَيْه الضَّخمتَيْن تُهدِّد بالاندفاع من خلال الصوف الرثّ بحثًا عن مهرَب .

حملتْ بينّاز بُعيْد الزفاف بفترةٍ وجيزة، إلَّا أنَّ حملها انتهى بإجهاضٍ كاد أن يُنهي حياتَها: رعبٌ في آخر اللَّيل، ووجعٌ حارّ، ويدٌ باردة تقبض على ما بين فخذَيْها، ورائحة الدم، وحاجتها إلى أن تتشبَّث بشيء ما وكأنَّها توشك على السقوط. وحدث الشيءُ

نفسُه، بل أسوأ، مع كلِّ حملٍ تالٍ. لم تستطع أن تخبر أحدًا، ولكنْ خُيِّلَ إليها أنَّ كلّ جنين فقدتْه قد أدّى إلى انقطاع جزءٍ جديدٍ من جسرِ الحبال الذي يربطها بالعالم عمومًا، ليسقط بعيدًا، إلى أن لم يَعُد باقيًا سوى خيطٍ واهٍ يربطها بهذا العالم، ويحافظ على سلامة عقلها.

بعد ثلاث سنوات من الانتظار، راح وُجهاءُ الأُسرة يضغطون من جديد على هارون، وذكَّروه بأنَّ القرآن يسمح للرجل بأن يتزوَّج أربعَ نساء شريطةَ أن يَعْدل بينهنّ. ولم يساورهم شكٌّ في أنَّ هارون سوف يعامل زوجاته على قدم المساواة. حثّوه على الزواج بامرأة ريفيَّة هذه المرَّة، بل بأرملةٍ سبق أن أنجبتْ على أن يكون هذا الزواجُ غيرَ رسميّ أيضًا، وإنْ كان ممكنًا إجراؤه من خلال مراسيم دينيَّة أخرى، ليكون سريعًا وهادئًا كالزواج السَّابق.
وبمقدوره أيضًا أن يُطلِّق هذه الزوجة الشابّة العديمة النفع، ثمَّ يتزوَّج من جديد. غير أنَّ هارون نبذ الفكرتَيْن، إذ صَعُب عليه كثيرًا إعالة زوجتَيْن، على حدِّ قوله، ورأى أنَّ زوجة ثالثة ستُدمِّره ماليًّا، فضلًا عن أنَّه لا يفكِّر في التَّخلِّي عن أيٍّ من سوزان أو بينّاز اللَّتَيْن بات مغرمًا بهما، وإنْ لأسبابٍ مختلفة.

بعد أن اعتدلتْ بينّاز، واستندتْ إلى الوسائد، حاولتْ أن تتخيَّل ما يفعله هارون! لا بدَّ أنَّه مُستلقٍ على أريكة في الحجرة المجاورة، واضعًا إحدى يدَيْه على جبينه والأخرى على بطنه، متوقِّعًا أن يخترق الأجواءَ بكاءُ طفل. ثمَّ تخيَّلتْ سوزانَ تتَّجه نحوه بخطواتٍ متّئدةٍ ومنضبطة. رأتهما معًا، يتهامسان، إيماءتُهما رقيقة، تنمّ عن خبرةٍ ومران، تصوغها سنواتٌ من المشاركة في منزلٍ واحد، وإنْ لم تكن في السَّرير نفسه. انتاب القلق بينّاز، وقالت محدِّثةً نفسَها أكثر ممَّا كانت تُحدِّث أيّ شخص آخر :

ـ إنَّ سوزان تبلِّغه الخبر.

قالت إحدى الجارَتَيْن تهدِّئها:

ـ لا بأس في ذلك.

انطوَى ذلك التعليقُ على مضامين عديدة، من قبيل: دعيها تبلغه بخبر ولادة الطفلة التي لم تستطع هي نفسُها أن تلدها. كانت الكلمات الصامتة تنتقل بين نسوة البلدة مثلَ حبالِ غسيلٍ معلَّقةٍ بين البيوت .

أومأتْ بينّاز برأسها وهي تشعر بشيءٍ يختمر في داخلها، بغضبٍ لم تسمح لنفسها بالتَّنفيس عنه. نظرتْ نظرةً خاطفةً إلى القابلة، وسألتها :

. لماذا لم تُصدِر الطفلةُ أيَّ صوت؟

غير أنَّ القابلة لم تُجِب، فانتابها قلقٌ عميق. ثمَّة شيء غريب يخصّ هذه الطفلة، ولم يكن صمتَها المثيرَ والمزعج. وحين مالت إلى الأمام، شمَّت رائحةَ الطفلة. ومثلما كانت تتوقّع بالضّبط. فقد كانت تنبعثُ منها رائحةُ مسكٍ خفيفةٌ لا تنتمي إلى هذا العالم.

وضعت المرأةُ المولودةَ الجديدةَ على ركبتَيْها، ثمَّ قلبتها على بطنها وصفعتْ مؤخّرتها، مرَّةً، ثمّ ثانيةً. بان على وجه الطفلة الصَّغيرةِ الألمُ، وأطبقتْ أصابعَ يدَيْها بإحكام، وعضّت فمَها، لكّنها لم تُصدرْ أيّ صوت .

. ما الخطب؟

تنهَّدت القابلة، وردّت:

. لا شيء. إنَّه... أعتقد أنَّها لا تزال معهم؟

فسألتها بينّاز من غير أن ترغب في سماع إجابة :

ـ مَن هم؟

ثمَّ أضافت:

ـ إذًا، افعلي شيئًا ما !

فكَّرت المرأة العجوز، إذ من الأفضل أن تترك الطفلةَ حتّى تجد طريقةً بنفسها، وعلى مهلها. فإذا كان معظمُ المواليد الجدد يتكيَّفون مع محيطهم الجديد، فإنَّ بعضَهم يفضِّلون التريُّث، وكأنَّهم يتردَّدون: هل ينضمُّون إلى بقيَّة البشر أمْ لا؟ ثمَّ مَنْ ذا الذي يستطيع لومَهم؟ كانت القابلة طوال سنين عملها قد شاهدتْ عددًا كبيرًا من الأطفال الذين كانوا، قبل ولادتهم بلحظات أو بعد ولادتهم مباشرة، يهابون سطوةَ الحياة التي تضغط عليهم من كلِّ الجهات، فتَخُور عزيمتُهم ويَفْتر حماسُهم، ثمَّ يرحلون بهدوء من هذا العالم. كان الناس يُطلِقون على ذلك «القَدَر»، ولا يسترسلون في الحديث عنه، لأنَّهم اعتادوا إطلاقَ أسماء بسيطة على أشياءَ معقَّدةٍ تثير هلَعَهم. إلَّا أنَّ القابلة كانت تعتقد أنَّ بعض الأطفال لا يمنحون الحياةَ فرصةَ المحاولة، وكأنَّهم يعلمون مشاقَّ الحياة التي

تنتظرهم، ومن ثم يَرْغبون في تجنُّبها. فهل كانوا جبناء أمْ حُكماء مثل سليمان العظيم نفسه؟ مَن يدري؟

قالت القابلة مخاطبةً الجارتَيْن:

ـ أحضِرا مِلحًا.

كان في ميسورها أن تستعمل الثلجَ أيضًا ـ وكان يتوافر منه قدر كافٍ في أكوام خارج الحجرة. في الماضي، كانت تُغطِّس المولودَ في كومةٍ من الثلج النقيّ، ثمّ تسحبه خارجًا في اللَّحظة المناسبة. وكان من شأن صدمة البرودة أن تفتح الرِّئةَ، وتجعل الدمَ يدور في الجسد، وتعزِّز من المناعة. وقد نشأ مثل هؤلاء الأطفال، من غير استثناء، أقوياء.

بعد مدَّة قصيرة، عادت الجارتان تحملان وعاءً كبيرًا وكيسًا من ملح الصخور. وضعت القابلةُ الطفلةَ في وسط الوعاء بكلّ حنان، وبدأتْ تفرك جسمَها بمسحوق الملح حتَّى تزول رائحتُها الشبيهة برائحة الملائكة فيُطلقوا سراحها. أمَّا في الخارج، وعلى غصون شجرة حور عالية، فقد غرَّد أبو زريق، ونعق غرابٌ كان يُحلّق باتِّجاه الشمس. كلّ شيء يتكلَّم لغةً خاصَّةً به ـ الرِّيح والعشب.. كلُّ شيء باستثناء هذه الطفلة.

تساءلتْ بينّاز:

. لعلَّها خرساء.

فردَّت القابلةُ رافعةً حاجبيْها متشكِّكة:

. اصبري !

بدأت الطفلةُ تسعل، وكأنَّ دورَها حان الآن. وكان سُعالها أجشّ. الواضح أنَّها ابتلعتْ مقدارًا ضئيلًا من الملح، فمذاقُه لاذع وغير مُتوقَّع. اكتسى وجهُها بلون قرمزيّ، ثمَّ رفعته، إلَّا أنَّها كانت لا تزال ترفض البكاء. يا لها من طفلة عنيدة، ويا لها من روح متمرِّدة تمرُّدًا خطيرًا! اتَّخذت القابلةُ قرارًا: الفرك بالملح لا يكفي. وتعيَّن أن تلجأ إلى وسيلة مختلفة.

. أحضِرن المزيدَ من الملح.

تحتَّم عليها استعمالُ ملح الطعام من على الطاولة، بعد أن نفد الملحُ الصخريّ من البيت. فلجأتْ إلى عمل ثقب في كومة الملح، ووضعت الطفلةَ فوقه، وغطَّتها بالحُبيْبات البِيض البلُّوريَّة . جسمها أوَّلًا، وبعد ذلك رأسها.

سألتْ بينّاز:

ـ وإذا اختنقتْ؟

ـ لا تفزعي، فالأطفال يمكنهم حبسُ أنفاسهم أطولَ ممَّا نستطيع نحن.

ـ لكنْ، كيف تعرفين متى تتخلَّصين من الملح؟

قالت المرأة واضعةً أحد أصابعها على شفتَيْها المشقَّقتَيْن:

ـ صه، اصغي !

فتحت الطفلةُ عينَيْها من تحت آثار الملح، وحدَّقتْ في الفراغ الحليبيّ. بدا المكان موحِشًا، لكنّها كانت قد اعتادت الوحدة. تكوَّرتْ في مكانها كسابق عهدها على مدى أشهر، وقالت أحشاؤها :

ـ آه، هذا المكان يعجبني؛ لن أعود إلى هناك مجدَّدًا.

لكنّ قلبها احتجّ بالقول:

ـ لا تكوني بلهاء. لماذا تمكثين في مكانٍ لا يحدث فيه أيّ شيء؟ إنَّه مكان يبعث على الملل.

فردَّت أحشاؤها:

ـ لماذا أترك مكانًا لا يحدث فيه أيّ شيء؟ المكان آمن.

انتظرت الطفلة بعد أن استبدَّ بها الذهولُ من جرَّاء الخصام. ومرَّت دقيقةٌ أخرى. وشملها الخواءُ، ولفَّ أصابعَ قدمَيْها وأناملها.

إلَّا أنَّ قلبها قال:

ـ إنَّ اعتقادك أنَّ هذا المكان آمن لا يعني بالضرورة أنَّه مناسب لكِ. في بعض الأحيان، يكون المكان الذي تشعرين أنَّه الأكثر أمانًا هو أقلّ الأمكنة التي تنتمين إليها.

أخيرًا، توصَّلت الطفلة إلى نتيجةٍ مفادُها أنَّها ستصغي إلى فؤادها ـ الفؤاد الذي سيُثبت أنَّه مُثيرٌ حقيقيٌّ للمتاعب. وقد استبدَّت بهذا الفؤاد الرَّغبةُ في الخروج لاكتشاف العالم، على الرَّغم من مخاطر ذلك ومشاقِّه، ففتحتْ فمَها وهي جاهزةٌ لإطلاق صوتٍ ما. لكنّ الملح، في تلك اللَّحظة تقريبًا، استقرَّ في بلعومها وسدَّ منخريها.

هنا دفعت القابلةُ يدَيْها بحركة سريعة ورشيقة داخل الوعاء، وأخرجت الطفلة. وسرعان ما عمَّ أرجاءَ الحجرة عويلٌ حادٌّ ومروِّع، فابتسمت النِّساءُ الأربع ابتسامةً تنمّ عن الارتياح والاطمئنان.

قالت القابلة:

ـ يا لكِ من طفلة طيّبة. ما الذي أخَّركِ كلّ هذا الوقت؟ ابكي، يا حبيبتي، ولا تخجلي من دموعك أبدًا. ابكي، وسيعرف الجميع أنَّك على قيد الحياة.

لفَّت المرأةُ المسنَّةُ الطفلةَ بوشاح، وراحت تشمُّها من جديد. تبخَّر ذلك العطرُ المُغْوي القادمُ من العالم الآخر، ولم يخلِّفْ سوى أقلِّ الأثر، الذي سيزولُ بدورِه أيضًا بمرور الوقت. وإنْ كانت تعرفُ حفنةً من الأشخاص الذين لا يزالون، حتَّى في شيخوختهم، يحملون عطرَ الجنَّة. لكنّها شعرَتْ أنْ لا داعيَ لإفشاء هذه المعلومة. ثمّ وقفتْ على عقبيْ قدمَيْها، ووضعت الطفلةَ فوق السَّرير بجانب أمّها.

افترَّ ثغرُ بينّاز عن ابتسامة، وخفق فؤادُها، ولمستْ أصابعَ قدمَي ابنتها من خلال القماش الحريريّ. الجميل والمثاليّ والرَّقيق إلى أبعد الحدود. ثمَّ أمسكتْ خصلات شعر الطفلة برقَّة بين يدَيْها، وكأنَّها تحمل ماءً مقدَّسًا. مرَّت بها لحظةٌ من الزمان شعرتْ خلالها بالسَّعادة والكمال. وقالت ضاحكةً في أعماقها:

ـ ما من غمّازات.

سألتها إحدى الجارتيْن:

. هل نستدعي زوجك؟

كانت هذه العبارة محمَّلةً بكلمات غير منطوقة، إذ لا بدَّ من أن تكون سوزان قد أخبرتْ هارون بأنَّ الطفلة قد وُلِدت، فلماذا لم يهرع إليها؟ من الواضح أنَّه تلكَّأ كي يُحدِّث زوجتَه الأولى، ويُهدِّئ من مخاوفها. تلك هي أولويَّته. اكتسى وجهُ بينّاز بكآبةٍ، وهي تقول:

. نعم، استدعيه.

لم تكن ثمَّة ضرورة لذلك، إذ دخل هارون بعد ثوانٍ قليلة، متهدِّلَ الكتفَيْن، وانتقل من الظلّ إلى نور الشمس. كانت لديه كتلةٌ من الشعر الأشيب تُضفي عليه ملامحَ مفكِّرٍ مشتّت الذهن، وأنفٌ متغطرس، ومنخاران ضيِّقان، ووجهٌ عريض حليق اللِّحية، وعينان بنِّيَّتان غامقتان خفيفتان تتألَّقان بالكبرياء. تقدَّم من السَّرير مبتسمًا، ونظر إلى الطفلة وإلى زوجته الثانية، وإلى القابلة، وإلى الزوجة الأولى، قبل أن يرفع رأسه أخيرًا في اتِّجاه السَّماء، ويقول:

. شكرًا لك، يا اللَّـه! يا ربِّي! لقد تقبَّلتَ دعائي!

قالت بينّاز برقَّةٍ خشيةَ أن يكون غير مُدرك:

ـ إنَّها طفلة.

ـ أعرفُ هذا. وفي المرَّة القادمة، سنُرزق بولد، وسنسمِّيه تاركان.

ثمَّ مرَّر سبّابتَه على جبين الطفلة الناعمِ والدَّافئ، كأنَّه تميمةٌ أثيرةٌ فُرِكتْ مرَّاتٍ ومرَّات.

ـ إنَّها في صحَّة وعافية، وهذا هو المهمّ. كنتُ أدعو طوال هذا الوقت، وأخاطب القديرَ بقولي: إنْ تركتَ هذه الطفلةَ على قيد الحياة، فإنَّني لن أعود إلى الشرب أبدًا. لن أحتسي قطرةً واحدة! وقد سمع اللّـهُ دُعائي، وهو الرَّحيم. إنَّ هذه الطفلة ليست طفلتي، وليست طفلتك كذلك.

حدَّقتْ بينّاز إلى وجهه، وبان قدرٌ من التَّشوُّش في عينَيْها. وعلى حين غرَّة، استبدَّ بها شعورٌ منذِرٌ بالشرّ، شأنها في ذلك شأن حيوان متوحِّشُ يحسّ ـ وإنْ متأخِّرًا ـ أنَّه يوشك أن يسقط في فخّ. ثمّ رنت إلى سوزان الواقفة عند مدخل الحُجرة، مطبقةً شفتَيْها بإحكام، فتحوَّلتا إلى شفتَيْن بيضاوَيْن تقريبًا. كانت صامتة، لا تنمّ

عنها أيُّ حركة، باستثناء نَقْرٍ يدلّ على نفادِ صبر. كان مظهرُها يوحي بأنَّها منفعلة، بل مبتهجةً الابتهاجَ كلّه أيضًا.

قال هارون:

. هذه الطفلة مِلْكٌ للَّـه.

فتمتمت القابلة:

. كلُّ الأطفال مُلكُه.

أمسك هارون يدَ زوجته الصُّغرى من غير وعي، وسدَّد نظراته إلى عينَيْها مباشرةً، وقال:

. سَنَهبُ سوزان هذه الطفلةَ.

شهقتْ بينّاز، وقالت بصوتٍ مُتخشِّب وبعيد، وكأنّه صوت شخص غريب:

. ما هذا الكلام؟

. لندعْ سوزان تربِّيها، وسوف تؤدِّي بذلك عملًا رائعًا. أمَّا أنا وأنت، فسننجبُ أطفالًا آخرين.

ـ لا!

ـ ألا ترغبين في أن يكون لكِ أولادٌ آخرون؟

ـ لن أدع تلك المرأةَ تأخذ طفلتي.

تنفَّس هارون نفسًا عميقًا، ثمَّ تنهَّد ببطء قائلًا:

ـ لا تكوني أنانيَّة، فاللَّـه لن يقبل ذلك. أليسَ اللَّـه مَنْ وهبكِ طفلةً؟ كوني ممتنّة. حين جئتِ إلى هنا، كنتِ تكادين لا تسدّين رمقك.

هزّت بينّاز رأسَها، وظلّت تفعل ذلك. كان صعبًا أن يعرف أحد إنْ كان ذلك بسبب عجزها عن التوقُّف، أو لأنَّ ذلك هو الشيءُ الوحيدُ الصَّغير الذي تَقْدر على التَّحكُّم فيه. انحنى هارون فوقها، وأمسك بها من كتفَيْها وجذبها ناحيته. وعندئذٍ فقط، سكنتْ حركتُها، وغاب الألقُ من عينيْها .

ـ فكّري بعقلانيّة. جميعُنا نعيش في بيت واحد، وسترين ابنتَكِ كلّ يوم. لن تذهب إلى مكان آخر، بحقّ اللَّـه.

إن أراد التَّخفيفَ عنها وطمأنتها، فقد أخطأ في ذلك. فقد ارتعشتْ، وحاولتْ أن توقف الألم الذي راح يسري في صدرها، وغطَّت وجهَها براحتيْ كفَّيْها المنبسطتيْن، وأردفتْ:

ـ ومَن هي التي ستخاطبها ابنتي بكلمة «أمّاه»؟

ـ ما الفرق؟ يمكن أن تكون سوزان هي الأمّ، وأن تكوني أنتِ العمَّة. وسنُخبرها الحقيقةَ حين تكبر، فلا ضرورة لتشويش أفكارها منذ الآن. وعندما نرزق بأطفالٍ آخرين، سيكونون كلّهم إخوةً وأخواتٍ على أيِّ حال. وسترين كيف يهتاجون في هذا البيت. ولن تقدري على معرفة انتماء كلّ واحد منهم. سنكون كلُّنا أسرةً واحدةً كبيرة.

تساءلت القابلة:

ـ مَن التي ستُرضع الطفلةَ؟ الأمّ أم العمَّة؟

رشق هارون المرأةَ بنظرة خاطفة، وتشنَّجتْ كلُّ عضلة من عضلات جسمه، وتراقص التَّقديرُ والاشمئزازُ في عينَيْه رقصةً وحشيَّة. ثمَّ دفع يده في جيبه، وأخرج مجموعةً من الأشياء: علبة سكائر منبعجة وبداخلها قدَّاحة، وأوراقًا

نقديَّة مجعَّدة، وقطعةَ طبشور كان يستخدمها في تأشير التَّعديلات على الثياب، وحبَّةَ دواءٍ يستعملها لعلاج معدته المضطربة. ناول القابلةَ النقودَ قائلًا:

. هذه النقود لكِ، تعبيرًا عن امتناننا وتقديرنا.

تقبَّلت العجوزُ النقودَ مطبقةً الشفتَيْن.

كانت تدركُ من خلال تجربتها المديدة أنّ خوض الحياة من دون التعرُّض إلى أيّ أذًى إنّما يعتمد على عنصرَيْن جوهريَّيْن إلى حدٍّ بعيد: معرفة الوقت المناسب للوصول، ومعرفة الوقت الملائم للمغادرة .

وفي حين راحت الجارتان تلملمان حاجيّاتهما، وترفعان الشراشفَ والمناشفَ المبلَّلةَ بالدِّماء، ران على الحُجرة صمتٌ مُطبِق، كأنَّه ماء يتسلَّل إلى كلّ ركنٍ من أركانها.

***

قالت القابلة بصوت هادئ ينطوي على عزم وتصميم:

. سنذهب الآن .

وقفت الجارتان وقفةً رزينةً على جانبَي القابلة التي أردفتْ قائلةً:

. سوف ندفن المشيمةَ تحت شجرة ورد. أمَّا هذا . وأشارت بإصبعها النَّحيل إلى الحبل السرِّيّ الذي كان مقذوفًا فوق أحد الكراسي . فإنَّ في وسعنا أن نرميه على سطح المدرسة إنْ شئتِ. وعندئذٍ، ستصبح ابنتُكِ معلِّمةً. أو في وسعنا أخذُه إلى المستشفى، وعندها ستصبح ابنتُكِ ممرِّضةً، وربَّما طبيبةً، من يدري؟

فكَّر هارون في الخيارَيْن، وقال:

. لنجرِّب المَدْرسة .

بعد رحيل النِّساء، أشاحت بينّاز بوجهها بعيدًا عن زوجها، وراحت ترنو إلى التفَّاحة فوق الطاولة بجانب سريرها. كانت قد بدأتْ بالتَّعفُّن. وكان العفن ناعمًا وهادئًا وبطيئًا على نحو موجع. وذكّرها لونُها البنّيُّ بجوارب الإمام الذي زوَّجهما، وكيف أنَّها جلستْ بعد المراسم وحيدةً على هذا السَّرير نفسه، يُغطِّي وجهَها خمارٌ يلمع لمعانًا خفيفًا، في حين راح زوجُها والضيوفُ يأكلون ويشربون بنهمٍ في الحُجرة المجاورة. ولم تخبرها أمُّها بما ينتظرها

في ليلة الزفاف، إلَّا أنَّ إحدى عمَّاتها المسنَّات كانت تنظر بعين العطف إلى مخاوفها، فأعطتها حبَّةً كي تضعها تحت لسانها، وهي تخاطبها قائلةً:

ـ تناولي هذه الحبَّة ولن تشعري بأيّ شيء. وسوف ينتهي كلّ شيء قبل أن تعرفي ذلك.

وفي غمرة الهرج والمرج في ذلك النهار، ضاعت الحبَّةُ من بينّاز التي كانت تظنّ أنّها محضُ قرص طبّيّ مُحلًّى. فهي لم يسبق أن رأت رجلًا عاريًا، ولا في الصُّوَر نفسها. وعلى الرَّغم من أنّها كانت تحمِّم إخوتها الأصغر سنًّا، فإنَّ الشكوك ساورتها في أنَّ الجسد من نوعٍ مختلف، جسد رجل بالغ. وكلَّما طال انتظارُها دخولَ زوجها الحُجرةَ، ازداد قلقُها. وما إنْ تناهى إلى سمعها وقعُ خطواته حتّى فقدتْ وعيَها، وانهارت على الأرض. ولمَّا فتحتْ عينَيْها، رأت نساءَ الحيّ وهنَّ يفركن رسغَيْها فركًا شديدًا، ويبلِّلن جبينَها، ويدلِّكن قدميْها. ثمَّة رائحة نفَّاذة في الهواء ـ رائحةُ ماء الكولونيا والخلّ ـ وأصواتٌ خفيفةٌ منبعثة من شيءٍ آخر، من شيءٍ غريبٍ وغير متوقَّع. وستعرف بعد زمن أنَّه كان صوتًا صادرًا من أنبوبة زيتٍ مخفِّفٍ للاحتكاك.

حين بات الاثنان وحدهما، أعطاها هارون قلادةً مصنوعةً من شريط أحمر، وثلاثَ قطعٍ ذهبيَّة . كلّ قطعة لقاء الفضائل الثلاث التي ستأتي بها إلى هذا البيت: الشباب، والطاعة، والخصوبة. ولمَّا رأى هارون مدى توتُّرها، راح يكلِّمها كلامًا ناعمًا، بصوتٍ يتلاشى في ظلمة الغرفة. كان رقيقًا ورؤومًا، إلَّا أنَّه كان أيضًا مُدركًا إدراكًا حادًّا أنَّ الناس ينتظرون خارج باب الحُجرة. وسرعان ما خلع عنها ثيابها إذ خَشِيَ أن تغيب عن وعيها من جديد. لبثتْ بينّاز مغمضةَ العينَيْن طوال الوقت، والعرقُ يتفصَّد من جبينها. وراحت تَعُدّ: واحد، اثنان، ثلاثة... خمسة عشر، ستة عشر، سبعة عشر... وظلَّت على هذه الحال حتَّى بعد أن طلب منها التوقُّفَ عن هذا الهراء!

كانت بينّاز لا تعرف القراءةَ ولا الكتابة، ولا تستطيع أن تَعُدّ أكثر من تسعة عشر. وكلَّما وصلتْ إلى الرَّقم الذي يتعذَّر عليها تجاوزه، كانت تتنفَّس تنفُّسًا عميقًا، ثمّ تبدأ العدّ من جديد. وبعد مرّات لا تُحصى من تكرار الرَّقم تسعة عشر، أو هكذا شعرَتْ، غادر هارون السَّريرَ، وخرج من الحُجرةِ تاركًا البابَ مفتوحًا. عندئذٍ، اندفعتْ سوزان، وأشعلت الأضواءَ من غير أن تلقي بالًا إلى عري بينّاز أو إلى رائحة العرق والجنس التي تَشَبّع بها جوُّ الحُجرة. رفعت

الزوجةُ الأولى ملاءةَ السَّرير وتفحّصتها، فلاح عليها الارتياحُ، ثمّ توارت عن الأنظار من دون أن تنبس بكلمة .

قضت بينّاز بقيَّةَ المساء وحيدةً، وقد استقرَّ شبحٌ رقيقٌ من الاكتئاب على كتفَيْها، وكأنَّهُ ندفاتُ ثلج. وإذ راحت تتذكَّر كلّ ذلك في هذه اللَّحظة، خرج صوت غريب من بين شفتَيْها، ربَّما كان ضحكة، لولا أنَّه كان ينطوي على قدر كبير من الألم.

قال هارون:

ـ هيَّا، إنَّها ليست...

فقاطعته بينّاز، وهو أمر لم يسبق أن فعلته:

ـ تلك فكرتُها، أليس كذلك؟ هل ابتكرَتْ هذه الخطَّة، أم أنَّكما خطَّطتما لذلك معًا منذ شهور، من وراء ظهري؟

بدا هارون وجِلًا بنبرتها أكثر من كلماتها، وقال:

ـ أنتِ لا تعنين ذلك.

ثمَّ مسَّد بظاهر يده الشماليَّة شعرَ يده اليمنى، شاخصَ العينَيْن، مشتَّتَ الفكر. واسترسل قائلا:

ـ أنتِ شابَّة، وسوزان بدأتْ تتقدَّم في السنّ، ولن تنجب طفلًا لها أبدًا. أعطِها هديّة.

ـ وماذا عنّي؟ مَن ذا الذي سيعطيني هديّة؟

ـ اللّـه، بالطبع. ألا ترين أنّه قد منحك إيَّاها بالفعل؟ لا تكوني ناكرة الجميل .

ـ وهل ينبغي أن أكون ممتنّةً مقابلَ هذا؟

ثمَّ سرَت رعشةٌ طفيفةٌ في جسدها، علامةً غيرَ واضحة قد تعني أيّ شيء ـ وربَّما سببُها هذه البلدة التي تُشْعرها أنَّها أشبه ما تكون بموضعٍ منعزلٍ أو متخلِّفٍ في خارطةٍ قديمة.

قال:

ـ أنتِ مُتعَبة.

أجهشتْ بينّاز بالبكاء، غير أنَّ دموعها لم تكن دموعَ غضب أو نفور، بل دموعُ استسلام؛ نوعٌ من الهزيمة التي ترقى إلى مستوى ضياع إيمانٍ أكبر. شعرتْ بالهواء ثقيلًا في رئتَيْها، كأنَّه كتلة من الرصاص. كانت طفلةً حين جاءت إلى هذا البيت. والآن، بعد أن

أصبحتْ لديها طفلةٌ خاصَّةٌ بها، إذا بها تجد نفسَها ممنوعةً من تربيتها والنشأةِ في كنفها. طوَّقتْ ركبتَيْها بذراعَيْها، ولم تتكلَّم مجدَّدًا مدَّةً طويلة. وهكذا أُغلق الموضوع، في ذلك الزمان والمكان . لكنّه سيبقى في الواقع مفتوحًا إلى الأبد؛ جرحًا لن يندمل طوال حياتهما.

خارج النافذة، ثمَّة بائعٌ جوَّالٌ يدفع عربتَه في الشارع، ويتنحنح ويغنِّي كلماتٍ يَمْدح بها ما لديه من مشمشٍ طازجٍ ولذيذ. أمَّا داخل البيت، ففكَّرتْ بينّاز في نفسها: يا له من أمر غريب! فالفصل ليس فصلَ المشمش اللَّذيذ والحلو، بل فصلُ الرِّياح الثلجيَّة. وارتجفتْ بعد أن اخترق البَردُ . الذي بدا أنّ البائع الجوَّال لم يتنبّه إليه . الجدرانَ، وعثر عليها بدلًا من البائع. اغمضتْ عينَيْها، لكنّ الظلمة لم تنفعها، إذ شاهدتْ كراتِ الثلج متراكمةً وكأنَّها أهرامٌ تُنذر بالخطر، وها هي الآن تُمطر عليها، رطبةً وصلبةً وفي داخلها حصى. أصابتها إحدى الكرات في أنفها، ولحق بها المزيدُ من الكرات التي كانت تتطاير سريعةً وسميكة. ثمَّ سقطتْ كرةٌ أخرى على شفَتها السفلى، فشقّتها. فتحت عينَيْها وهي تشهق. أكان ذلك أمرًا حقيقيًّا أمْ مجرّدَ حلم، يا تُرى؟ وراحت تلقائيًّا تلمس أنفَها، فوجدته ينزف دمًا. كما كان هناك خيط من الدم على ذقنها، ففكَّرتْ

مرَّة أخرى: يا له من أمر غريب! ألا يُمْكن أحدًا أن يلاحظ أنَّها تعاني ألمًا فظيعًا؟ وإذا لم يكن في وسع أحد أن يلاحظ ذلك، فهل يعني أنَّ كلّ ذلك يجري في رأسها، أو أنَّها تتظاهر به؟

لم تكن تلك أوَّلَ مواجهةٍ لها مع المرض العقليّ، لكنّها ستظلُّ الأكثرَ واقعيّةً. وحتَّى بعد مرور سنوات، لبثتْ بينّاز تفكِّر: متى وكيف راحت سلامةُ عقلها تهرب منها، مثلها في ذلك مثل لصٍّ يتسلَّق خارج نافذة في وسط الظلام؟ هذه هي اللَّحظة التي سوف تظلّ ترجع إليها، اللَّحظة التي اعتقدت أنَّها أضعفتها وأنهكت قواها.

***

بعد ظهر ذلك اليوم، رفع هارون الطفلةَ عاليًا في الهواء، واتَّجه نحو القِبْلة في مكَّة، وراح يؤذِّن في أذنها اليمنى. ثمَّ قال مسترسلًا:

ـ بمشيئة اللّـه، ستكونين، يا ابنتي، أوّلَ طفلةٍ من بين عديد الأطفال تحت هذا السقف. سأسمّيكِ، يا صاحبة العينَيْن السَّوداوَيْن، سوادَ اللَّيل، ليلى. ولكنَّكِ لن تكوني أيَّ ليلى. سأطلقُ عليك أسماءَ والدتي أيضًا. لقد كانت جدَّتك امرأةً شريفةً، تقيَّةً جدًّا، وأنا متأكِّد من أنَّك ستكونين تقيَّةً وشريفةً أيضًا في يومٍ ما. سأسمِّيكِ عَفيفة ـ طاهرة غير ملوَّثة. وسأسمِّيكِ كامِلة، وستكونين متواضعةً ومحترمة، ونقيَّةً كالماء...

توقَّف هارون هنيهةً، إذ أزعجه أنَّ الماءَ ليس كلُّه نقيًّا. فأضاف بصوتٍ أعلى ممَّا كان يريد، ليتأكَّد من عدم وجود خلطٍ سماويّ أو سوءِ فهمٍ من جانب الربّ:

ـ ماء ينبوع ـ صافٍ وغير مُلوَّث. كلُّ الأمَّهات في بلدة ڤان سوف يؤنِّبن بناتهنَّ قائلات: «لماذا لا يمكنكنّ أن تصبحن مثلَ ليلى؟» وسيقول الأزواجُ لزوجاتهم: «لماذا لم تستطعن إنجابَ طفلةٍ مثل ليلى؟«

في هذه الأثناء، راحت الطفلةُ تحاول حشرَ قبضة يدها في فمها، وكان العبوسُ يرتسم على وجهها كلَّما أخفقتْ في محاولاتها.

ومضى هارون يقول:

ـ سوف تجعلينني فخورًا. لا تخوني دينَكِ، ولا تخوني أمَّتَكِ، ولا تخوني والدَكِ.

ثُبِّطتْ همَّةُ الطفلة حين أدركتْ أنَّ قبضةَ يدها كانت أكبرَ ممَّا ينبغي، فانفجرتْ باكيةً كأنَّها تريد التَّعويض من الصمت الذي التزمته. وسرعان ما سلّمها هارون إلى بينّاز التي راحت تُرضعُها من دون أيّ تردُّد، وتألَّمتْ حين بدأتْ حلقاتٌ ترتسم من حول حلمتَيْها، مثل طائر صغير يدور في السماء.

هجعت الطفلة، فاقتربتْ سوزان من السَّرير بعد أن كانت واقفةً تنتظر على الجانب، محاذرةً أن يَصْدر عنها أيُّ صوت، وأخذت الطفلةَ من أمِّها مُتحاشيةً النَّظرَ إليها مباشرةً.

قالت سوزان وهي تزدرد ريقَها :

ـ سأعود بها إليكِ حين تبكي. لا تقلقي، سوف أهتمُّ بها الاهتمامَ كلَّه.

لم تقل بينّاز شيئًا، بل امتقع وجهُها، وبات أشبهَ بصحنٍ خزفيّ قديم. لم يصدرْ عنها أيُّ كلام، باستثناء صوت أنفاسها الواهنة والواضحة. لاح عقلُها ورحمُها وهذا البيت... بل البحيرةُ الموغلةُ

في القِدم أيضًا ـ إذ شاع أنَّ أعدادًا كبيرةً من العشَّاق المفجوعين بعشقهم غرقوا فيها ـ كلّ شيء لاح جافًّا أجوف. كلّ شيء، باستثناء ثديَيْها المنتفخيْن اللذيْن يسيح منهما الحليبُ.

بعد أن أضحت بينّاز برفقة زوجها وحدهما في الحجرة، انتظرت أن يَشْرع في الكلام. لم تكن تريد أن تسمع منه كلمةَ اعتذار، بقدر ما كانت تريد منه اعترافًا بالظلم الذي واجهتْه، والضررِ الكبيرِ الذي سيتسبَّب فيه. إلَّا أنَّه لم يقل شيئًا بدوره. وهكذا سُمِّيت الطفلة ـ المولودةُ في أسرةٍ من زوج وزوجتَيْن في 5 كانون الثاني 1947، في بلدة ڤان، «لؤلؤة الشرق» ـ باسم: ليلى عفيفة كاملة.

إنَّ مثلَ هذه الأسماء، التي تنمّ عن ثقة بالغة بالنَّفس، كانت متكلِّفة العظمة، ودقيقةً، ولا غموضَ فيها. وسوف يتبيَّن في وقتٍ لاحقٍ أنَّها كانت تنطوي على أخطاء جسيمة. صحيح أنَّها ظلّت لبعض الوقت تحملُ الليلَ في عينيْها، بِما يُناسب اسمَها الأوّل، لكنْ سرعان ما سيتَّضح أنَّ الاسمَيْن الآخريْن بعيدان البعدَ كلّه عن الحقيقة.

بدايةً، لم تكن الطفلة كاملة خاليةً من الشوائب، إذ إنَّ عيوبها الكثيرة كانت تتوغَّل في حياتها توغُّلَ جداول الماء المنسابة تحت

الأرض. والحقّ أنّها كانت تُجسّد العيوبَ تجسيدًا حيًّا . منذ أن فكَّرتْ في كيفيَّة المشي. أمَّا بخصوص العفَّة والطهارة، فإنَّ الزمن سيكون كفيلًا بتبيان العكس أيضًا، ولأسبابٍ لا تتعلّق بها.

كان من المفترض أن تكون ليلى عفيفة كاملة مفعمةً بالفضيلة والمزايا الرَّفيعة. لكنْ، بعد مرور سنوات، وبعد أن حلَّت في مدينة إسطنبول وحيدةً ومفلسةً، ورأت البحرَ أوَّلَ مرَّةٍ في حياتها، وأدهشتها ضخامةُ ذلك اللَّون الأزرق الممتدّ في الأفق؛ وبعد أن لاحظتْ أنَّ لفائفَ شعرها بدأتْ تتجعَّد في ذلك الجوّ الرَّطب؛ وبعد أن استيقظتْ ذاتَ صباح في سريرٍ غريب بجانب رجلٍ لم يسبق أن رأته من قبل، وشعرتْ بصدرها ثقيلًا منقبضًا حتَّى ظنَّت أنَّها لن تقدر على التَّنفُّس مجدَّدًا؛ وبعد أن باعوها إلى ماخورٍ أُجبرَتْ فيه على ممارسة الجنس مع 10 رجال . 15 رجلًا كلَّ يوم في حجرةٍ تحتوي على دلو من البلاستيك الأخضر على الأرض، تتجمَّع فيه المياهُ المتسرِّبة من السقف كلَّما انهمر المطر... وبعد مرور وقت طويل على كلِّ هذا، ستكون معروفةً أمام أصدقائها الخمسة المقرَّبين، وأمام حبِّها الأزليّ الوحيد، وأمام العديدِ من الزبائن، باسم «ليلى التكيلا.«

حين يسألها الرجالُ . وغالبًا ما كانوا يسألونها . عن سبب إصرارها على تهجئة اسمها Leyla كأنَّهLeila ، وما إذا كانت بذلك تحاول أن تُظهِر نفسَها غريبةً أو أجنبيَّةً، كانت تردّ ضاحكةً بأنَّها ذهبتْ ذات يوم إلى البازار، وهُناك قايضَتْ حرفَ Y من كلمة Yesterdayبحرف I من كلمةInfinity ؛ وتلك هي الحكايةُ كلّها.

في النهاية، لم تحظَ هذه الأمور بأهمِّيَّةٍ في الصحف التي تناولتْ خبرَ مقتلها. فأغلبُ تلك الصُّحف لم تهتمّ باسمها، بل وجدتْ أنَّ حروفه الأوَّليَّة كافية. كما أنَّ الصورة نفسَها نُشِرتْ في كلِّ المقالات تقريبًا . وهي صورة تُمثِّل لقطةً لها غيرَ واضحةِ المعالم، تعود إلى سنوات دراستها في المدرسة الثانويَّة. كان في ميسور المحرِّرين اختيارُ صورةٍ أحدث، أو صورةٍ من أرشيف الشرطة، لو لم يخشوْا أن يشكِّل عرضُ صورتها مُثقلةً بمساحيق التَّجميل وإصابتها الواضحة إهانةً لحساسيَّات البلد.

عرضَتْ شاشةُ التلفاز الوطنيّة تغطيةً لخبر موتها مساءَ يوم 29 تشرين الثاني من العام 1990. وجاء الخبر بعد

تقرير مطوَّل عن قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتَّحدة، الذي فُوِّض بالتَّدخل العسكريّ في العراق، والآثار التي خلّفتها استقالةُ السيِّدة الحديديَّة في بريطانيا، واستمرار التوتُّر بين اليونان وتركيا عقب أحداث العنف في ثريس الغربيَّة، وعمليَّات السَّلب والنهب التي طالت المتاجرَ التي يملكها الأتراك، والطرد المتبادل للقنصل التركيّ من كوموتيني ونظيره اليونانيّ في إسطنبول، وإعادة توحيد فريقيْ كرة القدم في الألمانيّتيْن الغربيَّة والشرقيَّة على إثر توحيد البلدَيْن، وإلغاء الشرط الدستوريّ الذي يفرضُ على المرأة المتزوِّجة استحصالَ موافقة الزوج إنْ أرادت أن تعمل خارج المنزل، وحظر التَّدخين على رحلات الخطوط الجوِّيَّة التركيَّة على الرَّغم من الاحتجاجات العارمة التي أطلقها المدخِّنون على امتداد البلد.

وعند نهاية البرنامج، ظهر شريطٌ أصغرُ لمَّاعٌ في أسفل الشاشة:

» عُثِر على جثّة عاهرة مذبوحة في حاوية نفايات المدينة، وهي الجثَّة الرَّابعة خلال شهر. الرُّعب والهلع ينتشران بين المشتغلات بالجنس في إسطنبول.«

- 2 -

دقيقتان

بعد توقُّفِ قلب ليلى عن الخفقان بدقيقتَيْن، تَذكَّر عقلُها مذاقَيْن متناقضَيْن: الليمون والسُّكّر.

حزيران 1953. رأت نفسَها طفلةً في السادسة، تحيط بوجهها الشاحب والنَّحيل غابةٌ من لفائف شعرٍ بنِّيّ بلون الكستناء. وبغضّ النَّظر عن شهيَّتها المُدهشة، وبخاصَّةٍ للبقلاوة المحشوَّة بالفستق الحلبيّ والسمسميَّة، ولكلّ الأشياء الحلوة اللذيذة المذاق، فإنَّ قوامها كان نحيفًا مثل قصبة. لم يكن لديها أيُّ شقيق أو شقيقة. طفلة وحيدة كثيرة الحركة، مشتّتة الذهن بعض الشيء طوال الوقت، تطوي الأيَّامَ مثل قطعة شطرنج تدحرجتْ على أرضٍ مُخصَّصةٍ لألعاب معقَّدة.

كان منزلهم في بلدة ڤان واسعًا بحيث يمكن أن يرتدّ صدى الهمسات بين جوانبه. وكانت الظلال تتراقص على الجدارن وكأنَّها تَعْبُرُ فضاءَ كهفٍ غائر. ثمَّة سلالمُ خشبيَّة طويلة وملتفَّة، تمتدّ من غرفة المعيشة إلى منبسط السلالم في الطبقة الأولى. وكان المدخل مُزيَّنًا بقرميدٍ يحتوي على مختلف المشاهد: طواويس تختالُ

بريشها، وأقراص الجبنة والخبز المضفور بجانب كؤوس النبيذ، وأطباق كبيرةٍ من ثمار الرّمّان المشقوقة بابتسامتها الياقوتيَّة، وأزهار الشمس في الحقول تشرئبُّ بأعناقها مشتاقةً إلى الشمس الغاربة، مثل عُشّاقٍ يُدركون تمامًا أنَّهم لن ينالوا الحبّ الذي تتوق قلوبُهم إليه. فَتنَتْ ليلى هذه الصوَرُ. كانت بعضُ قطع القرميد مثلومةً ومتصدِّعة، في حين كانت قطعٌ أخرى مكسوَّةً بملاطٍ خشن، وإنْ كانت تصاميمُها لا تزال واضحةً برَّاقةً بلونها. وساورت الطفلةَ الشكوكُ في أنَّها كانت كلُّها تحكي حكايةً موغلةً في القِدم، بيْد أنَّها لم تفهم مغزاها على الرَّغم من بذلها قُصارى جهدها.

على امتداد المدخل، كانت المصابيحُ الزيتيَّة، والشموعُ المصنوعةُ من الشمع الحيوانيّ، والآنيةُ الخزفيَّة، وغيرُها من أغراض الزِّينة السريعة الزوال، مُتراصَّةً في فجوات الجدران المذهَّبة. كانت قِطَعُ السجَّاد المزدانة بالشراريب تمتدّ على ألواح الأرضيَّة . سجَّاد أفغانيّ وفارسيّ وكرديّ وتركيّ من كلِّ لونٍ ونموذج.

كانت ليلى تتجوَّل من حجرةٍ إلى أخرى لتُنفق وقتَها متراخيةً متكاسلةً، مقرِّبةً كلّ الأشياء إلى صدرها، ولامسةً سطوحَها . بعضُها يخِزُ وبعضُها الآخر ناعمُ الملمس، شأنها في ذلك شأن إنسانٍ

ضريرٍ يعتمد على اللَّمس. كانت بعض أقسام البيت مملوءةً بأشياء متراكمة على غير انتظام، إلَّا أنَّ المستغرَب أنَّها كانت تحسّ في هذا المكان نفسِه بغيابٍ ما. ثمَّة ساعةُ حائط قائمة على الأرض مباشرةً تدقّ في الرَّدهة الرَّئيسة، يتأرجح رقَّاصُها البرونزيّ إلى الجانبيْن. دقَّاتها مُدوّيةً أكثر ممَّا ينبغي، ولكنَّها مبهِجة أيضًا. وغالبًا ما لاحظتْ ليلى شيئًا ما يغصّ في بلعومها، فيراودها القلقُ خشيةَ أن تكون قد تنشَّقتْ غبارًا منذ زمن بعيد . وإنْ كانت تعرف أنَّ كلَّ شيء كان نظيفًا، ومفروكًا بالشَّمع، وصقيلًا على نحوٍ مُبالَغ فيه. كانت مُدبِّرةُ المنزل تأتي كلَّ يوم، وتشنّ حملةَ تنظيفٍ كبيرةً مرَّةً في الأسبوع. وفي مطالع الفصول وأواخرها، تجري حملة تنظيفٍ أكبر من تلك الحملات. وإنْ غفلت المدبِّرةُ عن شيءٍ ما، تنبَّهت بينّاز إليه بلا أدنى ريب، فتفركه بصودا الخبز. كانت صعبة الإرضاء، وتردِّد: «أشدّ بياضًا من البياض.«

سبق أن أخبرَتها والدتُها أنَّ البيت كان من ممتلكات طبيب أرمنيّ وزوجته، وأنّه كانت لديهما ستُّ بنات أحبَبْن الغناء، وقد تراوحَتْ أصواتُهنَّ ما بين المنخفض والبالغ العلوّ. كان الطبيب رجلًا محبوبًا، يسمح لمرضاه بالحضور إلى بيته، والمكوثِ برفقة أفراد الأسرة من وقت إلى آخر. ولمَّا كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أنَّ في

مقدور الموسيقى أن تشفي أشدَّ جروح الروح ألمًا، فقد جعل كلَّ مريض من مرضاه يعزف على آلة موسيقيَّة بغضّ النَّظر عن موهبته. وحين يعزفون . وبعضُهم يعزف عزفًا يدعو إلى الشفقة . كانت البنات يُطْلقن عقيرَتهنّ بالغناء في جوقةٍ واحدة، فيتراقص المنزلُ مثل فلكٍ في أعالي البحار. حدث هذا كلّه قبل اندلاع الحرب العالميَّة الأولى.

لكنْ لم يمض وقت طويل حتَّى اختفوا جميعًا بلمح البصر، تاركين كلَّ ممتلكاتهم. مرّ زمن ليس بالطويل، لم تستطع فيه ليلى أن تعرف أين ذهبوا، وما الذي حال دون عودتهم. ماذا حدث لهم . الطبيب وأسرته، وكلّ تلك الأدوات التي كانت كالأشجار، ذاتَ يومٍ، باسقةً وقويَّةً؟

كان محمود، جدُّ هارون، آغا كرديًّا ذا نفوذٍ عظيم، وقد سرى هذا النفوذُ بعدئذٍ في أسرته. ووهبته الحكومةُ العثمانيَّة البيتَ هديَّةً، لقاءَ دوْرِهِ في تهجير الأرمن من هذه المنطقة. كان محمود قد وطَّد العزمَ على الامتثال إلى أوامر إسطنبول من غير أن يتردَّد لحظةً واحدة. فإنْ قرَّرت السُّلطاتُ أنَّ أناسًا بأعينهم كانوا خونةً، فلا بدَّ من إرسالهم في جماعاتٍ مكتظَّة إلى صحراء دير الزور، حيث لا يقدر سوى حفنةٍ منهم على البقاء أحياء؛ وهذا ما كان يفعله، وإنْ

كانوا أصدقاء قدامى أو جيرانًا طيِّبين. وهكذا، أصبح محمود رجلًا ذا شأن بعد أن أثبت ولاءه للدولة. وكان سكَّانُ المنطقة يُعْجبون بمدى تناسق شاربَيْه، ولمعانِ حذائه الجلديّ الأسود الطويل الساق، وفخامةِ صوته. احترَموه مثلما يحترم الناسُ القُساةَ الجبابرةَ منذ فجر التاريخ. احترامًا يكتنفه قدرٌ كبيرٌ من الخوف، ولكنْ من غير أن يحبُّوه مقدارَ ذرَّة.

أصدر محمود أمرَه بأن يبقى كلُّ شيء في المنزل على حاله. وهذا ما حصل مدَّةً قصيرةً من الزمان. غير أنَّ الشائعات راجت بأنَّ الأرمن الذين عجزوا عن حملِ ما لديهم من أشياء ثمينة عمدوا قبل رحيلهم إلى إخفاء قدورٍ مملوءةٍ بالنقود المعدنيَّة وعلب الياقوت في مكانٍ يمكن الوصولُ إليه. فما كان من محمود وأقربائه إلَّا أن شمَّروا عن سواعدهم، وراحوا يحفرون في حديقة المنزل وباحته وأقبيته. ولم يتركوا بوصةً واحدةً من الأرض من غير أن يقلبوها. ولمَّا عجزوا عن العثور على أيّ شيء، شرعوا في تحطيم الجدران، من دون أن يساورهم التَّفكيرُ لحظةً واحدةً في أنّ الكنز لن يكون ملْكهم وإنْ عثروا عليه. وحين تخلّوا عن الحفر، كان البيت قد تحوَّل إلى كومة من الأنقاض، ولا بدَّ من بنائه من الداخل. كانت ليلى تعلمُ أنَّ والدها، الذي شهِد نوبةَ الجنون تلك

حينما كان صبيًّا، ما زال يعتقد أنَّ ثمَّة صندوقًا من الذهب في مكانٍ ما، وثرواتٍ محفوظةً طيّ الكتمان على مسافة قصيرة. وفي بعض اللَّيالي، حين تغمض عينَيْها ليغالبها النعاسُ وتخلد إلى النوم، كانت تراودها أحلامٌ عن المجوهرات التي تلمعُ عن كثب، وكأنَّها يراعاتٌ تتلألأ فوق مرجٍ في ليلة صيفيّة.

لم تكن ليلى تملك أدنى اهتمام بالذكريات في تلك السنّ المبكِّرة، بل كانت تُفضِّل أن تكون في جيبها قطعةٌ من الشوكولاتة المحشوَّةِ بالبندق، أو قطعةٌ من العلكة وعلى غلافها صورةُ امرأةٍ سوداءَ بقرطَيْن مدوَّرَيْن كبيرَيْن في أذنَيْها. كان والدها يرسل في طلب هذه الحلوى من إسطنبول. فكلّ جديد ومثير للاهتمام موجود في إسطنبول. لذا انتاب الطفلةَ حسدٌ من تلك المدينة المعروفة بالأعاجيب والغرائب. وقالت محدِّثةً نفسَها إنَّها سوف تسافر إلى تلك المدينة، واحتفظَتْ بهذا السرّ من غير أن تفشي خطَّتها إلى أحد، تمامًا مثلما يحتفظ المحارُ بلؤلؤةٍ في جوفه .

ابتهجتْ ليلى بتقديم الشاي إلى لُعَبِها، وراقبتْ سمكَ السلمون المرقَّط يسبح في جداول الماء البارد، وتفرَّستْ في تصاميم السجَّاد إلى أن بعثت الحياةَ في الأشكال. لكن أكثر ما كانت تحبُّه هو الرقص. كانت توَّاقةً إلى أن تصبح يومًا ما راقصةً مشهورةً في

الرَّقص الشرقيّ. تلك فانتازيا كانت ستثير هلعَ والدها لو أنَّه عرف دقَّةَ التَّفاصيل التي كانت تتخيَّلها في ذلك الرقص: الإكسسوارات اللمَّاعة، والتنانير المصنوعة من العملة الورقيَّة، والنقر على الدفوف بالأصابع، وتذبذب شفتيْها ودورانهما على أنغام الطبل، وسبْي عقول المشاهدين الذين يصفِّقون لها تصفيقًا مستمرًّا، وهي تتلفَّت وتدور حتَّى تَبْلغ الخاتمةَ المثيرة. إنَّ التَّفكير في هذا الرَّقص جعل فؤادَها يدقّ على نحوٍ أسرع. غير أنَّ الأب كان يقول دومًا إنَّ الرقص هو أحدُ فنون الشيطان العديدة والقديمة لإغواء البشر. كان الشيطان، بعطوره القويَّة وحُليّه الرَّخيصة البرَّاقة، يغوي أوَّلَ الأمر النِّساءَ، الضعيفات والعاطفيَّات كما هو معروف عنهنّ؛ ومن خلال النساء، كان يغوي الرجالَ ويقودهم إلى مصيدته.

ولمَّا كان الوالد خيّاطًا معروفًا يقصده الكلّ، فقد كان يخيط ثيابَ النساء، وثيابَ الرَّقص على أنغام موسيقى السوينغ، والثياب النسويَّة الضيّقة والتنانير الدَّائريَّة، والقمصانَ ذات ياقة بيتربان الضيِّقة المستديرة الطرفَيْن، والصديرات النسائيَّة، وبنطلونات كاپري. وكانت زوجاتُ ضبَّاط الجيش وموظَّفي الحكومة ومفتِّشي الحدود ومهندسي السكك الحديديّة وتجَّارِ البهار من بين زبوناته المنتظمات. كما كان يبيع مجموعةً كبيرةً من القبّعات والقفَّازات

والبيريَّات . وكلُّها من آخر طراز، حريريَّة الصنع، ولكنَّه ما كان ليسمح لأحدٍ من أفراد أسرته باستخدامها.

ولمَّا كان والدُها يعارض الرَّقصَ، فقد عارضتْه والدتُها أيضًا، على الرَّغم من أنَّ ليلى لاحظتْ أنَّها كانت تتذبذب

في قناعاتها حين لا يكون ثمَّة أحد على مقربةٍ منها! غير أنَّ الأمّ كانت تتحوَّل إلى شخصٍ مختلف تمامًا حين تكون وحدها برفقة ابنتها، إذ كانت تسمح لابنتها بأن تحلَّ ضفائرَها، وتمشِّط شعرَها الأحمر بلون الحنَّاء وتضفره، وتكسو بالكريم وجهَها المتغضِّن، وتضع الجلي البتروليّ وتمزجه بغبار الفحم على رموشها لتزيدها اسودادًا. وكانت تُغْدق على ابنتها العناقَ والمديح، وتصنع كُرات من خيوط الصوف بألوان قوس قزح، وتلضم لعبًا بهيأة ثمار بالخيوط وورق اللَّعب . غير أنَّها ما كانت لتفعل أيّ شيء من هذه الأشياء في حضور الآخرين. وكانت متحفِّظةً، على وجه الخصوص، حين تكون العمَّة بينّاز على مقربة منها.

قالت لها الأمّ:

. إذا ما رأتنا العمَّة ونحن نُسلِّي نفسيْنا، فقد تشعر بالانزعاج. وينبغي ألَّا تقبِّليني أمامها.

ـ لكنْ لماذا؟

ـ حسنًا، إنَّها لم تُرزقْ بأيّ أطفال، ولا نريد أن نُحطِّم فؤادها. أليس كذلك؟

ـ حسنًا، يا أمِّي. يمكنني أن أقبِّلكما أنتما الاثنتيْن.

واصلت الأمّ تدخينَ سيجارتها، ثمّ أضافت:

ـ لا تنسي، يا روحي. عمّتك مريضة في عقلِها ـ مثل والدتها. هذا ما طرق سمعي. إنّه مرضٌ يسري في دمائهما. جنونٌ وراثيّ. الواضح أنَّ العائلة كلَّها مصابةٌ بهذا المرض. لذا، يتعيَّن ألّا نزعجها.

حين تنزعج العمَّة، كانت تساورها الرَّغبةُ في إلحاق الأذى بنفسها، فتعمد إلى نَتف كُتلٍ من شعرها، وتخدش وجهَها، وتقرص نفسَها قرصًا شديدًا حتّى يسيل الدمُ منها. وقالت الأمّ إنَّها في اليوم الذي أنجبتْ فيه ليلى، سدَّدت العمَّةُ لكمةً إلى وجهها وهي تنتظر قرب الباب، إمّا بدافع الحسد أو بدافعٍ آخر ينمّ عن غرابة الأطوار. وإذا ما سُئلتْ عن سبب هذه التصرُّفات، زعمتْ أنَّ بائعَ مشمشٍ كان يرميها بكُرات الثلج من خلال النافذة المفتوحة. مشمش في

عزّ الشتاء ! لم تكن تلك التصرُّفات والأسباب منطقيَّةً. وساور الخوف كلّ فرد على سلامة عقلها. كانت الطفلة تصغي وهي مصابة بالذهول من شدَّة خوضها في هذه القصَّة وغيرها من القصص الكثيرة التي كانت تُلقى على مسامعها مرارًا وتكرارًا.

غير أنَّ الأذى الذي كانت تُلْحقه العمَّةُ بنفسها لم يبدُ دومًا مُتعمَّدًا. فمن جهةٍ أولى، كانت خرقاءَ مثلَ طفلٍ يحبو ويخطو أوَّل خطواته. فكانت تكوي أصابعَها بمقلاةٍ حامية، وتضرب ركبتَيْها بالأثاث، وتسقط من سريرها وهي نائمة، وتجرح يدَها جروحًا بليغة بزجاج مكسور. كانت كدماتُها ملتهبةً يُرثى لها، وتنتشر على جسدها نَدباتُ غضب .

كانت عواطفُ العمَّة تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، مثلَ رقَّاص ساعة البيت. كانت في بعض الأحيان مفعمةً بالحيويَّة والنشاط، لا تعرف الكللَ ولا التعب، وما إنْ تفرغ من عمل حتَّى تنتقلَ إلى آخر. فكانت تكنس السجادَ وكأنّها تنتقم منه، وتمسح كلَّ سطحٍ بخرقة، وتضع البياضات في ماء مغليّ بعد أن تكون قد غسلتْها قبل ليلة واحدة لا أكثر، وتنظِّف الأرضيَّات ساعاتٍ متواصلة، وتنثر المعقِّمات الكريهةَ الرَّائحةِ في أنحاء البيت. كانت يداها جافَّتَيْن ومشقَّقتَيْن، ولم تعرفا النعومةَ على الرغم من أنّها كانت تفركهما

بشحم الضأن فركًا منتظمًا عشرات المرَّات يوميًّا، من دون أن تقتنع بأنَّهما نظيفتان بما يكفي. ما من شيء نظيف حقًّا. في أحيان أخرى، كانت تبدو منهكةً، بحيث تعجز عن الحركة، بل يتطلَّب تنفُّسها جهدًا جهيدًا.

في بعض الأيَّام كانت العمَّة تبدو غير مُهتمَّة بأيّ شيء في العالم. فكانت تسترخي، وتفيض حيويَّةً ونشاطًا، وتنفق ساعات طويلة في اللَّعب مع ليلى في الحديقة. كانتا تُعلّقان أشرطةً من قماش على أغصان شجر التفّاح المثقل بالبراعم، وتُسمّيانها «راقصات الباليه»، وتَصْرفان وقتًا طويلًا في حياكة سلالٍ صغيرةٍ من شجر الصفصاف، أو تيجانٍ من زهور الأقحوان. وكانتا تربطان الأشرطة حول قرنيْ كبشٍ ينتظر التضحية به في العيد المقبل. وذات مرَّة، عمدتا سرًّا إلى قطع الحبل الذي يربط الحيوانَ بزريبته، إلَّا أنَّ الحيوان لم يهرب خلافًا لتوقُّعاتهما. وبعد أن جال هنا وهناك بحثًا عن عشبٍ طازج، عاد إلى المكان نفسه، إذ وجد الأَسْرَ أكثرَ ألفةً من نداء الحرِّيَّة الغريب.

كانت العمَّة وليلى تحبَّان خياطةَ الثياب من أغطية المائدة، وتتفرَّسان في صور النساء المنشورة في المجلَّات، وتقلّدان وقفاتهنَّ وابتساماتهنَّ الواثقة. ومن بين كلّ العارضات والممثِّلات

اللَّواتي كانتا تنظران إليهنَّ، كانت إحداهنَّ محطَّ إعجابهما الشديد: ريتا هيوارث؛ فرموشُها أشبهُ بالسهام، وحاجباها مثلُ قوسَيْن، وخصرُها أرقُّ من قدح الشاي، وبشرتُها ملساءُ كخيوط الحرير. ربَّما كانت الجواب لكلّ ما كان يقصِدُه أيُّ شاعر عثمانيّ، لولا خطأٌ واحدٌ: أنَّها ولدتْ في زمنٍ غير زمانها، بعيدًا، في أميركا.

كان الفضولُ يستبدّ بالعمَّة وليلى. لهذا، فإنَّ كلّ ما كان في وسعهما فعلُه هو النَّظر إلى صورها ما دامتا تجهلان القراءة. فليلى تنتظر حتَّى يحين موعدُ ذهابها إلى المدرسة والتَّعلُّم فيها. أمَّا العمَّة، فلم تتعلَّم في أيِّ مدرسة، إذ لم تكن ثمَّة مدرسةٌ في القرية التي نشأتْ فيها. كما أنَّ والدها لم يسمح لها بالذهاب إلى المدرسة في البلدة سيرًا على الأقدام فوق طريق غير معبّد ذهابًا وإيَّابًا كلّ يوم برفقة أخواتها؛ فهم لم يملكوا ما يكفي من الأحذية. فضلًا عن أنَّها يجب أن تهتمّ بإخوتها الأصغر سنًّا على أيّ حال.

أمَّا الأمّ، فكانت على العكس من العمَّة: مُتعلِّمة وفخورة بتعليمها، وكان في مُستطاعها أن تقرأ مقاديرَ الطعام وطريقةَ الطهو في كتاب مخصَّص للطهو، وتقلِّب التقويمَ اليوميّ المثبّت على الجدار، بل تتابع ما يُنشَر من مواضيع في الصحف. وكانت هي التي تُطْلِع مَن في البيت على أخبار العالم: في مصر،

مجموعةٌ من ضبّاط الجيش يُعلنون قيامَ النظام الجمهوريّ؛ وفي أميركا، إعدامُ شخصيْن بتهمة التَّجسُّس؛ وفي ألمانيا الشرقيَّة، تظاهر الآلافُ من الناس احتجاجًا على سياسات الحكومة، وقمَع المحتلُّون السوفييت المحتجّين؛ وفي تركيا، في إسطنبول البعيدة التي تبدو أحيانًا وكأنَّها بلدٌ آخر تمامًا، أقيم حفلُ ملكة الجمال، وقد وقفت المتسابقاتُ على منصّة العرض بثياب سباحة من قطعةٍ واحدة، وخرجت الجماعاتُ الدِّينيَّةُ إلى الشوارع وهي تشجب العرضَ بوصفه فسوقًا وفجورًا، إلَّا أنَّ مُنظِّمي الحفل كانوا مُصمِّمين على المضيِّ في المسابقة، ويقولون إنّ الأمم تتمدّنُ بثلاث وسائل أساسيَّة: العلم، والتَّعليم، ومسابقات الجمال.

كلَّما قرأتْ سوزان مثلَ هذه الأنباء بصوتٍ عالٍ، كانت بينّاز تشيح بنظراتها جانبًا، وينبض وريدٌ في صدغها الأيسر؛ وكانت تلك دلالةً صامتةً وثابتةً على الأسى والوجع. أمَّا ليلى، فكانت تتعاطفُ مع عمَّتها، وتجدُ شيئًا واضحًا، بل مريحًا، في هشاشة هذه المرأة. لكنّها شعرتْ أيضًا بأنَّها لن تستطيع البقاءَ إلى جانب عمَّتها مدَّة طويلة، إذ كانت تتطلَّع إلى بدء الدراسة قريبًا.

***

قبل ثلاثة أشهر، عثرتْ ليلى، وراء خزانةٍ مصنوعةٍ من خشب الأرز في أعلى السلالم، على بابٍ مقلقلٍ يُفضي إلى السطح. لا بدَّ أنَّ شخصًا ما تركه مواربًا لتدخل نسمةُ هواءٍ باردة ومنعشة، فيها رائحةُ الثوم البرّيّ النامي في نهاية الطريق. منذ ذلك اليوم، صارت ليلى تزور السطحَ كلّ يومٍ تقريبًا.

كلّما رنت بناظريْها إلى البلدة المترامية الأطراف، واتلعَتْ أذنيْها لتسمع صوتَ عُقابٍ يحلّق عاليًا فوق البحيْرة العظيمة المتلألئة على مسافةٍ نائية، أو أصواتَ طيور الفلامنكو تبحث في المياه الضحلة عن طعام، أو سقسقةَ السنونو وهي تندفع بين أشجار جار الماء، اختلَجَ في أعماقها شعورٌ أكيدٌ بأنَّ في وسعها أن تحلّق عاليًا إنْ حاولت ذلك. ما الذي تحتاج إليه إنْ أرادت أن ينمو لها جناحان، وأن تنزلق في السَّماء، خفيفةً، خاليةً من الهموم؟ كانت المنطقة مسكونةً بطيور مالك الحزين والبلشون الأبيض والبطّ الأبيض الرأس، والطيور الطويلة الأرجل ذات الأجنحة السود، وطيور السرشور القرمزيَّة الأجنحة، وطيور الدَّخلة المغرِّدة في القصب، وطيور الرفراف البيضاء الرَّقبة، وطيور المستنقعات التي يسمّيها أهلُ المنطقة «السلطانة». كما احتلّ لقلقانِ المدخنةَ، وشيَّدا عشًّا رائعًا، غصنًا في إثر غصن. أمَّا الآن، فقد رحلا،

ولكنَّها كانت متأكِّدةً من عودتهما في يومٍ من الأيَّام. كانت عمَّتها تقول إنَّ اللَّقالق ـ بخلاف

بني البشر ـ وفيّةٌ لذكرياتها؛ فما إنْ تبني لها عشًّا لتجعلَه وطنًا لها، حتَّى تعود إليه دومًا، وإنْ كانت بعيدةً عنه مسافةَ أميال.

بعد كلّ زيارةٍ إلى السطح، تعود الطفلة لتهبط السلالم على رؤوس أصابعها، محاذرةً أن يُشاهدها أحد. لم يساورْها أيُّ شكّ في أنَّها ستقع في ورطة عظيمة إنْ رأتْها أُمُّها. لكنَّ أمَّها، عصرَ ذلك اليوم من حزيران 1953، كانت مشغولةً بحيث لا تستطيع الانتباهَ إليها. فالبيت يحتشد بالضيوف ـ وجلُّهم من النساء. وهذا يحدث مرَّتَيْن في الشهرَيْن دومًا: يومَ تلاوة القرآن، ويومَ دهن السيقان بالشمع. في المناسبة الأولى، كان الإمام الشَّيخ يأتي ليلقي خطبتَه ويقرأ في المصحف الكريم. وكانت النسوة يجلسن صامتاتٍ احترامًا: سيقانُهنَّ مضمومة، ورؤوسُهنَّ مغطَّاة، ومستغرقات في التَّفكير. وإذا اختلس أحدُ الأطفال المارّين النَّظرَ إليهنَّ، عمدن إلى إسكاته على الفور.

أمَّا في يوم دهن السيقان بالشمع، فالأمر يختلف تمامًا، إذ كان المكان يخلو من الرجال، وترتدي النساءُ ما خفَّ من الملابس. كنّ

يسترخين على الأرائك بسيقان متباعدة، وأذرع مكشوفة، وتومض أعينُهنّ بشقاوة مكبوتة. وفي غمرة ثرثرتهنَّ التي لا تتوقَّف، يعمدن إلى ترصيع ملاحظاتهنَّ بلعناتٍ تدفع أصغرَهُنَّ سنًّا إلى الاحمرار خجلًا، وكأنَّها جوريّة دمشقيّة. لم تكن ليلى تصدّق أنَّ هذه المخلوقات الجامحة هي نفسها التي كانت تصغي إلى الإمام بكّل وقار.

اليوم هو يومُ دهن السيقان مجدَّدًا. اتَّخذت النَّسوةُ مكانَهنَّ على السجَّاد والكراسي ومساندِ الأقدام، وفي كلِّ مكان من حجرة المعيشة، وفي يديْ كلٍّ منهنّ أطباقُ معجّنات وأكوابُ شاي.
وانبعثتْ من المطبخ رائحةٌ تبعث على الغثيان، إذ كان الشمع يفور من فوق موقد، وتتصاعد منه فقاعات. ليمون وسُكّر وماء. وحين يصبح الخليطُ جاهزًا، تبدأ النسوة عملَهنَّ بسرعةٍ ورزانة، ويَجْفلن حين يَنزعن الشرائطَ اللَّاصقةَ من على بشرتهنَّ. لكنْ في وسع الألم أن ينتظر قليلًا بعد، لأنَّهنَّ كنَّ منهمكات في القيل والقال، وفي تناولِ ما يطيب لهنّ من طعامٍ وشراب.

للحظات، تسمَّرتْ ليلى في مكانها أثناء مراقبتها النساءَ من مدخل الغرفة، إذ كانت تفتّش عن دلائل مستقبلها في حركاتهنَّ وكلامهنَّ. كانت يومئذٍ مقتنعةً بأنَّها ستصبح مثلَهنّ حين تكبر:

بطفلٍ يحبو قرب ساقها، ورضيعٍ بين ذراعيْها، وزوجٍ تطيعه، وبيتٍ عليها أن تُحسن تدبيرَه. هكذا ستكون حياتُها. لقد أخبرتها الأمُّ بأنّ القابلة رمَت حبلَها السرِّيّ بُعيْدَ الولادة على سطح المدرسة كي تصير مُدرِّسةً، إلَّا أنَّ والدَها لم يكن متحمِّسًا لتلك المهنة. ليس بعدَ الآن: فقد التقى قبل مدَّة قصيرةٍ شيخًا أخبرهِ أنَّ من الأفضل للنساء البقاءَ في المنزل، ولبسَ الحجاب إنْ اضطُررنَ إلى الخروج من الدار. فلا أحدَ يرغب في شراء «طماطم» سبق أن لمسها زبونٌ وعَصَرها ولطّخها! الأفضل أن تكون طماطمُ السوق مغلقةً ومعبَّأةً. والأمرُ نفسُه ينطبق على النساء على حدِّ تعبير الشَّيخ: فالحجاب متاعُهنّ، والدرعُ التي تحميهنّ من نظرات الإغواء واللَّمسات غير المرغوبة.

لهذا، بدأت الأمّ والعمَّة بتغطية رأسَيْهما بالحجاب. بخلاف كلّ النِّسوة في الحيّ اللواتي كنَّ يتبعن الموضةَ في الغرب: فيمشِّطن شعرَهنَّ بهيئة قصَّاتٍ صغيرةٍ منتفخة، مموَّجًا في لفائف مشدودةٍ ومُحكمة، أو يجذبنه إلى الوراء في كعكاتٍ أنيقةٍ أسوةً بأودري هيبورن. وفي حين استقرّت الأم على ارتداء الجبَّة السَّوداء حين خروجها من الدار، فقد اختارت العمَّة الشالاتِ البرَّاقةَ المصنوعة من الشيفون، بحيث تربطها ربطًا محكمًا عند منطقة الذقن. وقد

بذلت الاثنتان قُصارى جهدهما كي لا تظهر من رأسَيْهما ولو خصلة واحدة من الشعر. أمَّا ليلى، فكانت واثقة بأنَّها سوف تحذو حذوَهما يومًا ما. وقد أخبرتها الأمّ بأنَّها سوف تَصْحبها عند حلول ذلك اليوم إلى البازار، لتشتريَ لها أجملَ وشاح رأس، ومعطفًا طويلًا يناسبه.

. وهل في وسعي الاستمرار في ارتداء بذلة الرَّقص الشرقيّ تحت المعطف؟

فردَّت الأمّ باسمةً:

. أنت فتاة ساذجة.

بعد أن استغرقتْ ليلى في أفكارها، سارت على أطراف قدمَيْها أمام حجرة المعيشة، واتَّجهتْ مباشرةً نحو المطبخ. كانت الأمّ منهمكةً هناك منذ الصباح الباكر . تخبز البورك وتغلي الشايَ وتُعِدّ الشمع. لم تستطع ليلى أن تفهم، مهما حاولتْ، السَّببَ الذي يدفع تلك النسوة إلى تلطيخ سيقانهنَّ بهذه الحلوى السُّكّريَّة بدلًا من أكلها، كما كانت تفعل بكلّ سعادة.

حين دخلتْ ليلى المطبخَ، استبدَّت بها الدَّهشةُ وهي تشاهد امرأةً أخرى هناك. كانت العمَّة بينّاز تقف وحيدةً، وقد أطبقتْ يدَها حول سكِّين طويلة ومسنَّنة سقط عليها نورُ الشمس عصرَ ذلك اليوم. فراود ليلى القلقُ من أن تجرح العمَّةُ نفسَها. ينبغي للعمَّة أن تكون حذِرةً في هذه الأيَّام، بعد أن أعلنتْ قبل وقت قصير أنَّها حامل . مجدَّدًا. لم يتحدَّث أحد عن الحمْل خوفًا من عين الحسد. وبناءً على تجارب سابقة، فكَّرتْ ليلى أنَّ حمْل العمَّة سوف يصبح ظاهرًا للعيان في الأشهر القليلة المقبلة، وسيتصرَّف البالغون من حولها وكأنَّها أصبحتْ كذلك، بسبب شهيَّتها البالغة أو ترهُّلها المزمن. هذا ما كان يحدث في كلِّ مرَّة: كلَّما كبر بطنُ العمَّة، قلَّ ظهورُها أمام الآخرين والأخريات، وربَّما توارت عن الأنظار مثل صورة مهملةٍ على الإسفلت تحت شمسٍ حارقةٍ لا ترحم.

خطت ليلى خطوةً إلى الأمام في حيطةٍ وحذر، وشرعتْ بالمراقبة.

كانت عمَّتُها منحنيةً قليلًا فوق ركامٍ من السَّلَطة على ما يبدو، ولم تنتبه إلى حضور ليلى. كانت تتفرَّس في الصحيفة المفروشة على المنضدة، متَّقدةَ العينَيْن مقارنةً ببشرتها الشاحبة. تنهَّدتْ، وأخذتْ مجموعةً من أوراق الخسّ، وراحت تقطِّعُها متناغمةً على

لوح التَّقطيع. كانت السكِّين تتحرَّك حركاتٍ سريعةً حتى لتغيبَ عن الأنظار.

- يا عمَّتي؟

توقَّفت اليدُ عن التَّقطيع.

- نعم.

- ما الذي تنظرين إليه؟

- الجنود. سمعتُ أنَّهم عائدون.

ثمَّ أشارت إلى الصُّورة في الصحيفة، وراحت الاثنتان ترنوان إلى الكتابة تحتها، في محاولة لفهم النقاط السود المتراصَّة مثل فوج من جنود المشاة.

- آه، إذًا سوف يرجع شقيقُكِ عمَّا قريب.

كان للعمَّة أخٌ بين الجنود الأتراك البالغ عددهم خمسة آلاف جنديّ، أُرسلوا إلى كوريا. كانوا يساعدون الأميركان، وهم يساندون الكوريِّين الطيِّبين ضدّ الكوريِّين الأشرار. ولمَّا كان الجنود الأتراك لا يعرفون الإنكليزيَّةَ ولا الكوريَّة، وكان الجنود الأميركيُّون ربَّما لا

يعرفون سوى اللُّغة التي يتحدَّثون بها، فكيف سيتحادث هؤلاء الجنود المدجّجون بالبنادق والمسدَّسات؟! وإذ لم يتمكَّنوا من الكلام، فكيف سيَفْهم أحدُهم الآخر؟ هكذا فكَّرت الطفلة ليلى. لكنْ ليس هذا وقتَ طرح الاسئلة. وعوضًا من ذلك، أشرق وجهُها بابتسامة عريضة.

. لا بدَّ أنَّكِ متأثِّرة.

اكفهرّ وجهُ العمَّة، وقالت:

. لماذا؟ مَن يعلم متى سأراه في المرَّة المقبلة، إنْ كنتُ سأراه حقًّا؟ لقد مرَّ وقت طويل على ذهابه. أبواي وإخوتي وأخواتي، لم أر أحدًا منهم. فهم لم يملكوا المالَ للسفر، وأنا لا أستطيع الذهابَ إليهم. إنَّني مشتاقة إلى أسرتي.

لم تعرف ليلى كيف تردُّ، إذ طالما افترضتْ أنَّ المقصودين هُنا هم أسرةُ العمَّة. ولأنّها تعرفُ كيف تُراعي مشاعرَ الآخرين، فقد رأت أنَّ الحكمة تقتضي تغييرَ دفَّة الموضوع، فسألتْ :

. أتُعدِّين الطعامَ للضيفات؟

أمعنتْ ليلى النَّظرَ، وهي تتكلَّم، في الخسّ المقطَّع المتراكم فوق لوح التَّقطيع. ولاحظتْ بين ضمامة الخُضَر شيئًا جعلها تشهق: دودَ الأرض الورديّ، بعضُه مقطَّع إلى نتفٍ صغيرة، والبعضُ الآخر لا يزال يتلوَّى.

ـ يا لَلْقرف! ما هذا؟

ـ إنَّه للصغار، فهم يحبُّونه.

شعرتْ ليلى باضطرابٍ في معدتها، وسألت:

ـ للصغار؟

الواضح أنَّ الأمّ كانت على حقّ منذ البداية: فقد كانت العمَّة تعاني مرضًا عقليًّا. خفضت الطفلةُ عينَيْها باتِّجاه الأرض، فرأت أنَّ العمَّة لم تكن تنتعل أيَّ حذاء، وأنَّ أسفل قدميْها مشقَّق وصلب عند الأطراف، وكأنَّها سارت أميالًا عديدة كي تبلغَ هذا المكان. فكَّرتْ ليلى: لعلَّ العمَّة كانت تسير في نومها، وتتوارى في جنح الظلام كلَّ ليلة، قبل أن تهرع إلى المنزل عند الفجر، معكَّرةَ الأنفاس في الجوّ البارد. ربَّما انسلَّتْ خفيةً، واجتازتْ بوَّابةَ الحديقة، وتسلَّقتْ أنبوبَ التَّصريف، ووثبتْ فوق حاجز الشرفة،

وتسلَّلتْ داخل غرفة نومها، مغمضةَ العينَيْن طوال الوقت. ماذا سيحدث لو أنَّها عجزتْ عن تذكُّر طريق العودة؟

لقد اعتادت العمَّةُ التجوالَ في الشوارع أثناء نومها، وكان بابا يعرف ذلك. المحزن هو عدمُ استطاعة ليلى طرحَ السُّؤال عليه؛ فذلك واحد من عديد المواضيع المحظورة. واضطربت الطفلة لأنَّ والدها كان ينام برفقة عمَّتها في غرفة الطبقة العلْويّة من الدار، في حين كانت تنام وأمّها في الحُجرة نفسها. ولمَّا استفسرتْ عن سبب ذلك، قالت الأمّ إنَّ العمَّة تخاف أن تبقى وحيدةً لأنَّها كانت تقاتل الشياطينَ في نومها.

سألتْ ليلى:

ـ وهل تأكلين منه؟ سوف يؤذيكِ.

ـ مَن؟ أنا؟ لا! إنَّه للصغار. قلتُ لكِ هذا.

نظرَتْ بينّاز إلى الطفلة برقّة وعلى نحوٍ غير متوقّع، كما لو أنّ دعسوقةً حطَّت على أحد أصابعها. وقالت:

. ألم تشاهديهم؟ على السطح. ظننتُ أنَّكِ هناك طوال الوقت.

رفعتْ ليلى حاجبَيْها في دهشة، إذ لم تشكّ قطّ في أنَّ عمَّتها قد تزور مكانَها السرِّيّ. لكنّها لم تشعر بالقلق. ثمَّة شيء ما، شبحيّ، بخصوص العمَّة: فهي لم تستحوذ على أيّ شيء، بل كانت تطوف بين تلك الأشياء. وعلى أيّ حال، كانت ليلى متأكِّدةً من عدم وجود صغارٍ على السطح.

. أنت لا تصدّقينني، أليس كذلك؟ تعتقدين أنَّني مجنونة. الجميع يظنّون أنَّني مجنونة.

كان صوتُ المرأة ينطوي على قدرٍ هائل من الألم، وعلى مثله من الحزن في عينيْها الجميلتيْن، إلى درجةٍ أذهلَتْ ليلى. وفي غمرة إحساسها بالخجل من أفكارها، حاولَتْ أن تجبر خاطر العمّة، فقالت:

- كلّا، ليس صحيحًا! أنا أصدِّقكِ دائمًا.

- أأنتِ متأكِّدة؟ إنَّه لأمر جادّ أن يصدّق أحدٌ شخصًا آخر، ولا يمكنكِ أن تقولي هذا لمجرّد الكلام فقط. فإنْ كنتِ جادَّةً في قولك، فينبغي أن تقفي إلى جانبِ مَن تُصدّقين مهما كلّف الأمر، وإنْ تفوّه الآخرون بعباراتٍ بغيضةٍ في حقِّه. فهل أنتِ قادرةٌ على هذا؟

أومأت الطفلةُ برأسها، سعيدةً بقبول التَّحدِّي.

ابتسمت العمَّة مسرورةً، وقالت:

. إذًا، سأُطْلعكِ على سرّ، سرٍّ عظيم. فهل تَعِدينني بألّا تخبري أحدًا به؟

قالت ليلى من فورها:

. أعِدُك.

. سوزان ليست والدتَكِ.

اتَّسعتْ عينا ليلى.

. هل تريدين معرفةَ والدتك الحقيقيَّة؟

صمتٌ.

ـ أنا التي أنجبتُكِ. كان يومًا باردًا، ولكنّ رجلًا كان يبيع المشمش الحلو في الشارعِ. يا له من أمر غريب، أليس كذلك؟ لو عرفوا أنَّني أخبرتُكِ، فسيعيدونني إلى القرية ـ أو ربَّما سيسجنونني في مستشفى الأمراض العقليَّة؛ وعندئذٍ، لن ترى إحدانا الأُخرى. هل فهمتِ؟

أومأت الطفلةُ برأسها، بوجهٍ خَدِرٍ يخلو من أيّ ملامح.

ـ عظيم. لا تنبسي ببنتِ شفةٍ إذًا.

عادت العمَّة إلى العمل، تدندن في نفسها صامتةً مع صوت فوران المرجل، وثرثرةِ النسوة في حجرة المعيشة، ووقعِ ملاعق

الشاي في الأكواب.... بل إنَّ الكبش في الحديقة لاح هو نفسُه توَّاقًا إلى الانضمام إلى الجوقة، يثغو نغمةً خاصَّةً به.

قالت العمَّةُ بينّاز على حين غرّة:

ـ لديَّ فكرة. حين تأتي النساءُ إلينا في المرَّة المقبلة، سوف نضع الدودَ في شمعهنّ. تخيَّلي كلّ هؤلاء النسوة وهنَّ يهربن من الدار أنصافَ عاريات، والدود متشبِّث بسيقانهنّ.

كانت ضحكتُها من القوَّة بحيث سال الدَّمعُ من عينَيْها، ثمَّ رجعتْ إلى الوراء، فتعثَّرتْ بالسلَّة التي انقلبتْ رأسًا على عقب، وتدحرجتْ منها حبّاتُ البطاطا يمينًا وشمالًا.

ابتسمتْ ليلى رغمًا عنها، وحاولتْ أن تسترخي. لا بدَّ من أنَّ الأمر كلّه مزحة. وماذا يمكنُ أن يكون غيرَ ذلك؟ فلم يكن أيّ من أفراد الأسرة يأخذ العمَّةَ على محمل الجِدّ. فهل ثمَّة سببٌ يدعوها هي إلى غير ذلك؟ فملاحظات العمَّة لم تكن مهمَّة، مثل قطرات الندى على العشب البارد، أو تنهُّدات فراشة.

قرَّرتْ ليلى أن تنسى ما سمعتْه؛ فذلك هو الشيء الصائب الذي يتعيَّن عليها فعلُه. إلَّا أنَّ خيطًا من الشكّ ظلَّ يَخِزُ عقلَها. فكانت

من جهةٍ ترغب في الكشف عن الحقيقة، في حين كانت من جهةٍ ثانية غيرَ مستعدَّةٍ لذلك، وربَّما لن تكون مهيَّأةً لها إلى الأبد. ولم تستطع منع نفسها من الإحساس بأنّ شيئًا ما ظلّ ملتبسًا في داخلها، وكأنَّه رسالةٌ مشوَّشةٌ تنقلُها موجةُ مذياع نقلًا سيّئًا: خيوطٌ من كلمات، إنْ نُقلتْ، فلا سبيلَ إلى أن تَنسُجَ أيَّ جملةٍ ذاتِ معنى.

***

بعد نصف ساعة، جلستْ ليلى، حاملةً ملعقةً ملطَّخةً بمقدار ضئيل من الشمع، في مكانها المعتاد على السطح، مُتدلِّيةَ الساقيْن على الحافَّة، وكأنَّهما قرطان مدلّيان. ومع أنَّ السماء لم تُمطِر طوال الأسابيع المنصرمة، فإنَّ السَّطح بدا زلقًا، فسارت بحذر، مُدركةً أنَّ سقوطها سيكسر أحدَ عظامها؛ وإنْ لم تكَسرْه، فستكسُره الأمُّ بكلّ بساطة.

بعد أن فرغتْ من تناول طعامها، سارت في اتِّجاهِ أبعدِ نقطةٍ من السطح على رؤس أصابع قدمَيْها، وهي منطقة نادرًا ما سارت إليها، بتركيزِ لاعبِ سيركٍ يسير على حبلٍ مشدود. إلَّا أنَّها توقَّفتْ عن السير في منتصف الطريق. وكانت توشك أن تستديرَ وتعودَ أدراجها، حين ترامى إلى أذنيْها صوتٌ ناعمٌ ومكتوم، أشبهُ بصوت عثّ على زجاجة مصباح، ثمَّ ازداد الصوتُ علوًّا. ألفُ عثّ. قادها الفضولُ نحو الصوت. وهناك، خلف كومةٍ من الصناديق داخل قفصٍ كبير، شاهدتْ عددًا من طيور الحمام؛ الكثيرَ من الحمام. ورأت على جانبَي القفص أوعيةً فيها ماءٌ صافٍ وطعام. أمَّا الجرائد المفروشة من تحتها، فكان عليها بعضُ قاذورات الطيور، وإنْ بدَت نظيفةً إلى حدٍّ معقول. ثمّة شخص ما يهتمّ بهذه الطيور اهتمامًا بالغًا.

ضحكت الطفلة وراحت تصفِّق، واجتاحتها موجةٌ من العطف والرقَّة داعبَتْ حنجرتها، كما تفعلُ الفقاعاتُ الغازيّةُ التي تنبعثُ من مشروبها المُفضَّل ـ الكولا. راودها إحساسٌ بالرَّغبة في حماية

عمَّتها، على الرَّغم من هشاشتها وضعفها . أو ربَّما بسبب ذلك. غير أنَّ هذا الشعور سرعان ما تحوَّل إلى إحساس بالتشوُّش والاضطراب. فإذا كانت العمَّة بينّاز على حقّ في موضوع الحمام، فما هي المواضيعُ الأخرى التي كانت على حقّ فيها أيضًا؟ ماذا لو كانت هي حقًّا والدتَها؟ فهما تتَّصفان بالأنف المدبَّب الشامخ نفسِه، وتعطسان حالما تستيقظان من نومهما، وكأنَّهما تعانيان حساسيَّةً ما منذ أوَّل ضوء من نور النهار. وكانتا تتشاركان عاداتٍ غريبة، وهي أنّهما تُصفِّران كلّما وضعَتا الزبدةَ والمربَّى على قطعة الخبز المحمَّصة، وتبصقان البذورَ حين تأكلان العنبَ، وكذلك القشورَ حين تأكلان الطماطم. حاولتْ أن تُفكِّر في مشتَرَكاتٍ أخرى بينهما، إلَّا أنَّ الفكرة التي بقيتْ تتردَّد في ذهنها هي أنّها، طوال تلك السنوات، كانت تخشى الغجرَ الذين يخطفون الأطفالَ، ويحوّلونهم إلى شحَّاذين غائري العيون. لكنْ ربّما كان عليها أن تخشى مَن يقطنون بيتَها نفسَه؛ فلعلَّهم هم الذين خطفوها من بين ذراعيْ أمّها.

وللمرّة الأولى، صار في مقدور ليلى أن ترجع إلى الوراء قليلًا، وتتأمّلَ في أسرتِها، فدفعها ما اكتشفتْه إلى عدم الارتياح. لقد افترضتْ دومًا أنَّ أسرتَها سويَّة، مثل أيّ أسرة في العالم، لكنَّها لم تَعُد الآن متأكِّدةً من ذلك. ماذا لو كان فيهم ما يختلف عن الآخرين . شيء يعود إلى خللٍ وراثيّ ما؟ كانت، في تلك المرحلة من حياتها، لا تفهم إلَّا النزرَ اليسيرَ بصدد أنَّ نهاية الطفولة لا تَحِلُّ بتغيُّر جسد الطفلة ونُموّهِ، بل حين يتمكّن عقلُها من أن يرى حياتَها بعينيْ شخصٍ غريب.

استبدَّ الهلعُ بليلى. كانت تحبّ الأمّ، ولم تشأ التَّفكير فيها على نحوٍ سيِّئ. وكانت تحبّ والدها أيضًا، مع أنّها كانت تخاف منه في بعض الأحيان. لفّت ذراعيْها حول نفسها، لعلّها تحظى ببعض الراحة، وتنشَّقتْ هواءً ملءَ رئتيْها، وراحت تُفكِّر في محنتها. لم تستطع معرفة ما ينبغي أن تؤمن به بعد الآن، وما السَّبيل الذي يتعيَّن أن تسلكه. لاحت كأنَّها تائهة في قلب غابة، والدروبُ تتقافز وتتضاعفُ أعدادُها أمام عينَيْها. مَن الشخص الذي يمكنها أن تعتمد عليه

أكثر من الآخرين . والدها، أمْ والدتها، أمْ عمَّتها؟ أجالت ليلى بصرَها من حولها كأنَّها تبحث عن إجابة. لم يتغيّر شيء عمّا كان عليه. لكنْ، من الآن فصاعدًا، لن يكون شيء مثلما كان .

وإذ راح مذاقُ اللَّيمون والسُّكَّر يذوب على لسانها، فقد أخذتْ مشاعرُها تذوب هي أيضًا وتتحلَّل إلى فوضى وتشوُّش. بعد سنوات، سوف تبدأ في اعتبار تلك اللَّحظة بدايةَ إدراكها أنَّ الأشياء ليست كما تبدو دومًا، على غرار الحامض الذي قد يُخفي الحلوَ، أو العكس بالعكس. ففي عقل كلّ إنسان سليم أثرٌ من آثار الجنون، وفي أعماق الجنون تومض بذرةُ التعقُّل والاستبصار.

كانت ليلى حتَّى هذا اليوم حذرةً، لا تكشف عن حبِّها لأمِّها في حضور العمَّة. ومن الآن فصاعدًا، ينبغي أن تحتفظ بحبِّها لعمَّتها سرًّا لا تعرفه الأمُّ نفسُها. وبدأتْ ليلى تُدرك أنَّ على مشاعر الرقَّة أن تكون خفيّةً باستمرار . وأنَّ مثل هذه المشاعر لا يُمكن الكشفُ عنها إلَّا من وراء أبواب مغلقة، ولا يجوز الحديثُ عنها بعد ذلك. كانت تلك هي العاطفةَ الوحيدةَ الذي تعلَّمتها من الأشخاص البالغين، وقد رافقَت ذلك الدرسَ عواقبُ وخيمة.

- 3 -

ثلاث دقائق

مرّت ثلاثُ دقائق منذ أن توقَّف قلبُ ليلى، فتذكَّرت الآن القهوةَ المنكّهةَ بحَبّ الهال . قهوةً مركَّزةً ومكثَّفةً ومن غير حليب؛ مذاقُها ارتبط في عقلها إلى الأبد بشارع المواخير في إسطنبول. كان غريبًا نوعًا ما أن تخطر القهوةُ على بالها عقب ذكرياتها من أيَّام الطفولة. غير أنَّ ذاكرة البشر تشبه دائمًا معربِدًا في آخر اللَّيل، احتسى عديدَ الكؤوس من الشراب، فعجزتْ ذاكرتُه . رغم صعوبة المحاولة . على اقتفاء آثار خطٍّ مستقيم، فبقيتْ مُترنّحةً وسط متاهة من التَّقلُّبات، متنقّلةً في مساراتٍ تُسبّب الدُّوار، غيرَ خاضعةٍ للعقل، معرَّضةً للانهيار كلِّيًّا.

هنا، تذكَّرتْ ليلى: أيلول 1967. شارع مسدود بجوار المرفأ، على مرمى حجر من ميناء قره كوي، القريبِ من القرن الذهبيّ،

والممتدِّ بين صفوفٍ من المواخير المرخَّصة. في الجوار، مدرسةٌ أرمنيَّة، وكنيسةٌ يونانيَّة، وهيكلٌ لليهود الشرقيّين، وتكيَّةٌ للصوفيَّة، وأبرشيَّةٌ للروس الأورثوذكس. وكلُّها بقايا من ماضٍ لم يَعُد أحدٌ يتذكَّره. كانت المنطقة ذات يومٍ واجهةً بحريّةً تجاريّةً مزدهرة، وموطنًا لجاليات مشرقيّة ويهوديّة ثريّة، ثمَّ أصبحتْ مركزًا للمصارف العثمانيَّة وصناعةِ السفن. أمَّا الآن، فتشهد المنطقةُ تعاملاتٍ من نوع مختلف: رسائل صامتة تنقلها الرِّيحُ، ونقودًا تتحوَّل من يدٍ إلى أخرى ما إن يُحصل عليها.

كانت البقعة الواقعة حول المرفأ مزدحمةً دومًا ازدحامًا يدفع المارَّةَ إلى السَّير على نحوٍ منحرفٍ كالسرطانات؛ فالشابّات يمشين متأبِّطةً الواحدةُ منهنَّ ذراعَ الأخرى وهنَّ مرتديات تنُّوراتٍ قصيرةً جدًّا. وكان سائقو سيَّارات الأجرة يطلقون صيحات الاستهجان والصَّفير من وراء نوافذ سيَّاراتهم. أمَّا عمَّالُ المقاهي، فكانوا يَجْرون إلى الأمام وإلى الخلف حاملين صوانيَ مملوءةً بأقداح الشاي الصَّغيرة. وأمَّا السيّاح، فكانوا ينوؤون تحت ثقل حقائبهم المعلَّقةِ على ظهورهم، ويتفرَّسون في ما حولهم وكأنَّهم استيقظوا قبل وقتٍ قصير. وكان الصبيان الذين يعملون في تلميع الأحذية يطقطقون بفرشاتهم على صناديقهم النُّحاسيَّة المزيَّنة بصور

الممثّلات . ذات الوجهَيْن: فهنَّ محتشماتٌ من الأمام، وعارياتٌ من الخلف. وراح الباعة الجوّالون يُقشّرون الخيارَ المملَّح، ويعصرون عصائرَ طازجةً، ويحمّصون الحمُّص، ويتصايحون. وأخذ سائقو السيَّارات يُطلقون أبواقَ سيَّاراتهم من غير سببٍ. وامتزجتْ روائحُ التبغ والعرق والعطور والأطعمة المقليَّة، والسكائر المحشوَّة بالحشيش . وإنْ كانت محظورةً . بهواء البحر المالح.

كانت الشوارعُ الجانبيَّة والأزقَّةُ أنهارًا من الورق. فالملصقات الاشتراكيَّة والشيوعيَّة والفوضويَّة تحتشد على الجدران، وكلُّها تدعو الطبقةَ العاملةَ، وطبقةَ الفلَّاحين إلى الانضمام إلى الثورة المقبلة. وهنا وهناك، تجد الملصقات وقد تعرَّضتْ للتَّمزيق والتَّشويه بشعارات اليمين المتطرِّف الذي وَضَعَ رموزَه بدلًا منها، ومنها صورةُ ذئبٍ داخل هلال. وراح كنّاسو الشوارع يلتقطون هذه النفايات بمكانسهم المهلهلة، ونظراتِهم المرهقة، وقواهم المنهكة التي هدَّتها معرفتُهم أنَّ ملصقاتٍ جديدةً سوف تهبط على المكان إذا ما استداروا.

وعلى مسافة بضع دقائق من السَّير بعيدًا عن الميناء، وعلى مقربة من جادّةٍ منحدرة، كان يقبع شارعُ المواخير. وكانت ثمَّة بوَّابةٌ من الحديد بحاجة إلى طبقةٍ جديدةٍ من الطلاء تَفْصل المكانَ عن العالم الخارجيّ. وأمام البوَّابة، وقف عدد قليل من رجال الشرطة وهم يتناوبون في عملهم، كلَّ ثماني ساعات. وكان جليًّا من هيأتهم أنَّ بعضَهم يمقت مهنتَه، ويحتقر هذا الشارعَ السيِّئَ السُّمعة، وكلّ من يتجاوز عتبته: الرجال والنساء على حدّ سواء. وكان تصرُّفهم الخشن المؤنِّب يدفعهم إلى النَّظر من دون أن تَطْرف لهم عينٌ إلى الرجال المتسكِّعين قرب البوَّابة، التوَّاقين إلى الدخول ولكنَّهم لا يرغبون في الوقوف في صفّ الدخول. وإذا كان بعض الضبَّاط ينظرون إلى وظيفتهم كأيّ وظيفةٍ أخرى، ويمارسون مهنةً مطلوبة منهم، بين يومٍ وآخر، فإنَّ آخرين كانوا ينظرون سرًّا بعين الحسد إلى المُقامرين، متمنِّين لو استطاعوا أن يتبادلوا المواقعَ، ولو لبضع ساعاتٍ!

كان الماخور الذي تشتغل فيه ليلى من أقدم المواخير في المنطقة. فيه مصباحٌ فلوريّ وحيد يرتعش ضوؤه عند المدخل بقوَّة ألف عود ثقابٍ صغير تحترق واحدًا تلو آخر. أمَّا الجوّ، فقد ثقُل برائحة عطورٍ رخيصة، وكسَت الصنابيرَ قشورٌ كلسيَّة، ولطّخت السقفَ بقعٌ بنِّيَّةٌ لزجة من النيكوتين والقطران بسبب تدخين التبغ على مدى سنين طويلة.

وانتشر تخريمٌ مُعقّد على امتداد جدران الأساس، رفيعًا مثل أوردة عينٍ متَّقدة. ومن تحت الأفاريز، خارجَ نافذة ليلى تمامًا، تدلّى عشُّ دبابيرَ فارغ ـ مُكوّر، ووَرَقيّ، وغامض. عالمٌ خفيّ. وكان يساورها شعورٌ، بين حينٍ وآخر، بالرغبة في لمس العشّ، وفي فتحه بالقوّة وكشفِ معماره المثاليّ؛ ولكنَّها ظلَّت تقول في سرِّها إنَّها لا تملك حقَّ إزعاجِ ما رغبت الطبيعةُ في بقائه كاملًا من غير نقصان.

كان هذا هو عنوانَها الثاني في الشارع نفسه. فقد كان البيتُ الأوَّل لا يُطاق، على نحوٍ دفعها قبل سنةٍ إلى أن تفعل شيئًا لم يتجرَّأ أحدٌ غيرها على فعله: فقد جمعتْ حاجيَّاتِها القليلة، وارتدت سترةً ممتازة، وخرجتْ تبحث عن ملاذٍ آخر في الماخور المجاور. وكان من جرَّاء هذا الخبر أن انقسم الناسُ في المنطقة إلى معسكرَيْن: طالب المعسكرُ الأوَّل بضرورة إعادتها على الفور إلى الماخور الأوَّل، وإلَّا فإنَّ كلّ بنات حوّاء سيفعلن في المستقبل الشيء نفسَه، فينتهكن بذلك عرفًا غير مُدوّنٍ من أخلاقيّات المهنة، وحينها سينهار العملُ بأكمله وتعمّ الفوضى؛ وأمَّا المعسكر الثاني، فقد أشار إلى أنَّ الضَّمير يُحتِّم توفيرَ ملاذٍ لكلّ باحثةٍ عنه. وفي نهاية المطاف، أحبَّت مديرةُ الماخور الثاني ليلى، ووافقتْ على استقبالها بعد أن أُعجبتْ بجسارتها، بقدرِ ما فكَّرت أيضًا أنَّها سوف تدرّ عليها مالًا وفيرًا. ولم تحصل على العمل في الماخور الثاني إلَّا بعد أن دفعتْ مقدارًا كبيرًا من المال إلى زميلتها، وعبَّرتْ عن شديد اعتذارها، ووعدتْ بأنَّها لن تدع مثل ذلك يحدث مجدَّدًا.

كانت مديرةُ الماخور الجديدةُ امرأةً ممتلئةَ الجسم، ذاتَ مشيةٍ حازمة، ووجنَتَيْن ورديّتَيْن متهدِّلتَيْن مثل حاشيتَيْن جلديَّتَيْن مستندتَيْن إلى أوتاد. وكانت تميل إلى مخاطبة كلّ رجلٍ يدخل البيتَ، أكان من الزبائن المنتظمين أم لا، بعبارة «أيُّها الباشا». واعتادَت، كلَّ بضعة أسابيع، أن تقصد صالونَ حلاقةٍ يُدعى «سپليت إندز»، حيث تصبغ شعرَها بظلال اللَّون الأشقر. أمَّا عيناها، فكانتا واسعتَيْن وجاحظتَيْن، ما يمنح الانطباعَ بأنَّها مبهوتةٌ دومًا، مع أنَّها نادرًا ما كانت كذلك. وهناك شبكةٌ من شُعيْراتٍ متكسِّرة تتأرجح على حافَّة الأنف الضخم، وكأنَّها جداولُ ماءٍ تنساب من سفح جبل. لا أحدَ كان يعرف اسمَها الحقيقيّ. وكانت المومساتُ وأصحابُ العبّارات ينادونها بـ «المديرة الحلوة»، ولكنَّهم يصفونها من وراء ظهرها بـ «المديرة المُرَّة». كانت مقبولةً بقدر ما يتعلَّق الأمرُ بالمديرات، إلَّا أنَّها كانت تميل إلى فعل كلّ شيءٍ بقدْرٍ كبيرٍ من المبالغة: فهي تدخِّن أكثرَ ممَّا ينبغي، وتشتمُ إلى أبعد الحدود، وتصرخ صراخًا عاليًا باستمرار، وكانت حاضرةً أكثر من اللَّازم في حياتهنَّ . جرعة كبيرة جدًّا وحقيقيّة.

كانت «المديرة المُرَّة» تحبّ أن تتباهى بصوتٍ يشوبه التفاخُر:

ـ لقد أُسِّس ماخورُنا في القرن التاسع عشر، ولم يؤسِّسْه سوى السّلطان عبد العزيز العظيم نفسِه.

اعتادت المديرة أن تُثبِّت صورةً للسُّلطان وراء طاولتها ـ إلى أن وبَّخها زبونٌ ذو ميولٍ وطنيَّة متطرِّفة لوضع الصُّورة أمام الحاضرين. يومئذٍ أخبرها بكلّ جلاءٍ ألَّا تُسرف في إطراء مثل هذا الهراء من التغنّي بـ «أجدادنا النبلاء وماضينا المجيد». وسألها:

ـ لماذا يسمح السلطان ـ قاهرُ القارّات الثلاث والبحارِ الخمسة ـ بفتح بيت دعارةٍ قذرٍ في إسطنبول؟

غير أنَّ المديرة المُرَّة تلعثمتْ، ولوت منديلَها بعصبيَّةٍ، ثمّ ردّت:

ـ حسنًا، أعتقد أنَّ السَّبب يكمن في...

ـ مَن ذا الذي يهتمّ بما تعتقدين؟ أأنتِ مؤرّخة أمْ ماذا؟

رفعت المديرةُ المُرَّةُ حاجبيْها في دهشة، غير أنَّ الرجل قهقه ضاحكًا ضحكةً قصيرة، وأضاف متسائلًا:

ـ أو ربَّما أنتِ أُستاذة!

هنا، تهدّل كتفُ المديرةِ المرَّةُ. فمضى الرجل يقول من غير أن يضحك:

. لا يحقّ لامرأةٍ جاهلةٍ أن تُشوّهِ التاريخ، وعليكِ أن تفهمي بوضوح أنْ لا مواخيرَ مرخَّصةً في الأمبراطوريّة العثمانيَّة. وإذا ما رغبَتْ بضعُ سيِّدات في مزاولة مهنتهنَّ خِفيةً، فلا بدَّ أن يكنَّ من النصارى أو اليهود أو غجريّاتٍ ملحدات. إنَّني أقول لكِ: ما من امرأةٍ مسلمةٍ حقيقيَّة توافق على مثل هذا الفسوق والفجور، وإنَّها لتفضِّل الموتَ جوعًا على الموافقة على بيع جسدها. إلى هنا وكفى. أزمنة حديثة، أزمنة بذيئة!

بعد هذه المحاضرة، أزالت المديرةُ لوحةَ السُّلطان عبد العزيز، ووضعتْ مكانَها لوحةَ طبيعةٍ صامتة، تحتشدُ بثمار الحمضيَّات والنرجس الأصفر. لكنْ لمَّا كانت اللَّوحةُ الثانية أصغرَ من الأولى، فقد بقيتْ آثارُ لوحة السُّلطان واضحةً على الجدار، رقيقةً وشاحبةً مثل خارطةٍ مرسومةٍ على الرمل.

أمَّا الزبون، فحين جاء ثانيةً رَحَّبتْ به المديرةُ مبتسمةً ومنحنيةً ترحيبًا ودِّيًّا وعذبًا، وقدَّمتْ له حسناءُ مُثيرةٌ فرخةً ساخنةً، وقد كان محظوظًا جدًّا أنّها لم تَفُته. ثمّ قالت له :

. سترحل عنَّا، أيُّها الباشا. ستعود أدراجَها إلى قريتها صباح الغد. لقد أفلحَتْ في سداد ديونها كلّها. ما الذي في وسعي أن أعمله؟ قالت إنَّها سوف تقضي بقيَّةَ عمرها في التوبة إلى اللَّـه، فقلتُ لها: «حسنًا تفعلين! وفي وسعك أن تُصلّي من أجلِنا نحنُ أيضًا.«

كانت كذبةً. كذبةً وقحة. فقد كانت الحسناءُ تريد تركَ العمل لسببٍ مختلفٍ تمامًا. ففي زيارتها الأخيرة إلى المستشفى، تبيَّن بعد الفحص أنَّها مصابةٌ بالسَّيلان والسفلس. وبعد أن حُظِرَتْ عليها مزاولةُ العمل في الماخور، اضطرَّت إلى الابتعاد عن المبنى، حتى تُشفى تمامًا من المرض. لم تُخبر المديرةُ الرجلَ بهذه التَّفاصيل حين تسلّمَت النقودَ منه ووضعتْها في الدُّرج؛ فهي لم تنسَ قسوتَه وغَلظَتَه معها. لا أحد كان يتجاسر على مخاطبتها على ذلك النحو، وبخاصَّةٍ أمام العاملين والعاملات في الماخور. كانت المديرة تتمتَّع بذاكرةٍ ممتازة، بخلاف مدينة إسطنبول المعروفة

بفقدان الذاكرةِ المتعمّد. فهي تتذكَّر كلَّ خطأ يرتكبه الناسُ في حقِّها، ولكنَّها تأخذ بثأرها حين تحين اللَّحظةُ المناسبة.

***

كانت الألوانُ داخل الماخور كابيةً، كئيبةً: بُنِّيًّا بلا روح، وأصفرَ باهتًا، وأخضرَ بلا طعمٍ أو نكهةٍ، يشبه لونَ ما تبقَّى من الحساء. ما إن صدح صوتُ المؤذِّن بصلاة المغرب من على قباب المدينة الرَّماديَّة الدَّاكنة والسُّطوح المنحنية، حتَّى أضاءَت المديرةُ المُرَّةُ الأنوارَ المنبعثةَ من سلسلة مصابيح عاديَّةٍ بظلال النيليّ والأحمر الضارب إلى الأرجوانيّ الشاحب والياقوتيّ، فغمر المكانَ ألَقٌ هو الأغربُ من نوعه، كأنَّ جنِّيَّةً مخبولةً قد قبّلته. وإلى يمين المدخل، ثمَّة رقعةٌ كبيرةٌ مكتوبة باليد، ومؤطّرةٌ بإطار معدنيّ، وهي أوَّلُ ما يراه الداخل إلى المكان. كُتِب فيها:

» أيُّها المواطن! إذا أردتَ أن تحمي نفسَكَ من السفلس وغيرِهِ من الأمراض التي تنتقل بالممارسة الجنسيَّة، فيجب أن تلتزمَ بالآتي:

1 . قبل أن تذهب إلى حُجرةٍ برفقة امرأة، اطلُب الاطّلاعَ على بطاقتها الصحِّيَّة. تأكَّدْ من سلامة صحّتها!

2 . استعمل الواقي. تأكَّدْ من استعمال واقٍ جديدٍ كلَّ مرَّة. ولن تدفع ثمنًا باهظًا لقاءه. اسأل الفتاة، وستطلب منك ثمنًا معتدلًا.

3 . إذا ساورتْكَ الشكوكُ في أنَّك قد أُصبتَ بمرض، فلا تقضِ أيّ وقتٍ أطول في هذا المكان، بل سارعْ إلى زيارة الطبيب.

4 . يمكن تفادي الإصابة بالأمراض المتنقِّلة عن طريق الممارسة الجنسيَّة إذا كنتَ مُصمِّمًا على حماية نفسك وحماية وطنك.«

كانت ساعاتُ العمل من العاشرة صباحًا وحتَّى الحادية عشرة ليلًا. وكانت ليلى تحظى باستراحةٍ لشرب القهوة: نصفَ ساعة بعد الظهر، وخمسَ عشرةَ دقيقة ليلًا. لم توافق المديرة على استراحة

في المساء، غير أنَّ ليلى تشبَّثتْ بالاستراحة مؤكِّدةً أنَّها ستصاب بالشقيقة إنْ لم تتناول جرعتَها من القهوة المنكّهةِ بطعم الهال.

في صباح كلِّ يوم، وحالما تُفتح الأبواب، تجلس النساءُ على الكراسي الخشبيَّة والمقاعد الواطئة، وراء ألواح زجاجيَّة في المدخل. أمَّا الملتحِقات بالماخور مؤخَّرًا، فيمكن تمييزُهنَّ عن المحنَّكات، المتمرِّساتِ القدامى، من خلال حركاتهنَّ. كانت القادماتُ الجديدات يجلسن وأيديهنّ في أحضانهنّ، نظراتُهنّ بعيدةٌ غير ثابتة، وكأنّهنّ سائراتٌ في نومهّن وقد استيقظن للتوِّ ووجدن أنفسهنّ في مكانٍ غريب. أمَّا اللَّواتي مضى عليهنَّ في هذا المكان زمنٌ أطول، فقد كنَّ يتنقَّلن في الحُجرة من غير اكتراث، وبكلّ حرِّيَّة، ينظِّفن تحت أظافر أصابعهنَّ، وينشغلن بحكّ المناطق التي تستدعي الحكَّ، ويستخدمن المراوحَ اليدويَّةَ للترويح عن أنفسهنَّ، ويتفحَّصن أشكالهنَّ أمام المرآة، وكلُّ واحدةٍ منهنَّ تَضْفر شعرَ الثانية، ولم يخشيْن من النَّظر إلى الرجال، بل كنَّ يُراقبنهم من غير مبالاة وهم يتسكَّعون وحيدين أو أزواجًا أو في جماعات.

اقترحتْ بعضُ النِّساء الاشتغالَ بأعمال الإبرة أو الحياكة أثناء ساعات الانتظار الطويلة. إلَّا أنَّ المديرة ما كانت لتصغي إليهنَّ، بل تقول:

ـ الحياكة؟ يا لها من فكرةٍ بليدة! هل تَرْغبن في تذكير هؤلاء الرجال بزوجاتهم المثيراتِ للضجر، أو ـ وهذا هو الأسوأ ـ بأمَّهاتهم؟ كلّا، إطلاقًا. مهمّتُنا أن نقدِّم إليهم ما لم يروْه في بيوتهم، لا المزيدَ منه!

كان هذا الماخور واحدًا من بين أربعة عشر ماخورًا تنتشر على طول الشارع المسدود. لهذا، كانت أمام الزبائن خياراتٌ مُتعدِّدة. فكانوا يذرعون الشارعَ جيئةً وذهابًا، ويتوقَّفون ويُلْقون نظراتٍ خبيثة، ويدخِّنون ويفكِّرون ويتبصَّرون في الخيارات. وإذا احتاجوا إلى وقتٍ آخر للتَّفكير، توقَّفوا قرب بائعٍ جائل، وشربوا عصيرَ

الخيار المخلَّل، أو تناولوا معجَّناتٍ مقليّةً تُعرف باسم كيرهانِه تاتليسِه، وتعني «حلوى الماخور». وتعلَّمتْ ليلى من التجربة الأولى أنَّ الرجل الذي لم يتَّخذ قرارَه في الدَّقائق الثلاث الأولى، فإنَّه لن يتَّخذه بعد ذلك أبدًا، فتوجِّه انتباهَها إلى شخصٍ آخر بعد تلك الدقائق.

كانت معظمُ العاهرات يمتنعن عن مناداة أصحاب العبّارات، ويكتفين بإرسال قبلة عابرةٍ أو غمزةٍ، أو إظهار قَدْرٍ من مفاتنهنّ، أو يكشفن عن سيقانهنّ. غير أنَّ المديرةَ المُرَّة ما كانت لتوافق على ظهور بناتها بمظهر الرَّاغبات في الرِّجال أكثرَ ممَّا ينبغي، وتؤكِّد لهنَّ أنَّ ذلك يُخفِّض من قيمة «البضاعة». كما أنَّها لم تكن ترغب في أن يتصرَّفن ببرودٍ وكأنَّهنَّ غيرُ متأكِّدات من قيمتهنّ. لا بدَّ من «توازن دقيق» . ولا يعني هذا أنّ المديرة نفسَها كانت متوازنةً إلى ذلك الحدّ، لكنّها كانت تتوقَّع من الفتيات العاملات في ماخورها ما كانت تفتقرُ إليه بشدّة.

***

كانت غرفةُ ليلى في الطابق الثاني، الأولى إلى جهة اليمين؛ «أفضل موقعٍ في الدار»، بحسب ما يقوله الجميع. ولا يعود ذلك إلى توافر وسائل الرفاهيَّة، أو إطلالتها على البوسفور، وإنَّما لأنَّ صوتها سيَبْلغ الطابقَ الأرضيّ إذا ما حدث أيُّ حادث. أما الغُرفُ التي تقع على الطرف الآخر في نهاية الممرّ، فكانت الأسوأ، إذ لا أحد سيهبّ للنجدة إنْ صرخت المستغيثةُ بأعلى صوتها.

كانت ليلى قد وضعتْ أمام الباب حصيرةً هلاليَّةَ الشَّكل كي يَمسح الرجالُ أحذيتهم بها. لم يكن في الغرفة سوى النزر اليسير من الأثاث: سرير مزدوج مُغطًّى بغطاءٍ مُزيّنٍ بصورة نباتات، وثنيَّات مناسبة، ويحتلّ معظمَ أجزاء الغرفة. وإلى جانب السَّرير خزانةٌ ذات درجٍ مُزوَّد بقفل، تحتفظُ فيه برسائلها وأشياء مُختلفة ذات قيمةٍ وجدانيَّة لها، وإنْ لم تكن ثمينةً كلّها. وأمّا الستائر، التي كانت رثّةً وباهتةً بفعل الشَّمس، فكانت بلون شرائح البطِّيخ الأحمر . في حين أنَّ النقاط السُّودَ الشبيهة بالبذور كانت في الواقع آثارًا خَلّفها حرقُ السجائر. وفي أحد أركان الغرفة، انتصب حوضُ

غسيلٍ متصدِّع، وطبَّاخٌ غازيّ، استقرَّ فوقه إبريقُ قهوةٍ نحاسيٌّ. وبجانب الطبَّاخ خُفٌّ من المخمل الأزرق، وعليه

وردٌ من الساتان وخرزاتٌ عند الأصابع. كان هذا الخفُّ أجملَ ما تملكُه. أمَّا عند الجدار، فثمَّة خزانةُ ثياب من خشب الجوز لا تنغلق بسهولة؛ وفي داخلها، تحت الثياب المعلَّقة، مجموعةٌ من المجلَّات، وعلبةُ بسكويت مملوءةٌ بواقياتٍ ذكريّة، وبطَّانيَّةٌ نتنةُ الرَّائحة مهملة منذ زمن طويل. وعلى الجدار المقابل مرآةٌ، ثُبِّتتْ على إطارها بطاقاتُ تهنئةٍ بصور لبريجيت باردو وهي تدخِّن سيجارًا رفيعًا، وراكيل ولش بثوب سباحةٍ جلديٍّ من قطعتَيْن، وأعضاء فريق البيتلز الغنائيّ وصديقاتهم الشقراوات وقد جلسوا جميعًا فوق سجادةٍ نُقِشتْ عليها صورةُ مُتصوِّفٍ هنديّ، فضلًا عن صور أخرى لأمكنة . مثل نَهرٍ في إحدى العواصم يتلألأ تحت شمس الصَّباح، وساحةٍ على الطراز الباروكيّ تكسوها طبقةٌ رقيقةٌ من الثلج، وشارعٍ فسيحٍ مُرصّعٍ بأنوار اللَّيل . لم يسبقْ لليلى أن زارتها من قبل، إلَّا أنَّها كانت تتطلَّع بشوقٍ إلى استكشافها ذات يومٍ: برلين ولندن وباريس وأمستردام وروما وطوكيو...

كانت الغرفة مميَّزةً من مختلف النواحي؛ لكونها تَكْشف عن مكانة ليلى، إذ كانت معظمُ الفتيات الأخريات لا يتمتَّعن بهذا النَّمط من الراحة. فقد أحبَّت المديرةُ المُرَّةُ ليلى حبًّا شديدًا . لأنَّها كانت نزيهةً ومجتهدةً في عملها، ولأنّها كانت تشبه شبهًا غريبًا شقيقتَها التي سافرتْ منذ عقودٍ طويلةٍ إلى البلقان.

كانت ليلى في السَّابعة عشرة حين جيء بها إلى هذا الشارع؛ فقد باعَها إلى أوَّل ماخورٍ زوجان منغمسان في الدعارة ومعروفان في أوساط الشرطة. حدث ذلك قبل ثلاثة أعوام تقريبًا، وإنْ بدت تلك المدَّة وكأنَّها تنتمي إلى حياةٍ أخرى: فليلى لم تتكلَّم عليها، مثلما لم تتكلَّم على سبب هروبها من بيتها، ولم يكن في حوزتها غيرُ خمس ليرات وعشرين قرشًا. كانت تعتبرُ ذاكرتَها مقبرةً؛ دُفنتْ

فيها مقاطعُ من حياتها، ممدَّدةً في قبورٍ منفصلة، ولم تكن لديها أيُّ نيَّة في بعثها إلى الحياة من جديد.

كانت الأشهرُ الأولى في هذا الشارع غايةً في الظلمة. أمَّا النهارات، فهي أشبهُ ما تكون بحبلٍ يَشدُّها إلى اليأس، ما دفعها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ إلى التَّفكير في الانتحار؛ في موت سريع وهادئ، ويمكنها الإقدامُ عليه. في تلك الأيَّام، أقلقتْ راحتَها كلُّ التَّفاصيل، وكان كلّ صوتٍ يشبه هزيمَ رعدٍ يصمّ أذنيْها. وحتَّى بعد أن جاءت إلى منزل المديرة المُرَّة، وكان ملاذًا آمنًا بعضَ الشيء، فإنَّها لم تفكِّر في قدرتها على الاستمرار على هذه الحال. فالرَّائحة النتنة المنبعثة من المراحيض، وذرقُ الفئران في المطبخ، والصراصيرُ في القبو، وأوجاعُ فم الزبائن، والثآليلُ المنتشرة على يد إحدى المومسات، وبقعُ الطعام المنتشرة على بلوزة المديرة، والذبابُ الطنَّان هنا وهناك. كلّ شيء جعلها تصاب بحكَّةٍ تعذَّرت السيطرةُ عليها.

أمَّا في اللَّيل، عندما كانت تضع رأسَها فوق الوسادة، فكانت تتعرَّض للإغماء، إذ كانت تنتشر في الأجواء رائحةُ النحاس، الذي عَرفتْ أنَّه يدلّ على تعفُّن الجسد، وخشيتْ أن يتسرَّب إلى ما تحت أظافر أصابعها، ومنها إلى دورتها الدمويَّة. كانت واثقةً بأنَّها أُصيبت بمرضٍ مُروِّعٍ بسبب العدوى، وبأنَّ طفيليَّات غير مرئيَّة كانت تزحف من تحت جسدها وفوقه. وفي حمَّام الحيّ الذي كانت مومساتُ المواخير يذهبن إليه مرَّةً في الأسبوع، كانت ليلى تستحمّ وتفرك بدنَها إلى أن يحمرّ كلون الدم. وحين عودتها، كانت تضع وسائدَها وملاءاتها في ماءٍ مغليّ. لكنْ من غير فائدة، إذ ظلّت الطفيليَّاتُ تعود من جديد.

قالت المديرةُ المُرَّة:

ـ قد يكون الأمر حالةً نفسيَّة. رأيتُ مثلَ هذا من قبل. انظُري إليَّ. إنَّني أدير مكانًا نظيفًا هنا. إنْ لم يعجبْكِ، فيمكنكِ العودة. لكنَّني أقول لك إنَّ هذا كلّه من وحي خيالك. أخبريني، هل كانت والدتك مهووسةً بالنظافة مثلك؟

جمدتْ ليلى في مكانها، ولم تَعُد تحكّ جسمَها. فقد كان آخر شيءٍ ترغب فيه هو أن تتذكَّر العمَّةَ بينّاز، أو ذلك البيتَ الرَّحيبَ الوحيدَ في بلدة ڤان.

* * *

كانت النافذة الوحيدة في غرفة ليلى تُطلّ على المباني الخلفيَّة: باحة صغيرة بشجرة بتولا وحيدة، ومن ورائها مبنًى مُتداعٍ بقي

شاغرًا إلَّا من ورشةِ نجارةٍ على الطبقة الأرضيَّة. وفي الداخل، كان أربعون رجلًا تقريبًا يكدُّون

ويَشْقَوْن ثلاث عشرة ساعةً في النهار، يستنشقون الغبارَ والطلاءَ والموادَّ الكيمياويَّة التي لا يعرفون لها اسمًا. كان نصفُهم من المهاجرين غير الشرعيِّين. ولم يكن لأيٍّ منهم تأمينات، ولم يتجاوز أكبرُهم الخامسةَ والعشرين. كان عملًا لا يستطيع المرءُ الاستمرارَ فيه مدَّةً طويلة؛ فالأبخرة المتصاعدة من المواد الكيمياويَّة كانت تُتلف رئاتِهم.

أشرَف عليهم رجلٌ مُلتَحٍ، وكان كبيرَ العمَّال. نادرًا ما يتكلَّم، ولم يتبسم أبدًا. وفي أيَّام الجُمَع، ما إنْ يذهب إلى المسجد، معتمِرًا الطاقيّةَ، والمسبحةُ في يده، حتَّى يفتح الرِّجالُ الآخرون النوافذَ، ويمدُّون أعناقَهم، محاولين التجسُّسَ على العاهرات. غير أنَّهم لم يتمكَّنوا من رؤية الكثير، لأنَّ الستائر في الماخور كانت مُسدلةً معظمَ الأوقات. لكنَّهم لم يستسلموا، بل ظلُّوا توَّاقين إلى رؤية ردفٍ مقوَّسٍ من فوق ساقٍ عارية. وكانوا يقهقهون قهقهاتٍ صغيرةً وهم يتشدَّقون، بعضهم أمام بعض، بتلصُّصِهم المثير. وكان الغبار

الذي يغطِّيهم من قمَّة الرَّأس حتَّى أخمص القدمَيْن يمنحهم التَّجاعيدَ، ويصبغ شعرَهم باللَّون الرَّماديّ، ولا يُظْهرهم بمظهر المسنِّين بقَدْرِ ما يُبْديهم مثلَ أشباحٍ عالقةٍ بين عالمَيْن.

في الجانب الآخر من الفِناء، تبقى النساءُ على وجه العموم غيرَ مكترثات. ولكنْ، بين حين وآخر، تجد إحداهنّ واقفةً فجأةً قرب النافذة، بدافع الفضول أو الرأفة، وهو ما يصعب التأكُّد منه، ثمَّ تميل على الحافَّة الناتئة، متدلِّيةَ النَّهدَيْن على ساعدَيْها، وهي تدخِّن بهدوء، إلى أن تحترق السيجارةُ حتّى آخرها.

كان لبعض العمَّال في الورشة صوتٌ جميل. وكانوا يحبُّون الغناء، ويتناوبون على تولِّي زمام القيادة. ففي عالمٍ لم يستطيعوا فهمَه تمامًا، ولا التغلُّبَ عليه، كانت الموسيقى البهجةَ المجَّانيَّة الوحيدةَ. ولهذا، كانوا يغنُّون بإسهابٍ وشغف. يغنُّون بالكرديَّة والتركيَّة والعربيَّة والفارسيَّة والجورجيَّة والشركسيَّة والبلوشيَّة والباشتو؛ يغنّون لأخيلة النساء وراء النوافذ؛ لأشكالهنَّ التي يَغْمرها الغموضُ، وكأنّها ظلال، لا أجسادٌ.

في إحدى المناسبات، أزاحت ليلى الستائرَ من على الجانبَيْن، ورنت إلى الخارج، نحو ورشة الأثاث، مدفوعةً بجمال الصوت الذي ترامى إلى سمعها، بعد أن كانت تُسدل ستائرَها بإحكام. فرأت شابًّا يحدِّق عاليًا في اتِّجاهها، وهو يواصل إنشادَ إحدى أكثر القصائد مدعاةً للحزن، وظلَّت تسمعها حتَّى اليوم، وتدور قصَّتُها حول عاشقَيْن هاربَيْن فُقِدا جرَّاء الفيضان. كانت عيناه أشبهَ بلوزتيْن، ولونُهما بلون الحديد البرَّاق. وكانت تجاعيدُ فكَّيْه بارزةً، وذقنُه يتميَّز بفحصةٍ واضحة. نظراتُه الرَّقيقة هي التي أثارت دهشةَ ليلى؛ نظراتٌ تخلو من أيّ مطامع. تبسَّم لها ابتسامةً كشفَت عن صفّ متناسقٍ من الأسنان البِيض. ولم تستطع منعَ نفسها من أن تُبادِلَه الابتسامة. لطالما أدهشتْها هذه المدينة؛ فلحظاتُ البراءة تتوارى في أحلك زواياها، وهي لحظاتٌ صعبةُ المنال، حتى إنَّها عندما أدركتْ نقاءَها وصفاءها كانت قد انتهتْ.

صاح بها من بين دمدمة الرِّيح:

ـ ما اسمُكِ؟

أخبرته باسمها، ثمَّ سألته:

ـ وما اسمُكَ أنت؟

ـ أنا؟ ليس لي اسمٌ حتَّى الآن.

ـ لكلّ امرئٍ اسم.

ـ هذا صحيح، لكنَّني لستُ معجبًا باسمي. في وسعكِ أن تسمِّيني «هيتش» (لا شيء .(

في يوم الجمعة التالي، حين رنَت مجدَّدًا من النافذة، لم تعثرْ عليه. ولم تجدْه أيضًا في الأسبوع التالي. فافترضتْ أنَّه اختفى إلى الأبد، ذلك الرجل الغريب المؤلَّف من رأسٍ ونصفِ جسد، ومؤطّر بنتوء النافذة، مثل لوحةٍ تعود إلى قرنٍ مختلفٍ من القرون الغابرة، وكأنَّها من نتاج خيالٍ آخر.

إلَّا أنَّ مدينة إسطنبول ما انفكَّت تثير دهشتَها. فبعد عامٍ بالتمام والكمال، ستلتقيه مجدَّدًا... مصادفةً.

في هذه الأيَّام، بدأت المديرةُ المُرَّةُ بإرسال ليلى إلى زبائنها المحترمين. وعلى الرَّغم من الحظر الرسميّ المفروض على الماخور، فقد ظلَّت كلُّ المعاملات الجارية في المبنى قانونيَّةً. أمَّا خارج المباني، فلم تكن مرخَّصة ـ ولهذا لم تكن خاضعةً للضرائب. وهنا، انغمست المديرةُ في هذا المشروع الجديد، وجازفتْ مجازفةً

كبيرة، وإنْ مجزية. فإذا ذاع خبرُه، فسوف تُرفَع قضيَّةٌ ضدّها، وستُسجن على الأرجح. إلَّا أنَّها وثقتْ بليلى، واتَّكلتْ عليها، مُدركةً أنَّها لن تخبر الشرطةَ عنها وإنْ قُبض عليها.

. أنتِ صموتة إلى حدٍّ ما، أليس كذلك؟ يا لكِ من فتاةٍ طيِّبة!

في إحدى اللَّيالي، دهم رجالُ الشرطة عشرات النوادي اللَّيليّة والمشارب، وكلَّ ما هو غير مرخَّصٍ على كلا جانبَي البوسفور، واعتقلوا مجموعةً من مرتادي النوادي الصغار السنّ ومدمني المخدّرات والمشتغِلات في مجال الجنس. وَجدتْ ليلى نفسَها وحيدةً في زنزانةٍ برفقة امرأةٍ فارعةِ الطول، متينةِ البنيان، عرّفتْ نفسَها بأنَّها تُدعى نالان، وتهالكتْ في أحد الأركان تدندن من غير انتباه، وتَنْقر على الجدار نغمةً موسيقيَّةً بأظافر أصابعها الطويلة.

ما كانت ليلى لتستدلّ على الأغنية لو لم تأْلَفْها؛ فهي الأغنية الشعبيَّة القديمة نفسُها. وقد دفعها الفضولُ إلى التفرُّس في وجه المرأة، متأمِّلةً عينَيْها البنِّيَّتَيْن الدافئتَيْن البرَّاقتَيْن، وفكَّها العريض جدًّا، والفحصةَ في ذقنها.

سألتْ ليلى وهي تشهق شهقةً عجيبة:

ـ هيتش؟ أتذكرينني؟

مالت المرأة برأسها جانبًا، وكان من الصعب قراءةُ ملامح وجهها للوهلة الأولى. غير أنَّها ابتسمتْ بعد قليلٍ ابتسامةً ملأتْ وجهَها، ووثبتْ من محلّها، وتفادت بصعوبةٍ ارتطامَ رأسها بالسقف الواطئ.

ـ أنتِ فتاةُ الماخور! ماذا تفعلين هنا؟

في ليلة الاعتقال تلك، وقد عجزتا عن النوم فوق الحشوات الملطَّخة بالقاذورات، تحدَّثتا في الظلمة أوَّلًا، ثمَّ في ضوء الفجر الخافت. أوضحتْ نالان أنَّها عند لقائها ليلى في الماضي، كانت تعمل موقّتًا في ورشة الأثاث، وتدّخر النقودَ من أجل تغيير جنسها ـ وهو تغييرٌ تبيَّن أنَّه أغلى ثمنًا، وأشقُّ ممَّا كانت تتوقَّع، وأنَّ الجرَّاح التجميليّ كان وغدًا حقيقيًّا. إلَّا أنَّها صمّمتْ على اجتياز العمليَّة من دون تذمُّر، ليس بصوتٍ عالٍ على الأقل. فقد كانت طوال حياتها أسيرةَ جسدٍ تشعر أنَّه غيرُ مألوف، مثل كلمةٍ أجنبيَّةٍ

على اللسان. فبعد ولادتها لأسرةٍ ثريَّةٍ من الفلَّاحين ومربّي الأغنام في منطقةٍ وسط الأناضول، جاءت إلى هذه المدينة لتصحيح الخطأ السافِر الذي اقترفتْه الطبيعةُ.

في الصباح، وعلى الرَّغم من الآلام التي سرت في ظهر ليلى من جرَّاء الجلوس طوال اللَّيل، وكانت ساقاها ثقيلتيْن ثقلَ الخشب، تملَّكها إحساسٌ بأنَّ ثقلًا ما قد أزيحَ عنها، ونسيتْ كلّ شيء سوى الإحساس بالخفَّة الذي غمر وجودَها.

وما إن أُطلِق سراحُ الاثنتيْن حتَّى أسرعتا بالذهاب إلى دكَّان لبيع المعجّنات، إذ كانتا في أمسّ الحاجة إلى شرب كوب من الشاي. وتلا الكوبَ الأوَّلَ عدَّةُ أكواب أخرى. وبعد ذلك اليوم، لم تتوقَّفا عن التواصل، وكانتا تلتقيان بانتظامٍ في الدكَّان نفسه الواقع في ركن أحد الشوارع. وعندما أدركتا أنَّ لديهما كلامًا كثيرًا تحتاجان إلى

البوح به حتَّى عند افتراقهما، بدأتا بالمراسلة. وغالبًا ما كانت نالان ترسل بطاقاتِ تهنئةٍ إلى ليلى مع بعض الملاحظات المدوَّنة على

ظهر البطاقة بعددٍ لا يُحصى من الأخطاء الهجائيَّة. أمَّا ليلى، فكانت تفضِّل الكتابةَ على الورق، مستخدمةً قلمَ حبر، وكان خطُّها أنيقًا متأنِّيًا، وهو ما تعلَّمته قبل سنين في إحدى مدارس بلدة ڤان.

راحت ليلى بين حينٍ وآخر تترك القلمَ وتفكِّر في العمَّة بينّاز، وتتذكَّر خوفَها الصامتَ من الأبجديّة. كانت ليلى قد كتبتْ إلى أسرتها عديدَ المرَّات، إلَّا أنَّ أحدًا لم يردّ. تساءلتْ عمَّا فعلوه برسائلها . هل احتفظوا بها في علبةٍ بعيدًا عن العيون أمْ مزَّقوها؟ هل استعادها ساعي البريد، وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أين أخذها؟ لا بدَّ من مكانٍ، عنوانٍ غامض توضع فيه الرَّسائلُ التي ظلّت غيرَ مرغوبة ولا مقروءة.

* * *

كانت نالان تقطن في شقَّةٍ شديدةِ الرُّطوبة تحت الأرض . في شارع صنّاع المراجل، غير بعيدٍ عن ساحة تقسيم . ذاتِ ألواحٍ أرضيَّة منحدرة، وإطاراتٍ نافذة ملتوية ومعوجّة، وجدرانٍ منحنية؛ شقَّة مشيَّدة على نحوٍ عجيب، لدرجة أنّهُ لا يمكن أن تُصمِّمَها إلَّا يدُ معماريّ مُنتَشٍ. تشاركتْ نالان هذا المكانَ مع أربع نساء عابراتٍ جنسيًّا، وسلحفاتيْن . توتي وفروتي . لا يستطيع أحدٌ سواها التَّمييزَ بينهما. وأثناء كلّ عاصفةِ مطرٍ، تبدو المواسيرُ وكأنَّها توشك على الانفجار، أو تبدو المرافقُ الصحِّيَّة وكأنَّها ستفيض، وإنْ كانت توتي وفروتي تعرفان العومَ معرفةً جيِّدة، على ما لاحظَتْ نالان .

لم يكن لقبُ «لا شيء» مناسبًا تمامًا لامرأةٍ قويّة الشخصيّة مثل نالان. لذا، قرَّرتْ ليلى أن تسمِّيها نوستالجيا (حنين). ولم يكن مردُّ ذلك إلى أنَّ لنالان عينيْن دامعتيْن إزاء الماضي الذي كانت سعيدةً جدًّا بتركه، بل لأنَّها كانت تشعر بحنينٍ حارقٍ إلى مسقط رأسِها. كانت تشتاق إلى الريف، وإلى وفرةِ الرَّوائح، وتشتاق إلى النوم في الهواء الطلق تحت سماءٍ صافيةٍ متراميةِ الأطراف. في ذلك المكان، لم يكن عليها أن تظلّ حَذِرةً طوال الوقت!

كانت نوستالجيا نالان مفعمةً بالحيويَّة والنشاط، وشديدةً على أعدائها، ومخلصةً لأشجع صديقاتها وأعزِّهنَّ: ليلى.

نوستالجيا نالان: أحدُ خمسةٍ.

- 4 -

قصَّة نالان

في وقتٍ مضى، ولفترةٍ طويلة من الزمن، كانت نالان تدعى عثمان؛ الابنَ الأصغرَ لأسرةٍ فلاحيَّةٍ من الأناضول. وكانت أيَّامُه، العابقةُ برائحة التربة المحروثة حديثًا والأعشابِ البرِّيَّة، حافلةً بالنشاط والعمل: حراثة الحقول، وتربية الدجاج، والعناية بالأبقار الحَلوب، والتأكُّد من أنَّ نحلَ العسل سيَصمد طوال فترة الشتاء. كانت النَّحلة الواحدة تعمل طوال حياتها القصيرة لتُنتج عسلًا لا يملأ إلَّا طرفَ ملعقةِ شاي. وكان عثمان يتساءل عمَّا يمكن أن يفعلَه في حياته. وكان هذا السُّؤال يثيره ويُفْزعه إلى أقصى حدّ.

كان اللَّيل يرخي سدولَه على القرية في وقتٍ مبكِّر. وبعد حلول الظلام، وبعد أن يَخْلد إخوانُه الأكبرُ سنًّا إلى النوم، كان يجلس على سريره قرب المصباح الزيتيّ، ثمَّ يشرع رويدًا رويدًا بتحريك يديْه لتنسجما والأغنيةَ التي يردِّدها ولا يسمَعها أحدٌ سواه. وكان يصنع أشكالًا من الظِّلال على الجدار المقابل. وفي الحكايات التي كان يؤلِّفها، تجده يؤدِّي الدَّورَ الرَّئيسَ فيها دومًا ـ دورَ شاعرة فارسيَّة، أو أميرةٍ صينيَّة، أو أمبراطورةٍ روسيَّة. وكانت الشَّخصيَّات تتغيَّر تغيُّرًا جذريًّا، بَيْدَ أنَّ شيئًا واحدًا ظلّ ثابتًا: كان يفكِّر أنَّه بنتٌ، لا ولد.

في المدرسة، لم تكن الأشياءُ تنطوي على اختلاف أكبر. فحُجرةُ الدرس لم تكن مكانًا للحكايات، وإنَّما مكانًا للقوانين والتَّعلُّم. ووجد صعوبةً في مُجاراة غيره من التلاميذ في تهجئة بعض الكلمات أو حفظ القصائد، أو أداء الصلاة باللُّغة العربيَّة. أمَّا المعلِّم ـ وهو رجلٌ صارمٌ، كالح الوجه، باردُ الأعصاب، يَذْرع حجرةَ الدرس جيئةً

وذهابًا، وبيده مسطرةٌ خشبيَّةٌ يستعملها لضرب التلاميذ المشاكسين . فلم يكن يطيقه صبرًا.

في كلِّ فصلٍ دراسيٍّ، حين يمثِّل التلاميذُ مسرحيَّاتٍ وطنيَّةً، كان التلاميذُ المشهورون يتزاحمون على أدوار أبطال الحرب التركيَّة، في حين يمثِّل بقيَّةُ تلاميذ الصفّ الجيشَ اليونانيّ. ومع ذلك لم يكن عثمان يُعارض تمثيلَ دور جنديٍّ يونانيٍّ، إذ كلُّ ما كان يتعيَّن عليه فعلُه هو أن يموتَ على جناح السرعة، ويبقى ممدَّدًا على خشبة المسرح طوال عرض المسرحيَّة. إلَّا أنَّه كان يمانع ويعترض على المشاكسة، وعلى التنمُّر الذي يواجهه كلَّ يوم. وبدأتْ هذه المشاكسة حين رآه أحدُ الصبيان حافيًا ذات يوم، ولاحظ أنَّه عمد إلى طلاء أظافر أصابع قدمَيْه، فقال له: «عثمان فتًى مُخنّث!» أن يسمع أحدٌ مثلَ هذه العبارة، فذلك أشبهُ بدخول حُجرة الدرس كلَّ صباح، وعلى جبينه وصمةُ عار.

كان والداه من أصحاب المال والأطيان، ويَقْدران على إرساله وأخواتِه إلى مدارسَ أفضلَ من تلك المدرسة. إلَّا أنَّ والده الذي لا يأتمن المدينةَ وسكَّانَها، فضَّل أن يتعلَّم أولادُه العملَ في الأرض. كان عثمان يعرف أسماءَ النباتات والأعشاب كما يعرف أقرانُه في المدينة أسماءَ مغنِّي البوپ ونجوم السينما. كانت الحياة مستقرّةً وهادئة، سلسلةً موثوقةً من الأسباب والنتائج. وكان مزاج الناس يستند إلى ما يحصلون عليه من سيولةٍ ناجمةٍ عن الحصاد، وهذا والحصاد يعتمد على فصول السنة، وهذه الفصول بيد اللّه، واللَّهُ لا يحتاج إلى أحد. وأمَّا المرَّة الوحيدة التي خرج عثمان فيها من هذه الدوْرة، فكانت عندما التحق بالخدمة العسكريَّة الإجباريَّة. في الجيش، تعلَّم كيفيَّةَ تنظيف المسدَّس، وحشوِ البندقيّة، وحفرِ الخنادق، ورمي قنبلةٍ يدويَّةٍ من أعلى السطح. وتلك مهارات تمنَّى ألَّا يحتاج إليها أبدًا. في كلِّ ليلةٍ، كان يشتاق، وهو في عنبر النوم رفقةَ ثلاثة وأربعين جنديًّا آخرين، إلى إحياء مسرحيَّات الطفل القديمة. لكنْ ليس ثمَّة جدارٌ خالٍ، ولا مصباحٌ زيتيٌّ يسحر النَّفس.

حينما عاد، وجد أنَّ أسرته ظلّت على حالها. أمَّا هو، فلم يكن كذلك. فقد كان يعرف دومًا أنَّه أُنثى في أعماقه، إلَّا أنَّ محنة الجيش أزهقتْ روحَه إلى الحدّ الذي شعر فيه، ويا للغرابة، بشجاعةِ أن يعيش على حقيقته. وشاء القدر، في ذلك الوقت، أن تأتي والدتُه إليه لتخبره بأنَّ عليه أن يتزوَّج الآن، وأن ينجبَ لها أحفادًا، على الرَّغم من كثرةِ أحفادها. ووهبتْ نفسَها للبحث عن زوجةٍ مناسبة، ضاربةً اعتراضاته بعرض الحائط.

في ليلة الزفاف، وبينما كان الضيوف يُصفِّقون على قرع طبول الموسيقيّين، والعروسُ الشابَّةُ تنتظر في غرفةٍ في الطابق العلْويّ، وحزامُ ثوبها مرخيّ، تسلَّل عثمان إلى الخارج. وهناك استطاع أن يسترق السَّمعَ إلى نعيق البوم العقابيّ، ونداءِ الكروان الذي يَألفُ الشواطئ الصخريَّة، وكانت أصواتًا مألوفة لديه كصوتِ أنفاسه.

سار سيرًا طويلًا مجهدًا اثنيْ عشر ميلًا إلى أقرب محطَّة. وهناك وثب إلى أوَّل قطار إلى إسطنبول، عازمًا ألَّا يرجع أبدًا. في البدء، نام نومًا خشنًا. كان يعمل مُدلِّكًا في حمّامٍ عموميٍّ لا يعرف قواعدَ الصِّحَّة والسلامة، وذي سمعةٍ سيِّئة. وبعد مدَّةٍ قصيرة، راح ينظِّف المرافقَ الصحِّيَّة في محطَّة القطار - حيدر باشا. في هذه المهنة الأخيرة، طوَّر عثمان معظمَ أفكاره ومعتقداته عن زملائه البشر. ينبغي ألَّا يحاول أحدٌ التفلسفَ في طبيعة البشر قبل أن يشتغلَ في المرافق الصحِّيَّة العموميَّة أسبوعيْن، ويشاهدَ ما يفعله الناس: تحطيم خراطيم المياه على الجدران، وخلع مقابض الأبواب، وكتابة العبارات البذيئة في كلِّ مكان، والتبوُّل على مناشف اليد، وترك كلّ أنواع القاذورات، وتلطيخ المكان، مدركين أنَّ ثمَّة من ينبغي أن يتولَّى تنظيف ذلك كلِّه.

لم تكن هذه المدينة على الصورة التي كان يتخيَّلها. والمؤكَّد أنَّ هؤلاء البشر ليسوا مَنْ كان يتمنَّى أن يشاطرهم الطرقَ الرَّئيسةَ أو الفرعيَّة. لكنْ هنا، في إسطنبول حصرًا، يستطيع أن يُحوِّل نفسَه إلى مَن هو عليه حقًّا. ولهذا، لبث في إسطنبول وثابر.

لم يَعُد عثمانُ نفسَه، بل ليس هناك الآن سوى نالان، ولا مجالَ للعودة إلى الوراء.

- 5 -

أربع دقائق

بعد أربع دقائق على توقُّف قلب ليلى عن الخفقان، مرّت في خاطرها ذكرى عابرةٌ تفوح منها رائحةُ البطِّيخ الأحمر ومذاقُه.

آب 1953. وقتئذٍ وصفت الأمُّ ذلك الصَّيفَ بأنَّه الأشدُّ حرارةً منذ عقود طويلة. تأمَّلتْ ليلى فكرةَ العقد: كم طولُه؟ كان إدراكُها للزمان ينسلُّ من بين أصابعها انسلالَ أشرطةٍ من حرير. كانت الحرب الكوريَّة قد وضعتْ أوزارَها قبل شهرٍ، وعاد شقيقُ العمَّة إلى قريته سالمًا لم يمسَسْه أذًى. فباتت العمَّة منشغلة التَّفكير، وقلقةً من أشياء أخرى. فقد ظهر حَملُها، وهو يكبر على نحوٍ حسن، بخلاف الحمْل السَّابق، إلَّا أنَّها كانت تشعر بالغَثَيان ليلًا ونهارًا. وحين تستبدّ بها نوباتٌ رهيبةٌ من الغَثَيان، يصعب أن تحتفظ بالطعام في معدتها. كما أنَّ حرارة الجوّ لم تساعدها. فاقترح بابا أن يتمتَّع أفرادُ الأسرة بإجازة، وأن يسافروا إلى إحدى مناطق البحر الأبيض المتوسِّط، تغييرًا للجوّ. ودعا شقيقَه وشقيقَته إلى السَّفر برفقتهم.

انحشروا جميعًا في حافلة صغيرة، وسافروا إلى بلدةٍ معروفةٍ بصيد الأسماك على الساحل الجنوبيّ الشرقيّ. كانوا اثنيْ عشر شخصًا. جلس العمّ بجانب السَّائق، ونورُ الشمس يَغْمر وجهَه بابتهاج. وراح يقصّ عليهم قصصًا فكاهيّةً عن أيَّام دراسته. وحين نفدتْ قصصُه، شرع يغنِّي بعضَ الأغاني الوطنيَّة، مشجِّعًا الجميعَ على الانضمام اليه. فانضمَّ إليه البابا.

كان العمُّ أنيقًا، فارعَ الطول، حليقَ الشَّعر حتَّى فروة الرأس، ذا عينَيْن رماديَّتَيْن تشوبهما زرقة، ورموشٍ طويلةٍ مُلتفّةٍ في نهاياتها. كان وسيمًا، بهيَّ الطلعة. هذا ما كان يُردِّده الجميع. وكان في وسع المرء أن يلاحظ أنَّ سماعَ العمّ الإطراءَ نفسَه طوالَ حياته قد أثَّر في سلوكه. فكان يبدو سهلَ الانقياد، بسيطًا، وهو ما كان يفتقر إليه بقيَّةُ أفراد الأُسرة افتقارًا واضحًا. وراح العمّ يردِّد في هذه اللَّحظة:

. انظروا إلينا. إنَّ أسرة أكارسو الجبَّارة تتمتَّع بإجازة! وفي وسعنا تشكيلُ فريق كرةِ القدم.

أمَّا ليلى الجالسة في الخلف مع والدتها، فقد هتفتْ في عجب:

. يحتاج الفريق إلى أحد عشر لاعبًا، لا إلى اثنيْ عشر.

تساءل العمّ:

. هكذا إذًا؟

ثمَّ نظر إليها من فوق كتفه، وأردف:

. إذًا، سنكون نحن أعضاءَ الفريق وأنتِ المديرة، فما هي أوامركِ؟ سنفعل ما يحلو لكِ. نحن في خدمتكِ أيَّتها المديرة.

أشرق وجهُ ليلى، مبتهجةً بمستقبلٍ تكون فيه مديرةً مَرَّةً واحدة. وأثناء بقيَّة الرِّحلة، تصرَّف العمُّ بسعادة في رفقتهم. وكلَّما توقَّفوا

للتزوُّد بالطعام أو الوقود، كان العمّ يفتح البابَ لها، ويأتيها بالمشروبات والبسكويت. وبعد أن أمطرت السَّماءُ قليلًا عند العصر، حملها من فوق بركةٍ على الطريق كي لا يتَّسخ حذاؤها.

قال بابا وهو ينظر من الجانب:

ـ أهي مديرةُ فريق كرة القدم، أمْ بلقيس ملكةُ سبأ؟

قال العمّ :

ـ إنَّها مديرةُ فريقنا لكرة القدم، وملكةُ قلبي.

فابتسم الحاضرون.

كانت سياقةُ الحافلة طويلةً وبطيئة. وظلَّ السَّائق ينفض سجائرَه، فيتصاعد دخانٌ رفيعٌ حوله، باعثًا رسائلَ غير مقروءة فوق رأسه. ولاحت الشمسُ خارج الحافلة شديدةَ الحرارة وهي تُسلّط أشعَّتها القوِيَّة على الأرض. أمَّا داخل الحافلة، فكان الهواء عَفِنًا وخانقًا.

احتفظتْ ليلى بيدَيْها تحت ساقَيْها لتمنع الحرارةَ الدبقةَ من حرْق مؤخّر فخذَيْها. إلَّا أنَّها شعرتْ بعد وهلةٍ قصيرةٍ بالإعياء، فأمسكتْ عن تلك الوضعيَّة. تمنَّت لو كانت ترتدي ثوبًا طويلًا أو سروالًا فضفاضًا بدلًا من الشورت القطنيّ. لكنْ، لحسن الحظّ، تذكَّرتْ أن تجلب معها قبَّعةً من القشّ، مع كرزٍ أحمرَ برَّاقٍ كان يبدو شهيًّا إلى أبعد الحدود.

قال العمّ:

. دعونا نتبادل القبَّعات.

كان العمّ يضع على رأسه قبَّعة فيدورا بيضاءَ اللَّون، ذاتَ حافَّة ضيِّقة. وكانت تناسبُه تمامًا، وإنْ كان منظرها سيِّئًا.

ـ نعم، هيَّا.

بعد حلول الظلام، حدَّقتْ ليلى ـ وقبَّعتُها الجديدةُ على رأسها ـ خارجَ النافذة في اتِّجاه طريق السيَّارات الرَّئيس. كانت أضواءُ المركبات المارّة تشبه تلك الآثارَ الفضِّيَّةَ الرَّفيعةَ التي رأت القواقعَ تخلّفها في الحديقة. وإلى الوراء، من طريق السيَّارات الرَّئيس، كانت مصابيحُ الشارع تنبعث متألِّقةً من البلدات الصَّغيرة، ومجمَّعاتِ البيوت المتناثرة هُنا وهُناك، وتراءت ظِلالٌ لمآذنِ مساجدَ وقِبابها. تساءلتْ ليلى عن طبيعة العائلات التي تعيش في تلك البيوت، وعن الأطفال الذين يتفرّجون على الحافلة في هذه اللحظة ـ إن كان هُناك أيٌّ منهم ـ ويتساءلون عن وجهتها.

وبحلول وقت وصولهم إلى وجهة سفرهم، وكان وقتًا متأخِّرًا من ذلك المساء، كان النعاسُ قد غلب ليلى، فنامت وهي تحتضن قبَّعتها، بينما كان انعكاسُ صورتها في النافذة يطفو صغيرًا وشاحبًا على المباني.

***

تملَّكتْ ليلى الدَّهشةُ، والخيبةُ نوعًا ما، حين رأت المكانَ الذي سيقيمون فيه. فقد كانت ستائرُ البعوض القديمةُ الممزَّقةُ تغطِّي كلّ النوافذ، وزحفتْ بقعُ العفن إلى الجدران، واندفعت الأعشابُ الشوكيَّة والقرَّاص شاقَّةً طريقَها من خلال الحجارة المرصوفة في الحديقة. لكنَّها فرحتْ عندما شاهدتْ حوضَ غسيلٍ خشبيًّا في الفِناء، يمكنهم أن يضخُّوا فيه الماءَ. عند بداية الطريق، شقَّت عنانَ السماء شجرةٌ باسقةٌ من أشجار التوت. فإذا هبَّت الريحُ من جهة الجبل وضربت الشجرة، تساقط توتٌ بنفسجيٌّ، ملطِّخًا ثيابَهم وأيديَهم. لم يكن البيتُ مريحًا، غير أنَّه لاح بيتًا مختلفًا يوحي بالمغامرة.

بقدرٍ من الانزعاج، أوضح أبناءُ عمومة ليلى ـ وكانوا مراهقين يَكبرونها سنًّا ـ أنَّها أصغرُ من أن تشاطرهم الغرفةَ. لكنَّها لا تستطيع البقاءَ برفقة الأمّ التي خُصِّصَتْ لها حجرةٌ متناهيةُ الصغر، تكاد لا تتّسع لحقائبها. لهذا، اضطرَّتْ ليلى إلى النوم مع الأطفال الصِّغار، الذين كان بعضُهم يتبوَّل في سريره، أو يبكي أو يقهقه في نومه، تبعًا لِما يروْنه في أحلامهم.

***

في وقت متأخِّر من اللَّيل، كانت ليلى مستلقيةً ويقظة، ومفتوحة العينَيْن وساكنةً، متنبِّهةً إلى كلّ صوتٍ وظلّ. وأدركتْ من طيران البعوض أنَّ هذه الحشرات لا بدَّ من أن تكون قد انسلَّت إلى خيوط الشبكة من خلال ثقوبها، وراحت تطير أسرابًا أسرابًا فوق رأسها، وطنينُها يملأ أذنَيْها. وكانت تنتظر حلولَ الظلام، لتتسلَّل إلى الحُجرة ـ هي والبعوضُ وعمُّها.

. أأنتِ نائمة؟

سألها العمّ وهو يدخل، ويجلس على حافَّة سريرها. تحدَّث بصوتٍ خفيض، أعلى قليلًا من الهمس، حذِرًا ألّا يستيقظَ الأطفالُ الصغار.

. أجل... لا، لستُ نائمةً حقًّا.

. الجوّ حارّ، أليس كذلك؟ أنا لم أستطع النوم أيضًا.

رأت ليلى أنَّ الغريب في الأمر هو أنَّ العمّ لم يذهب إلى المطبخ، حيث يمكنه أن يرشف كأسًا من الماء. كما أنَّ ثمَّة وعاءً فيه بطِّيخٌ أحمر في الثلَّاجة، ويَصْلح أن يكون وجبةً خفيفةً في منتصف اللَّيل. بطِّيخ أحمر منعش. كانت ليلى تَعْلم أنَّ بعضَ البطّيخ الأحمر كبير، ويمكن وضعُ رضيعٍ فيه، وتبقى مع ذلك مساحة خاليةٌ كافية فيه. إلَّا أنَّها احتفظت بهذه المعلومات لنفسها.

أومأ العمُّ برأسه كأنَّه قرأ أفكارَها، وقال:

ـ لن أجلس طويلًا برفقتك، برهة وجيزة لا غير ـ هذا إنْ سمحتِ لي بذلك، يا صاحبةَ السموّ.

حاولتْ ليلى أن تبتسم، إلَّا أنَّ وجهها كان مُتيبِّسًا ومتقلِّصًا، وقالت :

. نعم، حسنًا.

وسرعان ما جذب ملاءةَ السَّرير جانبًا، واستلقى إلى جانبها. صكّ سمعَها صوتُ ضرْبات قلبه . عاليةً وسريعةً.

سألتْ ليلى بعد لحظاتٍ ملؤها الارتباك:

. هل أتيتَ كي تطمئنَّ على تولغا؟

كان تولغا أصغرَ أبناء عمّها، وكان يرقد في سريرِ طفلٍ قرب النافذة.

. جئتُ لأتأكَّد من أنَّ الجميع على ما يرام. دعينا نلزم الصمت، فنحن لا نريد إيقاظَهم.

أومأتْ ليلى برأسها، إذ بدا كلامُه معقولًا.

في هذه الأثناء، دمدمتْ معدةُ العمّ، فابتسم ابتسامةً توحي بالخجل، وقال:

. آه، لا بدَّ أنَّني أكلتُ كمِّيَّةً كبيرةً من الطعام.

قالت ليلى:

. وأنا كذلك.

لكنَّها لم تأكل كمِّيَّةً كبيرة حقًّا.

. حقًّا؟ دعيني أتفحَّص معدتَكِ لأتأكَّد من مدى امتلائها.

ثمَّ جذب ثيابَ نومها إلى أعلى، قائلًا:

. أفي وسعي وضعُ يدي على هذه المنطقة؟

لم تتفوَّهْ ليلى بكلمةٍ واحدة.

هنا، بدأ العمّ يرسم دوائرَ من حول سرَّتها، وأردف:

. أأنتِ سريعةُ التأثُّر بالدغدغة؟

هزَّت ليلى رأسَها نافيةً، فمعظمُ الناس يتأثَّرون بالدغدغة من أقدامهم ومن تحت آباطهم. أمَّا هي، فكانت تتأثَّر بالدغدغة من حول رقبتها، إلَّا أنَّها آثرت ألَّا تُطْلعَه على ذلك، إذ فكَّرتْ أنَّه إذا ما عرف الناسُ أضعفَ نقطةٍ لدى المرءِ، فسيستهدفونها بكلّ تأكيد. لذا التزمت الهدوء.

في البدء، كانت الدَّوائرُ صغيرةً ورقيقة، إلَّا أنَّها تحوَّلتْ إلى دوائر أكبر، ووصلتْ إلى مناطقها الحسَّاسة. فما كان منها إلَّا أن ابتعدتْ مرتبكةً. غير أنَّ العمّ اقترب أكثر، ونفذتْ منه رائحةُ أشياءَ لم تعجبها . رائحةُ تبوغٍ وكحولٍ وباذنجانٍ مقليّ.

قال لها:

. لطالما كنتِ المفضّلة لديَّ. أنا متأكِّد من أنَّكِ انتبهتِ إلى ذلك .

هل كانت المفضَّلة لديْه؟ لقد عيَّنها مديرةَ فريق كرة القدم، ومع ذلك؟ حين رأى العمُّ ارتباكَها، مسَّد خدَّها بيده الثانية، قائلًا:

. أتريدين أن تعرفي سببَ حبِّي الشديدِ لكِ؟

انتظرتْ ليلى توَّاقةً إلى معرفة الجواب.

. لأنَّكِ لستِ أنانيَّةً كالأخريات. أنتِ فتاة ذكيَّة ولطيفة، فلا تتغيَّري أبدًا. أريد وعدًا منكِ بألَّا تتغيَّري.

أومأتْ ليلى برأسها، وهي تتخيَّل مدى انزعاج أقربائها الأكبر سنًّا إنْ سمعوه وهو يثني عليها هذا الثناءَ. لكنَّهم ليسوا هنا. وا أسفاه!

. أتثقين بي؟

كانت عيناه كالياقوت الأصفر في تلك الظلمة .

أومأتْ إليه مرَّةً أخرى. في مرحلة لاحقة من عمرها، سوف تشمئزّ من هذه الإيماءة التي تنمّ عن طاعةٍ غيرِ مشروطةٍ للعمر والسُّلطة.

قال لها:

ـ حين يتقدَّم بكِ العُمر، سوف أحميكِ من الصبيان، فأنتِ لا تعرفينهم. ولن أسمحَ لهم بالاقتراب منكِ.

طبع قبلةً على جبينها، تمامًا كعهدها به في كلِّ عيد حين زيارتهم له، وكان يقدِّم لها الحلوى المغليَّة ومصروفَ جيْب. قبّلها مثل القبلة السَّابقة، ثمَّ انصرف. حدث هذا في اللَّيلة الأولى.

في مساء اليوم التالي، لم يَحْضر إليها، وكانت مهيَّأةً لنسيان ما حدث جملةً وتفصيلًا. إلَّا أنَّه رجع في اللَّيلة الثالثة، وابتسم

ابتسامةً أكبر هذه المرَّة. وفاحت في الجوّ رائحةُ طِيب؛ أتراهُ استعمل ماءَ الكولونيا بعد حلاقة ذقنه؟ ما إنْ شاهدته يأتي حتَّى أغمضتْ عينَيْها، وتظاهرتْ بالنوم.

راح يجذب الملاءةَ جانبًا من فوق السَّرير، واستلقى بجانبها، ثمَّ وضع يدَه على بطنها من جديد. كانت الدَّوائر أكبرَ، وأكثرَ إلحاحًا . مفتِّشةً ومطالبةً بما يعتقد أنَّه ملْكه!

قال كمَن يعتذر وكأنّه فوَّت موعدًا:

. لم أستطع المجيءَ في الأمس، لأنَّ زوجةَ عمِّكِ لم تكن على ما يُرام.

كان في وسع ليلى أن تسمعَ شخيرَ أمّها في نهاية الممرّ. وحظي بابا والعمَّة بغرفةٍ فسيحةٍ في الطبقة العليا، على مقربةٍ من الحمّام. وطرق سمعَ ليلى قولُهما إنَّ العمَّة بقيتْ تستيقظ في الساعات الوتريَّة طوال اللَّيل، وكان يُستحسن أن تنام في غرفةٍ بمفردها. أيعني هذا أنَّها لم تَعُد تحارب الشياطين؟ أم يعني أنَّ الشياطين ربحت الحربَ في نهاية المطاف؟

قالت ليلى فجأةً دونما تفكير، وهي تفتح عينيْها :

- إنَّ تولغا يبلِّل الفراش.

لم تعرفْ سببَ تفوُّهها بتلك العبارة، فهي لم تشاهد الولد يفعل ذلك الشيء.

لربَّما جفل العمُّ، لكنَّه لم يكشفْ ذلك، بل قال:

. أعرفُ يا حبيبتي. سوف أهتمُّ بذلك. ينبغي ألَّا تقلقي.

كانت أنفاسُه دافئةً على رقبتها: وكانت لحيتُه قد نَمَت قليلًا، ما جعلها تَخِزُ بشرتها. تذكَّرتْ ليلى ورقَ السنفرةِ الذي كان بابا

يستعمله في صقل المهد الخشبيّ، الذي انهمك في صنعه للطفل المقبل.

. عمَّاه...

. اسكتـي. ينبغي ألَّا نزعج الآخرين.

. نحن. إنّنا فريق..

قال:

. أَمسِكي به.

ثمَّ دفع يدَها إلى أسفلِ مقدّمةِ بيجامته القصيرة، باتِّجاهِ ما بين ساقيْه. فما كان من الطفلة إلَّا أن جفلتْ، وجذبتْ أصابعَها إلى الخلف. إلَّا أنَّ العمّ تشبَّث برسغها، ودفعها إلى أسفل مجدَّدًا، وتبيَّن من صوته أنَّه كان خائبًا وغاضبًا، وهو يقول:

. قلتِ لك أَمسِكي به!

شعرتْ ليلى بصلابته في كفِّها. أما عمُّها، فقد تلوَّى وتأوّه وأطبق على أسنانه بإحكام، ثمّ أخذ يهتزُّ إلى الأمام والخلف وتسارعتْ أنفاسُه. ظلّت ليلى مستلقيةً في مكانها، مصعوقةً من الخوف. والحقيقة أنّها كانت قد أفلتتهُ منذ بعض الوقت، لكنَّها لم تعتقد أنَّه تنبَّه إلى ذلك. ثمَّ تأوَّه آهةً أخيرةً، وتوقَّف عن الحركة، لاهثًا لهاثًا ثقيلًا. وفاحت في أرجاء الغرفة رائحةٌ حادَّة، وابتلَّت الملاءة.

قال، حين تمكَّن من الكلام:

ـ انظري ماذا فعلتِ بي.

شعرَتْ ليلى بالارتباك والحرج. شعرتْ بأنَّ ما حدث كان خطأً، ولم يكن ينبغي أن يحدث. إنَّها غلطتها.

قال العمّ:

. أنتِ فتاةٌ مشاكسة.

ثمَّ بدا صامتًا رزينًا، بل حزينًا أيضًا، وأضاف:

- مظهرُكِ يوحي بأنَّك غايةٌ في العذوبة والبراءة، لكنْ هذا ليس سوى قناع، أليس كذلك؟ أمَّا في داخلك، فأنتِ قذرةٌ مثل الأخريات، سيِّئةُ الأخلاق. كيف خَدَعتِني؟

شعرتْ ليلى بطعنة الخطيئة تنغرس في جسدها، طعنةٍ عميقةٍ جدًّا، إلى حدِّ أنّها ما عادت قادرةً على الحركة. وترقرقتْ عيناها بالدموع. حاولتْ ألّا تبكي، إلَّا أنَّها أخفقتْ، فانفجرتْ في نشيجٍ متواصل.

طفق العمّ يراقبها برهةً وجيزةً، قبل أن يقول:

- حسنًا، لا بأس. لا يُمكنني أن أتحمَّلَ رؤيتَكِ وأنتِ تبكين.

وسرعان ما هدأ بكاءُ ليلى، وإنْ لم تشعر بأيّ تحسُّن، وإنَّما ازدادت سوءًا.

قال لها :

. ما زلتُ أحبُّكِ.

وأطبقَ شفتيْه على شفتيْها.

لم يسبق لأحد أن قبَّلها على شفتَيْها. شعرتْ بخَدَرٍ يسري في أنحاء جسدها كلّه.

قال لها مدركًا أنَّ صمتَها يعني الرضى:

. لا تقلقي، فلن أُخبر أحدًا. ولكنْ يتعيَّن أن تُثْبتي جدارتَكِ بالثِّقة.

يا لها من جملةٍ طويلة! بل لم تكن متأكِّدة من معناها.

قال العمّ، قبل أن يسترسل في الأفكار:

ـ ويعني ذلك أنَّ عليكِ ألَّا تُخبري أحدًا؛ سيكون هذا سرَّنا وحدَنا. لن يعرفَ به أحدٌ سوانا قطّ: أنا وأنتِ. غير مسموح لشخصٍ ثالث أن يعرفه. والآن، أخبريني.. أأنتِ ممتازةٌ في حفظِ الأسرار؟

كانت حقًّا ممتازةً، فهي تحتفظ بأسرارٍ كثيرةٍ في صدرها، أكثر ممَّا ينبغي، وسيكون هذا سرًّا إضافيًّا.

*** * ***

في وقتٍ لاحق، ومع تقدُّم ليلى في العمر، ستتساءل مرارًا وتكرارًا عن سبب اختيارهِ لها. فأُسرتُهم كبيرة، وهناك الكثيراتُ من حوله، ولم تكن هي أجملَهنّ، ولا أكثَرهنَّ ذكاءً. الحقّ أنَّها لم تعتقد يومًا أنَّها بنتٌ مميَّزةٌ بأيّ حالٍ من الأحوال. ولبثتْ تفكِّر في هذا الأمر إلى أن أدركتْ يومًا أنَّ السُّؤال فظيعٌ جدًّا؛ فسؤالها: «لماذا أنا؟» ليس سوى طريقةٍ أخرى للسؤال: «لماذا لم يحدث هذا لفتاةٍ أخرى؟» ولذلك فقد كرهتْ نفسَها.

بيتٌ لقضاء إجازة، بمصابيحَ ذات لونٍ أخضر يشبه لونَ الطحلب، وسياجٍ ذي قضبان، ينتهي في المكان الذي يبدأ فيه الشاطئُ المرصوفُ بالحصى. كانت النساء منهمكاتٍ في إعداد وجبات الطعام، وكنسِ الأرضيَّات، وغسلِ الصحون. أمَّا الرِّجال، فكانوا يلعبون الورق والنرْد والدومينو. وأمَّا الأطفال فكانوا يركضون هنا وهناك، من غير أن يُشْرف عليهم أحد أو يراقبَهم أحد، وكانوا يتراموْن بحلقات معدنيَّة، فتلتصق بأيّ شيء تقع عليه. ثمارُ

التوت منثورة على الأرض ومسحوقة، وبقعُ بطّيخ أحمر منتشرة على المفروشات.

بيتٌ بجوار البحر لقضاء الإجازة.

كانت ليلى في السادسة. أمَّا عمُّها، فكان في الثالثة والأربعين.

***

يومَ رجعت الأُسرةُ إلى بلدة ڤان، أصيبتْ ليلى بالحُمَّى، وأصبح مذاقُ فمها قارصًا، وانعقد ألمٌ دفينٌ في معدتها، وبلغتْ حرارتُها درجةً عاليةً دفعتْ بينّاز وسوزان إلى حمْلها والتوجُّهِ بها إلى

الحمّام، حيث عمدتا إلى غطسها في ماءٍ بارد . لكنْ بلا فائدة. واضطرَّت إلى لزوم الفراش، وعلى جبينها منشفةٌ مغموسةٌ بالخلّ، وعلى صدرها لبخةٌ من بصل، وعلى ظهرها أوراقُ كرنبٍ مغليّة، وعلى بطنها شرائحُ بطاطس. وبين حينٍ وآخر، مزجت المرأتان زلالَ البيض لفرك باطن قدمَيْها. ونَدَتْ عن المنزل رائحةٌ نتنة، وكأنَّ المكان سوقٌ للسمك في نهاية الصيف. لكنْ لم تنفع كلُّ هذه العلاجات. ولبثت الطفلةُ تُغمغم بكلامٍ غير مفهوم، وتَصرّ على أسنانها، وتنتابها غيبوبةٌ، وتغيب عن الوعي، وتتراقص أمام عينيْها ومضاتٌ من نور.

هنا، استدعى هارون حلَّاقَ الحيّ. وكان هذا رجلًا يعمل، فضلًا عن عديد المهامّ، في الختان وقلعِ الأسنان وإعطاءِ الحقن الشرجيَّة. لكنْ تبيَّن أنَّه غادر محلّ عمله لأمرٍ طارئ. لهذا، أرسل هارون في طلب السيِّدة الصيدلانيَّة . ولم يكن هذا القرارُ سهلًا عليه، إذ كان لا يطيقُها، وكانت تبادله الشعورَ ذاتَه .

لم يكن أحدٌ يعرف اسمَ الصيدلانيَّة الحقيقيّ على وجه التَّأكيد. كانت امرأة غريبة الطِّباع بكلّ المقاييس، إلَّا أنَّها ذاتُ سلطة. فهي متينة البنيان، برَّاقةُ العينَيْن، تصفِّف شعرَها على هيئة كعكةٍ محكمةِ الشدّ مثل ابتسامتها، وترتدي بذلاتٍ مفصَّلةً عند خيَّاطة، وتعتمر قبَّعاتٍ صغيرةً وأنيقة، وتتكلَّم بثقةِ مَن اعتادوا أن يسمعَهم الآخرون. وكانت أيضًا من أبطال العَلمانيَّة ودُعاتها، والحداثة، وأشياءَ أخرى كثيرةٍ جاءت من الغرب. وكانت من أشدّ المعارضين لتعدُّد الزوجات، ولم تشأ إخفاءَ امتعاضها من رجلٍ يتزوَّج امرأتيْن. بل كان مجرَّدُ تفكيرها بمثل هذا الزواج يدفعها إلى الانكماش خوفًا. وكانت ترى هارون وكلَّ أفراد أسرته، وما يؤمنون به من خرافاتٍ ورفضٍ عنيدٍ للتأقلم مع عصر العلوم، نقيضَ المستقبل الذي تُفكِّر فيه لمصلحة هذا البلد المحكوم بالصراعات.

ومع هذا، فقد جاءت لتقديم يد العون، يرافقها ولدُها سنان الذي كان في سنّ ليلى تقريبًا. وكان طفلًا وحيدًا، ربَّته امرأةٌ عاملةٌ غيرُ متزوّجة، وهذا أمر لم يكن معروفًا من قبل. وغالبًا ما كان سكَّانُ

هذه البلدة ينغمسون في القيل والقال عنهما، بل في احتقارهما والسخرية منهما أيضًا، وإنْ كانوا حذرين جدًّا. لكنْ، على الرَّغم من همساتهم، فإنَّهم كانوا يحترمون السيِّدةَ الصيدلانيَّةَ الاحترامَ كلّه، ويجدون أنفسَهم في لحظاتٍ غير متوقَّعة في أمسِّ الحاجة إلى مساعدتها. ونتيجةً لذلك، كانت الأمّ وولدُها يعيشان على حافَّة المجتمع عيشةَ تسامحٍ، وإنْ لم يحظيا البتَّة بالقبول فيه.

ما إنْ وصلت الصيدلانيَّةُ حتَّى طَرحت السُّؤالَ الآتي:

ـ منذ متى الطفلة على هذه الحالة؟

ردَّت سوزان:

. منذ ليلـةِ أمس... وقد بذلنا كلَّ ما في وسعنا لتدارك الأمر.

اومأتْ بينّاز برأسها وهي واقفةٌ بجوارها.

قالت الصيدلانيَّة ساخرةً:

. نعم، في وسعي أن أرى ماذا فعلتم . بهذا البصل وهذه البطاطس.

ثمَّ تنهَّدتْ، وفتحتْ حقيبتَها الجلديَّةَ السَّوداء التي تشبه حقيبةَ الخاتن، ثمَّ أخرجتْ عددًا من العُلب الفضِّيَّة، ومحفظةً، وقواريرَ زجاجيَّةً، وملاعقَ لقياس المقادير.

في تلك الأثناء، كان الولدُ متواريًا عن الأنظار وراء تنُّورة أمّه، لكنَّه أخذ يمدّ عنقَه، ويتفرَّس في الفتاة المرتعشة التي تنزّ عرقًا وهي على السَّرير.

. هل توشك على الموت، يا أمّي؟

أجابت السيِّدةُ الصيدلانيَّة:

ـ صه! لا تتكلَّم كلامًا فارغًا. سوف تكون الطفلةُ على ما يُرام.

حوَّلتْ ليلى رأسَها جانبًا، محاولةً اقتفاءَ أثرِ الصوت، وسرحتْ ببصرها إلى المرأة، فشاهدت الإبرةَ التي كانت تحملها بيدها إلى أعلى، والقطيرة الصَّغيرة تلمع من فوقها مثل جوهرةٍ مكسورة. فانفجرتْ باكيةً.

قالت الصيدلانيَّة:

. لا تقلقي، فأنا لن أؤذيكِ.

أرادت ليلى أن تتفوَّه بشيءٍ ما، إلَّا أنَّ قواها خانتها، وارتعشتْ أجفانُها، وغابت عن الوعي.

قالت الصيدلانيَّة:

. حسنًا، هل تستطيع إحداكنَّ مساعدتي؟ لا بدَّ من أن نَقْلبها على أحد جنبَيْها.

تطوَّعتْ بينّاز من فورها. كما تاقت سوزان، بالدرجة نفسها، إلى مدّ يد العون، ففتَّشتْ من حولها عن مهمَّةٍ مفيدة، حتَّى استقرَّ رأيُها على سكب كمِّيَّةٍ إضافيَّةٍ من الخلّ في وعاء على منضدة السَّرير الجانبيَّة. فامتلأ جوُّ الغرفة برائحةٍ حادَّة.

قالت ليلى للخيال الماثل بجانب سريرها:

ـ اغرُبْ عنِّي. اغرُبْ يا عمّاه.

سألتْ سوزان وهي تعبس عبوسًا محيِّرًا :

ـ ماذا تقول؟

هزَّت الصيدلانيَّةُ رأسَها، وقالت:

ـ لاشيء. إنَّها تهذي. مسكينة، يا عزيزتي. سوف تتحسَّن حالتُها بعد الحقنة.

تحوَّل بكاءُ ليلى إلى نشيجٍ عميق، وراحت تشهق عميقًا.

قال الصبيّ والقلقُ مطبوعٌ على وجهه:

- انتظري، يا أمِّي.

ثمَّ اقترب من السَّرير، وجال فوق رأس ليلى، وبدأ يتكلَّم بنعومة في أذنها:

- لا بدَّ من أن تَحْضني شيئًا ما عندما تُحْقنين بالمحقنة. لديَّ بومةٌ محنَّطةٌ في الدار، ولديَّ قردٌ أيضًا، لكنَّني أرى أنَّ البومةَ أفضل.

حين كان الصبيّ يتكلَّم، قلَّ نشيجُ ليلى، وتحوَّل إلى تنهيدةٍ طويلةٍ وبطيئة، قبل أن تلزم الصمت.

- إذا لم تكن لديكِ لعبة، ففي وسعكِ الضغطُ على يدي. لا مشكلة لديّ في ذلك.

أمسك يدَ الفتاة برقَّة، وكانت خفيفةَ الملمس، تكاد تكون بلا حياة. إلَّا أنَّها، لدهشته البالغة، أطبقتْها على يده، ولم تتركه، حين كانت الإبرةُ تنغرز في جسمها.

خلدتْ ليلى إلى النوم من فورها. نامت نومًا ثقيلًا، فوجدتْ نفسَها في مستنقع الملح، تخوض وحدَها فيه، وسط أجمةٍ من القصب، يمتدّ المحيطُ المترامي الأطراف من ورائها، بأمواجه المتلاطمة واحدةً تلو الأخرى. وشاهدتْ عمَّها ينادي من قاربِ صيْدٍ بعيد، وهو يُجذّف بسهولةٍ على الرَّغم من الجوّ، مقتربًا بسرعةٍ توازي دقَّات القلب. انتابها الذُّعرُ، وحاولتْ أن تلتفت، لكنَّها لم تستطع الحراكَ في خضمّ الوحول اللَّزجة. ثمَّ شعرتْ بحضورٍ يبعث على الراحة في نفسها، غيرَ بعيدٍ عنها: ولم يكن ذلك الحضور إلَّا ابن الصيدلانيَّة. المؤكَّد أنَّه كان يقف هناك طوال الوقت، حاملًا حقيبةً من نسيجٍ صوفيٍّ خشن.

قال لها الصبيّ:

- هيَّا، خذي هذه.

ثمَّ أخرج من حقيبته قطعةً من الشوكولاتة، مغلَّفةً بغلافٍ لمَّاع. وحين تقبَّلت العرضَ، شعرتْ بالاسترخاء والراحة على الرَّغم من اضطرابها.

ما إن انخفضتْ حرارتُها، وفتحتْ عينَيْها، وتمكَّنتْ من تناول مقدارٍ من اللَّبن، حتى راحت تستفسر عن الصبيّ، من غير أن

تعلم أنَّهما سوف يلتقيان بعد مدَّة غير طويلة، وأنَّ هذا الصبيّ الذكيّ، والمضطرب قليلًا، والطيِّبَ القلب، والخجولَ إلى أبعد الحدود، سوف يغدو أوَّلَ أصدقائها المخلصين.

إنَّه سنان؛ الشجرةُ التي تقدِّم لها الحمايةَ والملاذَ، والشاهدُ على كلّ ما هي عليه، وكلِّ ما تطمح إليه؛ وكلِّ ما لا تستطيع أن تكون عليه وتحقِّقه.

سنان: واحدٌ من خَمسة.

- 6 -

قصَّة سنان

كان منزلُهم فوق الصيدليَّة، وهو ليس أكثرَ من شقَّةٍ متناهية الصغر، تُطلّ من أحد جوانبها على مرعًى تحتشد فيه الماشيةُ والأغنامُ التي ترعى الكلأ قريرةَ العين؛ وتُطلّ من جهةٍ أخرى على مقبرةٍ متداعيةٍ موغلةٍ في القدم. تغمرُ أشعَّةُ الشمس غرفتَه في الصباح، إلَّا أنَّها تغدو كئيبةً وموحشةً بعد الغسق. حين يعود من المدرسة. وكان، صباحَ كلّ يوم، يفتح البابَ بالمفتاح الذي يعلِّقه بعنقه، وينتظر أمّه كي ترجع من العمل. وكان يجد طعامًا جاهزًا على نضد المطبخ، يتألَّف من وجباتٍ خفيفة؛ فوالدته لم تكن تملك الوقتَ الكافي لإعداد وجبات طعام أكثر تعقيدًا؛ ولهذا، كانت تزوِّده بوجبات خفيفة وسهلة التَّحضير، وتضعها في حقيبته المدرسيَّة، قوامُها الجبنةُ والخبز، وغالبًا البيضُ، على الرَّغم من احتجاجه. وكان التلاميذ في صفِّه يَسْخرون من عُلب طعامه، ويتذمَّرون من الرَّائحة التي تنبعث منها. وكانوا يلقِّبونه بِ «فطيرة البيض»، ويأتون من بيوتهم حاملين طعامًا معدًّا إعدادًا مناسبًا، مثل ورق العنب المحشوّ، والفلفل الحلو المحشوّ، والمعجّنات المحشوّة

باللَّحم... فأمُّهاتهم ربَّاتُ بيوت. هذا ما خُيِّلَ إليه. كلّ الأمَّهات إلَّا أمّه.

وكان كلُّ التلاميذ ينتمون إلى أُسرٍ كبيرة، ويتحدَّثون عن أقربائهم وعمَّاتهم وإخوانهم وأخواتهم وأجدادهم. أمَّا هو فيعيش في شقَّته مع أمّه وحدهما؛ وحدهما منذ أن وافت والدَه المنيّةُ الربيعَ الماضي على إثر نوبةٍ قلبيَّةٍ مفاجئة. ولبثَتْ أمّه تنام في الغرفة نفسها، غرفتِهما. وذات يومٍ، رآها تحتضن الملاءات في الجانب الآخر من السرير، وكأنَّها تتحسَّس الجسدَ الذي اعتادت أن تَسْكن إليه، في حين تلمس باليد الثانية رقبتَها ونهدَيْها، يدفعها إلى ذلك شوقٌ لا يَعرف سنان له معنًى. كان وجهُها كثيرَ الالتواءات، واستغرق لحظةً واحدةً كي يُدرك أنَّها كانت تجهش بالبكاء. فانتابه وخزٌ مؤلمٌ في معدته، وارتعش ارتعاشَ اليائس المحبَط؛ فقد كانت تلك أوَّلَ مرَّةٍ يشاهد فيها أمَّه تبكي.

كان والدُه جنديًّا في الجيش التركيّ، يؤمن بالتَّقدُّم والعقل والاتِّجاه الغربيّ والتَّنوير. وتلك مفرداتٌ لم يفهم الصبيُّ معناها الحقيقيّ، إلَّا أنَّه شعر أنَّها تمنحه الراحةَ والطمأنينة، واعتاد سماعَها كثيرًا.
وكان والدُه يردِّد دائمًا أنَّ هذا البلد سيصبح بلدًا متحضِّرًا ومستنيرًا،

على قَدَمِ المساواة مع الأمم الأوروبيَّة. وكان يؤكِّد أنَّ المرء لا يستطيع تغييرَ الجغرافيا، إلَّا أنَّ في وسعه أن يحتالَ على القدر.

ومع أنَّ معظمَ السكَّان في هذه البلدة الشرقيَّة كانوا جهلةً مسحوقين تحت وطأة الدِّين والمعتقدات الصارمة، فإنَّ التَّعليم الصَّحيح سينقذهم من ماضيهم . ذلك ما آمن به الوالدُ. بل آمن بما هو أكثر من ذلك. وكذلك الأمّ. واجتهد الأبُ والأمُّ في عمليْهما، فكانا زوجَيْن مثاليَّيْن للجمهوريّة الجديدة، عازميْن على بناء مستقبلٍ مشرقٍ يدًا بيد. جنديّ وصيدلانيَّة، يتمتَّعان بإرادةٍ صلبةٍ لا تلين، وقلبٍ جريءٍ ثابتِ الجنان. وكان هو ابنَهما الوحيد، وورثَ عنهما أفضلَ الصفات، فضلًا عن روحهما التقدُّميَّة، وإنْ كان يخشى أنْ لا يشبههما كثيرًا، لا في تصرُّفاته ولا في مظهره.

كان الأب رجلًا فارعَ القدّ، رشيقًا، صقيلَ الشعر كالزُّجاج. أمَّا الصبيّ، فحاول أن يحذو حذوَ أبيه في تصفيف شعره: فإذا كان أبوه يقف أمام المرآة مرَّاتٍ ومرَّات، ومعه محلولُ الشعر والمشطُ، فقد كان ابنُه يستعمل زيتَ الزيتون وعصيرَ اللَّيمون ودهانَ تلميع الأحذية، وأحيانًا قطعةً من الزبدة، ما يُفسد كلَّ شيء . ولم ينفعه أيٌّ من هذه الأشياء . مَن ذا الذي يصدِّق أنَّ هذا الصبيّ الأخرقَ، المنتفخَ الأوداج هو ابنُ ذلك الجنديّ، صاحبِ الابتسامة والقوام

المثاليَّيْن؟ ربَّما كان والده قد توفِّي، إلَّا أنَّه حاضرٌ في كلّ مقام. ولم يعتقد الصبيّ يومًا أنَّه سوف يخلّف مثلَ هذا الفراغ الكبير لو كان هو الميّتَ. وبين حينٍ وآخر، كان يَضْبط أمَّه متلبِّسةً بالنَّظر إليه نظراتٍ ملؤها التأمُّلُ والوهن. وفكَّر في أنَّها تتساءل ربَّما عن سبب عدم موته هو بدلًا من والده! في مثل هذه اللَّحظات، كانت تراود الصبيَّ أحاسيسُ الوحدة والنكد، فيعجز عن الحركة إلَّا نادرًا. ثمَّ تأتي إليه أمُّه وهو في غمرة وحدته، لتطوِّقه بذراعيْها، طافحةً بالحبّ الرَّقيق، فيحسّ بالارتباك جرَّاءَ الأفكار التي ظلَّت تساوره، ويرتاح ارتياحًا طفيفًا. بَيْد أنَّ الشكوك التي تلحّ عليه تؤنِّبه تأنيبًا متواصلًا بأنَّه مهما بذل من جهدٍ، ومهما تغيَّر، فسوف يخذلُها نوعًا ما.

أرخى الصبيّ بصرَه خارج النافذة، ونظر نظرةً خاطفة. أثارت المقبرةُ هلعَه. فرائحتُها غريبة، تُلازمه وتُطارده، وبخاصَّة في الخريف، حين يتحوَّل لونُ العالم إلى الأسمَر المُصفرّ. فقد تُوفِّيتْ أجيالٌ من الرجال في أسرته في وقتٍ مبكِّر من حياتهم: والده، وجدّه، وجدّ والده... ومهما حاول أن يتشبَّث بالسيطرة على مشاعره، فإنَّه لم يتمكَّن من تفادي الإحساس بنُذُر الشؤم ـ بأنَّ دوره سوف يحين عمَّا قريب ويُدفَنُ في هذه المقبرة. حين كانت أمّه تذهب إلى

المقبرةِ . وكانت غالبًا ما تفعل ذلك لتنظيف قبر زوجها، أو لزرعِ بعض الورود، أو أحيانًا للجلوس هناك من غير أن تفعل شيئًا . كان يتجسَّس عليها من نافذة غرفته. فهو لم يسبق أن رأى أمّه من غير مساحيق تجميل، أو رأى شعرةً طفرتْ من رأسها. ولمّا شاهدها وسط الوحل والقذارةِ والأوراقِ الميتة متشبِّثةً بثيابها، جفل من فوره، وساوره شيءٌ من الخوف بسببها، وكأنَّها تحوَّلتْ إلى امرأةٍ غريبة!

كان أفرادُ الحيّ جميعهم يرتادون الصيدليَّةَ، كبارًا وصغارًا. وكانت النسوة يأتين بين وقتٍ وآخر مرتدياتٍ البُرقعَ الأسود، وهنَّ يجذبن أطفالهنَّ من ورائهنّ. وفي إحدى المرَّات، تناهى إلى سمْعه صوتُ امرأة تسأل عن علاجٍ يمنعها من الإنجاب، إذ كانت على حدِّ قولها والدةَ أحد عشر طفلًا. فما كان من الأمّ إلّا أن زوَّدتها بعلبةٍ صغيرةٍ مربَّعة الشَّكل، فانصرفت المرأة على إثر ذلك. غير أنَّ المرأة عادت بعد أسبوعٍ شاكيةً متذمّرةً من ألمٍ ممضٍّ يثير معدتَها.

صاحت أمُّه مندهشةً:

. هل بلعتِ ما أعطيتكِ؟ الواقيات الذكريّة؟!

في الطبقة العليا، لبث الصبيّ واقفًا، مُصْغيًا.

. لم تكن العلبةُ لكِ، بل لزوجك.

فردَّت المرأة بصوتٍ واهن:

. أعرفُ ذلك. غير أنَّني لم أفلحْ في إقناعه باستعماله، ففكَّرتُ أنَّه يُستحسن بي أن أستعمله بنفسي؛ فقد يفيد في حالتي.

انتاب الأمَّ غضبٌ شديدٌ، وظلَّت تدمدم في نفسها، حتَّى بعد أن غادرت المرأةُ الصيدلانيّةُ:

. فلّاحات جاهلات، ساذجات! إنَّهنَّ يلدن الأطفالَ كالأرانب! كيف يمكن أن يصبحَ هذا البلدُ المسكينُ حديثًا، ما دام الجَهَلَةُ يفوقون المتعلِّمين عددًا؟ إنَّنا ننجب ولدًا واحدًا ونعتني بتربيته، بينما تلد هؤلاء النسوةُ عشرةَ صعاليك. وإنْ لم يستطعن العنايةَ بهم، فلا مشكلة لديهم، إذ سيتركونهم يتدبَّرون معيشتَهم بأنفسهم!

كانت الأمّ رقيقةً بالموتى، ولكنَّها أقلُّ رقَّة مع الأحياء. غير أنَّ الصبيّ فكَّر أنَّه يتعيَّن على المرءِ أن يكون أرقَّ مع الأحياء من الأموات، لأنَّ الأحياء هم الذين يكافحون من أجل فهم العالم وإيجاد معنًى له. أليس ذلك صحيحًا؟ فهو الذي يدْهن شعرَه بقطعة من الزبدة، وتلك المرأة التي تعاني ألمًا في معدتها... كلّ واحد يبدو

ضائعًا إلى حدٍّ ما، وهشًّا غيرَ واثقٍ بنفسه، أكان متعلِّمًا أمْ غير متعلِّم، حديثًا أمْ غيرَ حديث، شرقيًّا أمْ غيرَ شرقيّ، راشدًا أمْ طفلًا. كذلك فكَّر الصبيّ. ولهذا، كان يشعر بأنَّه يرتاح رفقةَ أشخاصٍ ليسوا مثاليِّين بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

- 7 -

خمسُ دقائق

بعد خمس دقائق من توقُّف قلب ليلى عن الخَفَقان، تذكَّرَتْ ولادةَ شقيقها. كانت الذكرى عابقةً برائحة يخنةِ الماعز المتبَّلةِ بالبهار ومذاقِها ـ الكمّون وبذورِ الشمّر والثوم والبصلِ وشحمِ الذَّيْل ولحمِ الماعز.

كانت ليلى في السَّابعة يومَ مولد الطفل تاركان، الابن الذي كان موضعَ اشتهاءٍ ورغبةٍ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. وكان بابا شاردَ الذهن، بعيدًا عن الواقع تمامًا، مُنتظرًا تلك اللَّحظة. وما إنْ بدأ مخاضُ زوجته الثانية حتَّى كرع كأسًا من العرق، وأقفل بابَ إحدى الغرف من ورائه، واستلقى فوق أريكةٍ على مدى ساعات، وهو يعضّ على شفته السُّفلى، ويسبِّح بمسبحته، تمامًا مثلما تصرَّف يومَ مولد ليلى. وعلى الرَّغم من أنَّ الولادة حدثتْ بعد الظهر ـ في يومٍ معتدلٍ، منعش الهواء، من آذار 1954 ـ فإنَّه لم يُسمَح لليلى برؤية الطفل إلَّا في وقتٍ متأخِّرٍ من المساء.

مسحتْ ليلى شعرَها بيدها، واقتربتْ من المهد في حيطةٍ وحذر، وارتسمَتْ على وجهها تعابيرُ قرار كانت قد اتَّخذته. فقد وطَّدت العزمَ منذ زمنٍ على ألَّا تحبّ هذا الولدَ، المتطفِّلَ غير المرغوب في حياتها. لكنْ ما إنْ سقطتْ عيْنُها على الوجه المتورِّد، والوجنتيْن الناعمتيْن كالعجين، والرُّكبتيْن الطريّتيْن كما الصلصال، حتَّى أدركتْ أنَّه يستحيل عليها ألَّا تحبّ شقيقَها. انتظرتْ ساكنةً من غير حراك، وكأنَّها توقَّعتْ أن تسمعَ كلمةَ ترحيبٍ منه. ثمَّة شيءٌ غريبٌ في ملامحه. وشأنَ عابر سبيلٍ مفتونٍ بلحنٍ عذب، فيتوقَّف ويصغي باهتمام إلى مصدره، فقد حاولتْ هي أيضًا أن تفهمه. واستبدَّت بها الدَّهشةُ وهي تلاحظ أنَّ أنف شقيقها، بخلاف كلّ أفراد أسرتها، بدا مسطَّحًا، وأنَّ عينيْه تميلان قليلًا إلى أعلى. كما طغَت عليه مسحةُ مَن سافرَ مِن منطقةٍ نائيةٍ حتَّى يصل هذا المكان. وهذا ما دفعها إلى أن تحبَّه أكثر.

ـ أيُمكنني أن ألمسَه، يا عمَّتي؟

ابتسمتْ لها بينّاز وهي معتدلة في سريرها المعدنيّ ذي القوائم الأربع. ثمَّة هالاتٌ سودٌ تحت عينيْها. كما لاحت البشرة الرَّقيقة

على عظام وجنتيْها مشدودةً شدًّا مُحكمًا. كانت طوال ساعاتِ ما بعد الظهيرةِ في رفقة القابلة والجيران. وبعد أن رحل الجميع، استطابت لها هذه اللَّحظةُ الهادئةُ مع ليلى وابنها.

. يمكنكِ حتمًا، يا عزيزتي.

كان المهد الذي صنعه بابا من خشب الكرز، وقد طلاه بطِلاء أزرق ياقوتيّ اللون، وزيّنه بخَرَز عين الحسد المعلَّقة من مقبضه. وكلّما مرّت من أمام الدار شاحنةٌ تهزّ قعقعتُها النوافذَ، يدور الخرزُ الذي أضاءَتهُ أنوارُ الشاحنة بضعَ دوراتٍ بطيئة، وكأنّهُ كواكبُ في مجموعةٍ شمسيَّة.

رفعتْ ليلى سبّابتَها في وجه الطفل الذي فهم مغزاها من فوره، فجذبها إلى فمه المخمليّ:

_انظري، أيَّتها العمَّة! إنَّه لا يريدني أن أنصرف.

. ذلك لأنَّه يحبُّكِ.

. إنَّه يحبُّني، ولكنَّه يكاد لا يعرفني.

غمزتْ بينّاز عينَها، وأضافت:

. المؤكَّد أنَّه رأى صورتَكِ في مدرسة السَّماء.

_ماااذا؟

. ألا تعرفين؟ في السَّماء السَّابعة مدرسةٌ كبيرةٌ، فيها مئاتُ الصفوف.

ابتسمتْ ليلى. لا بدَّ أنَّ هذه هي فكرةُ العمَّة عن الجنَّة، وهي التي تفتقر إلى التَّعليم الرَّسميّ الذي كان يُعَدّ نقصانُه مصدرَ أسًى لا نهاية له. واليوم، بعد أن بدأتْ ليلى الذهابَ إلى المدرسة، واكتشفتْ حقيقتها، فقد رفضتْ فكرةَ العمَّة رفضًا قاطعًا.

إلَّا أنَّ بينّاز استرسلتْ موضحةً، غيرَ منتبهةٍ إلى أفكار الطفلة:

. في تلك المدرسة، التلاميذ أطفالٌ لم يولدوا بعد. وبدلًا من طاولات القراءة والكتابة، لديهم مهودٌ في مواجهة سبُّورةٍ عريضة. أتدرين ماذا؟

هزَّت ليلى رأسَها نافيةً، وهي تنفخ في خُصَل شعرٍ بعيدًا عن عينيْها.

. لأنَّ تلك السبُّورة عليها صُوَر رجالٍ ونساءٍ وأطفال... عدد كبير منهم. ويختار كلّ طفلٍ الأسرةَ التي يحلو له الانضمامُ إليها. وهكذا، فما إنْ شاهد شقيقُكِ وجهَكِ حتَّى كلَّم الملاكَ الحارسَ قائلًا له: «هذه هي! أريد هذه أن تكون شقيقتي! أرجوكَ، أرسلني إلى بلدة ڤان.«

اتَّسعت ابتسامةُ ليلى، ولمحتْ من طرف عيْنها ريشةً تطير بعيدًا . ربَّما كانت ريشةَ حمامةٍ مختبئةٍ على السَّطح، أو ملاكًا يحلِّق فوق الرؤوس. لكنْ، على الرَّغم من تحفُّظاتها عن المدرسة، فقد عزمتْ على إبداء إعجابها برواية العمَّة عن الجنَّة.

قالت بينّاز:

ـ لن نفترق بعد اليوم أبدًا ـ أنا، وأنتِ، والطفل. تذكَّري السرّ الذي يجمعنا.

تنفَّستْ ليلى تنفُّسًا عميقًا؛ فمنذ يوم الشمع من السنة المنصرمة، لم تذكر أيٌّ منهما ذلك الموضوع.

ـ سوف نُخبر شقيقَكِ بأنَّني أمُّكِ، لا سوزان. وسيكون لدينا نحن الثلاثة سرٌّ يجمعنا.

فكَّرتْ ليلى مليًّا في هذا الكلام؛ فالتجربة تقول إنَّ على السرّ أن يظلّ بين اثنَيْن. كانت لا تزال تفكِّر في الأمر عندما تردَّد صدى جرس الباب داخل المنزل، وسمعتْ أمّها تفتح الباب، فازداد ارتفاعُ الأصوات في الرُّواق. أصوات مألوفة: العمّ وزوجته وأولادهما الثلاثة وصلوا الآن للتهنئة.

بعد أن دخل الضيوفُ الغرفةَ، مرَّ ظلٌّ على وجه ليلى. فتراجعتْ خطوةً إلى الوراء. خلَّصتْ كفَّها من قبضة أخيها الحريريَّة، وقطَّبتْ حاجبيْها، وركَّزتْ نظرها في مجاميع الغزلان التي كانت تسير في

تناسقٍ تامّ، بعكس عقارب السَّاعة من حول حافَّةِ سجَّادةٍ فارسيَّةٍ، فذكّرَها ذلك كيف كانت، وغيرها من الصَّغيرات اللواتي يرتدين الملابسَ الرَّسميَّةَ السوداء ويحملن حقائبهنّ، يمشين في صفٍّ واحدٍ متَّجهاتٍ إلى الصفّ الدِّراسيّ صباحَ كلّ يوم.

جلستْ ليلى في هدوءٍ على الأرض، وجذبتْ ساقيْها ووضعتهما تحتها وهي تُنعم النَّظر في السِّجادة. وبعد أن سرحتْ ببصرها عن قرب، لاحظتْ أنَّ الغزلان لم تكن كلُّها تسير في نَسَقٍ واحد. فقد شاهدتْ غزالًا ساكنًا من غير حراك، رافعًا قائمتيْه الأماميَّتيْن، ملتفتًا إلى الوراء التفاتةً تنمّ عن شوقٍ وحنين، ربَّما مدفوعًا إلى الانطلاق في الاتِّجاه المُعاكس، قاصدًا واديًا يحتشد بالأشجار، وبخاصَّةٍ أشجار الصفصاف. كسرتْ عينيْها نحو الحيوان المتمرِّدِ إلى أن غامت الرؤيةُ أمامها، في حين تحرَّك الغزالُ باتِّجاهها كأنَّ الحياة بُعِثت فيه بسحر ساحرٍ، وسطعتْ أنوارُ الشمس فوق قرنيْه الرَّائعيْن. تنشَّقت الطفلةُ عبقَ الأرض المعشوشبة، ومدَّت يدها نحو الحيوان. ما أشدّ ما تمنَّت لو أمكنها أن تَثِبَ فوق ظهره، وتنطلقَ بعيدًا خارج هذه الحُجرة !

في هذه الأثناء، لم يكن ثمَّة مَنْ يولي ليلى أيَّ اهتمام؛ فقد التمَّ الكلّ من حول الطفل الوليد.

قال العمّ:

. له وجه مدوَّر وممتلئ. أليس كذلك؟

ثمَّ أخرج الطفلَ من المهد، ورفعه.

بدا الطفل متهدِّلًا، وظهرتْ رقبتُه قصيرةً جدًّا. ثمَّة شيء غير سويّ فيه. إلَّا أنَّ العمّ تظاهر بأنَّه لم يتنبَّه إلى أيّ شيء. وقال:

. سوف يغدو ابنُ أخي مصارعًا.

مرَّر بابا أصابعَه في شعره الغزير، وقال:

. آه، لا أريده أن يصبح مُصارعًا. سيكون ولدي وزيرًا.

فقالت الأمّ:

. لا، أرجوكَ، ليس سياسيًّا.

فضحك الجميع.

. حسنًا، لقد أبلغتُ القابلةَ أن تأخذ الحبلَ السرِّيّ إلى مكتب رئيس البلديَّة. وإذا لم تتمكَّن من الدُّخول، فقد وعدَتني أن تُخفيه في الحديقة. لهذا، لا تستغربوا إن أصبح ولدي رئيسَ بلديَّةِ هذه البلدة في يومٍ من الأيَّام.

قالت زوجةُ العمّ، وأحمرُ شفتيْها يلتمع بلونٍورديّ:

. انظروا، إنَّه يبتسم. أظنُّه موافقًا على ما أظنّ.

فما كان من الحاضرين إلَّا أن أحاطوا بالطفل، وراحوا يتناقلونه، مُصدرين أصواتًا جميلةً، ومتفوِّهين ببعض الألفاظ التي لم يكنْ لها أيّ معنًى في بعض الأحيان.

دنتْ عينا الأب من ليلى، وقال لها:

ـ لِمَ أنتِ صامتة كلّ هذا الصَّمت؟

فالتفت العمُّ باتِّجاه ليلى، ولاحت على وجهه ملامحُ الاستفسار وهو يتساءل:

ـ نعم، لماذا لا تتكلَّم ابنةُ أخي اليوم؟

غير أنَّ ليلى لم تردّ على تساؤله، فأضاف :

ـ هيّا، انضمّي إلينا.

ثمَّ لمس بأصابعه ذقنَه، وهي إشارةٌ كانت ليلى قد شاهدتْها من قبل، حين كان يوشك على التفوُّه بملاحظةٍ ساخرة، أو يحكي قصَّةً مُضحكة.

فجاء صوتُ ليلى متثاقلًا:

ـ إنَّني على ما يُرام في هذا المكان...

فتحوَّلتْ نظرةُ العمّ من الفضول إلى شيءٍ من الارتياب.

حين شاهدته ليلى يُنعم النَّظَرَ إليها على هذا النحو، استبدَّت بها موجةٌ من القلق والانزعاج. وشعرتْ بغَثَيانٍ نابع من معدتها. نهضتْ متماهلةً، وحوَّلتْ ثقلَ جسدها من قدمٍ إلى أخرى. وبعد أن عدَّلتْ من مقدِّمة تنُّورتها، أصبحتْ يداها ثابتتيْن تمامًا.

ـ أفي وسعي الانصرافُ يا بابا؟ لديَّ فرضٌ مدرسيّ أُعدّه في البيت.

ابتسم البالغون لها عن معرفة.

وقال بابا:

ـ حسنًا، يا عزيزتي.

وإذ سارت ليلى إلى الباب، وخرجتْ من الحُجرة ووقعُ أقدامها خافتُ الصوت على السّجادة، حيث يقف غزال مستوحدٌ مهمل الشأن، ترامى إلى أذنيْها صوتُ العمّ يهمس من وراء ظهرها:

ـ آه، ليباركْها اللّـه؛ فهي تغار من شقيقها الطفل. يا لها من مسكينةٍ هذه الطفلةُ المحبوبة!

***

في صباح اليوم التالي، ذهب بابا إلى صانع زجاج، وطلب منه خَرَزةً تطرد عينَ الحسد، أشدَّ زُرقةً من السَّماء، وأكبرَ من سجَّادة الصلاة. وبعد أربعين يومًا من ولادة تاركان، ضحَّى بثلاث معزات، ووزَّع لحمَها على الفقراء. وظلّ رجلًا سعيدًا وفخورًا مدَّةً من الزمان.

بعد بضعة أشهر، ظهرتْ حبَّتا أرزٍّ على فم تاركان. وبعد أن ظهر أوَّلُ سنّ من أسنانه، حان الوقتُ لتقرير مهنة الطفل مستقبلًا. ودُعِيتْ كلُّ نساء الحيّ، فجئن، ولكنَّهنَّ لم يكنَّ يلبسن ثيابًا محافظة، محتشمة كتلك التي كنَّ يأتين بها يومَ تلاوة القرآن، ولا ثيابًا جريئةً مثل ثياب يوم استخدام الشمع، بل كانت ثيابًا متوسِّطة، بين هذه وتلك، تدلّ على الأمومة والحياة المنزليَّة.

فُتِحَت مظلَّةٌ بيضاء اللَّون، كبيرةُ الحجم، فوق رأس تاركان، ووَضعتِ النساءُ فوقها قِدْرًا مملوءةً بالحنطة المسلوقة. لاح على الطفل شيءٌ من الخوف وهو يشاهد الحنطةَ تُنثَر عليه، لكنْ لم

يصدر عنه أيُّ بكاء، ما أثار الارتياحَ في نفوس الحاضرات. لقد اجتاز الاختبارَ الأوَّل، وسيغدو رجلًا قويًّا.

بدأ تدريبُه على الجلوس على السّجَّاد، محاطًا بمجموعة من الأغراض، مثل: رزمة عملة ورقيَّة، وسمَّاعة طبيب، وربطة عنق، ومرآة، ومسبحة، وكتاب، ومقصّ. فإذا اختار النقودَ فسوف يصبح مصرفيًّا؛ وإذا اختار سمَّاعةَ الطبيب فسوف يغدو طبيبًا؛ وإذا اختار ربطةَ العنق فسوف يصبح موظَّفًا حكوميًّا؛ وإذا اختار المرآةَ فسوف يصبح مُصفِّفَ شعر؛ وإذا اختار المسبحةَ فسيصبح إمامًا؛ وأمَّا إذا اختار الكتابَ فسيصبح معلِّمًا. لكنَّه إذا تحرَّك باتِّجاه المقصّ، فسوف يسير على نهج أبيه، ويصبح خيَّاطًا.

انتظرت النساءُ وهنَّ ملتفّات حول الطفل في حلقةٍ شبه دائريَّة، وأخذن يقتربن منه أكثر فأكثر، حابساتٍ أنفاسَهنَّ. كان وجه العمَّة يوحي بتركيزٍ شديد، شاخصة العينيْن نحو هدفٍ واحدٍ لا غير، مثل شخصٍ يوشك أن يَصرع ذُبابةً. أمَّا ليلى، فكتمتْ رغبةً شديدةً في الانفجار ضاحكةً، وألقت نظرةً خاطفةً على أخيها الذي كان يمصّ

إبهامَه، ولا يدري أنَّه بات أمام مُفترق طُرُق، ويوشك أن يختارَ مجرى حياته ومصيره.

قالت العمَّة مُشيرةً إلى الكتاب:

ـ تعالَ من هنا، يا حبيبي.

كانت ترى أنَّ المناسب لابنها أن يصبح معلِّمًا ـ أو يُستحسَن أن يكون مديرَ مدرسة. وعندئذٍ، سوف تزوره كلَّ أسبوع، وتمشي الهوينى وهي تدخل بوَّابةَ المدرسة، ملؤها الفخرُ والاعتزاز. أهلًا بها، أخيرًا، في مكانٍ طالما اشتاقت إلى أن تكون جزءًا منه حين كانت طفلةً، إلَّا أنَّها استُبعدتْ منه.

قالت الأمّ مشيرةً إلى المسبحة:

. لا، من هنا.

في ظنِّها أنْ ليس ثمَّة ما هو أكثرُ هيبةً وكرامةً من أن يكون في الأُسرةِ إمام؛ فهذا عملٌ يقرِّبهم جميعًا من اللّـه.

وهتفتْ جارةٌ مسنَّة:

. هل فقدتِ صوابَكِ؟ إنَّ كلّ فردٍ في حاجةٍ إلى طبيب.

ثمَّ أشارت بذقنها إلى سمَّاعة الطبيب، في حين تابعتْ عيناها الطفلَ، وصوتُها يقطر عسلًا:

. تعال إلى هنا، أيُّها الطفل العزيز.

وقالت المرأةُ الجالسةُ بجوارها:

ـ حسنًا. أمَّا أنا، فأقول إنَّ المحامين يكسبون مالًا أكثر من أيّ شخصٍ آخر. الواضح أنَّ هذا غاب عن أذهانكنَّ، لأنَّني لا أرى نسخةً من الدستور هنا.

في هذه الأثناء، مرَّت عينا تاركان على الأغراض من حوله، فما كان منه إلَّا أن ولَّى الضيوفَ ظهرَه لعدم اهتمامه بأيّ منهم. في تلك اللَّحظة، وقعتْ عيناه على ليلى التي كانت واقفةً من ورائه صامتةً. وسرعان ما هدأتْ ملامحُه، ومدَّ يده باتِّجاه شقيقته، وجذب سوارَها ـ الجلديّ البنّيّ المعقَّصَ بحبلٍ من الساتان الأزرق ـ ورفعه في الهواء.

قالت ليلى ضاحكةً ضحكةً قصيرة:

. هه! إنَّه لا يريد أن يصبح معلِّمًا ولا إمامًا. إنَّه يريد أن يكون أنا!

كانت فرحةُ الطفلة غايةً في النقاوة والعفويَّة، ما اضطرَّ الكبارَ، على الرَّغم من خيبة أملهم، إلى مشاركتها ضحكَها.

***

غالبًا ما دهم تاركان المرضُ بسبب ضعفه وعجزهِ عن السيطرة على نفسه. وتبيَّن أنَّ أدنى جهدٍ بدنيٍّ يسبِّب له الإعياء. كان صغيرًا قياسًا إلى عمره، وبدا أنّ جسده ينمو من دون تناسق. وبمرور الزمن، كان في وسع كلِّ شخص أن يرى أنَّه مختلفٌ عن الآخرين، وإنْ لم يصرِّح بذلك أحدٌ. وحين بلغ سنتيْن ونصفَ السنة، وافق بابا على أخذه إلى المستشفى، وأصرَّت ليلى على مرافقتهما.

كانت السَّماء تُمطر بغزارة حين وصلوا إلى عيادة الطبيب. وضع بابا الطفلَ فوق سرير مُغطًّى بملاءة، وتنقَّلتْ عينا الطفل من بابا

إلى ليلى، وبالعكس. كانت شفته السُّفلى متهدِّلة، يوشك أن يبكي، فشعرتْ ليلى للمرَّة الألف بموجةٍ طاغيةٍ من الحبّ، على درجةٍ بالغةٍ من القوَّة واليأس، ما أثار ألمها. ثمَّ وضعتْ يدها برقَّةٍ على استدارة بطنه الدافئ، وابتسمتْ.

قال الطبيب بعد أن فحص تاركان:

ـ أرى أنَّ لديكَ مشكلةً هنا. إنَّني آسف على حال ابنك ـ فهذا يحدث. هؤلاء الأطفال لا يسعهم تعلُّم أيِّ شيء، إذ لا فائدة من المحاولة. فهم لا يعيشون عمرًا طويلًا.

ـ لا أفهم كلامَكَ.

قال بابا ذلك وهو يتكلَّم على نحوٍ أَحْكم فيه زمامَ السيطرة على صوته.

ـ هذا الطفلُ منغوليّ. ألم تسمعْ بهذا من قبل؟

حدَّق بابا في الفراغ، صامتًا، لا تندّ عنه أيُّ حركة، كأنَّه هو الذي وَجَّه سؤالًا وبات ينتظر الجواب.

خلع الطبيبُ نظّارته، ورفعها في اتِّجاه الضوء. يبدو أنَّه وجدها نظيفةً بما يكفي، لأنَّه أعادها إلى موضعها السَّابق فوق أنفه.

ـ ولدُكَ ليس طفلًا سويًّا. المؤكَّد أنَّكَ مُدركٌ ذلك الآن. أعتقد أنَّ مرضَه واضحٌ للعيان، ولا أفهم سببَ دهشتك الكبيرة. والآن، اسمحْ لي أن أطرح عليكَ هذا السُّؤال: أين زوجتُكَ؟

تنحنح بابا؛ فهو لن يُخبرَ هذا الرجلَ الذي يعامله بغطرسةٍ واستعلاء بأنَّه لا يوافق على خروج زوجته الشابَّة من المنزل إلَّا عند الضّرورة القصوى. فردَّ عليه قائلًا:

ـ إنَّها في الدار.

ـ حسنًا، كان ينبغي أن تأتي برفقتك، إذ من الضروريّ أن تكون على بيّنةٍ من الحال. وعليكَ أن تكلِّمها. ففي الغرب، ثمَّة معاهدُ لمثل هؤلاء الأطفال، وهم يعيشون فيها طوال أعمارهم، ولا يزعجون أحدًا. لكنَّنا لا نملك مثلَ هذا النوع من العلاج هنا. ويتعيَّن على زوجتك أن تهتمّ به، وإنْ لم يكن ذلك بالأمر السَّهل. أَخْبِرْها بأنَّها يجب ألَّا ترتبط به ارتباطًا شديدًا؛ فهؤلاء الأطفال يموتون قبل سنّ البلوغ.

قطَّبتْ ليلى وجهَها أمام الرجل، بعد أن سمعتْ كلَّ كلمةٍ من كلماته مع ازدياد دقَّات قلبها، وقالت له:

ـ اخرسْ، أيُّها الغبيّ، أيُّها الرَّجل الشرِّير! لماذا تتفوَّه بهذه العبارات المخيفة؟

قال بابا، وإنْ بنبرةٍ أقلّ صرامةً من أيّ وقتٍ آخر:

ـ تأدَّبي يا ليلى!

التفت الطبيبُ إلى ليلى، ورشقها بنظرةٍ ملؤها الذهول، كأنَّه نَسِيَ أنَّها حاضرة في العيادة. وقال:

ـ لا تقلقي، أيَّتها الطفلة. إنَّ شقيقك لا يفهم أيَّ شيء.

فصرختْ ليلى في وجهه بصوتٍ أشبه بزجاجٍ يتحطّم:

. بل يفهم، يفهم كلّ شيء.

تملَّكت الطبيبَ الدَّهشةُ وهو يسمع صرخاتها، ورفع يدَه ليربِّت على رأسها. لكنْ من المؤكَّد أنَّه عدل عن فكره، إذ سرعان ما جذبها إلى أسفل ثانيةً.

تعهَّد بابا بتولّي أمر تاركان شخصيًّا، وهو واثق تمامًا بأنَّه ارتكب أمرًا فظيعًا، فتسبَّب في غضب اللَّـه وسخطه. لقد عُوقِب بسبب

خطاياه ماضيًا وحاضرًا، وها هو اللّـه يبعث إليه برسالةٍ، واضحةٍ ومدوّيِة؛ ولئن كان لا يزال يرفض تسلُّمَها، فإنَّ الأسوأ هو القادم. لبث بابا يعيش طوال هذا الوقت عبثًا، مشغولَ الفكر بما يريده من القدير، من غير أن يفكِّر قطّ بما يريد اللّـهُ منه! لقد أقسم أغلظَ الأيْمان بأن يتوقَّف عن شرب الكحول يومَ وُلِدتْ ليلى، إلَّا أنَّه نكث بوعده. كانت حياتُه كلُّها مليئةً بوعودٍ نَكَثَ بها، وبمهامّ ناقصة. والآن، بعد أن تمكَّن من تهدئة صوت نفسه، فقد بات جاهزًا لأن يفدي بنفسه ويخلِّصها. فاستشار شيخَه. وبناءً على ما قدَّمه إليه من نصحٍ وإرشاد، قرَّر أن يتوقَّف عن خياطة ملابس السيِّدات، وخياطة الملابس الفاضحة والتنُّورات القصيرة. وعزم على أن يستخدم مهاراته لأغراضٍ أفضل، وأن يَهَبَ ما تبقَّى من حياته لنشر قضيّةٍ مخافة اللّـه، لأنَّه شهد الضرْبات التي تنزل بالبشر حين توقَّفوا عن مخافة اللّـه.

قرَّر بابا أن تهتمّ زوجتاه برعاية طفليْه. فقد نبذ الزواجَ، ونبذ الجنسَ بعد أن أدرك أنَّه أشبهُ بالمال الذي له أساليبُه في تعقيد

الأشياء. فانتقل إلى حُجرةٍ معتمةٍ في الجانب الخلفيّ من الدار، وأمر بإخلائها من الأثاث. باستثناء مَرْتبة سرير واحدة، وبطَّانيَّة، ومصباح زيتيّ، وخزانة أدراج خشبيَّة، وعددٍ صغيرٍ من الكتب اختارها له شيخُه بعناية. أمَّا ثيابُه ومسبحاتُه ومناشفُ الوضوء، فاحتفظ بها داخل الخزانة. وقرَّر التَّخلّي عن وسائل الرَّاحة، ومنها الوسادة. وشأن المؤمنين المتأخِّرين، كان توَّاقًا إلى التعويض ممَّا فاته في سنواته الضائعة. وفي غمرة شوقه إلى جذب كلِّ فرد إلى طريق الربِّ. ربِّه. فقد أراد أن يكون له عددٌ قليلٌ من الأتباع والمريدين، إنْ لم يكونوا بالعشرات، أو أن يكون له تابعٌ واحدٌ مخلص. فَمَن ذا الذي ينطبق عليه هذا الدورُ أفضل من ابنته، التي راحت تتحوَّل على جناح السرعة إلى فتاةٍ صغيرةٍ مُتمرِّدة، تزداد ميْلًا إلى الفظاظة وقلَّة الاحترام والاستخفاف بالمقدَّسات؟!

لو أنّ تاركان لم يولدْ مصابًا بمتلازمة داون، وهو الاسم الذي راح يُطلَق على حالته بعد سنوات، لوزّع بابا آمالَه وإحباطاتِه بقدرٍ متساوٍ بين طفليْه. لكنْ وفقًا لمجريات الأمور، فقد وُضِعت كلّها

على عاتق ليلى. ومع مرور السنين، تضاعفتْ تلك الآمالُ والإحباطات على حدٍّ سواء.

***

13 نيسان 1963. حين بلغت ليلى السادسة عشرة، وجدتْ نفسَها أسيرةَ عادةِ متابعةِ أخبار العالم عن كثب. لأنَّها كانت مهتمَّةً بما يَحْدث في أماكن أخرى، ولأنَّ ذلك ساعدها على عدم التَّفكير أكثر ممَّا ينبغي في حياتها المحدودة. عصرَ ذلك اليوم، راحت تقرأ الأخبارَ للعمَّة، وهي ترنو إلى الجريدة المفروشة على طاولة المطبخ. في أميركا، ذلك البلد البعيد جدًّا، اعتُقِل رجلٌ شجاع أسودُ البشرة بسبب احتجاجه على سوء المعاملة التي يتعرّض لها نُظراؤه. وكانت جريمتُه التظاهرَ من دون رخصة. ثمَّة صورة له، وتحتها العبارةُ الآتية: «سِجنُ مارتن لوثر كنغ!» كان يرتدي بذلةً أنيقة وربطةَ عنقٍ سوداء، وكان وجهُه متَّجهًا قليلًا إلى عدسة التَّصوير. إلَّا أنَّ يديْه هما اللَّتان لفتتا نظرَ ليلى. فقد رفعهما بخفَّةٍ ورشاقةٍ إلى أعلى، وضمَّ راحتيْه المقوَّستَيْن الواحدة نحو الأخرى،

وكأنَّه يحمل كرةً بلُّوريَّةً غير مرئيَّة، وقد وعد نفسه بألَّا يُسقِطها من يدَيْه، وإنْ لم تكن لتُطْلِعَه على صورة المستقبل!

قلّبتْ ليلى صفحات الجريدة، وانتقلتْ إلى الأخبار المحلِّيَّة. مئاتُ الفلَّاحين في الأناضول خرجوا في تظاهرةٍ

مناهضةٍ للفقر والبطالة، واعتقال أعدادٍ كبيرةٍ منهم. وأفادت الصحيفة أنَّ الحكومة في أنقرة كانت قد وطَّدت العزمَ على قمع الثورة، وأنَّها لن تسمح بارتكاب هفوة الشاه في إيران المتاخمةِ لحدودها. كان الشاه بهلوي يوزِّع الأراضي للفلَّاحين الذين لا يملكون أيّ قطعة أرضٍ بأملِ كسبِ ولائهم، إلَّا أنَّ الخطَّة لم يُكتَب لها النجاحُ، كما يبدو. فقد ازداد السَّخط والاستياء في أرض الرِّمال ونمور قزوين.

قالت العمَّة بعد أن فرغتْ ليلى من قراءة الأخبار: «توت ـ توت، العالم يجري بسرعةِ كلبٍ أفغانيّ. هنالك الكثير من البؤس والعنف في كلِّ مكان.«

نظرت العمَّةُ نظرةً خاطفةً خارج النافذة، وقد أرهبها العالمُ البعيدُ من ورائها. كانت إحدى مشكلاتها التي لا نهاية لها في حياتها تتمثَّل في خوفها من أن تُطرَد من هذا المنزل إنْ لم تهدأ قليلًا؛ فهي لم تشعر إلى اليوم بالأمان حتى بعد مضيّ كلّ هذا الزمن، وبعد إنجابهما طفليْن. وكان تاركان الذي بلغ التاسعة، ولكنَّ مهاراتِه في التواصل مع الآخرين لا تزال مهاراتِ طفلٍ في الثالثة، يجلس على السِّجادة قرب قدمَيْها، يلعب بِكُرةٍ من الصوف. كانت تلك الكرةُ أفضلَ ما لدَيْه من لُعب؛ فهي بلا حافَّات حادَّة، ولا تحتوي ما يُلحق به الأذى. كان يشعر بأنَّه ليس على ما يُرام طوال الشهر، شاكيًا من ألمٍ في صدره، ووهنتْ صحَّتُه لإصابته بالإنفلونزا التي لم تفارقْه. وعلى الرَّغم من زيادة وزنه مؤخَّرًا، فإنَّ بشرته

كانت شاحبةً توحي بالسُّقم. راقبتْ ليلى شقيقَها؛ وبينما ارتسمَتْ على وجهها ابتسامةٌ يشوبها القلق، تساءلتْ إنْ كان يُدرِك أنَّه لن يكون مثلَ بقيَّة الأطفال! وتمنَّت لو كان ذلك غير صحيح . لمصلحته؛ إذ لا بدَّ من أن يتألَّم حين يكونُ مختلفًا، ويعرفُ أنَّه مختلف في أعماقه.

في تلك اللَّحظة، لم تُدركْ ليلى ولا العمَّةُ أنَّ هذه هي المرَّة الأخيرة التي تقرأ فيها ليلى، أو أيُّ فردٍ في الأسرة، الصحفَ بصوتٍ عالٍ. فإذا كان العالم يتغيَّر، فإنَّ بابا يتغيَّر بدَوره. فبعد وفاة شيخه، راح يبحث عن معلِّمٍ روحيّ غيره. وفي وقت مُبكِّر من فصل الربيع، بدأ يَحْضر مجالسَ الذِّكْر الخاصَّة بإحدى الطرق الصوفيَّة، ومقرُّها في ضواحي بلدة فان. وكان الواعظ الذي يَصْغره بعقدٍ من الزمان رجلًا صارمًا، ذا عينَيْن بلون العشب الجافّ. وعلى الرَّغم من أنَّ الطريقة كانت ذاتَ جذور تاريخيَّة في فلسفات التصوُّف التي أضفى عليها الزمانُ جلالًا، وفي تعاليم العشق الصوفيَّة، والسِّلْم، وإنكارِ الذات، فإنَّها أضحت اليوم محورَ التَّصلُّب والتَّعصُّب

والصَّلَف. وإذا كان الجهاد قد عنى ذات يومٍ الجهادَ الأبديَّ ضدّ النَّفس، فإنَّه لم يَعُد اليوم يعني إلَّا الحربَ على الكفَّار . والكفَّار منتشرون في كلِّ حدبٍ وصوْب. وأراد الواعظ أن يعرف الإجابةَ عن تساؤله القائل: «كيف يمكن فصلُ الدِّين عن الدولة، بينما هما شيءٌ واحدٌ ومتشابهٌ في الإسلام؟» لعلَّ هذه الازدواجيَّةَ المصطنعةَ تنفع الغربييّن، بسبب ما يتَّصفون به من كثرة احتساء المشروبات الكحوليَّة، والسلوكِ الخارجِ عن الأصول والحشمة، إلَّا أنَّها لا تنفع السكَّانَ هنا في الشرق، الذين يروقهم أن يتمتَّعوا بتوجيهات الربّ في كلِّ ما يعملون. وما العلمانيَّة إلَّا اسمٌ آخر من أسماء حُكم الشيطان. لهذا، فإنَّ أعضاءَ هذه الطريقة الصوفيَّة سيحاربونها بكلّ ذرّةٍ من وجودهم، وسوف يضعون يومًا ما نهايةً لهذا النظام الذي صنعه الإنسان، ويعيدون بذلك حكمَ الشريعة التي أنزلها الربّ.

وتحقيقًا لهذه الغاية، ينبغي لكلِّ فردٍ من أفراد الطريقة أن يمهِّد الطريقَ لعمل الربّ، بادئًا بحياته الشَّخصيَّة. هكذا، نصحهم

الواعظ. وهم مجبرون على التأكُّد من أنَّ أُسرهم ـ زوجاتِهم وأطفالَهم ـ يعيشون استنادًا إلى هذه التَّعاليم المقدَّسة.

وهكذا، شنَّ بابا حربًا مقدَّسةً في الدَّار. أوَّلًا، ابتكر مجموعةً جديدةً من القوانين. فلم يَعُد مسموحًا لليلى أن تذهب إلى منزل السيِّدة الصيدلانيَّة لمشاهدة التلفاز. ومنذ الآن فصاعدًا، يتعيَّن عليها أن تمتنع عن قراءة أيِّ مطبوعات، وعلى وجه الخصوص مجلَّات الأزياء النسائيَّة، وضمنها مجلَّة «حياة» الواسعة الانتشار، التي كانت تنشر مختلفَ صور الممثِّلات على أغلفة أعدادها الشهريَّة. وأصبحت المسابقاتُ الغنائيَّة، ومسابقاتُ ملكات الجمال، والمنافساتُ الرياضيَّة، فُسقًا وفجورًا. كما وُصمتْ بوصمة الخطيئة المُتزلِّجاتُ على الجليد، بتنُّوراتهنَّ القصيرة. وشكَّلتْ بطلاتُ السباحة والجمباز، بثيابهنّ الضيِّقة، استثارةً للأفكار الشهوانيَّة لدى الرِّجال والأتقياء.

ـ كلّ هؤلاء الفتيات اللواتي يتشقلبنَ في الهواء عاريات!

إلّا أنَّ ليلى ذكّرته قائلةً:

ـ لكنَّك كنتَ تستمتع بالرياضة.

أجاب بابا:

ـ كنتُ تائهًا. أمَّا الآن، فقد أصبحتْ عيناي مفتوحتَيْن. فاللَّه لم يُرِدِ منِّي أن أتوهَ في البرِّيَّة.

لم تعرف ليلى عن أيّ برِّيَّة يتحدَّث والدها. فهم يعيشون في مدينةٍ، صحيحٌ أنَّها ليست كبيرة، لكنَّها تظلُّ مدينةً على أيّ حال.

ـ إنَّني أُسدي إليكِ معروفًا، ولسوف تُقدِّرينه يومًا ما.

هكذا تكلَّم بابا أثناء جلوسها معه من وراء طاولة المطبخ، تَفْصل بينهما كومةٌ من الكتيِّبات الدِّينيَّة.

***

كانت الأمّ تُذكِّر ليلى كلَّ بضعة أيَّام، بصوتٍ رقيقٍ وشجيّ خصّصَتهُ للصلاة، بأنَّ الوقت قد حان لتغطية شعر رأسها، وأنّهُ آن الأوان الذي اتّفقتا عليه ذات يومٍ لكي تذهبا معًا إلى البازار وتختارا أفضلَ الأقمشة. بيْد أنَّ ليلى لم تَعُدْ تشعر بأنَّها مُلزمة بهذا الاتفاق. فلم ترفض وضعَ الحجاب على رأسها فحسب، بل راحت تُعامِل جسدها أيضًا وكأنَّه «مانيكان»، في وسعها أن تُصمِّمِ له شكلًا وثيابًا وألوانًا كما يحلو لقلبها. وبدأتْ تُفتّح لونَ شعر رأسها وحاجبَيْها بعصير اللَّيمون والبابونج. وحين اختفت ثمرات اللَّيمون والبابونج من المطبخ على نحوٍ غامض، انتقلتْ إلى حنَّاء أمّها. فإذا لم يكن في ميسورها أن تكون شقراءَ، فلماذا لا تصبغ شعرَها باللَّون الأحمر؟ غير أنَّ الأمّ عمدتْ بكلّ هدوءٍ إلى الاستغناء عن الحنّاء الموجود في البيت.

ذات يوم شاهدتْ ليلى، وهي في طريقها إلى المدرسة، امرأةً كرديَّة، وعلى ذقنها وشمٌ تقليديّ، فأُعجبتْ به. وفي اليوم التالي،

زيَّنتْ كاحلَها الأيمن بوردةٍ سوداء، مطبوعةٍ فوقه تمامًا. كان الحبر المستعمل في طباعة الوشم يستندُ إلى تركيبةٍ تعود إلى قرونٍ خلت، ومعروفةٍ في أوساط القبائل المحلّيَّة، وهي: سخامُ الفحم، وسائلٌ مستخرَجٌ من كيس صفراء معزةٍ جبليَّة، وشحمٌ حيوانيٌّ مستخلصٌ من غزال، فضلًا عن قطرات قليلة من حليب الثدي. ومع كلِّ وخزةٍ من وخزات الإبرة، كانت تجفل قليلًا. إلَّا أنَّها تحمَّلت الألم، وشعرتْ بالحيويَّة مع مئات المِزَقِ تحت جلدها.

كانت ليلى تزيّن دفاترَها بصُوَر المغنِّين المشهورين، على الرَّغم من أنَّ بابا أخبرها بأنَّ الموسيقى حرام، وأنَّ الموسيقى الغربيَّةَ محرَّمةٌ تمامًا. ولكونه قد أبلغها بهذا التَّحريم على نحوٍ قاطعٍ لا يدع مجالًا لأيّ تسوية، فقد راحت تستمع مؤخَّرًا إلى الموسيقى الغربيّة حصرًا. لم يكن سهلًا أن تتابع جداولَ الأغاني الأوروبيَّة والأميركيَّة في مثل هذه البلدة النائية والمنعزلة، إلَّا أنَّها تشبَّثتْ بكلِّ ما استطاعت التشبُّثَ به. وكانت مولعةً على وجه الخصوص

بألقيس پريسلي، الذي كان يبدو، بوسامته الغامضة، تُركيًّا أكثرَ ممَّا هو أميركيّ، ومألوفًا على نحوٍ مُحبَّب.

كان جسدها يتغيَّر سريعًا: شعرٌ تحت إبطَيْها؛ ورقعةٌ سوداءُ بين ساقَيْها؛ وبشرةٌ جديدة؛ وروائحُ جديدة؛ ومشاعرُ جديدة. وتحوَّل نهداها إلى غريبيْن، متكبِّريْن، يشمخان بأنفيْهما في الهواء.
وراحت كلّ يوم تنظر إلى وجهها في المرآة بفضولٍ ولَّدَ عندها القلقَ وعدمَ الارتياح، وكأنَّها تتوقَّع أن ترى فيها شخصًا آخَرَ يُبادلها نظراتها. كانت تستعمل مساحيقَ التَّجميل في كلِّ مناسبة، وتُسدل شعرَها بدلًا من تصفيفه في ضفائرَ أنيقة، وترتدي التنُّورات الضيِّقة متى استطاعت. بل راحت مؤخَّرًا تدخِّن سرًّا بعد أن تسرق التبغَ من أكياس حفظ التبغ الخاصّة بأمِّها. لم يكن لها أصدقاء أو صديقات في فصلها الدراسيّ؛ إذ وجدها التلاميذُ الآخرون غريبةً أو مخيفة! أما هي، فلم تعرف أيَّهُما كانت. وكانوا يثرثرون بصوتٍ عالٍ، متعمّدين أن تسمعه، ويصفونها بالتفَّاحة الفاسدة. غير أنَّ ليلى لم تبالِ بذلك، وكانت تتحاشاهم في كلِّ الأحوال، ولا سيَّما الفتيات المحبوبات اللَّواتي يرشقنها بنظراتِ انتقادٍ وملاحظاتٍ حادَّة. كانت علاماتُها في المدرسة منخفضة، إلَّا أنَّ بابا لم يعترض، إذ فكَّر أنَّها سرعان ما تتزوَّج وتبدأ حياةً خاصَّةً بها. ولم يكن يَتوقَّع

أن تصبح تلميذةً يُقتدى بها، بل توقَّع أن تكون فتاةً طيِّبةً وصالحة، فتاةً مُحتشِمة.

كان صديقُها الوحيد في المدرسة إلى هذا اليوم هو ابنَ السيِّدة الصيدلانيَّة. وقد صمدتْ صداقتُهما أمام تجارب الزمن، مثل شجرة زيتونٍ تزداد قوَّةً بمرور السنين. كان سنان بطبعه خجِلًا هيّابًا، قليلَ الكلام، شديدَ البراعةِ بالأرقام، وينال دائمًا أعلى العلامات في الرياضيَّات. ولم يكن له أصدقاء آخرون، لعدم تمكُّنه من مجاراة قدرةِ معظم أقرانه من التلاميذ على إثبات ذواتهم. وكان المألوف عنده أن يبقى هادئًا، منطويًا على نفسه أمام الشَّخصيَّات المهيمنة مثل معلِّمِ الصفّ والمدير، ومثل والدته قبلَ هذا وذاك. أمَّا في رفقة ليلى، فلم يكن كذلك، إذ تجده لا يتوقَّف عن الكلام، صوتُه مفعم بالإثارة والانفعال. وفي كلِّ استراحةٍ، وأثناء فترة الغداء في المدرسة، يبحث أحدُهما عن الآخر، فيجلسان في أحد الأركان وحدهما . في حين كانت الفتيات يتجمَّعن في مجاميع، أو يقفزن فوق الحبل، بينما يلعب الصبيان الآخرون كرةَ القدم أو البلي. أمَّا هُما، فكانا لا يتوقَّفان عن الكلام، متجاهلَيْن نظراتِ التَّوبيخ والاستنكار، في بلدةٍ لا يحيد فيها أيٌّ من الجنسيْن عن مساره المحدَّد.

كان سنان قد قرأ كلَّ ما استطاع العثورَ عليه عن الحربَيْن العالميَّتَيْن الأولى والثانية . كأسماء المعارك وتواريخ الغارات الجويَّة وأبطال حركة المقاومة... كان يعرف الكثير عن منطاد زبلن، والكونت الألمانيّ(3) الذي سُمِّي هذا المنطادُ باسمه. وكانت ليلى تعشق الاستماعَ إليه وهو يحكي عن هذه الأشياء بشغفٍ يصل حدَّ تخيُّلها أنَّ أحد المناطيد يُحلِّق فوق رأسها، ويلقي بظلاله الأسطوانيَّة الهائلة الحجم على المآذن والقباب التي يطفو فوقها في طريقه نحو البحيرة العُظمى.

قالت ليلى:

. سوف تخترع شيئًا ما في يومٍ من الأيَّام.

. أنا؟

. نعم، وسيكون اختراعُكَ أفضلَ من اختراع الكونت الألمانيّ، لأنَّ اختراعه قضى على الناس. أمَّا اختراعُكَ فسوف يساعد الآخرين. أنا متأكّدة من أنَّك سوف تنجز شيئًا مُدهشًا حقًّا .

كانت ليلى هي الوحيدة التي اعتقدتْ أنَّه قادرٌ على تحقيق الأشياء العظيمة.

كان سنان مهتمًّا على نحوٍ خاصٍّ بموضوع الشِّفرات وحلِّها. وكانت عيناه تلتمعان بهجةً حين يتحدَّث عن الإرسال السرِّيّ «التخريبيّ» الذي تبثُّه حركةُ المقاومة في زمن الحرب. ولم يكن كثيرَ الاهتمام بمحتوى الإرسال، بل بقوَّة المذياع؛ فقد سحرتْهُ نبرةُ القوَّة والتفاؤل، الثابتة، المنبعثة من صوتٍ في الظلام، يتكلَّم في فضاءٍ خاوٍ، واثقًا بأنَّ ثمَّة مَنْ يرغب في الاستماع إليه في الخارج.

لم يكن بابا يدري أنَّ هذا الفتى هو الذي يُغذِّي ليلى بالكتب والمجلَّات والصحف . وهي المنشورات التي لم يَعُد في ميسورها مطالعتُها في البيت. وعلى هذا النحو، عرفتْ أنَّ هنالك اندماجًا كبيرًا في إنكلترا، وأنَّ النساء حصلن على حقّ التَّصويت في إيران، وأنَّ الحرب لا تسير على هوى الأميركان في فيتنام.

قالت ليلى وهي تجلس رفقةَ سنان تحت الشجرة الوحيدة في الساحة:

ـ كنتُ أفكِّر في أنَّك تُشبه إحدى محطَّات المذياع السريعة التي لا تتوقَّف عن إخباري بها. أليس كذلك؟ شكرًا لك. إنَّني أتابع ما يجري في العالم.

أشرق وجهُ سنان وهو يقول:

ـ إنَّني محطَّتُكِ الإذاعيَّةُ التخريبيَّة!

دقَّ الجرسُ معلنًا أنَّ الوقت قد حان للعودة إلى الصفوف. وبينما هي تنهض من مكانها وتنفض عنها الغبارَ، قالت:

. ربَّما سأُسمِّيك «سنان سابوتاج . تخريب»(4.(

. أأنتِ جادَّة؟ هذا يروقني كثيرًا !

وهكذا، حصل الابنُ الوحيدُ للصيدلانيَّة الوحيدة في البلدة على لقب «المُخرِّب». إنَّه الصبيّ الوحيد الذي سوفَ يَلْحق بليلى بعد هروبها من الدار، من بلدة ڤان إلى مدينة إسطنبول، تلك المدينة التي كانت نهايةَ المطاف لكلّ السَّاخطين وكلِّ الحالمين.

- 8 -

ستُّ دقائق

بعد ستّ دقائق على توقُّف قلب ليلى عن الخَفَقان، جذبتْ من أرشيف ذاكرتها رائحةَ الموقد الذي يوضَعُ فيه خشبُ التدفئة. اليوم، 2 حزيران 1963، هو اليوم الذي سوف يتزوَّج فيه أكبرُ أولاد العمّ. وكانت خطيبتُه قد تحدَّرتْ من أسرةٍ كسبتْ ثروتَها من خلال التجارة على امتداد طريق الحرير، وهو ـ كما يعرف عددٌ كبيرٌ من سكَّان المنطقة ولكنَّهم فضَّلوا السكوت ـ لم يكن مقتصرًا على تجارة الحرير والتوابل، بل كان طريق الإتجار بالخشخاش أيضًا. فمن الأناضول إلى باكستان، ومن أفغانستان إلى بورما، كان الخشخاشُ ينمو بالملايين، يتمايل على وقع النسمات، ألوانُه البرَّاقة متمرِّدة في وجه الطبيعة القاحلة، والسَّائلُ الحليبيّ ينضح من جراب البذرة قطرةً سحريّةً تلو أخرى. وفي حين كان الفلَّاحون يعيشون في فقرٍ مدقع، كان غيرُهم يكسبون ثرواتٍ طائلة .

لم يأتِ أحد على ذِكْر هذا الموضوع في الحفل الباذخ الذي أقيم في أضخم فندق في بلدة ڤان. وانهمك الضيوفُ قصفًا ورعدًا حتَّى السَّاعات الأولى من الصباح. وامتلأت القاعةُ بدخان السجائر حتّى بدت وكأنَّها تحترق. وراح بابا يراقب بعينيْن مستهجنتيْن كلَّ مَن يطأ حلبةَ الرَّقص، إلَّا أنَّ تكشيرَته الكبرى خَصَّ بها الرجالَ والنِّساء الذين تشابكتْ أذرعُهم في رقصة تقليديَّة، هي رقصة «هالاي» الشعبيَّة على إيقاع الطبل والمزمار، وأخذوا يهزُّون أردافهم وكأنَّ ما يُعرف بالحشمة لم يطرق سمعَهم من قبلُ قطّ. لكنّه لم يُعلّق أبدًا على ما رأى، وذلك من أجل شقيقه، إذ كان يحبُّه حبًّا جمًّا.

في اليوم التالي، التقى أفرادُ الأسرتيْن في استوديو تصوير. وبعد سلسلة من التغييرات في مهاد الصورة - برج إيڤل، وساعة بيغ بن، وبرج پيزا المائل، وقطيع من طيور الفلامنكو المحلِّقة في اتِّجاه الشمس - التُقِطَتْ للعروسيْن صورٌ سيحفظانها لذريّتهما، وقد أرهقهما الحرُّ الشديد، إذ كانا يرتديان ثيابهما الجديدة الباهظة الثمن.

أمعنتْ ليلى النَّظرَ من أحد الجوانب إلى الزوجيْن السَّعيديْن. كانت العروسُ شابَّةً ذاتَ قوامٍ رشيقٍ، سوداءَ الشعر، متناسقةً تناسقًا أنيقًا في ثوبها اللؤلؤيّ، وتحمل في يدها باقةً من زهور الغاردينيا البيضاء، ويلفّ خصرَها نطاقٌ أحمر، رمزُ العفَّة والإعلان عنها. في حضورها، شعرتْ ليلى باكتئابٍ شديد، وكأنَّها تحمل صخرةً في صدرها. وساورتها فكرةٌ من تلقاء نفسها: أنَّها لن تتمكَّن من ارتداء مثل ذلك الثوب. فقد طرق سمعَها مختلفُ أنواع القصص: عن عرائسَ تَبَيّنَ في ليلة زفافهنّ أنَّهنَّ لسن عَذراوات، وكيف أنَّ أزواجهنَّ نقلوهنَّ إلى المستشفى لإجراء فحوصاتٍ شخصيَّة جدًّا، بخطواتٍ يتردَّد صداها في فراغٍ من ورائهم وهم يجتازون شوارعَ مظلمةً، بينما يتلصّصُ الجيرانُ عليهم من وراء ستائر مُخرّمة، وكيف أنَّهنَّ نُقلن إلى بيوت آبائهنَّ حيث تلقّين عقابًا كانت أُسرُهنَّ تراه مناسبًا. ولم تستطع هذه العرائسُ الاندماجَ في المجتمع مجدَّدًا، بعد أن تعرَّضن للإذلال والعار، وصمةً جوفاءَ في ملامحهنَّ الشابَّة.

نبشَتْ ليلى جُليدَةً يابسةً في منبت ظفر بَنصرِها، وظلّت تجذبُها حتّى سال الدمُ منها. شعرتْ بالهدوء إثر ذلك الألم البسيط المألوف في أعماقها، إذ كانت تلجأ إلى مثل هذا العمل في بعض الأحيان: تجرح نفسَها في الفخذيْن أو ذراعيْها، حيث لا يمكن أحدًا أن يشاهد العلامات، مستخدمةً السكّينَ التي كانت تشرّح بها تفّاحةً أو برتقالةً في المنزل. وكان الجلد يتلوّى برفقٍ تحت لمعان السكّين.

ما أشدّ فخرَ العمّ في ذلك اليوم! فقد ارتدى بذلةً رماديَّةً، وصديريَّةً بيضاء من الحرير، وربطةَ عنقٍ مطرَّزة. ولمّا حان وقتُ التقاط الأُسرة صورةً تذكاريَّة، وضع يده على كتف ابنه، وأطبق يدَه الثانية حول خصر ليلى. لكنْ لم يلحظْ أحدٌ ذلك.

***

في طريق العودة من الإستوديو، توقَّفتْ أُسرةُ أكارسو أمام أحد المخابز، وكان مزوَّدًا بساحةٍ لطيفة وطاولاتٍ في الظلّ. وانبعثتْ من النافذة رائحةُ البورك الطازج الذي خرج توًّا من الفرن.

طلب العمّ مشروباتٍ لكلّ فرد: سماور شاي للرَّاشدين، وليموناضةً مثلَّجةً للأصغر سنًّا. فبعد أن تزوَّج ابنُه من أُسرةٍ ثريَّةٍ، راح ينتهز كلّ فرصةٍ لإظهار ثروته. وكان في الأسبوع الفائت قد أعطى أسرةَ أخيه جهازَ هاتفٍ كي تتمكَّن من التواصل أكثر من المعتاد. قال العمّ للنادل:

. هاتِ لنا بعضَ ما نقضمه أيضًا.

بعد دقائق، جاء النادلُ حاملًا مشروباتهم، فضلًا عن طبقٍ كبيرٍ يحتوي على الخبز المنكَّهِ بالقرفة. فكَّرتْ ليلى أنَّ تاركان كان سيتناول قطفةً من هذا الخبز لو كان حاضرًا، والفرحة تملأ عينيْه نقيَّةً صافيةً لا يُخفيها أيُّ شيء. لماذا لا تشمله هذه الاحتفالاتُ الأُسريَّة؟ إنَّ تاركان لم يسافر إلى أيّ بقعة، ولا إلى نسخةٍ مزوَّرة من برج إيفل. وباستثناء مراجعة الطبيب حين كان طفلًا صغيرًا، فإنَّه لم يطّلعْ على العالم ما وراء سياج الحديقة. وحين يأتي الجيرانُ للزيارة، كان يُبعَد عن عيونهم المتطفّلة في حُجرةٍ بعيدة. ولمَّا كان تاركان يبقى في المنزل طوال الوقت، فإنَّ العمَّة كانت

تبقى معه أيضًا. ولم تَعُد ليلى والعمَّة قريبتيْن منذئذٍ، وكلُّ سنةٍ تمضي من العمر تُبْعدهما وتزيد من فرقتهما.

صبَّ العمُّ الشايَ، ورفع كأسَه في اتِّجاه الضوء. وبعد أن رشف رشفةً واحدة، هزَّ رأسه، وأشار إلى النادل، ومال إلى أمام، وتكلَّم بمنتهى البطء، كأنَّ كلّ كلمةٍ تُسبِّب له جهدًا جهيدًا:

ـ انظرْ إلى هذا اللَّون. هل تراه؟ ليس شايًا أسودَ بما يكفي. ماذا وضعتَ فيه؟ أوراقَ موز؟ مذاقُه أشبهُ بماء غسل الأطباق!

اعتذر النادلُ فورًا، وحمل السماورَ بعيدًا وهو يسكب بضع قطراتٍ على غطاء المائدة.

قال العمّ:

. أخرق. أليس كذلك؟ لا يعرف يُمناهُ من يُسراه.

ثمَّ التفتَ إلى ليلى، وقال بصوتٍ ينمّ عن رغبةٍ في إصلاح ذات البيْن:

. كيف حال المدرسة إذًا؟ ما المادَّة المفضَّلة لديكِ؟

قالت ليلى هازَّةً كتفيْها وهي ترنو إلى بقعِ الشاي:

. لا أفضِّلُ أيّ مادَّة.

عقد بابا حاجبيْه قائلًا:

. أهذا هو الأسلوبُ الذي تُكلِّمين به كبارَ السنّ؟ أنتِ عديمةُ الأخلاق.

قال العمّ:

ـ لا تقلقْ. إنَّها صغيرةُ السنّ.

ـ صغيرة؟ لقد تزوَّجَتُ والدتَها وكانت تشتغل، وأصابعُ يديْها رقيقة في مثل سنِّها.

هنا اعتدلت الأمُّ في جلستها.

قال العمّ:

. إنَّه جيل جديد.

. حسنًا، يقول شيخي إنَّ هناك أربعين علامةً تدلّ على اقتراب يوم القيامة. إحدى العلامات هي خروجُ الشبّان عن السيطرة. وهذا ما يحدث تمامًا في هذه الأيَّام. أليس كذلك؟ هؤلاء الصبيان، أصحابُ كتلة الشعر المنتصبة، ما الذي سيفعلونه بعد ذلك؟ هل سيَعمدون إلى إطالة الشعر كالبنات؟ إنِّي دائمًا ما أطلب إلى ابنتي أن تكون حذرةً. إنَّ هذا العالم مملوء بالفساد الأخلاقيّ.

سألت زوجةُ العمّ:

. ما العلامات الأخرى على قيام الساعة؟

. لا أستطيع أن أتذكَّرها كلَّها الآن، فقد نسيتُها. هناك تسعٌ وثلاثون علامة أخرى كما يبدو. غير أنَّنا بالتَّأكيد سنشاهد انهياراتٍ أرضيَّةً ضخمة، وسوف تجيش المحيطاتُ وتصطخب. آه، وسيكون عددُ النساء أكبر من عدد الرجال في العالم. سوف أعطيكِ كتابًا يشرح كلَّ هذه الأمور.

لاحظتْ ليلى بطرف عينها أنَّ العمّ كان يراقبها عن قصد. لذا أدارت رأسَها جانبًا على نحوٍ أكثر جدِّيَّةً ممَّا ينبغي، وذلك عندما

شاهدتْ أُسرةً تقترب. يبدو أنَّ الأُسرة كانت سعيدة: امرأة ذات ابتسامةٍ عريضة عرضَ نهر الفرات، ورجلٌ بعينيْن رقيقتيْن، وفتاتان تزيِّنان شعرهما بقوسيْن من الساتان. كانوا يبحثون عن طاولة، فجلسوا على المنضدة المجاورة لطاولة ليلى. تنبَّهتْ ليلى إلى أنَّ الأمّ كانت تداعب وجنةَ الفتاة الصغرى، هامسةً في أذنها بشيءٍ أضحكَها ضحكةً خافتة. أمَّا البنت الكبرى، فكانت في هذه الأثناء تجول ببصرها على قائمة الطعام رفقةَ والدها؛ فيختاران طبقَيْ معجَّنات، ويسألان كلَّ فردٍ عمَّا يرغب من طعام. وبدت فكرة كلّ واحدٍ منهم ذات قيمة، إذ كانوا حميمين، يتعذَّر التَّفريقُ بينهم، شأن صخرتَيْن مثبَّتتيْن بالمِلاط. راقبتهم ليلى، غير أنَّها شعرتْ بغصَّة مفاجئة وحادَّة، ما دفعها إلى خفض نظرها، خشيةَ أن يظهر الحسدُ على وجهها.

في هذه الأثناء، جاء النادلُ حاملًا السماور الجديدَ، ومجموعةً نظيفةً من الكؤوس.

أمسك العمّ كأسًا، ورشف منها، ثمَّ لوى شفتيْه في نفورٍ واشمئزاز، وضجّ وعجّ مستطيبًا قوَّته الجديدة التي راح يصبُّها على هذا الرجل المهذَّب الرَّقيقِ الجانب:

ـ لديك ما يكفي من الجرأة كي تسمِّي هذا شايًا. كما أنَّه شاي غير ساخن بما يكفي!

اعتذر النادل بإسرافٍ، وعاد أدراجَه إلى المطبخ، بعد أن انكمش تحت مسمار حنق العمّ. وبعد مرور وقتٍ لاح طويلًا جدًّا، ظهر مجدَّدًا حاملًا شايَ سماور ثالثًا، ساخنًا على نحوٍ جعل البخار يتصاعد إلى ما لا نهاية في الهواء.

لاحظتْ ليلى وجهَ النادل الممتقع، فوجدتْه مرهقًا جدًّا وهو يصبُّ الشاي ويملأ الأقداح. كان مرهقًا، ولكنَّه مستسلم استسلامًا ينمّ عن ضيقٍ وانزعاج. وساور ليلى شعورٌ بأنَّها لاحظتْ في سلوكه إحساسًا مألوفًا باليأس، واستسلامًا لسلطة العمّ وقوَّته، فأدركتْ أكثر من سائر الحاضرين أنَّها مُذْنبة أيضًا في حقِّه. وسرى في أعماقها دافعٌ مفاجئٌ، جعلها تنهض على قدميْها، وتُمسك بأحد الأقداح وهي تقول:

. أريد قليلًا من الشاي.

وقبل أن يتمكَّن أيُّ شخص من التفوُّه بكلمة واحدة، رشفتْ رشفةً، فاكتوى لسانُها وسقفُ حلقها اكتواءً جعل الدمعَ يترقرق في مآقيها. ومع هذا، فقد تمكَّنتْ من بلع السائل، ونظرتْ إلى النادل، وكشَّرتْ عن ابتسامةٍ مائلةٍ قائلة:

. عظيم!

فنظر النادل إلى العمّ نظرةً خاطفةً، ثمَّ حوّل بصرَه إلى ليلى، وتمتم سريعًا بعبارة «شكرًا لكِ»، وتوارى عن الأنظار.

قال العمّ مبهوتًا أكثر ممَّا هو منزعج:

. ماذا تظنين أنَّكِ فعلتِ؟

حاولت الأمّ أن تخفِّف من حدَّة المزاج، فقالت:

. حسنًا، كانت...

فقاطعها الأب قائلًا:

. لا تُدافعي عنها. إنَّها تتصرَّف تصرُّفَ إنسانٍ مجنون.

شعرتْ ليلى بضيقٍ في فؤادها. فهنا، وأمام أنظارها، تمثَّلت الحقيقةُ التي كانت تشعر بها طوال الوقت، ولكنَّها قالت في نفسها إنَّها حقيقةٌ غير موجودة. لقد انحاز بابا إلى جانب العمّ، لا إلى جانبها. وهكذا ستكون الأوضاعُ دائمًا. وهذا ما أدركته الآن. فقد كانت غريزةُ بابا الأولى دومًا هي الدِّفاع عن أخيه. وفي وقتٍ لاحقٍ، لاحقٍ جدًّا، سوف تفكِّر في هذه اللَّحظة من الزمان، وهي . على الرَّغم من أنَّها لحظةٌ قصيرة واعتياديَّة . إنَّما تُنبِئ بما سوف يحدث مستقبلًا. لم تشعر في حياتها قطّ بأنَّها وحيدةٌ كما هي الآن.

***

منذ أن توقَّف بابا عن خياطة الثياب للزبونات الغَربيّات الهوى، لم يَعُد لديْه مال كثير. ففي الشتاء المنصرم، لم يتمكَّنوا من تدفئة الحُجرات إلَّا أقلّها، في بيتٍ فسيحٍ مترامي الأطراف كهذا البيت. أمَّا المطبخ، فكان دافئًا دومًا. ولذا، أنفقوا قسطًا كبيرًا من أوقاتهم في ذلك المكان: فكانت الأمّ تغربل الأرزّ، وتنقع الفاصولياء، وتُعدُّ وجبات الطعام على الموقد الذي تُستخدم فيه الأخشاب. أمَّا العمَّة، فقد كانت تراقب تاركان مراقبةً يقظة؛ فإنْ أهمِل، ولم يُشرفْ عليه أحد، فقد يمزِّق ثيابَه، ويعاني سقوطًا مؤلمًا، ويبلع أشياءَ تكاد تخنقُه.

قال بابا موجِّهًا كلامَه إلى ليلى الجالسة أمام طاولة المطبخ برفقة كتبها في شهر آب:

. عليكِ أن تُبصري الأمر على حقيقته. حين نموت ونبقى وحدنا في قبورنا، سوف يزورنا ملاكان: أحدُهما أزرق والآخر أسود؛ هُما منكر ونكير. وسوف يطلبان منَّا تلاوةَ سورٍ من القرآن تلاوةً حرفيَّة. فإذا أخفقْتِ ثلاثَ مرَّات، فسيكون مصيرُكِ جهنّم.

ثمَّ أشار بيده إلى الخزانة، كأنَّ الجحيم يكمن بين زجاجات الخيار المخلَّل، المتراصّةِ على الرفوف!

أثَّرَت الامتحاناتُ في ليلى، فأضحَت متوتِّرةَ الأعصاب. في المدرسة، أخفقتْ في معظم الامتحانات. وحين كانت تصغي إلى بابا، لم تستطع منعَ نفسها من التساؤل: كيف سيجري اختبارُ معلوماتِها عن الدِّين حين تقع الواقعة؟ هل الامتحان شفهيّ أمْ

تحريريّ؟ وهل هو بأسلوب كتابة المقابلة أمْ هو متعدِّد الخيارات؟ وهل تُفقِدها الإجاباتُ الخاطئةُ علاماتِها؟ وهل تحصل على النتيجة مباشرةً، أم يتعيَّن عليها الانتظار إلى حين ظهور كلّ النتائج . وإذا كان الأمر كذلك، كم ستستغرق هذه العمليَّة من وقت؟ وهل تتولَّى السُّلطةُ العليا الإعلانَ عن النتائج، أم المجلسُ الأعلى لنيل الاستحقاق العقابيّ واللَّعنة الأبديَّة؟

سألتُ ليلى:

ـ وماذا عن الناس الذين يعيشون في كندا أو كوريا أو فرنسا؟

ـ ماذا عنهم؟

ـ حسنًا، أنت تعلم، هؤلاء غير مسلمين عمومًا. فماذا سيحدث لهم بعد موتهم؟ أعني أنَّ الملكَيْن لا يستطيعان مطالبتهما بتلاوة صلاتنا.

قال بابا:

ـ لِمَ لا؟ سوف يُسأل كلُّ فردٍ الأسئلةَ نفسَها.

ـ لكنَّ الناس في بلادٍ أُخرى لا يستطيعون تلاوةَ القرآن. أليس كذلك؟

ـ تمامًا. يُخفق في امتحان الملكيْن كلّ مَنْ هو غير مسلم حقيقيّ. فيؤخذ رأسًا إلى جهنَّم. لهذا، يتعيَّن علينا أن ننشر رسالةَ اللَّـه إلى أكبر عددٍ ممكنٍ من الناس. وهكذا نستطيع أن ننقذَ أرواحَهم.

مرّت لحظةٌ راحا فيها يصغيان إلى تصدُّع الخشب المحترق في الموقد، وكأنَّه يُخبرهما بأمرٍ عاجلٍ بِلغته الخاصَّة به.

اعتدلتْ ليلى، وقالت:

. بابا... ما أفظعُ شيء في الجحيم؟

توقَّعتْ ليلى أنَّ يقول لها إنَّها الحُفَر المحتشدة بالعقارب والأفاعي، أو المياهُ المغليّةَ التي تفوح منها رائحةُ الكبريت، أو قرصةُ الزمهرير. كان في وسعه أن يُخبرها أنَّ أفظع شيء هو إكراهُ المرء على شرب الرصاص المذاب، أو تناولُ الطعام من شجرة

الزقّوم التي تحمل أغصانُها رؤوسَ الشياطين بدلًا من الفواكه الناضجة الحلوة المذاق. لكنَّ بابا أجاب بعد وقفةٍ قصيرة:

. إنَّه صوتُ الربّ.... هذا الصوت الذي لن يتوقَّف عن الصِّياح مُهدِّدًا، فيُخبر الخاطئين أنَّ الفرصة كانت ماثلةً أمامهم لكنَّهم خذلوه، ويتعيَّن عليهم دفعُ الثمن.

كان عقلُ ليلى يسابق الكلمات، وإن التزمت الهدوءَ والسكينة، وقالت:

. ألن يغفر اللَّه لهم؟

فهزَّ رأسه نافيًا:

. لا... ولكنْ لو قرَّر أن يغفر يومًا، فذلك لن يحدث إلَّا بعد أن يعاني المذنبون أشدّ أنواع العذاب.

رفعتْ ليلى بصرها خارج النافذة، فرأت السَّماءَ تنقلب رماديَّةً مزركشة. كما رأت إوزَّةً وحيدةً تحلِّق في اتِّجاه البُحيرة من دون أن تُحدِث، ويا للغرابة، أيَّ صوت.

تنفَّستْ هواءً ملءَ رئتيْها، ثمَّ أطلقتْه ببطء. وقالت:

. ماذا لو... لنقلْ: ماذا يحدث لو أنَّكَ ارتكبتَ خطأً وأنت تعلم أنَّه خطأ، ولكنَّك لم تقصد ارتكابَه؟

. لا فائدة من هذا. فاللَّـه يعاقبكِ عليه بالرَّغم من ذلك. لكنْ إذا ارتكبتِ هذا الخطأ مرَّةً واحدةً لا غير، فقد يكون أكثرَ رحمةً بكِ.

نبشتْ ليلى في قطعةٍ صغيرةٍ من الجلد الميّت تحت الظفر، فتجمَّع مقدارٌ قليلٌ من الدم على إبهامها، وقالت:

. وإذا كان أكثر من مرَّةٍ واحدة؟

هزَّ بابا رأسه، وقطَّب حاجبيْه قائلًا:

. هنا تحلّ اللَّعنةُ الأبديَّة، إذ لا فائدة من الاعتذار. لا سبيلَ لتفادي الجحيم. قد أبدو فظًّا معكِ الآن، لكنَّكِ سوف تتوجَّهين بالشكر إليَّ يومًا ما. فمن واجبي أن أعلِّمكِ الصوابَ والخطأ، لأنَّكِ محتاجة إلى تعلُّم هذا كلّه وأنتِ لا تزالين في مقتبل العمر، بريئةً وغيرَ آثمة. أمَّا غدًا، فربَّما يكون الأوان قد فات. وهكذا يكون الشبلُ من ذاكَ الأسدِ.

أغمضتْ ليلى عينيْها، وهي تشعر بتصلُّبٍ في صدرها. كانت صغيرةَ السنّ، إلَّا أنَّها لم تعتبر نفسَها بلا خطيئة. فقد ارتكبتْ عملًا فظيعًا، ليس مرَّةً واحدةً ولا مرَّتيْن، وإنَّما مرَّاتٍ ومرَّات. فالعمّ ظلَّ يلامسها، إذ كلَّما التأم شملُ الأُسرتيْن، وجد طريقةً للاقتراب منها. إلَّا أنَّ ما حدث قبل شهريْن ـ حين أُدخل بابا إلى المستشفى لاستخراج الحصى من كلْيته، واضطرَّت الأمّ إلى مرافقته قرابةَ أسبوعٍ ـ لا يُمكن الحديثُ عنه، لأنَّ مجرَّدَ تذكُّرِه دفع ليلى إلى الغثيان من جديد. كانت العمَّة ترافق تاركان في غرفتها، ولم تسمعْ شيئًا ممَّا حدث. في ذلك الأسبوع، كان العمّ يزورها كلَّ ليلة، ولم تنزفْ دمًا بعد المرَّة الأولى، إلَّا أنَّها كانت تتألَّم دومًا. وحين حاولتْ إبعادَه عنها، ذكَّرها بأنَّها هي التي بدأتْ هذه العلاقة في البيت الذي ذهبوا إليه لقضاء الإجازة وكانت تفوح منه رائحةُ البطِّيخ الأحمر.

» كنتُ أفكِّر في نفسي قائلًا: لماذا؟ إنَّها بنتٌ بريئةٌ ولطيفة. لكن اتَّضح أنَّكِ تحبِّين اللَّعبَ بعقول الرِّجال... أتذكرين كيف تصرَّفتِ في

الحافلة ذلك النهار: تضحكين طوال الوقت كي تجذبي اهتمامي؟ لماذا كنتِ ترتدين ذلك البنطالَ القصير؟ لماذا سمحتِ لي بالمجيء إلى سريركِ تلك اللَّيلة؟ كان في وُسعكِ أن تطلبي منِّي الانصراف، وكان بإمكاني أن أنصرف، إلَّا أنَّك لم تطلبي ذلك. كان في مستطاعكِ النومُ في غرفة والديْكِ، لكنَّكِ لم تنامي فيها، بل لبثتِ تنتظرين قدومي كلّ ليلة. هل سألتِ نفسَكِ عن سبب ذلك؟ حسنًا. أنا أعرف السَّبب. وأنت أيضًا تعرفين.«

كانت ليلى شديدةَ الاعتقاد أنَّ القذارة موجودةٌ فيها. قذارةٌ لا يمكن تنظيفُها مثل الدهن في راحة كفِّها. وها إنَّ بابا يخبرها الآن أنَّ اللَّـه، الذي يعلم كلَّ شيء ويرى كلَّ شيء، لن يغفر لها.

رافق ليلى العارُ وتقريعُ الذات مدَّةً طويلة، ولبثا ظلّيْن توأميْن يقتفيان أثرَها حيثما ذهبتْ. إلَّا أنَّها باتت تشعر أنَّ هذه هي المرَّة

الأولى التي تحسّ فيها بغضبٍ لم يسبقْ أن عرفتْه من قبل. كان عقلها يحترق، وكلُّ عضلةٍ من عضلات جسدها متوتِّرة بغضبٍ حارقٍ لا تعرف كيف تسيطر عليه. لم ترغب في فعل أيّ شيء مع الربّ الذي أوجد سبلًا كثيرةً للحكم على بني البشر ومعاقبتهم، ولكنَّه لم يفعلْ إلَّا القليلَ لحمايتها حين كانت بحاجةٍ إليه.

نهضتْ، ودفعتْ كرسيَّها إلى الخلف، مُحْدثةً ضوضاءَ على بلاط الأرضيَّة.

سألها بابا وقد اتَّسعت عيناه:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

. أريدُ أن ألقي نظرةً على تاركان.

. لم نفرغْ من حديثنا بعد. إنَّنا في جلسة دراسيَّة.

هزَّت ليلى كتفيْها قائلةً:

. نعم، حسنًا. إنَّني لا أريد أن أدرسَ بعد الآن. لقد أصابني الملل.

جفل بابا:

. ماذا قلتِ؟

. قلت أصابني الملل.

مدَّت كلمةَ «الملل» وكأنَّها علكةٌ في فمها، وأضافت:

ـ الربّ، الربّ، الربّ! كفاني من هذا الكلام.

اندفع بابا نحوها رافعًا يُمْناه. إلَّا أنَّه تراجع على نحوٍ مُفاجئ مرتعشًا، وخيبةُ الأمل واضحةٌ في عينيْه. تجعَّد وجهُه، وتصدَّع مثلَ طينٍ يابس. عرف، وعرفت هي أيضًا، أنَّه كاد أن يصفعها.

لم يضربْ بابا ليلى سابقًا، ولن يضربَها لاحقًا. ومع أنَّه كان ذا عيوب عدَّة، فإنَّه لم يُظهر أيّ اعتداءٍ بدنيّ أو غضبٍ لا يقدر على السَّيطرةِ عليه. لذا صار يوجِّه إليها اللَّوم دومًا، ويقول إنَّها هي المسؤولةُ عن دفعه إلى مثل هذا التَّصرُّف، وإلى إثارة مثلِ هذا الشرّ، الغريبِ عن شخصيَّته.

أمَّا ليلى، فقد وجَّهت اللَّومَ إلى نفسها، وستظلّ توجِّهه إلى نفسها على مدى السنوات المقبلة. في تلك الأيَّام، اعتادت ذلك . فكلُّ شيء، فعلتْه، وفكَّرتْ فيه، كان ميَّالًا إلى أن يكون ذنْبًا كبيرًا.

كانت ذكرى عصر ذلك اليوم محفورةً عميقًا في عقلها. حتَّى إنَّها الآن، بعد سنواتٍ من تلك الذكرى، إذ تَقْبع داخل حاويةِ نفاياتٍ معدنيَّة في ضواحي إسطنبول، ومع أنَّ عقلها ظلَّ مغلقًا، فقد لبثتْ تتذكَّر رائحةَ الموقد المشتعل بحزنٍ عميق.

- 9 -

سبعُ دقائق

إذ واصل عقلُ ليلى القتالَ، تذكَّرَتْ طعمَ التربة ـ الجافَّ والطباشيريَّ والمرَّ.

في عددٍ قديمٍ من أعداد مجلَّة «حياة» التي استعارتها سرًّا من سنان، كانت قد رأت صورةَ امرأةٍ شقراء ترتدي ثوبَ سباحةٍ أسود، وتنتعل حذاءً أسودَ أيضًا بكعبٍ عالٍ، وتدير في فرحٍ وحبورٍ طوقَ لعبة هيلا هوپ بلاستيكيًّا. وكان ثمَّة تعليقٌ من تحت الصُّورة يفيد بالآتي: «في دينڤر، تدير العارضةُ الأميركيَّةُ فاي شوت طوْقًا من حول خصرها الرَّشيق.«

أثارت الصُّورةُ الطفليْن، وإنْ لسببيْن مختلفيْن. فقد أراد سنان أن يعرف سببَ رغبة كلّ فتاةٍ في ارتداءِ ثوب سباحةٍ، وانتعال حذاءٍ بكعبٍ عالٍ، لا لشيء إلّا للوقوف على بقعة أرضٍ مزروعةٍ بعشبٍ أخضر. أمَّا ليلى، فقد جذبها الطوْقُ نفسُه.

رجع فكرُها إلى الوراء، وفكَّرتْ في يوم خروجها برفقة أمّها إلى البازار، حين كانت في العاشرة، وشاهدتْ مجموعةً من الصبيان يطاردون رجلًا عجوزًا. ولمَّا وصلتا إليه، كان الأطفال يصرخون ويضحكون، ورسموا دائرةً من حوله بقطعةٍ من الطباشير.

قالت لها الأمُّ يومئذٍ، حين رأت الدَّهشةَ قد استبدَّت بها:

ـ إنَّه يزيديّ، ولا يستطيع الخروجَ من الدائرة. ولهذا، ينبغي أن يمحوها أحدٌ له.

. آه، لنساعدْه إذًا.

لم تكن ملامحُ وجه الأمّ لتعبِّر عن الانزعاج قَدر ما عبّرَتْ عن الارتباك. قالت:

. لماذا؟ اليزيديّون أشرار.

. كيف تعرفين؟

. كيف أعرف ماذا؟

. أنَّهم أشرار؟

جذبتْها الأمُّ من يدها، وأردفتْ:

. لأنَّهم يعبدون الشيطان.

. كيف تعرفين هذا؟

. الناس كلُّها تعرف هذا. وقد حلَّت عليهم اللَّعنة.

. ومَن صبَّ عليهم اللَّعنة؟

. الربّ، يا ليلى.

. لكنْ، ألم يخلقْهم اللَّهُ بنفسه؟

- المؤكَّد أنَّه هو الذي خلقهم.

- لقد خلقهم الربُّ يزيديّين، ثمَّ غضب عليهم لأنَّهم يزيديُّون؟ هذا غير منطقيّ.

- كفى! هيّا تحرَّكي!

في طريق العودة من البازار، أصرَّت ليلى على المرور من الشارع نفسه، لتتأكَّد إنْ كان الرجل العجوز لا يزال في مكانه. فارتاحت ارتياحًا كبيرًا عندما وجدتْ أنَّه توارى عن الأنظار، وأنَّ

الدَّائرة مُسِحتْ جزئيًّا. ربَّما كانت القصَّة مختَلقَةً برمَّتها، وأنَّه خرج منها بكلّ يُسرٍ وسهولة. لعلَّه اضطرَّ إلى انتظار مَن يأتي ليضعَ حدًّا لاحتجازه. وبعد مرور سنواتٍ، حين شاهدتْ ليلى الطوْقَ الدائريَّ من حول خصر المرأة الشقراء، تذكَّرتْ تلك الحادثةَ مع الرجل العجوز؛ وفكَّرتْ: كيف يُمكن أن يصبح الطوقُ الدائريّ الذي عزل إنسانًا، وأوقعه في فخٍّ، رمزًا للحرِّيَّة المُطلقة ونعمةً لإنسانٍ آخر؟

قال سنان حين شاركتْه أفكارَها:

ـ لا تسمِّي هذا طوْقًا دائريًّا، بل لعبة هيلا هوپ! وقد طلبتُ من أمِّي أن تأتيني بواحدةٍ منها من إسطنبول. توسَّلتُ إليها كثيرًا، فطلبتِ اثنتيْن: واحدةً لها وواحدةً لكِ. وقد وصلتا قبل قليل.

. لي أنا؟

. حسنًا، إنَّها لي، لكنَّني أريد لعبتي أن تكونَ لكِ أيضًا! إنَّها بلون البرتقالة البرَّاقة.

. آه، شكرًا لكَ، لكنَّني لا أستطيع قبولَها.

غير أنَّ سنان أصرَّ على رأيه:

. أرجوكِ .... ألَّا يمكنكِ أن تقبليها هديّةً منِّي؟

. لكنْ، ماذا ستقول لوالدتك؟

. لا بأس. إنَّها تَعْلم مدى اهتمامي بكِ.

هنا، اكتست المنطقةُ الواقعةُ بين عنقه ووجنتيْه احمرارًا من شدّة الخجل .

أذعنتْ ليلى للأمر، وإنْ أدركتْ أنَّ والدها لن يكون سعيدًا، لأنَّ إحضار لعبة هيلا هوپ إلى الدار من دون أن يراها ليس عملًا جليلًا ولا مفخرةً. فهي أكبر من أن تتمكَّن من وضعها في حقيبتها، أو بين ثيابها. وفكَّرتْ في دفنها تحت الأوراق في الحديقة بضعة أيَّام، غير أنَّها لم تجد هذه الخطّة جيّدة. وفي نهاية المطاف، دفعتْها من خلال باب المطبخ في وقتٍ لم يكن فيه أحدٌ هناك، ثمَّ هرعتْ إلى الحمّام. وهناك، أمام المرآة، حاولتْ أن تدير الطوْقَ البلاستيكيّ، كما كانت تفعل العارضةُ الأميركيَّة، غير أنَّها وجدتْ في ذلك صعوبةً أكبرَ ممَّا ظنَّت، فوجب أن تتدرَّب عليه.

اختارت من صندوق موسيقى عقلِها أغنيةً لألڤيس پريسلي، وهو يغنِّي عن حبِّه بلغةٍ غريبةٍ عنها تمامًا: «عامليني بلطف، لا تُقبِّليني مرَّة، قبِّليني مرَّتيْن». في البدء، لم تشعر برغبةٍ في

الرَّقص، ولكنْ كيف يُمكنها أن ترفض ألڤيس بسترته الورديَّة وبنطاله الأصفر . وهما لونان غير مألوفيْن تمامًا في هذه البلدة، وبخاصَّةٍ للرجال، إذ يمثِّلان تحدِّيًا صارخًا، مثلَ رايةٍ يرفعها جيشٌ متمرِّد؟

فتحَتِ الخزانةَ التي كانت الأمّ والعمَّة تحتفظان فيها بمستحضرات التزيين. وهناك، عثرتْ بين زجاجات الحبوب وعبوات الكريمة على كنز: أحمرِ شفاهٍ بلون الكرز. فما كان منها إلَّا أن وضعتْ مقدارًا كبيرًا منه على شفتيْها ووجنتيْها. فرشقتها الفتاةُ الماثلةُ في المرآة بنظرةٍ صادرةٍ عن عينيْن غريبتيْن، وكأنَّهما من خلال نافذة ذات زجاجٍ مُصنفر. وفي انعكاس صورتها، لمحَتْ في لحظةٍ عابرةٍ صورةً زائفةً عن نفسها مستقبلًا. حاولتْ أن ترى إنْ كانت سعيدةً هذه المرأةُ التي تعرفها ولكنَّها لا تفهمها. غير أنَّ الصُّورة تبخَّرتْ من دون أن تترك أيّ أثر، وكأنَّها قطرةُ ندًى على ورقةِ شجرةٍ في الصباح.

ما كان ليُكشَفَ النقابُ عن سرّ ليلى لو لم تنظِّف العمّةُ بالمكنسة الكهربائيَّة جهازَ الجري في الممرّ، إذ ستسمع وقعَ أقدامِ بابا الثقيلة، كعادته.

صاح بابا بها صيْحةً مدوّيةً ملءَ شدقيْه، ووثب صوتُه من فوق الأرض التي كان ألقيس قبل بضع ثوانٍ يُظْهر عليها حركاتِه الراقصةَ المعروفة. قطَّب جبينَه، ورمقها بنظرةٍ غاضبةٍ تنطوي على خيبة أملٍ أضحَت مألوفةً أكثر ممَّا ينبغي، وقال:

ـ ماذا تظنّين أنَّكِ تفعلين؟ أخبريني من أين حصلتِ على هذا الطَّوْق؟

. إنَّه هديّة.

. ممَّن؟

. من صديق، يا بابا، وهو ليس بذي شأن.

. حقًّا؟ انظري إلى نفسك. أأنتِ ابنتي؟ أنا لم أعد قادرًا على الاستدلال عليكِ. لقد عملنا معًا بجهدٍ جهيد لكي نربّيك تربيةً مُحترمة. وأنا لا أستطيع أن أصدِّق أنَّكِ تتصرَّفين مثل... عاهرة! أتريدين أن ينتهي بكِ المطاف هكذا؟ عاهرة ملعونة؟

كانت نبرةُ الكلمة الخشنة والصوتُ الأجشّ، وهو يتحدَّث في الحُجرة، قد بعثا قشعريرةً باردةً سرَت في كلِّ أنحاء بدنها، فهي لم تسمع بهذه الكلمة من قبل.

بعد ذلك اليوم، لم تقع عينا ليلى على طوْق الهيلا هوپ قطّ. وعلى الرَّغم من أنَّها ظلَّت تفكِّر بين وقتٍ وآخر في ما يمكن أن يكون قد فعله بابا به، فإنَّها لم تملك الجرأةَ على السُّؤال. هل تراه رمى به في النفايات؟ هل أعطاه شخصًا ما؟ أمْ أنَّه دفنه آملًا أن يُحوِّله ربَّما إلى شبحٍ آخر يُضاف إلى عديد الأشباح، التي فكَّرَتْ على نحو مُتزايد أنَّها تسكن في هذا البيت؟

إنَّ هذا الطوْق، بهيئة الأسْر في نظر الرجل اليزيديّ العجوز، ولكنَّه رمزُ الحرِّيَّة في رأي العارضة الأميركيَّة الشابَّة، قد أضحى ذكرى حزينةً لفتاةٍ تسكن في بلدةٍ شرقيَّة.

***

أيلول 1963، قرَّر بابا بعد استشارة شيخه أنَّه يُستحسَن أن تبقى ليلى في البيت إلى أن يأتي يومُ عرسها، ما دامت قد بدأتْ تخرج عن السيطرة. وهكذا، اتُّخِذ القرار على الرَّغم من
الاحتجاجات. ومع أنَّ الوقت كان بدايةَ الفصل الدِّراسيّ الجديد، ولم يَعُد يومُ التَّخرُّج بعيدًا، فقد أُخرِجتْ ليلى من المدرسة.

عصرَ الخميس، عادت ليلى وسنان معًا إلى الدار للمرَّة الأخيرة. سار الصبيُّ خلفها ببضع خطوات، وعلى وجهه

ملامحُ الهزيمة، وفمُه يلتوي يأسًا، واضعًا يديْه في جيبيْه. وراح يضرب الحصى بقدميْه في طريقه، بينما كانت حقيبتُه تتمايل على كتفيْه.

حين وصلا دارَ ليلى، توقّفا أمام البوّابة. مرّت لحظةٌ لم يتكلّم فيها أيٌّ منهما.

أخيرًا، قالت ليلى:

ـ يجبُ أن يودِّع واحدُنا الآخر، الآن.

كان قد ازداد وزنُها قليلًا أثناء فصل الصيف، وامتلأتْ وجنتاها. فرك سنان جبينَه، وقال:

ـ سأطلب من أمّي أن تكلّم والدَكِ.

. لا، أرجوك. بابا لا يروقه ذلك.

. لا يهمّني. إنَّ ما يفعله بكِ لَهُوَ الظلمُ بعيْنه.

كان صوتُه يائسًا. فأشاحت ليلى بوجهها جانبًا، لأنَّها لم تقدر على رؤيته باكيًا. ثمَّ قال لها:

. إذا لم تذهبي إلى المدرسة بعد اليوم، فلن أذهب أنا أيضًا.

. لا تكُن ساذجًا، ولا تذكرْ لوالدتك أيَّ شيء ممَّا حدث. فأبي لن يرغَبَ في رؤيتها. أنت تعلم أنَّهما لا يطيقان بعضهما بعضًا.

. وإذا كلَّمتُ أنا والديْكِ؟

ابتسمتْ ليلى وقد تنبّهتْ إلى قوَّة الإرادة الكبيرةِ التي تطلّبها صديقُها المتحفِّظُ القليلُ الكلام . كي يتفوَّهَ بمثل هذا المقترَح.

. صَدِّقْني لن يُغيِّر هذا من الأمر شيئًا. ولكنَّني أقدِّرُ رأيك... حقًّا أقدِّره.

ارتبكَتْ، وشعرتْ للحظة من الزمان بأنَّ جسدها ليس على ما يُرام، وأنَّها ترتعش، وأنَّ العزم الذي دفعها إلى مواصلة طريقها منذ الصباح الباكر قد تخلَّى عنها. ومثلما كانت تتصرَّف في السَّابق حين تشاهد نفسَها وقد سُدَّت عليها السُّبلُ، فقد راحت تتحرَّك بسرعةٍ، إذ لم تُرِد أن تطيلَ من وقع الأشياء.

ـ حسنًا، يجب عليَّ أن أذهب الآن. ولا بدّ أن نلتقي من مكانٍ إلى آخر.

هزَّ سنان رأسَه؛ فالمدرسة هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يلتقي فيه الشبابُ غيرُ المتزوِّجين من كلا الجنسيْن.

قالت، وهي تحسّ بشكوكه:

. سوف نجد وسيلةً من الوسائل.

ثمَّ قبَّلته قبلةً خفيفةً على وجنته، وأردفت:

. هيّا! ابتهجْ ولا تحزنْ، باللَّـهِ عليك!

ابتعدتْ ليلى عنه من دون أن تنظر سوى نظرةٍ عابرة. أمَّا هو، الذي زاد نموُّه زيادةً ملحوظةً في الأشهر القليلة المنصرمة، ووجد صعوبةً في التكيُّف مع طوله الجديد، فقد لبث واقفًا من غير حَراكٍ دقيقةً واحدةً طويلة. ثمَّ أخذ، من دون أن يدري السَّببَ، يملأ جيوبَه بالحصى والحجارة. وكلَّما كبرتْ، استحسن ذلك. حتّى صار يشعر بثقلِ كلّ حصاةٍ يضيفها إلى بقيَّة الحصى والحجارة.

في هذه الأثناء، كانت ليلى قد توجَّهتْ مباشرةً إلى الحديقة، حيث جلسَتْ تحت شجرة التفَّاح التي كانت هي والعمَّةُ قد وضعتا عليها ذات يومٍ شرائطَ من الحرير والساتان: راقصات الباليه في الأغصان العليا. وتمكَّنتْ من رؤية قطعة قماشٍ رقيقة ترفرف في النسيم. وضعتْ يدَها على الأرض الدافئة، وحاولتْ ألَّا تفكِّر في أيِّ شيء. ثمَّ أخذتْ حفنةَ رملٍ ورفعتْها إلى فمها، وراحت تمضغها مضغًا بطيئًا. انتفخ فمُها بالمادَّة الحمضيَّة التي يحتويها الرَّمل، ولكنَّها تناولتْ كمِّيَّة أخرى وبلعتها، على نحوٍ أسرع هذه المرَّة.

***

بعد دقائق، دخلتْ ليلى الدارَ، ورمت بالحقيبة على كرسيٍّ في المطبخ، من دون أن تتنبَّه إلى أنَّ العمَّة، التي كانت تغلي الحليبَ لصنع اللَّبن، تراقبها عن كثب.

أحنتْ ليلى رأسَها، وراحت تَلْحس زاويتيْ فمها. ولامستْ بطرف لسانها حبَّاتِ الرَّمل التي انغرستْ بين أسنانها.

. تعالي إلى هنا. افتحي فمَكِ، ودعيني أُلقي نظرةً.

نفَّذَتْ ليلى ما أمرتها العمَّةُ به. ضاقت عينا العمَّة ثمَّ اتَّسعتا، وقالت:

. أهذا رمل؟

لم تنبسْ ليلى بكلمة.

. هل تأكلين الرَّمل؟ يا اللَّـه، لماذا تتصرَّفين هكذا ؟

لم تعرف ليلى ما تقول، فهذا ليس سؤالًا سبق أن طرحتْهُ على نفسها. لكنْ ما إنْ فكّرتْ في الأمر، حتى خطرتْ في بالها فكرة.

. في يومٍ من الأيَّام، أخبرتِني عن امرأةٍ في قريتك. هل تتذكَّرين؟ قلتِ إنَّها كانت تأكل الرَّملَ والزجاجَ المكسور... بل الحصباءَ أيضًا.

قالت العمَّة:

. نعم. لكنّ تلك المرأة الفلَّاحة البائسة كانت حُبلى.

ثمَّ أمسكتْ عن الكلام، ورنت إلى ليلى كما ترنو إلى القمصان التي كانت منهمكةً في كيِّها، باحثةً عن تجاعيدَ منحرفةٍ عن خطّ الكيّ.

هزَّت ليلى كتفيْها، واستبدَّتْ بها لامبالاةٌ من نوعٍ جديد، وخدرٌ لم يسبق أن عانته. وشعرتْ أنْ لا شيء يهمّ على الإطلاق. «ربَّما أنا أيضًا غيرُ مهمَّة.«

والحقّ أنَّها لم تكن تملك أيَّ فكرة عن كيفيَّة الحمْل أساسًا، لأنْ لا صديقات لها، أو أخوات يَكْبرنها سنًّا. لم يكن لديها أحد كي تطرح عليه تساؤلها. فكَّرتْ في استشارة السيِّدة الصيدلانيَّة، وحاولتْ إثارةَ الموضوع مرَّتيْن. لكنْ ما إنْ تحين اللَّحظةُ المؤاتية حتَّى تخونَها شجاعتُها، فتمتنع عن السُّؤال.

تلاشت كلُّ الألوان عن وجهها. إلَّا أنَّها كانت تستخفّ بالأشياء.

ـ يُمكنني أن أؤكِّد لكِ، يا حبيبتي، أنَّك إذا أردتِ أن تَحْملي فلا بدَّ من وجود رجل؛ فالمرأة لا تحمل بملامسة الشجر.

أومأتْ ليلى إيماءةً لامباليةً، ثمَّ صبَّت لنفسها كأسَ ماءٍ، وغسلتْ فمَها أوَّلًا قبل أن تشرب. وضعت الكأسَ جانبًا، وقالت بصوتٍ خفيضٍ تعوزهِ الحماسة:

. لكنَّني أعرف... أعرف كلَّ شيءٍ عن جسد الرجل.

عقدت العمَّةُ حاجبيْها.

. ما هذا الذي تتحدَّثين عنه؟

. أعني، ألا يُعَدُّ العمُّ رجلًا؟

قالت ليلى ذلك وهي لا تزال تنظر إلى الكأس. توقَّفت العمَّةُ عن الحركة. ففي داخل الوعاء النُّحاسيّ، بدأ الحليبُ يرتفع رويدًا رويدًا. أمَّا ليلى، فسارَت في اتِّجاه الموقد، وأخمدتْ شعلته.

* * *

في اليوم التالي، أخبرها بابا بأنّهُ يريد أن يُكلِّمها. جلسا في المطبخ أمام الطاولة، حيثُ سبق أن علَّمها الصلاةَ باللُّغة العربيَّة، وسبق أن حدَّثها عن الملكيْن الأسود والأزرق اللذيْن سوف يأتيان لزيارتها في القبر.

. أخبرتني العمَّة أمرًا مزعجًا جدًّا...

ثمَّ أمسك عن الكلام برهةً وجيزة. أمَّا ليلى، فقد التزمت الهدوءَ، مُخفيَةً يديْها المرتعشتيْن تحت الطاولة.

. لقد كنتِ تأكلين الرَّمل. لا تعاودي ذلك مرّةً أخرى، وإلّا انتشر الدودُ في جسدِك. هل سمعتِني؟

مال فكُّ بابا إلى أحد الجانبيْن، فاصطدمتْ أسنانُه بعضها ببعض، وكأنَّه يقضم شيئًا ما غير مرئيّ.

ـ وينبغي أيضًا ألّا تختلقي القصص.

ـ لكنّني لم أختلقْ شيئًا.

لاح بابا من تحت النور الخافت المنبعث من وراء النافذة أكبرَ سنًّا، وأصغرَ حجمًا، ممّا هو عليه حقًّا. تأمَّل في ليلى متجهّمًا، وأردف:

ـ أحيانًا، تحتال عقولُنا علينا.

ـ إنْ لم تُصدِّقْني، فخذني إلى الطبيب.

لاحت على وجه بابا نظرةٌ تنطوي على خيبة أمل. لكنْ سرعان ما حلَّت محلَّها نظرةٌ جديدةٌ تنمّ عن صلابة.

ـ طبيب؟ حتَّى تسمع البلدةُ برمَّتها عن ذلك؟ مستحيل. أتفهمين؟ لا تتحدَّثي عن الأمر إلى أيّ غريب. اتركيه، وسأتصرَّف أنا.

ثمَّ استرسل قائلًا بسرعة، كأنَّه يصوغ إجابةً سبق أن حَفِظها عن ظهر قلب:

. هذه مشكلة عائليَّة، وسوف نجد . كأُسرةٍ . حَلًّا لها.

***

بعد يوميْن، جلسا من جديد حول طاولة المطبخ، بعد أن انضمَّت إليهما الأمُّ والعمَّةُ، وفي أيديهما محارمُ ورقيَّةٌ مجعَّدة، وعيونُهما متَّقدةٌ احمرارًا، ومنتفخةٌ من كثرة البكاء. في الصباح، راحت المرأتان تسألان ليلى عن موعد دورتها الشهريَّة. بيأسٍ وإعياءٍ، أخبرتهما ليلى، التي لم تنزفْ دمًا طوال الشهريْن المنصرميْن، أنَّها بدأتْ تنزف صباحَ يوم أمس، غير أنَّ ثمَّة خطأً في النزيف هذه المرَّة، لأنَّه كان ثقيلًا ومؤلمًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. وقالت إنَّها

كانت تشعر مع كلِّ حركةٍ من حركاتها بإبرةٍ تغور في أعماقها، تاركةً إيَّاها متقطِّعةَ الأنفاس.

لاح على الأمّ ارتياحٌ خفيٌّ لدى سماعها هذا النبأ، وغيَّرتْ دفَّةَ الحديث من فورها. أمَّا العمّة، فتفرَّستْ فيها بعينيْن تنطقان الأسى لأنَّ إجهاضَ ليلى يُذكِّرها بإحدى عمليَّات إجهاضها شخصيًّا.
وقالت لها مُتمتمةً بصوتٍ رقيق :

. سوف يمرّ، وسينتهي كلُّ شيءٍ عمَّا قريب.

كانت تلك هي أوَّلَ مرَّةٍ منذ سنين طويلةٍ يتولَّى أحدٌ إخبارَ ليلى بشيءٍ من أسرار جسد الأنثى.

ثمَّ أخبرتها الأمُّ، بأقلّ ما يُمكن من كلمات، بأنّه لم يَعُد لديْها أيُّ سببٍ كي تخشى الحمْل، وأنَّ الأفضل هي هذه الطريقة؛ فرُبَّ ضارّةٍ نافعة. وينبغي لهم كلُّهم أن يتركوا الموضوعَ طيّ النسيان، وألّا يتحدَّثوا عنه ثانيةً إلَّا في صلواتهم، إذ يتعيَّن أن يتوجَّهوا إلى اللَّـه بالشُّكر على تدخُّله الرَّحيم في آخر لحظةٍ.

قال بابا عصرَ اليوم التالي:

ـ لقد كلَّمتُ شقيقي، وهو يُدرك أنَّكِ شابَّة ومشوَّشة.

ـ لستُ مشوَّشة.

ثمَّ أنعمتِ النَّظرَ في غطاء المائدة، مُقتفيةً آثارَ النقوش الدَّقيقة بإصبعها.

ـ أخبرَني عن ذلك الفتى الذي كنتِ تلتقين به في المدرسة. وكنَّا لا نعلم شيئًا عنه، لكنَّ الواضح أنَّ هذه اللقاءات كانت حديثَ الجميع. ابن الصيدلانيَّة، يا إلهي! لم تعجبني تلك المرأة الباردةُ الخبيثةُ. كان ينبغي أن أعلم. فالولد صنو أمّه.

شعرتْ ليلى باتّقاد وجنتيْها، وسألتْ:

ـ أتقصدُ المُخرّب.. سِنان؟ دعه خارج هذا الموضوع. فهو صديقي، صديقي الوحيد، وهو فتًى طيِّبُ القلب. أمَّا العمّ، فهو الكذَّاب!

ـ كفى! عليكِ أن تتعلَّمي احترامَ من يَكْبركِ سنًّا.

ـ لماذا لا تُصدِّقني أبدًا؟ أنا ابنتك!

ـ طبيب؟ حتَّى تسمع البلدةُ برمَّتها عن ذلك؟ مستحيل. أتفهمين؟ لا تتحدَّثي عن الأمر إلى أيِّ غريب. اتركيه، وسأتصرَّف أنا.

ثمَّ استرسل قائلًا بسرعة، كأنَّه يصوغ إجابةً سبق أن حَفِظها عن ظهر قلب:

ـ هذه مشكلة عائليَّة، وسوف نجد ـ كأُسرةٍ ـ حَلًّا لها.

***

بعد يوميْن، جلسا من جديد حول طاولة المطبخ، بعد أن انضمَّت إليهما الأمُّ والعمَّةُ، وفي أيديهما محارمُ ورقيَّةٌ مجعَّدة، وعيونُهما متَّقدةٌ احمرارًا، ومنتفخةٌ من كثرة البكاء. في الصباح، راحت

المرأتان تسألان ليلى عن موعد دورتها الشهريَّة. بيأسٍ وإعياءٍ، أخبرتهما ليلى، التي لم تنزفْ دمًا طوال الشهريْن المنصرميْن، أنَّها بدأتْ تنزف صباحَ يوم أمس، غير أنَّ ثمَّة خطأً في النزيف هذه المرَّة، لأنَّه كان ثقيلًا ومؤلمًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. وقالت إنَّها كانت تشعر مع كلِّ حركةٍ من حركاتها بإبرةٍ تغور في أعماقها، تاركةً إيَّاها متقطِّعةَ الأنفاس.

لاح على الأمّ ارتياحٌ خفيٌّ لدى سماعها هذا النبأ، وغيَّرتْ دفَّةَ الحديث من فورها. أمَّا العمّة، فتفرَّستْ فيها بعينيْن تنطقان الأسى لأنَّ إجهاضَ ليلى يُذكِّرها بإحدى عمليَّات إجهاضها شخصيًّا.
وقالت لها مُتمتمةً بصوتٍ رقيق :

. سوف يمرّ، وسينتهي كلُّ شيءٍ عمَّا قريب.

كانت تلك هي أوَّلَ مرَّةٍ منذ سنين طويلةٍ يتولَّى أحدٌ إخبارَ ليلى بشيءٍ من أسرار جسد الأنثى.

ثمَّ أخبرتها الأمُّ، بأقلّ ما يُمكن من كلمات، بأنّه لم يَعُد لديْها أيُّ سببٍ كي تخشى الحمْل، وأنَّ الأفضل هي هذه الطريقة؛ فرُبَّ ضارّةٍ نافعة. وينبغي لهم كلُّهم أن يتركوا الموضوعَ طيّ النسيان، وألَّا يتحدَّثوا عنه ثانيةً إلَّا في صلواتهم، إذ يتعيَّن أن يتوجَّهوا إلى اللَّـه بالشُّكر على تدخُّله الرَّحيم في آخر لحظةٍ.

قال بابا عصرَ اليوم التالي:

ـ لقد كلَّمتُ شقيقي، وهو يُدرك أنَّكِ شابَّة ومشوَّشة.

ـ لستُ مشوَّشة.

ثمَّ أنعمتِ النَّظرَ في غطاء المائدة، مُقتفيةً آثارَ النقوش الدَّقيقة بإصبعها.

ـ أخبرَني عن ذلك الفتى الذي كنتِ تلتقين به في المدرسة. وكنَّا لا نعلم شيئًا عنه، لكنَّ الواضح أنَّ هذه اللقاءات كانت حديثَ الجميع. ابن الصيدلانيَّة، يا إلهي! لم تعجبني تلك المرأة الباردةُ الخبيثةُ. كان ينبغي أن أعلم. فالولد صنو أمّه.

شعرتْ ليلى باتِّقاد وجنتيْها، وسألتْ:

. أتقصدُ المُخرِّب.. سِنان؟ دعه خارج هذا الموضوع. فهو صديقي، صديقي الوحيد، وهو فتًى طيِّبُ القلب. أمَّا العمّ، فهو الكذّاب!

. كفى! عليكِ أن تتعلَّمي احترامَ من يَكْبركِ سنًّا.

. لماذا لا تُصدِّقني أبدًا؟ أنا ابنتك!

قال بابا:

. لا تكوني فَظَّةً مع عمَّتك.

. أيّ عمَّة؟ ظننتُ أنَّها أمِّي. أَهي أمِّي أمْ لا؟

لم يردّ أحدٌ على تساؤلها.

ـ البيت مفعمٌ بالأكاذيب والخداع، وحياتُنا لم تكن طبيعيَّةً قطّ. ونحن لسنا أُسرةً سويَّةً. لماذا هذا التظاهر دومًا؟

قالت الأمّ وقد ازداد عبوسُها:

ـ كفِّي يا ليلى! نحن جميعًا نحاول مساعدتَكِ.

تكلَّمتْ ليلى ببطء قائلة:

. لا أعتقد ذلك. أعتقد أنَّكم تريدون إنقاذَ العمّ.

ضغط فؤادُها على صدرها. فقد كانت طوال هذه الأعوام تخشى ممَّا سيحدث إنْ أخبرتْ والدَها بما كان يجري وراء الأبواب الموصدة. وكانت متأكِّدةً أنَّه لن يُصدِّقها، ما دام يحبُّ شقيقَه حبًّا جمًّا. إلَّا أنَّها فهمت الآن، وهي تُحسّ بالخطر المُحدق بها، أنَّ بابا كان يصدِّقها حقًّا. لهذا السَّبب، لم يذهبْ إلى منزل السيِّدة الصيدلانيَّة، مرتعشًا من سَورة الغضب، ليطلبَ إلى ولدها أن يتزوَّج بابنته المُلوَّثة السمعة. هذا هو سببُ محاولته تهدئةَ الأمور بين أفراد الأُسرة. كان بابا يدركُ مَن كان صادقًا ومَنْ كان كاذبًا.

***

تشرين الثاني **1963**. مع اقتراب الشهر من نهايته، داهم تاركان مرضٌ شديد. تدهورتْ حالتُه الصحِّيَّة، وتحوَّلت الأنفلونزا إلى ذات الرئة. غير أنَّ الطبيب ذكر أنَّ قلبه هو نقطةُ ضعفه أصلًا. وهكذا، أُرجِئتْ خططُ الزّفاف. أمَّا العمَّة، فلم تتمالكْ نفسَها غيظًا وقلقًا؛ شأن ليلى، على الرَّغم من أنَّ الحَذَر الذي استفحل فيها ازداد، ووجدتْ صعوبةً مُتزايدةً في إظهار عواطفها.

واصلتْ زوجةُ العمّ زيارتَهم في أغلب الأحيان، تَعْرض المساعدة، وتأتيهم باليخنة وصواني البقلاوة المنزليَّة الصُّنع، وكأنَّها تقدِّمها إلى بيتٍ فيه عزاء. لاحظتْ ليلى أحيانًا أنَّ هذه المرأة تُحدِّق فيها على نحوٍ ينطوي على شيءٍ من الشفقة. أمَّا العمّ، فلم يأتِ، ولم تعرف ليلى قطّ إنْ كان ذلك قرارَه أمْ قرارَ بابا.

يومَ تُوفِّي تاركان، فتحوا جميعَ نوافذ الدار كي تتمكَّن روحُه من إحلال النور مكان الأمكنة، وكي تتمكَّن أنفاسُه من التحوُّل إلى هواء، ويستطيعَ ما يتبقَّى منه أن يُحلِّق بعيدًا في هدوءٍ وسلام. فكَّرتْ ليلى أنَّه بذلك يشبه فراشةً في مصيدة. هكذا كانت حال أخيها بينهم. وخَشِيتْ أن يكون الجميعُ قد خذلوا هذا الطفلَ الجميل، واحدًا فواحدًا، ومن ضمنهم هي شخصيًّا، وربَّما كانت أكثرهم خذلانًا له.

في عصر ذلك اليوم نفسه، وفي وضح النهار، تركتْ ليلى المنزلَ. كانت تُخطِّط لهذا الأمر منذ مدَّة، ولمّا حانت اللَّحظةُ المناسبة، فعلتْ كلَّ شيء بعُجالة. كانت الأفكار تتسابق في ذهنها في فوضى واضطراب، وساورها قلقٌ إنْ هي تردَّدتْ، ولو لحظةً واحدة، فربَّما تخونُها شجاعتُها. هكذا خرجتْ من دون تفكير، من دون أن ترمشَ لها عين، ولكنَّها لم تخرج من باب المطبخ لأنَّ الكلّ كانوا هناك، الأُسرة والجيران، رجالًا ونساءً . وهي المناسبة الوحيدة التي يمكن أن يكون الجنسان حاضريْن فيها في المكان نفسه: إمَّا للزفاف أو الجنازة. انخفض صوتُ النسوة حين شرع الإمامُ بقراءة سورة الفاتحة: {اهدنا الصراطَ المستقيم. صراطَ الذين أنعمتَ عليهم. غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالين{

توجَّهتْ ليلى إلى مدخل المنزل، وفتحت البابَ الرَّئيسَ، المتينَ الصلبَ، المزوَّدَ بأكثر من رتاجٍ وبسلسلةِ حديد، وإنْ كان خفيفًا على اللَّمس. كانت تحمل في حقيبتها أربعَ بيضاتٍ مسلوقة، وما يقارب عشرَ تفّاحاتٍ شتويَّة. واتَّجهتْ من فورها إلى دكَّان السيِّدة الصيدلانيَّة، إلَّا أنَّها لم تتجرَّأ على الدخول، فتجوَّلتْ خارجه. ثم مشت مُتمهِّلةً في المقبرة القديمة خلف الدكَّان، تقرأ أسماءَ الموتى

على شواهد القبور، متسائلةً عن نمط الحياة التي أنفقوا أعمارَهم فيها. وكانت، أثناء ذلك، تنتظر عودةَ صديقها من المدرسة.

كانت النقود التي تحتاجُ إليها لدفع أجرة الحافلة قد سرقها سنان من والدته.

ظلَّ الصبيُّ يسألها وهما يسيران معًا إلى المحطَّة:

. أأنتِ واثقةٌ من الرحيل؟ إسطنبول مدينةٌ ضخمة، وأنتِ لا تعرفين أحدًا فيها. ابقي في بلدة ڤان.

. لماذا؟ لم يَعُد لي شأنٌ فيها بعد اليوم.

وَمَض وجهُه بومضةِ ألمٍ لاحظتْها ليلى، وكان الأوانُ قد فات، فلمستْ ذراعه، وهي تقول:

. أنا لا أعنيكَ أنتَ شخصيًّا. سأشتاقُ إليكَ كثيرًا.

فردَّ عليها والزغبُ يظلّل شفتَه العليا:

. وسأشتاقُ إليكِ أنا أيضًا.

لم يَعُد الصبيُّ مكتنزًا، بل أضحى نحيفًا. كما ضاق وجهُه المدوَّر إلى حدٍّ ما، وبرزتْ عظامُ وجنتيْه أكثرَ من ذي قبل. بدا في لحظةٍ من الزمان وكأنَّه يريد أن يقول شيئًا آخر، إلَّا أنَّ شجاعته خانته حين سمح لعينيْه بأن تُشيحا النظرَ عن وجهها.

وَعَدتهُ ليلى قائلةً:

. انظرْ! سوف أكتبُ إليك أسبوعيًّا. وسوف نلتقي من جديد.

. ألن تكوني في مأمنٍ هنا؟

على الرَّغم من أنَّ ليلى لم تتفوَّه بالكلمات الآتية بصوتٍ عالٍ، فإنَّ صداها تردَّد في مكانٍ ما من روحها؛ كلماتٍ كان يخالجها شعورٌ بأنَّها سمعْتها من قبل: «أن تعتقدَ أنَّك في مكانٍ آمن ، فذلك لا يعني أنَّه المكانُ الذي يُناسبُك.«

انبعثتْ من الحافلة رائحةُ العادم وماء الكولونيا بنكهة اللَّيمون . والتعب. كان المسافرُ الجالسُ أمامها يقرأ في جريدة. اتَّسعتْ عيناها حين قرأت الخبرَ على الصفحة الأولى: مَصرعُ الرَّئيس الأميركيّ صاحبِ الابتسامة المشرقة. ونشرت الصحيفة أيضًا صورًا

له ولزوجته الجميلة، ببذلتها وقبَّعتها الصَّغيرة المستديرة، وهما يَستقلَّان سيَّارةً ضمن موكب سيَّارات، ويلوِّحان للجماهير قبل دقائق قليلة من أوَّل إطلاقة. كانت ترغب في قراءةِ تفاصيلَ أكثر، إلَّا أنَّ الأنوار أُطفِئتْ. أخرجَتْ من حقيبتها بيضةً مسلوقةً وقشَّرتها، وأكلتها في صمتٍ وهدوء. ثم تباطأ الوقت، فأطبقتْ جفنيْها.

***

فكَّرتْ ليلى، من غير شكوكٍ تساورها، ولا معلوماتٍ تملكها، أنَّ في مُستطاعها أن تتأقلمَ مع إسطنبول، وأن تقهرَ تلك الحاضرةَ الكبيرة. إلَّا أنَّها لم تكن دايڤيد، ولم تكن إسطنبولُ غولياث(5)، ولا أحدَ يدعو لها كي يحالفَها

النجاح، أو تلجأُ إليه إنْ أخفقتْ. إنّ للأشياء طريقةً خاصَّةً للتواري من حولها على نحوٍ بسيط. هذا ما تعلَّمتْه حال وصولها. وبينما كانت تغسل وجهَها ويديْها في حمّام محطَّة الحافلات، سرق أحدُهم حقيبتَها. وفي لحظةٍ من الزمن، ضاع منها نصفُ نقودها، وما تبقّى من التفّاح، وسوارُها . الذي كان شقيقُها الصَّغير قد رفعه عاليًا في الهواء يومَ أقاموا الاحتفال بتسنُّن الطفل.

جلستْ على قفص شحنٍ خاوٍ خارج المرافق الصحِّيَّة، تستجمعُ أفكارَها. فاقترب منها أحدُ العمَّال حاملًا دلوًا، فيه صابونُ غسيل سيَّارات وإسفنجةٌ. بدا العاملُ مؤدّبًا ومراعيًا لشعورها. وحين عرف بورطتها، عرض عليها المساعدة. قال إنَّ في وسعها أن تبقى في بيت عمَّته بضعة أشهر. وكانت عمَّته قد تقاعدتْ من مهنتها أمينةَ صندوقٍ في متجر، وكانت طاعنةً في السنّ ومحتاجةً إلى رفيقة.

قالت ليلى:

. أنا متأكِّدة من أنَّها امرأةٌ لطيفة، ولكنْ عليّ أن أبحث عن مكانٍ خاصّ بي.

. بالتأكيد. فهمتُ.

قال الشابُ ذلك، وأعطاها عنوانَ نَزْلٍ قريب، نظيفٍ ومأمون، وتمنَّى لها حظًّا سعيدًا.

وإذ راح الظلامُ يرخي سدولَه، والسَّماءُ تَقْصر من حول ليلى، فقد عزمتْ في نهاية المطاف على التوجُّه إلى النَّزْل، فوجدتْه مبنًى متداعيًا في شارعٍ فرعيٍّ، ولاح وكأنَّه لم ينظَّفْ أو يُطْلَ منذ سنين طويلة. ولم تُدرك ليلى أنَّ الشاب كان يلاحقُها حين دخلتْ.

ما إنْ أصبحتْ داخل المبنى حتَّى اتَّجهتْ إلى ركن الغرفة، بعد أن تجاوزتْ كرسيَّيْن ملوّثيْن ومهلهليْن، ولَوْحَ منشوراتٍ ثُبّتَتْ عليه بياناتٌ وملاحظاتٌ قذرةٌ مضى عهدُها. هناك جلس رجلٌ هزيلُ البنية، قليلُ الكلام، حول طاولة مقلقلة، هي بمثابة مكتب استقبال. ومن ورائه عدَّةُ مفاتيح مخصَّصة للغرف، معلَّقة على كلاليبَ مرقَّمةٍ على جدارٍ يكسوه العفنُ الفطريّ.

بعد أن أصبحتْ ليلى في الطبقة العليا من النَّزْل، قلقةً وعصبيَّةً، دفعتْ خزانةَ الأدراج، وسدَّت بها البابَ. كانت الملاءاتُ المصفرَّةُ مثل ورق الجرائد العتيق ذاتَ رائحةٍ كريهة، مُنفِّرة. ففرشتْ سترتَها من فوق السرير، واستلقت بثيابها. ولمَّا كان الإرهاقُ قد هدَّ كيانَها، فقد خَلَدتْ إلى النوم بأسرع ممَّا كانت تتخيَّل. لكنَّها، في

وقتٍ متأخِّرٍ من اللَّيل، استيقظتْ بعد أن ترامى إلى أذنيْها صوت. ثمَّة شخص في الممرّ، يدير مقبضَ الباب، محاولًا الدخول.

صرختْ ليلى:

. مَن وراء الباب؟

وقعُ أقدام في الممرّ. محسوبة وغير مسرعة. بعدها، لم يغمضْ لها جفن، حذرةً من كلّ صوت. في الصباح، عادت إلى محطَّة الحافلات، وهو المكان الوحيد الذي تعرفه في المدينة، فوجدت الشابّ هناك، حاملًا الماء لسوّاق المَرْكبات.

هذه المرَّة، وافقتْ على عرضه.

كانت العمَّة امرأةً في خريف العمر، ذاتَ صوتٍ ثاقب، وبشرةٍ شاحبة ممتقعة على نحوٍ يُمكِّن الرائي من ملاحظة الأوردة من تحتها. قدَّمتْ إلى ليلى طعامًا وثيابًا أنيقة، أنيقةً أكثرَ ممَّا ينبغي، مُصرَّةً على أنَّها يجب أن «تُعزِّز من مزاياها»، إنْ كانت ترمي إلى الذهاب لإجراء مقابلةٍ من أجل الحصول على عمل ابتداءً من الأسبوع المقبل.

مرَّت الأيَّامُ الأولى يسيرةً. ومع أنّ قلبها كان منفتحًا وعازمًا، فإنَّه كان مُرهفَ الحسِّ أيضًا. وعلى الرَّغم من أنَّها رفضت الإقرارَ بذلك، سابقًا أو لاحقًا، فإنَّها وقعَتْ تحت سحر هذا الشابّ وجاذبيَّته

اللَّافتة. استحوذ عليها ما يشبه الارتياحَ بأنَّها أضحت قادرةً على الكلام برفقة شخصٍ آخر . وإلَّا ما كانت لتُخبره بما حدث في بلدة ڤان.

قال لها:

. الواضح أنّكِ لا تستطيعين العودةَ إلى أسرتك. اسمعي، لقد عرفتُ فتياتٍ مثلك . جِئن معظمُهنّ من بلداتٍ مقرفةٍ وبغيضة. بعضُهنّ أبليْن بلاءً حسنًا هنا، وحصلن على أماكن، إلَّا أنَّ الكثيرات لم يوفَّقْن. ابقي معي إنْ كنتِ ذكيَّةً بما يكفي، وإلَّا فإنَّ إسطنبول ستسحقُكِ.

شيءٌ ما في نبرة صوته جعلها تجفل. غضبٌ مكبوت أدركتْ أنَّه يسكن روحَه. غضبٌ جامحٌ وثقيلٌ ثِقلَ حجرِ الرَّحى. فقرَّرتْ بهدوءٍ في نفسها مغادرةَ هذا المكان من فورها .

شعر الشابُّ بما يخالج نفسَها من ضِيق. وكان يعرف جيِّدًا كيف يستغلّ قلقَ الناس وانزعاجَهم.

قال لها:

. سوف نتكلَّم في الموضوع في وقتٍ لاحق، وعليكِ ألَّا تقلقي كثيرًا.

كان هذا الرجل نفسُه، وهذه المرأةُ نفسها ـ التي لم تكن عمَّتَه حقًّا، وإنَّما شريكةً له في عمله ـ مَن باع ليلى إلى شخصٍ غريبٍ في تلك اللَّيلة ، ثمّ إلى غرباءَ آخرين في غضون أسبوعٍ واحد.
كحول؛ ثمّة دومًا كحولٌ في دمها، وفي مشروباتها، وفي أنفاسها. دفعوها إلى تناول المشروبات كثيرًا، حتَّى لا تتذكَّرَ إلَّا أقلَّ القليل. وما أخفقتْ في رؤيته، أوَّلَ الأمر، بات واضحًا أمام عينيْها الآن: الأبوابُ مقفلةٌ بأقفالٍ ذات حلقات معدنيَّة مُتحرّكة، والنوافذُ مُحكمةُ الإغلاق، وإسطنبول ليست مدينةَ الفرص، بل مدينةُ الجروح والندب. وكان سقوطُها، عند البداية، سقوطًا مدوِّيًا وسريعًا، مثلَ سقوط الماء بعد مروره في خرطوم إطفاء الحريق. كان الرجال الذين يرتادون المنزلَ ينتمون إلى جماعاتٍ من مختلف الأعمار، يعملون في مهنٍ قليلةِ المهارة والأجر، وكانت لمعظمهم أسرٌ خاصَّةٌ بهم. كانوا آباءً وأزواجًا وإخوةً. وكانت لبعضهم بناتٌ في مثل سنِّها.

***

حين تمكَّنتْ ليلى من الاتِّصال بالبيت، لم تستطع تفادي ارتعاش يديْها. كانت قد انغمستْ إلى حدٍّ عميقٍ في هذا العالم الجديد، حتَّى باتوا يسمحون لها بالسَّير وحدها في المنطقة المجاورة، واثقين بأنَّها لا تَملك مكانًا آخر تذهب إليه بعد الآن. في اللَّيلة المنصرمة، أمطرت السَّماء، وشاهدتْ قواقعَ على الرصيف تستنشق الهواءَ الرطبَ الذي أشعرَها بالاختناق. بحثَتْ عن سيجارةٍ، بينما كانت تقف أمام دائرة البريد، والقدّاحةُ ترتعش في يدها.

حين قرَّرت الدخولَ، أخبرتْ عاملَ التلغراف برغبتها في إجراء اتِّصال، وتقييدِ أجرةِ المكالمة على الشخص الذي تريدُ محادثته، وراودها الأملُ في أن يوافق هذا الشخصُ على دفع الأجرة . وقد وافق بالفعل. ثمَّ انتظرتْ أن ترفع الأمُّ أو العمَّة سمَّاعةَ الهاتف، غيرَ متأكِّدةٍ أيّهما تريد هي أن تكلّم أوَّلًا، وحاولتْ أن تُخمِّن ما

تفعله كلٌّ منهما في هذا الوقت. أجابت الاثنتان ـ معًا ـ وانخرطتا في البكاء حينما سمعتا صوتَها. وبكت ليلى أيضًا.

في مكانٍ ما من البيت، ارتفعتْ تكّاتُ السَّاعة في الردهة؛ إيقاعٌ غير مُتذبذب ينمّ عن الاستقرار، ويناقض الرَّيبةَ التي تحيط بهما تناقضًا حادًّا. ثمَّ ران صمتٌ عميقٌ ورطبٌ، يقطر كأنَّه سائلٌ تغرقان فيه أكثر فأكثر. من الواضح أنَّ الأمّ والعمَّة كانتا تريدانها أن تشعرَ بالذَّنْب، وكانت ليلى تشعر بالذنب حقًّا ـ أكثر ممَّا كانتا تتخيَّلان. إلَّا أنَّها أدركتْ أيضًا، بعد أن غادرت المنزلَ، أنَّ الأمَّ أغلقتْ قلبها مثل قبضة يد، خصوصًا بعد موت تاركان وتدهوُرِ صحَّة العمَّة مجدَّدًا. وبعد أن أغلقت ليلى الهاتفَ، راودها شعورٌ ثقيلٌ بالهزيمة، وعرفتْ أنَّها لا تستطيع العودة، وأنَّ هذا الموتَ البطيءَ الذي وجدتْ نفسَها فيه قد أصبح هو نفسُه الآن حياتَها.

ومع هذا، فقد واظبتْ على الاتِّصال كلَّما سنحت الفرصة.

وذات يومٍ عاد بابا مبكِّرًا إلى الدار، فردَّ على الهاتف. وحين ترامى صوتُها إلى أذنه، شهق ولزم الصمت. أمَّا ليلى، فأدركتْ أنَّ هذه هي المرَّةُ الأولى التي تراه فيها ضعيفًا، فأخذت تُفتِّش عن كلماتٍ مناسبة.

قالت بصوتٍ يكشف عن التوتُّر والجهد في أعماقها:

ـ بابا.

ـ لا تُناديني بهذا الاسم.

فكَّرتْ مرَّةً أخرى:

ـ بابا...

قال لها بشقّ النَّفس:

ـ لقد جلبتِ الخِزْيَ والعارَ علينا. الكلّ يتحدَّث عنَّا من وراء ظهورنا. لا أستطيع الذهابَ إلى المقهى بعد الآن. ولا أستطيع دخولَ دائرة البريد. وفي المسجد نفسه، لا أحد يريد أن يكلِّمني. ولا أحد يلقي عليَّ بالتحيَّة في الطريق. إنَّني مثل شبح ـ لا أحد يقدر على رؤيتي. لطالما راودتني فكرة: «ربَّما لا أملكُ ثرواتٍ طائلة، ولم

أعثرْ على كنز، بل ليس لديَّ أولاد، لكنْ لديَّ شرفٌ على الأقل». أمَّا الآن، فهذا نفسُه لم يَعُد لديّ. إنَّني إنسان مُحطَّم. يقول الشيخ لي إنَّ اللَّـه سيلعنني، وسيُبقيني على قيد الحياة حتّى أشهدَ ذلك اليوم. ذلك هو جزائي..

ثمَّة قطراتٌ تتكاثف على النافذة. لمستْ ليلى قطرةً منها برقَّةٍ، ثانيةً واحدةً، ثمَّ تركتها وشأنها وهي ترنو إليها. وفي مكانٍ ما داخل جسدها، انتفض ألمٌ ممِضٌّ، في مكانٍ لا تقدر على تحديده.

قال لها:

ـ لا تتَّصلي بنا ثانيةً. وإذا ما اتَّصلتِ، فسوف نُبلغ عاملَ الهاتف بأنَّنا لا نوافق على الاتِّصال. ليست لدينا ابنةٌ اسمُها ليلى. ليلى عفيفة كاملة: أنتِ غيُر جديرةٍ بهذه الأسماء.

***

حين اعتُقلت ليلى للمرَّة الأولى، وحُشِرتْ في مَرْكبة نقلٍ مع غيرها من النساء، لبثتْ تضغط على راحتَيْ كفَّيْها، ثابتةَ العينيْن على جزءٍ من السَّماء تراه من خلال قضبان النافذة. وبعد المعاملة السَّيِّئة التي لقيتْها النسوةُ في مخفر الشرطة، جاء الفحصُ في

مستشفى إسطنبول للأمراض التناسليَّة. وهو المستشفى الذي ستظلّ تتردَّد عليه بانتظام على مدى سنوات. وهناك، مُنِحتْ بطاقةُ هويَّةٍ جديدة، كُتِبت عليها تواريخُ فحصها الطبيّ في جدولٍ أنيق؛ فإذا ما فاتها فحصٌ من تلك الفحوص، فسوف يُلقى القبضُ عليها فورًا. وأبلغوها أيضًا أنَّ ذلك سَيَعني قضاءَ اللَّيلة في الحبس، أو العودةَ إلى المستشفى مرَّةً أخرى لإجراء المزيد من الفحوص بغيةَ الكشف عن الأمراض التي تنتقل بالاتّصال الجنسيّ.

من وإلى.. من مخفر الشرطة إلى المستشفى، ثمّ إلى المخفر مجدَّدًا. كانت العاهرات يطلقن على هذا الإجراء اسم «لعبة كرة الطاولة للمومسات.«

وفي إحدى الزيارات إلى المستشفى، التقت ليلى المرأةَ التي ستغدو أوَّلَ صديقةٍ لها في إسطنبول. اسمُها جَميلة، وهي شابَّة أفريقيَّة ذاتُ عينيْن مُدوَّرتيْن وبرَّاقتيْن على نحوٍ استثنائيٍّ، وجفون تكاد تكون شفَّافة. أمَّا شعرُها، فكان مضفورًا ضفائرَ رفيعةً تلامس فروةَ رأسها. وكان رسغاها نحيليْن على نحوٍ نحيل ومؤلم، وعليهما علاماتٌ حمرٌ حاولتْ أن تُخفيَها بعددٍ كبيرٍ من الأساور. كانت فتاةً أجنبيَّةً. وكما هو حالُ كلّ أجنبيّ، فقد بدت عليها ملامحُ الانتماء إلى مكانٍ آخر. وكانت ليلى قد شاهدتْ هذه الفتاةَ مرَّاتٍ ومرَّات من

قبل، ولكنَّهما لم تتبادلا كلامًا طويلًا، وإنّما اقتصرَتْ لقاءاتُهما على إلقاء التحيَّة. الآن، عرفتْ ليلى أنَّ النساء اللَّواتي اعتُقِلن، بعد عمليَّات دهمٍ طالت مختلفَ أركان المدينة، كُنَّ ينتمَين إلى عشائرَ غير مرئيَّة، أَكُنَّ من أهل البلد أمْ لا. وكان يُفترَض بأفراد العشائر المختلفة ألّا يتواصلوا بعضهم مع بعض.

في كلِّ الزيارات المشتركة، كانت النّسوةُ يتربَّعن فوق مصاطب على امتداد الممرّ الضيّق الذي تفوح منه روائحُ قويَّة، منبعثةً من المطهِّرات والمعقِّمات التي يُمْكنهنَّ أن يتذوَّقنها بألسنتهنَّ. وكانت قد خُصِّصتْ للمومسات التركيَّات مواقعُ للجلوس على أحد الجانبيْن، بينما جلسَت الأجنبيّاتُ على الجانب الآخر. ولمَّا كان مطلوبًا من القادمات إلى غرفة الفحص أن يتقدَّمن واحدةً تلو الأُخرى، فقد كان الانتظار طويلًا على نحوٍ لا يُطاق. وفي أيَّام الشتاء، كنَّ يبقين أيديهنَّ تحت آباطهنَّ، ويخفضن من أصواتهنَّ، ويحتفظن بطاقتهنَّ لبقيَّة اليوم. لم يحظَ هذا القسمُ من المستشفى، وهو قسمٌ ينأى عنه المرضى الآخرون ومعظمُ العاملين فيه، بما يكفي من التدفئة. أمَّا في فصل الصيف، فكنَّ يتمطَّين متكاسلات، يفركن الجربَ ويصفعن البعوضَ، متذمِّراتٍ، ومنتقداتٍ شدَّةَ الحرارة. يخلعن أحذيتَهنَّ، ويُدلِّكن أقدامَهنَّ المرهقة، فتفوح منها روائحُ

ضعيفةٌ تنتشر في الهواء، وتتخثَّر من حولهنَّ. وبين حينٍ وآخر، تُبدي إحدى المومسات التركيَّات ملاحظةً فظَّة ولاذعة عن الأطبَّاء أو الممرّضات، أو عن الجالسات على المصطبة المقابلة، الغريبات والغازيات، قبل أن ينفجرن في ضحكةٍ لا تشبه الضحكات التي تنطوي على فرح. في مثل هذه المساحة الضيّقة، قد تشتدّ العداوةُ وتنتشر بسرعة شحنةٍ كهربائيَّة، وتخفت بالسرعة نفسها أيضًا. لم تُطق المومساتُ التركيَّاتُ المومِساتِ الأفريقيَّاتِ، وكنّ يتَّهمْنهنَّ بسرقة مهنتهنّ.

في مساء ذلك اليوم، وبينما كانت ليلى تنظر إلى الشابَّة السَّوداء الجالسة قبالتها، لم تلحظْ أنَّها أجنبيَّة، بل تنبَّهت إلى أسورتها المضفورة، وتذكَّرتْ أسورتَها التي فقدَتْها. ثمّ رأت الطلسمَ الذي يزيِّن سُترتَها الصوفيَّة من الداخل، وتذكَّرتْ كلّ الطلاسم التي أخفقتْ في حمايتها. ولاحظت طريقةَ احتضان حقيبتها على صدرها، وكأنَّها تتوقَّع أن تُطرَد من هذا المكان، إنْ لم تُطرَد من هذا البلد، في أيّ لحظة. واستدلَّتْ من سلوكها أنَّها وحيدةٌ، مسكونةٌ بالحرمان واليأس.

راود ليلى شعورٌ غريبٌ بأنَّ هذه الفتاة تتأمَّل ملامحَها. فقالت لها، وهي تؤشِّر ـ بذقنها ـ ناحيةَ الأسورة:

. أسورتُكِ جميلة.

رفعت الفتاةُ رأسَها ببطء، من غير إحساس تقريبًا، وتفحَّصتْ ليلى بنظرةٍ مباشرة. ومع أنَّها لم تقل شيئًا، فقد كان ثمَّة هدوءٌ على ملامحها جعل ليلى ترغب في مواصلة الحديث إليها.

قالت ليلى، وهي محنيَّةٌ إلى الأمام:

. كانت لديّ أسورةٌ تشبه هذه، لكنّها ضاعت منِّي حين جئتُ إلى إسطنبول.

أثناء الصَّمت الذي أعقب ذلك، أبدت إحدى المومسات ملاحظةً بذيئة، فضحكت الأخريات. فما كان من ليلى، التي بدأت تلوم نفسَها على الكلام أوَّل مرَّة، إلَّا أن خفضتْ من بصرها، وعادت إلى الاستغراق في أفكارها.

قالت المرأة حين ظنَّت الأخرياتُ أنَّها لن تتكلَّم أبدًا:

. إنَّني أميِّزُ نفسي من بقيَّة النساء .

كان صوتُها همسةً طويلةً تشوبها خشونةٌ، ولغتُها التركيَّةُ غيرَ سليمة.

مكتبة[16.07.20 14:34] ,.@

سألتها ليلى، وهي تشارك في الكلام بعد أن لفت انتباهَها:

. أتختارين لونًا مُغايرًا لكلّ شخص؟ رائع. وكيف تتَّخذين قرارَكِ؟

. من النظر.

بعد ذلك اليوم، كانت ليلى وتلك الشابَّة تتبادلان بضع كلمات كلَّما التقتا، وتشتركان في الحديث أكثر من ذي قبل، وكانت الإشارات تملأ الصمت حين تنقص الكلمات. وفي عصرِ يومٍ من الأيَّام، بعد مرور أشهرٍ على أوَّل حديث بينهما، نهضتْ جميلة من مكانها في الجهة المقابلة، واجتازت الجدارَ غير المرئيّ، ووضعتْ شيئًا ما، خفيفَ الوزن، في راحة كفّ ليلى.

كان ذلك الشيءُ سوارًا مضفورًا في موقعٍ صغير، ونبتَة خلنج، وكرزًا غامقًا بظلال اللَّون البنفسجيّ.

سألتها ليلى في رقَّة:

. أهذه لي؟

أومأتْ جميلة برأسها:

. أجل، هيَ ألوانُكِ.

جميلة: المرأةُ التي تنظر في أرواح الناس، وتقرِّر إنْ كانت ستفتح قلبَها لهم أمْ لا، وذلك فقط حين ترى ما تريدُ هي أن تراه.

جميلة: أحدُ خمسةٍ.

مكتبة[16.07.20 15:20] ,.@

- 10 -

قصَّةُ جميلة

وُلدتْ جميلة في الصومال لأبٍ مسلم وأمٍّ مسيحيَّة. وكانت سنواتُ عمرها المبكِّرةِ حرَّةً، وغايةً في السعادة، وإنْ لم تُدركْ ذلك إلَّا بعد أن انقضَت وصارت جزءًا من الذاكرة. كانت أمُّها قد أخبرتها ذاتَ يومٍ أنَّ الطفولة موجةٌ زرقاءُ هائلةٌ ترفعُكِ عاليًا وتدفعُكِ إلى أمام، وحين تظنّين أنَّها لن تنتهي إذ بها تختفي عن الأنظار، فلا يعود في وُسعكِ اللَّحاقُ بها ولا إعادتُها. إلَّا أنَّ الموجة تترك هديّةً وراءها قبل أن تتلاشى: محارةً على الشاطئ. وفي هذا المحار البحريّ تُخزَّن كلُّ أصوات الطفولة. وإنْ أغمضتْ جميلة عينيْها

اليوم، وأصاخت السَّمعَ عن قصد، فإنَّ في وسعها سماعَها: ضحكاتِ أخواتها الصِّغار، وكلماتِ أبيها القليلةَ وهو يُفْطر على بضع تمرات، وغناءَ أمّها أثناء إعداد الطعام، وقرقعةَ النار عند المساء، وحفيفَ أوراق شجرة الأكاسيا خارج الدار.

مقديشو: لؤلؤةُ المحيط الهنديّ البيضاءُ. كانت جميلة، في أيَّام الصحو، تعمد إلى حماية عينيْها لكي تنظر إلى البيوت في أحياء الفقراء الممتدَّة بعيدًا؛ وهي بيوتٌ كان وجودُها محفوفًا بالخطر، شأن الطين والخشب اللذين شُيِّدتْ بهما. لم يكن الفقرُ قضيَّةً تُقلقها يومئذٍ؛ فالأيَّام بلا حوادث، والحلمُ سهلٌ وعذبٌ، كما العسل الذي تدهن به خبزتَها. إلَّا أنَّ والدتها، التي كانت جميلة تعبدُها، تدهورتْ حالتُها الصحِّيَّة تدهورًا طويلًا ومؤلمًا بسبب السرطان، الذي لم يتغلَّب على بسمتها، حتّى فارقت الدنيا. أمَّا والدها، الذي أضحى ظلَّ مَنْ كان رجلًا في يومٍ ما، فلم يكن مستعدًّا لتحمُّل العبء الذي راح ينوء من تحته، بعد أن وجد نفسَه وحيدًا برفقة

خمسة أطفال. فاكفهرّ وجهُه، وانقبض صدرُه رويدًا رويدًا، وحثّهُ وجهاءُ الأُسرةِ على الزواج من جديد ـ الزواجِ بامرأةٍ مسلمة.

كانت زوجةُ والد جميلة الأرملةُ تغار من شبح، ووطَّدتْ عزمَها على محو كلّ آثار المرأة التي شعرتْ أنَّها جاءت كي تحلَّ محلَّها. وسرعان ما طَفقتْ جميلة ـ أكبرُ البنات ـ تتشاجر مع زوجة أبيها حول كلِّ شيء تقريبًا ـ بدءًا بالثياب التي تلبسها، والطعامِ الذي تأكله، وطريقةِ كلامها. لذا، بدأتْ جميلة تقضي وقتًا أطولَ في الشوارع، لعلَّها تمنح روحَها المضطربة المقيَّدَةَ قدرًا من الهدوء.

في عصر أحد الأيَّام، حملتها قدماها إلى الكنيسة القديمة التي كانت ترتادها أمُّها، وتوقفتْ جميلة عن الذهاب إليها وإنْ لم تنسها البتَّة. ومن غير تفكير، دفعت البابَ الخشبيَّ الطويل، ودخلتْ وهي تتنشَّق رائحةَ الشموع والخشب الصقيل. كان قربَ مذبح الكنيسة

قسّيسٌ مُعمّرٍ، حدّثها عن الفتاةِ التي أصبحت امرأةً بعد عمرٍ طويل، وكيف تحوَّلتْ إلى زوجةٍ وأمّ. كانت تلك قصصًا من حياةٍ أخرى.

لم تكن لدى جميلة أيُّ نيَّة في زيارة الكنيسة مجدَّدًا، إلَّا أنَّها زارتها بعد أسبوع. ولمّا كانت في السَّابعة عشرة، فقد انضمَّت إلى اجتماعٍ تسبِّب في ثورة والدها وتحطيمِ قلوب إخوتها. أمَّا هي فلم تعمد إلى اختيار إحدى الدِّيانتَيْن الإبراهيميَّتَيْن، إذ كانت بكلِّ بساطة متمسِّكةً بخيطٍ غير مرئيّ يربطها بأمِّها. لم ينظر أحد إلى الأمر مثلَ هذه النظرة. كما لم يغفر لها أحد ذلك.

قال لها القسّيس انْ لا داعي لكلّ هذا الحزن ما دامت قد عثرتْ على أُسرةٍ أكبر، أُسرةِ المؤمنين. لكنْ على الرَّغم من بذلها قُصارى الجهد، فإنَّ السَّكِينَة، التي قيل لها إنَّها ستأتيها عاجلًا أو آجلًا،

هربتْ منها. وهكذا، وَجدتْ نفسَها مرَّةً أخرى وحيدةً، بلا أسرةٍ، ولا كنيسة.

كانت في حاجة إلى عمل، لكنَّ ذلك لم يتوفَّر باستثناء بعض الأعمال التي لم تجد نفسَها مؤهَّلةً لها. وسرعان ما أصبح عنوانُها حيَّ الفقراء، الذي اعتادت أن تسرَح ببصرها في اتِّجاهه. في هذه الأثناء، كان البلد في حالة تغيُّر. وكان كلّ الأصدقاء يردِّدون كلمات محمَّد سياد بري(6)، وبدأوا بتحرير الصوماليّين الذين يعيشون تحت نِيرِ الآخرين. الصومال الكبير. كانوا يقولون إنَّهم على استعداد للنضال من أجله والموت في سبيله. خُيِّل إلى جميلة أنَّ الجميع، ومِنْ ضِمنهم هي شخصيًّا، كانوا يحاولون تجنُّبَ اللَّحظة الراهنة. وعندما يتعلّق الأمرُ بها، تراها تحنُّ إلى الرُّجوع إلى طفولتها؛ وعندما يتعلّق بأصدقائها، تراهم يتطلّعون إلى مستقبلٍ غير مأمون، شأن رمالٍ متحرِّكةٍ في صحراءَ تجاور

مكتبة[16.07.20 15:21] .,@

البحرَ.

ثمَّ بدأت الأشياءُ تزداد قبحًا، ولم تَعُد الشوارعُ مأمونةً: رائحة الإطارات المحترقة، والبارود، ومعارضو النِّظام يُعتقلون بالسِّلاح السوفياتيّ الصنع، والسجون ـ البقيَّة الباقية من آثار الحُكمَيْن البريطانيّ والإيطاليّ ـ تحتشد على جناح السُّرعة بالمعتَقَلين، وتحوَّلتْ كلُّ المدارس والمباني الحكوميَّة والثكنات العسكريَّة إلى سجونٍ موقَّتة. ومع هذا، لم تعد ثمَّة فُسحةٌ تكفي لسجن المزيد من المعتَقلين. واستدعت الضرورةُ استخدامَ أجزاءٍ من القصر الجمهوريّ لتكون سجنًا.

في ذلك الوقت تقريبًا، قالت لها امرأةٌ تعرفها إنَّ بعض الأجانب يبحثون عن أفريقيَّات موفوراتِ الصحَّة والعافية، ومجتهداتٍ في العمل، لنقلهنَّ إلى إسطنبول، والاشتغال في مهنٍ متواضعة ـ تدبير شؤون المنازل، رعاية أطفال، طبخ، وما أشبه. وأخبرتْها أيضًا أنَّ الأُسر التركيَّة تُفضِّل الحصولَ على مُساعِدةٍ صوماليَّةٍ في البيوت. هنا، وجدتْ جميلة فرصةً؛ فحياتُها أُغلقتْ كالباب، وباتت توَّاقةً إلى بابٍ آخر يُفتح لها في مكانٍ ما. وفكَّرتْ: مَنْ لم يشاهد العالَم ليست له عينان.

وهكذا، انطلقتْ في رحلةٍ إلى إسطنبول برفقة أكثر من أربعين شخصًا، في مجموعةٍ جُلُّها من النساء. ولدى الوصول إلى المدينة، وقف المسافرون والمسافرات في صفوفٍ على هيئة مجاميع. فلاحظتْ جميلة أنَّ الشابّات أمثالَها قد وقفن إلى جانب، أمَّا الأخريات فقد نُقلن إلى مكان آخر، ولم تشاهد أيًّا من هؤلاء منذ تلك اللَّحظة. عندها أدركتْ أنَّ العمليَّة كلَّها خدعةٌ واحتيال.

ذريعةٌ لجلبهنَّ كعمالةٍ رخيصةٍ من جهة، ومن أجل الاستغلال الجنسيّ من جهةٍ أخرى. وفات أوانُ العودة من حيث أتت.

جاء الأفارقةُ إلى إسطنبول من كلِّ أنحاء القارَّة القديمة . تنجانيقا، والسودان، وأوغندة، ونيجيريا، وكينيا، وفولتا العليا، وإثيوبيا . هربًا من الحروب الأهليَّة والعنف الدِّينيّ والعصيان السياسيّ. وازداد عددُ طالبي اللُّجوء السياسيّ يوميًّا على مدى الأعوام. وكان من بين هؤلاء طلَّابٌ وموظَّفون وفنَّانون وصحافيُّون وباحثون... إلَّا أنَّ الأفارقة الوحيدين الذين تَذْكرهم الصحفُ هُم مَن يجري الإتجارُ بهم، كما هو حالها.

بيت في تارلاباشي. أرائكُ رثَّةٌ، وملاءاتٌ مُمزَّقة حُوِّلَتْ إلى ستائر، وهواءٌ يعبق برائحة البطاطس المحترقة والبصلِ المقليّ وبشيءٍ حامضٍ مثل جوزٍ غير ناضج. في اللَّيل، يُستدعى عددٌ من النساء

. من دون أن يدرين أيّ واحدةٍ منهنَّ هي المطلوبة. وفي غضون كلّ أسبوعيْن، يَقرع رجالُ الشرطة بابَهنّ فيُعتَقَلن، ثمّ يُقتدْنَ إلى مستشفى الأمراض التناسليَّة لإجراء الفحوصات.

أمَّا النساء اللَّواتي كنَّ يُبدين مقاومةً في وجهِ مَن يعتقلهنَّ، فيُودَعن في قبوٍ تحت المنزل، شديدِ الظلمة، متناهٍ في الصِّغر، لا يتَّسع لهنَّ إلَّا إذا افترشن الأرضَ مُتكوِّراتٍ على أنفسهنّ. لم يكن الجوعُ، ولا ألمُ سيقانهنّ، أسوأَ ما في الأمر، بل قلقهُنّ على السجَّانين أنفسهم، والخشيةُ من حدوث خطبٍ لهم، إذ كانوا وحدهم الذين يعرفون أماكنَهنّ، والخوفُ الذي يعقب ذلك من أن يجدن أنفسَهنَّ مَنسيَّاتٍ إلى ما لا نهاية.

قالت إحدى النساء:

ـ الأمر أشبهُ بتحطيم الجياد والأفراس. هذا ما يفعلونه بنا. فما إنْ تتحطَّم معنويَّاتُنا وأرواحُنا حتَّى يُدركوا أنَّنا لن نذهب إلى أيِّ مكان .

إلَّا أنَّ جميلة لم تَكفَّ عن التَّخطيط للهروب. هذا ما كانت تقلِّب الرأيَ فيه يومَ التقتْ ليلى في المستشفى. كانت مستغرقةً في التَّفكير، وربَّما كانت الفرسَ الوحيدةَ التي حُطِّمتْ جُزئيًّا، وخارت قواها، وفقدتِ الجرأةَ، ولكنَّها بقيتْ قادرةً على تذكُّر طعم الحريَّة العذب. ولهذا كانت تتوق إليها.

مكتبة[16.07.20 15:21] @.,

- 11 -

ثماني دقائق

مرَّت ثماني دقائق، وتمثَّلت الذكرى التالية التي جذبتْها ليلى من أرشيفها في رائحة حامض الكبريتيك.

آذار 1966. في شارع المواخير، كانت ليلى في غرفتها في الطابق العلْويّ مسترخيةً على سريرها، تُقلِّب صفحاتِ مجلَّةٍ برَّاقةٍ نُشرتْ على غلافها صورةُ صوفيا لورين. لم تكن ليلى منهمكةً في القراءة، بل كانت شاردةَ الذهن، منشغلةَ الفكر . إلى أن ترامى إلى أذنيْها صوتُ المديرة تنادي باسمها.

رمت ليلى المجلَّةَ جانبًا، ونهضتْ ببطء، ومطَّت أطرافَها. اجتازت الممرّ وكأنَّها في دوَّامة، وهبطت السلالمَ مُتورِّدةَ الخدَّيْن قليلًا. كان ثمَّة زبونٌ في خريف العمر يقف بجانب المديرة المُرَّة، موليًا نصفَ ظهره لها، مُتفحِّصًا لوحةَ النرجس الأصفر والفواكه الحمضيَّة.
استدلَّت على السيجار الذي كان يحمله قبل أن تستدلَّ على وجهه. كان الرجلَ الذي تحاول كلُّ الموسمات تجنُّبَه، لأنَّه كان قاسيًا ووضيعًا وبذيءَ اللِّسان، وبلغ به العنفُ حدًّا أنَّه طُرِد من المبنى مرَّتيْن. لكنْ يبدو أنَّ المديرة سامحته اليوم مرَّةً أخرى. أمَّا وجه ليلى، فقد اكفهرّ.

كان يرتدي صدريَّةً من القماش الخاكي، وفيها عدَّةُ جيوب. تلك كانت التفاصيل التي لفتت انتباهَ ليلى قبل أيِّ شيءٍ آخر. وفكَّرتْ أنَّ مَنْ يحتاج إلى مثل هذه التفصيل هو المصوِّرُ الصحافيُّ، أو شخصٌ لديْه الكثيرُ ممَّا يرغب في إخفائه. وكان ثمَّة شيءٌ في تصرُّفاته جعل ليلى تفكِّر في قنديل البحر، لكنْ ليس في عُرض البحر، وإنَّما داخل قارورةٍ ناقوسيَّة، حيثُ مجسَّاتُه الشفَّافة مُتدلِّيةٌ

في الفراغ المحصور. بدا أيضًا وكأنّ هناك شيئًا ما يُبقيه منتصِبَ القامة، وذلك لأنَّ جسدَه كلّه كان كتلةً مترهِّلةً ورخوة، غير أنّه يبدي نمطًا جديدًا من الصلابة . صلابةٍ بإمكان المرءِ أن يُحيلها ميوعةً في أيِّ لحظة.

غمزت المديرةُ المُرَّةُ الرجلَ، واضعةً ذراعيْها على المكتب، ومنحنيةً إلى الأمام بجسدها الضخم.

. ها هي، يا حضرة الباشا، ليلى التكيلا، وإحدى أجمل مَن لديَّ.

. أهذا هو اسمها؟ لماذا تسمِّينها بهذا الاسم؟

ثمَّ راحِ يتفحَّص ليلى من قمَّة رأسها حتَّى أخمص قدميْها.

ـ لأنَّها نافدة الصبر؛ فهي تريد من الحياة أن تمضي سريعًا. إلَّا أنَّها قويَّة أيضًا؛ ففي وسعها أن تُسرف في شرب الحامض والمرّ، وكأنَّها تحتسي شرابَ التكيلا. أنا التي أسميتُها بهذا الاسم.

انتابت الرَّجلَ ضحكةٌ لا توحي بالسَّعادة.

ـ إذًا، فهي تناسبني تمامًا.

راحت ليلى في غرفتها في الطابق العلْويّ، حيثُ كانت ترنو قبل دقائق إلى صورةِ قوامِ صوفيا لورين المثاليّ وثوبِها الأبيض المزركش، تخلعُ ثيابها: التنُّورةَ المزيَّنةَ بالورود، والصِّدريَّةَ الورديَّةَ التي كانت تكرهها، كما خلعتْ جواربَها أيضًا، ولكنَّها احتفظت بخفِّها المخمليّ، وكأنَّه يمنحها دفقةً إضافيَّةً من الأمان.

قال الرجل في صوتٍ خافت:

. أتظنِّين أنَّ العاهرة تراقبنا؟

مكتبة[16.07.20 15:21] ,.@

ألقت عليه ليلى نظرةً خاطفةً، وقالت:

. ماذا؟

. المديرة، في الطابق الأرضيّ. من الوارد أنّها تتلصّصُ علينا.

. لا، إطلاقًا.

ثمَّ أشار الرجل إلى شقٍّ في الجدار، ومضى يقول:

. انظري إلى هناك. أترِيْن مقلتَها؟ أترين كيف تتحرَّك؟ الشيطانة!

. لا يوجد أحدٌ هناك .

رشقها بنظرةٍ حادَّة، يشوبها احتقارٌ وكراهيّةٌ واضحان، وقال:

. أنت تعملين لديْها، فلماذا ينبغي لي أن أثق بكِ؟ أنتِ خادمة الشيطانة.

شعرتْ ليلى بالهلع على حين غرَّة، فتراجعتْ خطوةً إلى الوراء، وساورها إحساسٌ بالغَثَيان حينما أدركتْ أنَّها وحيدةٌ في الغرفة برفقةَ رجلٍ مضطربٍ عقليًّا.

. الجواسيس يراقبوننا.

قالت ليلى بنبرةٍ مهدِّئة:

. ثق بي، لا أحدَ غيرنا هنا.

. اخرسي أيَّتها العاهرة الغبيَّة! أنت لا تعرفين أيّ شيء.

ثمَّ خفض صوتَه بعد هذه الزمجرة، وقال:

. إنَّهم يُسجِّلون حديثَنا، وقد نصبوا كاميراتٍ في كلِّ مكان.

راح الرجل يربّت على جيوبه، وأضحت كلماتُه تمتمةً غير مفهومة. ثمَّ أخرج زجاجةً صغيرة. وحين نزع عنها السدَّادةَ، صدر عنها صوتٌ يشبه أنينًا مكبوتًا.

انتاب ليلى الهلعُ والخوف. وفي غمرة اضطرابها، اتَّجهتْ نحوه محاولةً أن تفهم ما تحتويه الزجاجة، إلَّا أنَّها غيَّرتْ رأيها، وتراجعتْ إلى الخلف، واتَّجهتْ إلى الباب. لو لم تكن تضع هذيْن الخفَّيْن، اللذيْن كانت تحبُّهما حبًّا جمًّا، لكان هروبُها أسرع. فتعثَّرتْ وفقدتْ توازنَها، وأصابها في ظهرها شيءٌ من ذلك.

حامضُ الكبريتيك. كان الرجلُ يخطِّط لإفراغ مُحتوى الزجاجة على وجهها. إلَّا أنَّها تمكَّنتْ من الاندفاع إلى الممرّ، على الرَّغم من أنَّ الحامض راح يُحرق جسدَها. كان ألمًا فريدًا لا يشبه أيَّ ألمٍ آخر. كانت مبهورةً، مقطوعةَ الأنفاس، حين مالت على الجدار مثل

مكنسةٍ قديمةٍ مهملة. رأسُها يدور، لكنَّها جرَّت نفسَها إلى السلالم، وأمسكتْ بالدرابزون مسكةً قويَّةً لتمنع نفسَها من السقوط. وحين تمكَّنتْ من أن تُصدر صوتًا ـ وحشيًّا موجعًا ـ ما لبثت أن انكسرَتْ حدّتُه، وراح ينهمر على كلّ الغرف داخل الماخور.

مكتبة[16.07.20 15:21] ,.@

***

لا يزال ثمَّة ثقبٌ في أرضيَّة الغرفة الخشبيَّة التي سقط عليها السَّائلُ الحامضيّ. وبعد أن خرجتْ ليلى من المستشفى والجرحُ لا يزال طريًّا ومتغيّرَ اللَّون ـ فهو من النوع الذي لا يشفى شفاءً تامًّا أبدًا ـ راحت تجلس غالبًا قرب ذلك الثقب. وكانت تمرِّر أحدَ أصابعها من حوله، وهي تحسّ بشكله غير المنتظم وحافَّته الخشنة، وكأنَّهما يحتفظان بسرٍّ مشترك، هي والأرضيّة الخشبيَّة. وإذا ما حدَّقتْ إلى ذلك الثقب الأسود طويلًا، فإنَّه يشرعُ بالدَّوَران مثل دوَّامات على سطح قهوةٍ مُنكَّهةٍ بالهال. ومثلما شاهدت الغزالَ يتحرَّك على السجادة حين كانت طفلة، صارت الآن تراقبُ الثقبَ الحامضيّ في دَوَرانه.

قالت المديرةُ المُرَّة:

. أتدرين أنَّه كاد أن يصيبَكِ في وجهك؟ احمدي ربَّك .

ردَّد الزبائنُ هذه المشاعر، وأخبروها أنَّها محظوظة لأنَّ التَّشويه لم يمنعْها من أداء عملها. وإذا سبق أن حظيتْ بشعبيَّة كبيرة في وقتٍ مضى، فقد أصبحت اليومَ مطلوبةً أكثر. كانت عاهرةً ذاتَ قصَّةٍ ترويها؛ ويبدو أنَّ الرجال يروقهم ذلك!

بعد ذلك الهجوم، ازداد عددُ ضبّاط الشرطة في شارع المواخير على مدى أسبوعيْن. وطوال فصل الرَّبيع من العام 1966، ازداد العنف في كلِّ أركان المدينة، واشتبكت الفصائلُ السياسيَّة، وأُريقت الدِّماءُ التي لم تغسلْها إلَّا الدِّماء، وقُتل الطلَّابُ داخل الجامعات، وأضحت الملصقاتُ في الشوارع أشدَّ غضبًا، وذاتَ نبرةٍ أكثر إلحاحًا. وسرعان ما استلزم الأمرُ جَلبَ ضبَّاطٍ إضافيّين إلى أماكن أخرى.

***

لمدَّةٍ طويلة عَقب الهجوم، تجنَّبتْ ليلى قدَر المستطاع غيرَها من النِّساء اللَّواتي يَكْبرنها سنًّا في معظمهنَّ، ويُزْعجنها بكلماتهنَّ الجارحة ونكاتهنَّ السَّاخرة. وكانت تردُّ عليهنَّ عند الحاجة. فقد تقوقعتْ على نفسها معظمَ الوقت، وتحاشت الاختلاطَ بهنَّ . وكان الاكتئاب شائعًا وسط نساء الشوارع، يمزِّقُ أنفسَهنَّ مثلما تمزِّق النارُ الخشب. ومع هذا، لم تستخدم أيٌّ منهنَّ كلمةَ «اكتئاب»، بل كنّ يستعملن كلمة، «البؤس»، التي لم يَصِفْن بها أنفسَهنَّ

فحسب، بل كلَّ شخصٍ وكلَّ شيء أيضًا: فالطعامُ بائس، والمرتَّبُ بائس، والقدمان مؤلمتان لأنَّ الحذاء بائس.

لكنْ، ثمَّة امرأة واحدة كان يروق لليلى أن تقضي الوقتَ برفقتها؛ امرأة عربيَّة، غير محدَّدة العمر، قامتُها من القِصَرِ بحيث تشتري ثيابَها من متاجرَ للأطفال. اسمُها زينب 122. وكانت تتهجَّى اسمَها بحسب مزاجها ,Zeinab, Zainab, Zeyneb :
...Zayneb وتزعم أنَّ في وسعها أن تكتبَه بـ 122 طريقةً مختلفة؛ وهو الرقم نفسه الذي يُعبّر عن طولها: 122 سنتمترًا تمامًا. وكانت تُدعى بأسماء على غرار القَزَمة Dwarf ، والقصيرة Pygmy، والإبهام Thumbling ، وبأسماء أخرى أشدّ سوءًا. لهذا، ضاقت بالناس وهم يحدِّقون بها، ويتساءلون سرًّا أو علانيَّة عن طولِ قامتها. وفي أسلوبٍ ينمّ عن التَّحدِّي، أضافت طولَها إلى اسمها. كانت ذراعاها غير متناسقتيْن قياسًا إلى جسمها، وأصابعُها سمينةً، ذات شَعْر. أمَّا رقبتها، فتكاد أن تكون غير موجودة. وكانت عريضةَ الجبين، مشقوقةَ الذقن، وذات عينيْن

غائرتيْن رماديّتيْن تنطويان على ذكاء، وهذه هي أبرزُ ملامح وجهها. تتحدَّث اللُّغة التركيَّة بطلاقة، لكنْ بلكنة حلقيَّة تكشف عن أصولها.

كانت زينب 122 تمسح الأرضَ، وتنظِّف المرافقَ الصحِّيَّة، وتكنس الغرفَ، وتعمل مجتهدةً حتَّى عندما كانت تساعد المومسات بكلّ ما يَحتَجْنَه. ولم يكن كلُّ ذلك سهلًا، لا لأنَّها تعاني قِصَرَ أطرافها فحسب، بل كذلك بسبب تقوُّس عمودها الفقريّ، الذي كان يزيد من صعوبة وقوفها على قدميْها ساعاتٍ طويلة.

كانت زينب 122 قارئةَ فنجانٍ في أوقات فراغها، بيْد أنّها كانت تخصُّ بقراءاتها مَن كانت أثيرةً لديْها. فكانت تُعدُّ القهوة لصديقتها ليلى مرَّتيْن في اليوم، من غير كللٍ أو ملل. وبعد أن تفرغ ليلى من احتساء قهوتها، تتأمَّل زينب 122 الثُّفلَ المستقرَّ في قعر

الفنجان. لم تكن تهوى الحديثَ عن الماضي أو المستقبل، وإنَّما يروقها الحديثُ عن

مكتبة[16.07.20 15:22] ,.@

الحاضر وحده. وكانت توقُّعاتُها تنحصر غالبًا بين الأسبوع والأشهر القليلة. إلَّا أنَّ زينب 122 كسرتْ قاعدتَها ذاتَ عصرٍ.

. فنجانُكِ مفعمٌ بالمفاجآت اليوم، وإنّني لم أشاهد مثله قطّ.

كانتا تجلسان على السَّرير، متجاورتيْن. وفي مكانٍ ما عند نهاية الطريق، انبعثتْ نغمةٌ مرحةٌ، فتذكَّرتْ ليلى عرباتِ المثلَّجات التي كانت تسمعها أيَّامَ طفولتها.

قالت زينب 122 وهي تدير الفنجان:

. انظري! ثمَّة نسرٌ يتربَّع فوق قمَّة جبلٍ عالية، وحول رأسه هالـةٌ. هذه بشرى خير. لكنْ، ثمَّة غرابٌ في أسفل الجبل.

. وهل هو نذيرُ شؤم؟

. ليس بالضرورة. إنَّـه علامةٌ تدلّ على الصراع.

قلبتْ زينب الفنجانَ مرَّةً أخرى:

. آه، يا اللَّـه. ينبغي أن تري هذا!

مالت ليلى إلى الأمام فضولًا، ورشقتْ أسفلَ الفنجان بنظرة، فلم تجد سوى مجموعةٍ من البُقع البُنِّيَّة.

. سوف تلتقين شخصًا ما، طويلَ القامة، ورشيقًا، ووسيمًا.

ثمَّ راحت زينب 122 تتكلَّم سريعًا، وكانت نظراتُها أشبهَ بشراراتٍ من نار. واسترسلتْ:

. دربٌ من زهور، وهذا يعني علاقةَ حبٍّ عظيمة. وهو يحمل خاتمًا. آه، يا عزيزتي، سوف تتزوَّجين.

اعتدلتْ ليلى، وتفحَّصتْ راحةَ يدها، وضاقت عيناها وكأنَّها تنظر إلى الشمس المحترقة في البعيد، أو إلى مستقبلٍ يستحيل الوصولُ إليه. وحين تكلَّمتْ مجدَّدًا، كان صوتُها خشنًا، مملًّا:

. أنتِ تَسْخرين منّي.

. أُقسم أنَّني لا أسخر.

تردَّدتْ ليلى. لو كانت المتكلِّمةُ غير زينب 122 لخرجتْ من الغرفة فورًا. لكنْ هذه امرأةٌ لم تتفوَّه بأيّ كلمةٍ وضيعةٍ عن أحد، وإنْ تعرَّضتْ للسُّخرية دومًا.

التفتتْ زينب 122 جانبًا، كما كانت تفعل حين تبحث عن الكلمات المناسبة باللُّغة التركيَّة.

. معذورة إنْ كنتُ منفعلةً أكثرَ ممَّا ينبغي، إذ لم أستطع أن أتمالكَ نفسي. أعني... لقد مرَّت سنواتٌ لم أقرأ فيها مثلَ هذه القراءة المفعمةِ بالأمل. وما قلتُ إلّا ما رأيتُ!

هزَّت ليلى كتفَيْها:

. إنَّها ليست سوى قهوة. قهوة غبيَّة.

مكتبة[16.07.20 15:22] ,.@

خلعتْ زينب 122 نظّارتَها ومسحتْها بمنديلها، قبل أن تعيدها إلى أنفها من جديد.

. أنتِ لا تصدِّقينني. حسنًا.

لزمتْ ليلى الهدوءَ، مركِّزةً عينيْها على مكانٍ ما خارجَ الغرفة، وقالت:

. الخطر، كلّ الخطر، في أن يصدِّق المرءُ شخصًا ما.

وتذكَّرتْ أنَّها كانت بنتًا صغيرةً في بلدة ڤان، واقفةً في المطبخ، تراقب المرأةَ والخسَّ المفرومَ ودودَ الأرض. لا يمكنكِ أن تقولي مثلَ هذا الكلام وينتهي الموضوع، لأنَّ التَّصديقَ التزامٌ كبير.

حدَّقتْ زينب 122 بها، ونظرتْ إليها نظرةَ فُضولٍ طويلة.

ـ حسنًا، إنَّنا متَّفقتان في ذلك. فلماذا لا تأخذين كلماتي على محمل الجِدّ؟ يومًا ما، سوف ترحلين عن هذا المكان مرتديةً ثوبَ زفاف. دعي هذا الحلمَ يمنحك القوَّة.

ـ لستُ في حاجةٍ إلى أحلام.

قالت زينب 122:

. هذا أسخفُ ما سمعتُه من شفتيْكِ. جميعُنا في حاجة إلى أحلام يا حبيبتي. سوف تفاجئين الكلّ يومًا ما. وسوف يقولون: «انظروا إلى ليلى، لقد حرَّكت الجبال! لقد انتقلتْ من ماخورٍ إلى آخر، وكانت لديْها شجاعةٌ فائقةٌ مكَّنتها من التَّخلِّي عن مديرة ماخورٍ سيِّئة. ثمَّ رحلتْ عن الشارع برمَّته. يا لَها من امرأة!». سوف يتكلَّمون عنكِ حتَّى بعد رحيلِكِ بزمنٍ طويل. سوف تمنحيهم أملًا.

أخذتْ ليلى نَفَسًا كي تحتجّ، ولكنَّها لم تتفوَّه بكلمة.

ـ وحين يأتي ذلك اليوم، أريدُكِ أن ترافقيني. يُضاف إلى ذلك أنّكِ ستحتاجين إلى مَن يُمْسك بخماركِ الذي سيكون طويلًا.

لم يكن في مقدور ليلى أن تمنعَ شبحَ ابتسامةٍ باهتةٍ ارتسمتْ على جانبيْ فمها.

ـ حينما كنتُ في المدرسة، في بلدة ڤان... شاهدتُ صورةَ عروسٍ أميرة. يا اللّـه! كانت تأسر الأفئدةَ بجمالها وفتنتها. وكان ثوبُ زفافها أجملَ الأشياء. أمَّا خمارُها، فكان طولُه مائتيْن وخمسين قدمًا. تصوَّري!

سارت زينب 122 باتِّجاه حوض الغسيل، ووقفتْ على رؤوس أصابعها، وتركت الماءَ يجري. كانت قد تعلَّمتْ ذلك من مُعلِّمها. فإذا كشفَتْ بقايا القهوة عن أخبارٍ طيِّبةٍ جدًّا، توجَّب غسلُ الفناجين بأسرع ما يُمكن، وإلَّا فإنَّ القَدَر قد يتدخَّل ويُفسد الأشياءَ لأنَّ تلك ستكون رغبَته.

راحت بكلّ هدوءٍ تجفِّف الفنجان، وتضعه على حافَّة النافذة.

واسترسلتْ ليلى في الكلام:

ـ كانت أشبهَ بملاكٍ، تقف أمام قصرها. فما كان من المخرِّب إلَّا أن قصَّ الصورةَ وأعطاني إيَّاها، لأحتفظَ بها.

سألتْ زينب:

مكتبة[16.07.20 15:22] ,.@

. ومَن يكون المخرِّب؟

اكفهرَّ وجهُ ليلى، وقالت :

. آه. إنَّه صديق. صديقٌ عزيز.

قالت زينب 122:

ـ لا بأس. بخصوص تلك العروس، قلتِ إنَّ طول حجابها مئتان وخمسون قدمًا، أليس كذلك؟ هذا لا شيء، يا حبيبتي، لأنَّني أخبرتُكِ أنَّكِ قد تصبحين أميرة. لكنْ إنْ كان ما رأيتُه في الفنجان حقيقيًّا، فإنَّ ثوب زفافكِ سيكون أجملَ من ذلك الثَّوب.

زينب 122؛ العرّافةُ المتفائلةُ المؤمنة، التي ترى أنّ كلمة «دين» ترادفُ «الحبّ»؛ ولأجل هذا، لا يُمكن أن يكون اللَّـهُ إلَّا محبوبًا.

زينب: هي أحدُ خمسةٍ.

مكتبة[16.07.20 15:23] ,.@

- 12 -

قصَّةُ زينب

وُلدتْ زينب على بعد ألف ميلٍ من مدينة إسطنبول، في قريةٍ جبليَّةٍ مُنعزلة، تقع في شمال لبنان. ولأجيالٍ عديدة، ظلّت الأُسرُ السُّنّيَّة في المنطقة تتزاوج فيما بينها فقط. كما كانت ظاهرةُ التقزُّم شائعةً جدًّا في القرية، إلى درجة أنّها غالبًا ما جذبت اهتمامَ الزوّار الفضوليّين من العالم الخارجيّ ـ كالصحافيّين والعلماءِ وما أشبه. كان إخوةُ زينب وأخواتُها معتدلي الطول. وحين أزف الوقتُ، راحوا يتزوَّجون الواحد تلو الآخر. ومن بين الإخوة والأخوات، ورثتْ زينب وحدها حالةَ والديْها اللذيْن كانا قصيرَي القامة.

تغيَّرتْ حياةُ زينب في اليوم الذي قرع فيه مُصوّرٌ قادمٌ من إسطنبول بابَ دارهم، وطلب الإذنَ بالتقاط صورةٍ لها. كان هذا المصوِّر الشابّ يسافر في أرجاء المنطقة، مُوثِّقًا المجهولَ من الحياة في الشرق الأوسط. وكان يتطلَّع شوقًا إلى العثور عمَّن يشبهها. قال مبتسمًا ابتسامةً تنمّ عن خجل: «عُمومًا، لا شيء يُضاهي القزمات. بيْد أنّ القزمات العربيَّات يُشكِّلن لغزًا مضاعفًا للغربيِّين. وأنا أريد عرضَ هذه الصور في معرضٍ يجوب كلَّ أنحاء أوروبا.«

لم تتوقَّع زينب أن يوافق والدُها على هذا الطلب؛ غير أنَّه فَعل، شريطة ألّا يَذكر المصوِّر اسمَ العائلة ولا منطقةَ سكناها. وهكذا، لبثت زينب يومًا تلو الآخر تستعرض نفسَها أمام المصوِّر الذي كان فنَّانًا موهوبًا، على الرَّغم من أنَّه لم يكن يفهم طبيعةَ القلب

الإنسانيّ، فأخفق في ملاحظة الخجل الذي كان ينتشر على وجنتَي العارضة كلّما دخل الغرفة. وبعد أن التقط ما يزيد عن مئة صورة، غادر المكانَ زاعمًا أنَّ وجهَها سيكون نقطةَ ارتكازِ معرضه.

في ذلك العام، سافرتْ زينب، بسبب تدهور حالتها الصحِّيَّة، إلى بيروت برفقة شقيقةٍ تَكْبرها سنًّا، ولبثتْ في العاصمة مدَّةً من الزمان. في هذا المكان، تحت ظِلال جبل صنّين، وبين الزيارات المتتالية إلى المستشفى، علّمَها أحدُ كبار العارفين بقراءة الفنجان، بعد أن أبدى إعجابه بها، فنَّ قراءة الطالع في المشروبات؛ وهو فنٌّ موغلٌ في القِدم، ويستند إلى قراءة أوراق الشاي ورواسبِ النبيذ والقهوة. ولأوّل مرّةٍ في حياتها، شعرتْ زينب أنَّ في مقدور بنْيةِ جسدها غيرِ المألوفة أن تُفيدَها. فلقد بدا أنّ الناس يندهشون لفكرةِ وجود قزمٍ يتنبّأ لهم بمستقبلهم. وكأنَّها، بفضل حجمها، قد أصبحت على معرفةٍ خاصّةٍ بما هو خارقٌ للطبيعة. قد تُواجَه في الشوارع بالشفقة والسُّخرية، إلَّا أنَّها كانت في خلوة غرفتها

المخصَّصة لقراءة الطالع موضعَ إعجابٍ وتقدير. وهذا ما راقها، وأبلت بلاءً حسنًا في مهنتها.

تمكَّنتْ زينب بفضل معلِّمها الجديد من كسب المال. صحيح أنَّه لم يكن مالًا وفيرًا، بَيْد أنَّه يكفي لإشاعة الأمل في نفسها. لكنَّ الأمل مُركّب كيمياويّ خطير، وقادر على إحداث سلسلةٍ من ردود الأفعال في الرُّوح البشريَّة. فقد حمَّلتْ سنين طويلةً جسدَها وكأنَّه لعنةٌ صُبَّت على رأسها، فتعبتْ من نظرات الناس الفضوليَّة، ولم تتوقَّع الحصول على زوج أو مهنة. وما إنِ ادَّخرتْ مبلغًا كافيًا من المال حتَّى راحت تحلم بترك كلّ شيء من خلفها، وبالسفر إلى منطقةٍ تستطيع أن تبدأ فيها حياتَها بدايةً جديدة. ألم تحمل كلُّ القصص التي سمعتْها منذ أن كانت طفلةً صغيرةً الرسالةَ نفسَها: أنَّ في إمكان المرء عبورَ الصحارى، وتسلُّقَ الجبال، والإبحارَ في المحيطات، وإلحاقَ الهزيمة بالعمالقة، ما دامَ يَمْلك ذرَّةً من الأمل في جيبه؟ كان الأبطالُ في تلك القصص، ومن غير استثناء، من

الذكور، ولم يكن فيهم مَن هو قصيرُ القامة مثلها، لكنَّ هذا غيرُ مهمّ. فإذا كانت لدى هؤلاء الجرأةُ، فإنَّها تمتلكها هي أيضًا.

لبثتْ زينب بعد رجوعها إلى ديارها تُحدِّث، على مدى أسابيع، والديْها العجوزيْن على أمل إقناعهما بالسَّماح لها بالسفر وشقّ طريقها بنفسها. ولمَّا كانت الفتاةُ مُطيعةً طوال سنيّ حياتها، فإنَّه يستحيل عليها السَّفرُ خارج بلدها، أو إلى أيّ مكانٍ آخر، من دون الحصول على مباركتهما؛ وإذا ما رفضا ذلك، فإنَّه سيتعيَّن عليها البقاء. وقف إخوتُها وأخواتُها في وجه الحلم الذي رأوْا فيه جُنونًا مُطلقًا. غير أنَّ زينب كانت فتاةً عنيدةً، وأصرَّت على رأيها. كيف يمكنهم أن يعرفوا ما يختلج في داخلها من مشاعر، في حين أنّ اللَّه خَلَقَهم على هذه الهيئة المختلفة؟ ماذا يعرفون عن الإنسان القزم الذي يتشبَّث بأصابعه على حافَّة المجتمع؟

مكتبة[16.07.20 15:23] ,.@

في نهاية المطاف، ومرَّةً أخرى، كان والدُها هو الذي فهمها أكثر من أيّ فردٍ آخر.

. إنّنا، أنا وأمّك، نشيخ ونتقدَّم في العمر. ولقد سألتُ نفسي عمَّا سيحلّ بكِ بعد أن نغادر هذا العالم؟ المؤكَّد أنَّ شقيقاتكِ سوف يتولَّين رعايتكِ على نحوٍ ممتاز. غير أنَّني أعرف عزَّةَ نفسك. لطالما أردتُ لكِ أن تتزوَّجي شخصًا في مثل حجمك، لكنْ هذا لم يحدث.

قبَّلتْ زينب يدَه، وتمنَّت لو كان في مستطاعها أن توضح له أنَّ الزواج ليس قدرَها؛ وأنَّها ظلَّت طوال ليالٍ عديدة ترى ملائكةَ السفر، ودردائيل، كلّما وضعتْ رأسَها على الوسادة، ولم تكن متأكِّدةً إنْ كان ذلك حلمًا أو رؤيا؛ وأنَّ منزلها قد لا يكون المكانَ الذي وُلدَتْ فيه، بل ذاك الذي تختارُه كي تموتَ فيه. ونظرًا إلى ما

تبقّى من صحَّتها، وسنواتِ حياتها على الأرض، فقد تمنَّت أن تفعل ما لم يفعلْه أيُّ فردٍ من أفراد أُسرتها حتَّى هذا اليوم: أن تصير رحّالةً.

أخذ والدُها نَفَسًا عميقًا، ومال برأسه وكأنَّه سمع كلّ شيء، ثمّ قال:

ـ إذا كان يتعيَّن عليكِ السفر، فسافري يا روحي. ولتكنْ لكِ صديقاتٌ طيِّبات، ومخلصات. لا يُمْكن أحدًا أن يعيش وحيدًا ـ إلَّا اللَّـه القدير. وتذكَّري: في صحراء الحياة، الحمقى فقط هم مَن يُسافرون وحدهم؛ أمَّا العُقلاء، فيسافرون أفواجًا.

***

نيسان 1964. في اليوم الذي أعقب وضعَ الدستور موضعَ التَّنفيذ واصفًا سوريا بأنَّها جمهوريَّة اشتراكيَّة ديمقراطيَّة، وصلتْ زينب بلدةَ كسب، وتمكَّنتْ من عبور الحدود إلى تركيا بمساعدة أُسرةٍ أرمنيَّة. وكانت مصمِّمةً على السَّفر إلى إسطنبول، وإنْ لم تَعرفْ سببًا لذلك إلَّا رغبةً سرِّيَّةً في لحظةٍ بعيدةٍ تتمثَّل في وجه المصوِّر الذي كان لا يزال ماثلًا في أعماقِ تفكيرها، متشبِّثًا في ذاكرتها؛ فهو الرجل الوحيد الذي هامت به حقًّا. وهكذا، اختبأتْ بين صناديق كرتونيّة في الجزء الخلفيّ من شاحنة. وهناك اجتاحت مُخيّلتَها أشدُّ الأفكار هوْلًا ورعبًا: فكلَّما ضغط السائق على الفرامل، راود زينبَ الخوفُ من أنَّ شيئًا فظيعًا قد حدث. إلَّا أنَّ الرحلة مضت، ويا للعجب، من غير حادثٍ يُذكَر!

لم يكن العثورُ على عملٍ في إسطنبول أمرًا يسيرًا. فهي لم تعثر على من يريد منها عملًا. ولم يكن في مقدورها أن تقرأ الطالَع من دون معرفة اللُّغة. وبعد أسابيع من البحث والتقصِّي، قَبِل مصفِّفُ

شعرٍ أن يقدِّم إليها عملًا في صالونه «سپلِت إندز». كان العمل شاقًّا ومرهقًا، وبأجرٍ يكاد لا يكفيها، فضلًا عن أنّ ربّ العمل كان قاسيًا. ولمَّا لم تقدرْ على الوقوف على قدميْها ساعاتٍ طويلةً كلِّ يوم، فقد أخذتْ تشعر بألمٍ ممضٍّ في ظهرها. إلَّا أنَّها واصلت العمل. ومرَّت الشهور، وبعدها سنةٌ كاملة.

كانت إحدى الزبونات الدائمات، وهي امرأةٌ غليظةُ البنية تصبغ شعرَها بتدرُّجات اللَّون الأشقر كلّ بضعة أسابيع، معجبةً بزينب. وذات يومٍ سألتْها:

ـ لماذا لا تأتين للعمل عندي؟

فاستفسرتْ زينب:

ـ وما هو مكانُ العمل ونوعُه؟

ـ حسنًا، إنَّه ماخور. لكنْ قبل أن ترفضي أو تقولي أيّ شيء، دعيني أوضح لك أمرًا واحدًا. إنَّني أدير مكانًا راقيًا، وقانونيًّا من حيث التأسيس، يعود إلى أيَّام العثمانيِّين. لكنْ لا تتفوَّهي بهذا الكلام أمام أيّ شخص. فبعضُ الناس لا يُعجبهم سماعُ ذلك على ما يبدو. على أيّ حال، إذا ما أتيتِ للعمل عندي، فسوف أضمنُ لك معاملةً لائقة. وسيكون عملُكِ هو العملَ الذي تؤدِّينه في هذا المكان ـ التَّنظيف وإعداد القهوة وغسل الفناجين. لا شيء أكثر من ذلك. غير

مكتبة[16.07.20 15:24] ,.@

أنِّي سأدفع لك أجرًا يفوق ما تحصلين عليه هُنا.

وهكذا، دخلتْ زينب 122، التي سافرتْ من جبال لبنان الشامخة إلى تلال إسطنبول المنخفضة، حياةَ ليلى التكيلا.

مكتبة[16.07.20 15:24] ,.@

- 13 -

تسعُ دقائق

في الدَّقيقة التاسعة، تباطأتْ ذاكرةُ ليلى وخرجَتْ عن سيطرتها في الوقت نفسه، بينما راحت نُتَفٌ من ماضيها تلفّ وتدور في رأسها في رقصةٍ محمومة، وكأنّها نَحلاتٌ على شفير الموت. تذكَّرت د/ علي، ومذاقَ حلوى الشوكولاتة المحشوَّة بالكراميل والكرز والبندق المطحون وغيرِ ذلك.

تمّوز 1968. كان صيفًا طويلًا، ومرهِقًا، وشديدَ الحرّ. وكانت الشمس تشوي الإسفلتَ، والهواءُ لزجًا ودبقًا. ولم تكن ثمَّة نسمةُ هواء، ولا زخّةُ مطر سريعة، ولا سحابةٌ واحدةٌ في السماء. أمَّا النوارس، فكانت تقف ساكنةً على السطوح العالية، بعيونٍ ثابتةٍ على الأفق، وكأنَّها تترقّبُ عودةَ أشباح أساطيل العدوّ. وتربَّعتْ طيورُ الكندش على أشجار الماغنوليا تجيل الطرْفَ من حولها بحثًا عن أشياء صغيرة لامعة، إلَّا أنَّها لم تسرق إلَّا القليلَ، بعد أن بلغ بها الكسلُ حدًّا أعجزَها عن الحركة في الحرّ الشديد. قبل أسبوع، انفجر أنبوبُ ماء، وسال الماءُ القذرُ على امتداد الشوارع، حتَّى بلغ منطقةً نائيةً في الجنوب كمنطقة توفاني، مخلِّفًا برَكًا

آسنةً هنا وهناك، وراح الأطفال يضعون عليها قواربَ ورقيَّة. وانبعثتْ من النفايات المتراكمة رائحةٌ تزكم الأنوف. وتذمَّرت المومساتُ من الرائحة النتنة، ومن الذُّباب، من غير أن يتوقَّعن أن يصغي إليهنَّ أحد. ولم يظنّ أحد أنَّ الأنبوب سوف يُصلَح في وقتٍ قريب، واعتقد الجميعُ أنَّ على الناس الانتظارَ مثلما انتظروا عديدَ الأشياء في الحياة. إلَّا أنَّهم استيقظوا ذاتَ صباح مدهوشين من صوت عمَّالٍ يحفرون الطريقَ ويُصلحون الأنبوبَ المعطوبَ. ليس ذلك فحسب، وإنَّما جرى إصلاحُ الحجارةِ المفكَّكةِ على الرصيف، وطِلاءُ البوَّابة عند مدخل شارع المواخير، فأصبحت الآن ذاتَ لون أخضر غامق يثير السأم، أشبه بلون بقايا العدس. وهو لونٌ لا يختاره إلَّا موظَّفو الحكومة الذين يستعجلون إنجازَ العمل.

وقد تبيَّن أنَّ الموسات كنَّ على حقّ في شكواهنَّ أنَّ السُّلطات كانت وراء هذه الفورة في العمل والنشاط. وسرعان ما اتَّضح السَّبب: الأميركان قادمون. الأسطول السادس في طريقه إلى

إسطنبول. كما أنَّ حاملة طائرات تزن 27 ألف طنّ سوف ترسو في البوسفور، لتأخذ دورَها في عمليَّات الناتو.

تسبَّبتْ هذه الأخبارُ في موجاتٍ من الإثارة على امتداد شارع المواخير. فعمَّا قريب سينزل مئاتُ الجنود إلى البرّ، بجيوبٍ ممتلئةٍ بدولاراتٍ جديدة؛ وممَّا لاريب فيه أنَّ العديد منهم سيكون في حاجة إلى لمسةِ امرأةٍ بعد أسابيعَ من البعد عن الوطن. ولم تتمالك المديرةُ المُرَّةُ نفسَها من فرط فرحها، فوضعتْ لافتةً على الباب الرَّئيس كُتِب عليها «مُغلَق»، وأصدرتْ أمرَها إلى جميع النساء بأن يشمِّرن عن سواعدهنّ. فما كان من ليلى وغيرها من النساء إلَّا أن أمسكن بالمماسح والمكانس، وخِرَقِ نفض الغبار، والإسفنجات، وكلِّ ما استطعنَ العثور عليه من أدوات التَّنظيف. ثمّ شرعنَ بتلميع مقابض الأبواب، ومسحِ الجدران، وكنسِ الأرضيَّات، وغسيلِ النوافذ، كما أعدنَ طِلاء الأبواب بلونٍ أبيض يشبه قشرة البيضة. أرادت المديرةُ المُرَّةُ إعادةَ تجديد زخرفة المبنى. ولكنْ بسبب تردُّدها

في استئجار صبّاغٍ محترف، فقد اضطُرَّت إلى اعتماد لمساتٍ نهائيَّةٍ بسيطة.

في هذه الأثناء، سادَت المدينةَ موجةٌ أخرى من النشاط. فهذه بلديَّةُ إسطنبول تُزيِّن الشوارعَ بالزهور، بعد أن عزمتْ على إعطاء الزوّار الأميركيِّين مذاقًا مناسبًا عن الضيافة التركيَّة. كما نُشِرتْ آلافُ الأعلام الواضحة للعيان، وتُرِكتْ مرفوعةً كيفما اتَّفق على نوافذ المَرْكبات والشُّرفات والحدائق الأماميَّة. وكانت ثمَّة يافطةٌ مُعلَّقة على سياج فندقٍ فخم، وقد كُتب عليها: «الناتو هو الأمان، الناتو هو السلام .«

وحين أُضيئَتْ كلُّ مصابيح الشوارع، بعد أن جرى إصلاحُها وتجديدُها، أخذ ألقٌ ذهبيٌّ ينعكس على الإسفلت النَّظيف.

في اليوم الذي وصل فيه الأسطولُ السادس، أطلقَت المدفعيَّةُ إحدى وعشرين طلقةً للتحيّة. وفي الوقت نفسه تقريبًا، دهم رجالُ الشرطة حرمَ جامعة إسطنبول للتأكُّد من عدم وقوع أيّ اضطرابات. وكان هدفهم اعتقال قادة الطلبة اليساريِّين واحتجازهم، ريثما يغادر الأسطولُ المدينةَ. أخذوا يُلوّحون بهراواتهم، وشجَّعتهم مُسدّساتُهم

مكتبة[16.07.20 15:24] ,.@

في عمليَّة الدَّهم، فهبطوا إلى المقاصف والمساكن الطلّابيّة، يُرافقهم وقعُ أحذيتهم الثقيلةِ المنتظم، وكأنّه صوتُ زيز الحصاد. غير أنَّ الطلبة أقدموا على عملٍ غير متوقّعٍ تمامًا: المقاومة. فتحوَّلت المواجهةُ إلى أعمالِ عنفٍ وسفكِ دماءٍ، وأُلقي القبضُ على ثلاثين طالبًا، وأصيب خمسون إصاباتٍ بليغةً، ولقي أحدُهم مصرعه.

في تلك اللَّيلة، بدت إسطنبول جميلةً ومثيرةً، على الرَّغم من أنَّها كانت متوتِّرة أشدَّ التوتُّر. شأنها شأن امرأةٍ ارتدت ثيابَها لحضور حفلةٍ لم تَعُد لديْها أيُّ رغبةٍ في حضورها. كان ثمَّة توتُّر في الأجواء، وازداد بمرور الساعات. ونام عددٌ كبير من السكَّان في طول المدينة وعرضها نومًا متقطِّعًا، يترقَّبون ملتاعين بزوغَ ضوء النهار، ويهابون حدوثَ الأسوأ.

في صباح اليوم التالي، كانت قطراتُ الندى لا تزال تلمع على الزهور التي زُرِعتْ من أجل الأميركان. خرج آلافُ المحتجِّين إلى الشوارع، وبدأتْ موجةٌ من الناس تزحف إلى ساحة تقسيم، وهم يُنشدون الأناشيدَ الثوريَّةَ. وأمام قصر دولما بخجه ـ الذي كان مقرَّ ستّة سلاطين عثمانيّين مشهورين ومحظيَّاتٍ مجهولات ـ توقَّفَ موكبُ المحتجِّين توقُّفًا مفاجئًا. وللحظةٍ عابرة، غشي المكانَ صمتٌ غريبٌ تخلَّل المظاهرة، وذلك عندما حبس الجمهورُ أنفاسه من

دون أن يعرف ماذا ينتظر. ثمَّ أمسك أحدُ زعماء المظاهرة مكبِّرَ الصوت، وصرخ بأعلى صوته باللُّغة الإنكليزيَّة:

. عودوا إلى دياركم أيُّها الأميركيُّون!

فما كان من الجمهور المحتشد إلَّا أن صاح صيحةً واحدة، كأنَّ شحنة برقٍ زوَّدته بالطاقة: «عودوا إلى دياركم، أيُّها الأميركيُّون! عودوا إلى دياركم، أيُّها الأميركيُّون«!

في هذه الأثناء، كان البحَّارةُ الأميركيُّون، الذين نزلوا إلى البرّ من سفنهم في وقتٍ مبكِّرٍ من النهار، يتجوَّلون، ويستعدُّون لإلقاء نظرةٍ على المدينة التاريخيَّة، ولالتقاطِ بعض الصُّوَر، وشراءِ بعض

التذكارات. وحين طرقتْ أسماعَهم الأصواتُ قادمةً من مكانٍ بعيد، لم يفكّروا فيها كثيرًا . إلى أن استداروا حول ركنٍ ما، فوجدوا أنفسَهم في مواجهة المتظاهرين الغاضبين.

حين وجد البحَّارةُ الأميركيُّون أنفسَهم بين المتظاهرين ومياه البوسفور، فضَّلوا المياهَ، وشرعوا يرمون بأنفسهم في البوسفور. سبح بعضُهم بعيدًا، وأنقذهم صيَّادو سمك. أمَّا الآخرون، فقد لبثوا قريبين من الساحل، إلى أن أخرجهم بعضُ المارّة من الماء حين انتهت المظاهرة. وقبل أن ينتهي النهار، قرَّر قائدُ الأسطول السادس مغادرةَ إسطنبول قبل الموعد المقرَّر، إذ أدرك أنَّ التَّسكُّعَ فيها غيرُ مأمون.

في هذه الأثناء، وفي الماخور نفسه، كانت المديرةُ المُرَّةُ متوهِّجةً، بعد أن اشترت صدريَّاتٍ وتنانيرَ خضراءَ اللَّون لجميع

المومسات، وهيَّأتْ لافتةً بلغتها الإنكليزيَّة المبسَّطة تقول: «مرحبًا بالبحّارة!» لطالما كانت تمقت اليساريّين، وأضحَت تكرههم الآن أكثرَ من ذي قبل. مَن يظنُّون أنفسَهم حتّى يحرموها عملَها على هذا النحو؟ كلُّ ذلك الطِّلاء والتَّنظيف والتَّلميع من أجل لا شيء؟ ذلك هو، في رأيها، ما ترقى إليه الشيوعيَّةُ: هدرٌ هائلٌ للعمل الجادّ الذي يَبذله الناسُ المحترمون أصحابُ النيَّات الحسنة! إنَّها لم تكدحْ طوال عمرها كي تأتي مجموعةٌ من الرَّاديكاليّين المُضلَّلين وتخبرَها بأنَّ عليها أن تُوزِّع مالها الذي كسبته بشقّ النفْس على قطيعٍ من الكسالى والمتسكِّعين والمُعدَمين. لا، يا سيِّدي، هي لن تفعل ذلك أبدًا.

وفي غمرة تصميمها على التبرُّع بالمال لكلّ قضيَّةٍ مُناهِضةٍ للشيوعيَّة في المدينة، مهما كان حجمُها، فقد أطلقتْ لعنةً في سرِّها، وحوَّلت اللافتةَ المثبَّتةَ على الباب إلى «مفتوح.«

بعد أن اتَّضح أنَّ البحّارة الأميركيّين لن يزوروا شارعَ المواخير، تباطأت المومساتُ في عملهنّ. وجلستْ ليلى على سريرها، في غرفتها بالطابق العلْويّ، ووضعتْ ساقًا على ساق، وفي حضنها مجموعةٌ من الأوراق، وأخذتْ تُربِّت على خدّها بالقلم. كانت تأمل أن تحظى ببعض الوقت تخلو فيه إلى نفسها. وكتبتْ:

مكتبة[16.07.20 15:25] ,.@

»عزيزتي نالان،

كنتُ منشغلةً في التَّفكير بما قلتِهِ لي قبل أيَّام عن ذكاء حيوانات المزرعة. قلتِ لي إنَّنا نقتلها، ونأكلها، ونظنُّ أنَّنا أذكى منها، لكنّنا لا نفهمها أبدًا.

قلتِ لي إنَّ الأبقار تستدلُّ على الناس الذين ألحقوا بها الأذى في الماضي؛ كما تستطيع الأغنامُ الاستدلالَ على الوجوه أيضًا. غير أنَّني أسأل نفسي: ما فائدةُ تذكُّرها الشيءَ الكثيرَ إنْ لم تستطِعْ تغييرَ أيِّ شيء؟

قلتِ لي إنَّ الماعز مختلف. فعلى الرَّغم من أنَّه ينزعج بسهولة، فإنَّه يَغفر بسرعةٍ أيضًا.

فهل نُشبهُ، نحن البشرَ، الأغنامَ والماعزَ، على نوعيْن: أولئك الذين لا يَقدِرون على النسيان، وأولئك الذين يستطيعون الغفران؟«

جفلتْ ليلى من أفكارها حين صكّ سمعَها صوتٌ عالٍ وثاقب، فتوقَّفتْ عن الكتابة. كانت المديرةُ المُرَّةُ تصرخ في وجه شخصٍ ما. الواضح أنَّ المديرة، التي ثارت ثائرتُها قبل الآن، بدت غاضبةً أشدّ الغضب.

كانت تقول:

ـ ماذا تريد، يا بنيْ؟ قُل لي، ماذا تبغي؟

خرجتْ ليلى من الغرفة، وهبطتْ إلى الطابق الأرضيّ لتُلقي نظرةً على ما يحدث.

رأت شابًّا قرب الباب، محمرَّ الوجه، أشعثَ، طويلَ الشعر، مبهورَ الأنفاس إلى حدٍّ ما، مثلَ شخصٍ انهمك في الجرْيِ من أجل حياةٍ عزيزة. نظرتْ ليلى إليه نظرةً واحدةً، وساورها الشعورُ بأنَّه قد يكون أحدَ المحتجِّين اليساريِّين في الشارع، وربَّما كان أحدَ طلَّاب الجامعة. فعندما أغلقت الشرطةُ الطرقَ بالمتاريس، وراحت تعتقل الناسَ، يساريِّين أو يمينيِّين أو من الوسط، انفصل هذا الشابُّ بلا شكٍّ عن المتظاهرين، واندفع إلى أحد الأزقَّة، ليجد نفسَه أمام شارع المواخير.

قالت المديرةُ المُرَّة، مقطَّبةَ الجبين:

. إنَّني أسألُكَ للمرَّة الأخيرة، فإنَّ صدري ليضيق بمثل هذا السلوك، ماذا تريد؟ وإذا كنتَ لا تريد أيّ شيء، فلا بأس، انصرفْ لشأنك! إذ لا يمكنك الوقوفُ هنا مثلَ فزّاعة. تكلَّمْ!

اختلس الشابُّ النَّظرَ حوله، وعقد ذراعيْه على صدره، كأنَّه يحضن نفسَه لعلّه يشعر ببعض الأمان. وكانت تلك الإشارةُ هي التي لامستْ قلبَ ليلى، فقالت:

. عزيزتي المديرة، أعتقد أنَّه جاء إلى هنا كي يراني.

استبدَّت به المفاجأة، فرفع بصرَه ورآها، وقد لاحت على جانبيْ ثغره أرقُّ ابتسامةٍ. في الوقت نفسه، كانت المديرةُ المُرَّةُ تراقب

الرجل الغريب من تحت أجفانها الذابلة، منتظرةً ما سيقوله ردًّا على كلام ليلى.

. آه، نعم... هذا صحيح... لقد جئتُ إلى هنا لأتحدَّث إلى السيِّدة حقًّا. شكرًا لكِ.

اهتزَّت المديرةُ المُرَّة ضاحكةً، وقالت:

. تتحدَّث إلى السيِّدة؟ حقًّا؟ شكرًا لكِ؟ حسنًا، يا بنيّ. من أيِّ كوكبٍ جئتَ إلى هنا؟

مكتبة[16.07.20 15:25] .,@

رمش الشابُّ عينيْه، وتملَّكه الخجلُ، ومرّر كَفّه على صدغه كأنَّه يحتاج إلى وقتٍ للعثور على جواب.

بدَت المديرةُ جادّةً الآن، إذ بات الأمر يتعلّق بالعمل، فقالت:

ـ إذًا، هل أنت راغبٌ فيها أم لا؟ ألديكَ المالُ، أيُّها الباشا؟ فهي غالية الثمن. إنّها مِن أفضل مَنْ لدينا هُنا.

في تلك اللَّحظة، فُتِح البابُ ودخل أحدُ الزبائن. ولم تستطع ليلى للوهلة الأولى أن تتبيّنَ تعابيرَ وجه الشابّ من تحت النور المتغيِّر

المنبعث من الشارعِ. لكنَّها رأتها بعد ذلك؛ فقد كان يومئ برأسه، وبان على وجهه الهدوءُ.

حين ارتقى السلالمَ إلى غرفتها، حدَّق من حوله باهتمام، وأنعم النَّظرَ في كلِّ التفاصيل: الصدْع في حوض غسيل الأطباق، والخزانة التي تغلق أبوابَها غلقًا مُحكمًا، والستائر الملأى بثقوبٍ من أثر السجائر. وأخيرًا، استدار، فرأى ليلى تخلع ثيابَها في هدوء.

ـ آه، لا، لا. توقَّفي.

ثمَّ تراجع خطوةً سريعةً إلى الوراء، مائلَ الرأس، وعلى وجهه عُبوسٌ نَحتَهُ التوهُّجُ الباهرُ المنبعثُ من المرآة. ولمَّا وجد نفسَه في حَرَجٍ شديدٍ على أثر صيحته، استعاد رباطةَ جأشه، وقال:

. أعني.. أرجوكِ. ابقي مرتديةً ثيابَكِ. فأنا حقًّا ما جئتُ إلى هنا من أجل ذلك.

. ماذا تريد إذًا؟

هزَّ كتفيْه، وقال:

. ماذا لو جلسنا وتبادلنا أطرافَ الحديث؟

. تريد تبادُلَ أطرافِ الحديث؟

. نعم، فأنا أودّ أن أعرفك. يا للعجب! أنا لا أعرف حتَّى اسمَكِ. أمَّا اسمي فهو د/علي . وهو ليس اسمي الحقيقيّ. لكنْ، مَنْ يريد الإبقاءَ على اسمه الحقيقيّ؟! أليس كذلك؟

تفرَّستْ ليلى في وجهه. تناهى صوتُ شخصٍ ما يغنِّي في ورشة النِّجارةِ على الطرف الآخر من الفِناء . أغنيةً لم تستطعِ أن تتبيَّن كلماتها.

استراح د/علي فوق السرير، وجذب ساقيْه إلى أعلى، ووضع إحداهما على الأخرى، وأسند وجنتَه على راحة كفِّه، وقال:

. ولا تقلقي إنْ كنتِ تشعرين أنَّ مزاجَكِ لا يسمح لكِ بذلك.

بصراحة، في وسعي أنَّ ألفَّ سيجارةً لنا، وبإمكاننا أن نُدخِّنَها في صمت.

* * *

د/علي. شعرُه الفاحمُ يتدلَّى في موجاتٍ إلى ياقته. عيناه زمرّديّتا اللَّون، تتحوَّلان إلى تدرُّجٍ لونيٍّ أشدّ لمعانًا حين يستغرق في التَّفكير أو يرتبك ويَخْلط بين الأمور. ابنٌ لعائلةٍ مهاجرة. طفلٌ أُرغم على التَّهجير والشتات: تركيا وألمانيا والنمسا، والعودة مجدَّدا إلى ألمانيا، ومرَّة أخرى إلى تركيا. آثارٌ من ماضٍ تَظْهر هنا وهناك، مثل سترةٍ صوفيَّةٍ كثيرة النتوءات بسبب تعليقها على مساميرَ حادَّةٍ طوال الوقت.

مكتبة[16.07.20 15:26] ,.@

لم تعرفْ ليلى، حتَّى لقائها به، شخصًا يسكن في عديد المناطق، من دون أن يشعر أنَّه في بيته في أيٍّ منها.

كان اسمُه الحقيقيّ المثبّت في جواز سفره الألمانيّ: علي.

في المدرسة، كان سنةً بعد أخرى عرضةً للسخرية، وبين حينٍ وآخر عُرضةً للقدح والتَّشهير وتعابير الطلَّاب العنصريَّة. وكان أحدُ هؤلاء الطلَّاب قد عَرَفَ شغفَه بالفنّ، فأصبح ذلك سببًا آخر للاستهزاء به صباحَ كلّ يومٍ عند دخوله الصفَّ: «ها هو الصبيّ الذي اسمُه علي... يا له من أبله. إنَّه يظنّ نفسَه [سلڤادور] دالي!» كلّ تلك السُّخرية والشماتة والتعليقات الهازئة أوجعتْه في صميم قلبه، لكنْ حين طلب معلِّمٌ جديدٌ إلى طلَّاب الصفّ أن يعرِّفوا بأنفسهم، وثب علي على قدميْه أوَّلًا، وقال مبتسمًا ابتسامةً ثابتةً مِلؤها الثقة: «اسمي علي، لكنَّني أفضِّل د/علي مثلما يدعوني الناس». ومنذ ذلك الوقت، توقَّفت التَّعليقاتُ والملاحظاتُ الدَّنيئةُ واللاذعة. أمَّا هو المتعنِّت، والمستقلُّ برأيه، والراكبُ رأسَه، فقد أخذ يستخدم هذا الاسمَ، ويستمتع به، بعد أن كان في يومٍ ما لقبًا مؤذيًا.

كان والداه المتحدِّران من قريةٍ بالقرب من بحر إيجه قد انتقلا من تركيا إلى ألمانيا في مطلع ستينيَّات القرن العشرين، بوصفهما «من العمَّال الضيوف» الذين وُجِّهتْ إليهم الدَّعوةُ إلى السفر والعمل، حتى إذا لم يَعُد البلدُ في حاجةٍ إليهما فسيتوقَّعان رَزْمَ حقائبهما والرحيل. وكان الأب هو أوَّل من انتقل سنة 1962، وشاطر عشرةَ عمَّال آخرين السَّكنَ في غرفةٍ في نَزْل، نصفُهم لا يعرف القراءةَ ولا الكتابة؛ أمَّا الباقون فكانوا يكتبون ليلًا، تحت ضوء مصباحٍ خافتٍ، الرَّسائلَ لمن لا يعرفون الكتابة. وفي غضون شهرٍ على العيش في مثل هذه المساحة المزدحمة، تعلَّم كلٌّ منهم كلَّ شيء عن الآخرين . بدءًا بأسرار الأُسر، وانتهاءً بالأمعاء المسدودة.

بعد مرور عامٍ، التحقت الزوجةُ بزوجها، رفقة ابنِهما د/علي، والتحقتْ بهما أيضًا الابنتان التوأمان. في البداية، لم تكن الأمورُ تجري وفق ما كانوا يأملون. وبعد محاولةٍ فاشلةٍ لإعادة توطين أنفسهم في النمسا، عادوا إلى ألمانيا، إذ كان مصنعُ فورد في

كولونيا بحاجةٍ إلى عمَّال، فاستقرّ بهم المقامُ في حيٍّ تنبعث من شوارعه رائحةُ الإسفلت حين تمطر السماء. كانت البيوتُ مُتشابهة، والسيِّدة العجوز في الطابق الأرضيّ تتَّصل بالشرطة حين يَطْرق سمعَها أيُّ صوتٍ صادرٍ عن شقَّتهم. فما كان من الأمّ إلَّا أن ابتاعت خُفًّا لكلّ فرد من أفراد العائلة، واعتادوا الكلامَ بنبراتٍ مكتومة.

كانوا يشاهدون التلفازَ بصوتٍ خافت، ولم يَعْزفوا الموسيقى، أو يسمحوا بتدفُّق المياه في المرافق الصحِّيَّة في أوقات المساء؛ فقد كان هذا ممنوعًا أيضًا. وقد وُلد شقيقُ د/علي الأصغر في هذا المكان، وفيه نشأوا وترعرعوا جميعًا، وخَلَدوا إلى النوم على أنغام جَرَيان مياه نهر الراين.

كان والدُ د/علي، الذي أورثه شَعرَه الفاحمَ وفكَّه العريض، غالبًا ما يتحدَّث عن العودة إلى تركيا. وبعد أن ادَّخروا مبلغًا كافيًا من المال، ونالوا كفايتَهم من هذا البلد البارد المتعجرف، قرَّروا أن ينهضوا ويرحلوا. وكان لديه بيتٌ قيد التشييد في القرية؛ بيتٌ واسعٌ مترامي الأطرافِ، ببركة سباحةٍ، وبستانٍ في الجانب الخلفيّ. وسيكون بمقدورهم أن يستمعوا ليلًا إلى دمدمة الوادي، وإلى الصَّفير المتقطِّع الصادر عن حمامةٍ ما، ولن يعودوا مُضطرّين إلى استعمال الخفّ أو التَّحدُّث بصوتٍ خفيض. لكنْ، كلَّما مرَّت الأعوام، ازدادت تعقيداتُ خطَّة العودة إلى تركيا. فألمانيا هي الوطنُ الأب . ولو لم يستطع ربُّ الأسرةِ الإقرارَ بهذه الحقيقة.

حين صار د/علي في المدرسة الثانويَّة، اتَّضح لكلّ أساتذته وزملائه في الصفّ أنَّ قَدَره أن يكون فنَّانًا. غير أنَّ شغفَه بالفنّ لم يلقَ أيَّ تشجيعٍ من أفراد أسرته. وعندما جاءت معلِّمتُه المفضَّلة للتَّحدُّث إليهم، أخفق والداه في فهم المُراد. ولم يستطع د/علي أن ينسى العارَ الذي شعر به عصر ذلك اليوم. فقد تربَّعَت السيِّدة

كريغر، المتينةُ البنيان، فوق كرسيّ، وفي يدها قدحٌ صغيرٌ من الشاي، كانت تحمله بتوازنٍ دقيق، وحاولتْ أن تُوضح للوالديْن أنَّ ولدهما موهوب حقًّا، وبمقدوره أن يحصل على مقعدٍ في مدرسةٍ من مدارس الفنّ والتَّصميم، شريطة أن يتوافر له مَن يعلِّمه. راقب د/علي والدَه: كان يصغي مبتسمًا ابتسامةً لم تبْلغْ عينيْه، مشفقًا على هذه المرأة الألمانيَّة ذاتِ البشرةِ الورديَّة بلون سمك السلمون، والشعرِ الأشقر القصير، وهي تخبره بما ينبغي أن يفعل بابنه.

مكتبة[16.07.20 15:26] @.,

حين كان د/علي في الثامنة عشرة، حضرتْ شقيقتاه حفلةً في بيت أحد الأصدقاء. غير أنَّ أمرًا مؤسفًا وفظيعًا حدث في تلك اللَّيلة. فإحدى التوأميْن لم ترجع إلى البيت، على الرَّغم من أنَّ رخصتها كانت تسمح لها بالبقاء حتَّى الثامنة من صباح اليوم التالي.
لاحقًا، عُثِر عليها إلى جانب الطريق الرَّئيس فاقدةً الوعيَ، ونُقِلتْ على جناح السُّرعة إلى المستشفى بسيَّارة إسعاف، وعولِجتْ من إصابتها بغيبوبةٍ سببُها قلَّةُ السكَّر في الدم، الناجمةُ عن الإفراط في شرب الكحول. ثمّ غُسِلتْ معدتُها، إلى أن شعرتْ وكأنَّها أُفرغتْ

من روحها. أما والدة د/علي، فقد أخفَت الحدثَ عن زوجها الذي كان يعمل في مناوبةٍ متأخِّرةٍ تلك اللَّيلة.

تَرُوجُ الشائعاتُ سريعًا في القُرى. وكلُّ جاليةٍ من المهاجرين، بغضّ النَّظر عن حجمها، تُمثِّل قريةً في صميمها. وسرعان ما انتشرت الفضيحةُ، وبلغَت أُذُنَي الأب. فما كان منه إلَّا أن عاقب الأُسرةَ برمَّتها، مثل عاصفة تصبّ جامَ غضبها على طول الوادي وعرضه. هذه هي القشَّة الأخيرة؛ لقد انتهى كلّ شيء، وقرَّر أن يعودَ أولادُه كلّهم إلى تركيا. كلُّهم من غير استثناء. أمَّا الأبوان، فسوف يبقيان في ألمانيا حتّى سنّ التقاعد، وسيعيش الصغارُ، من الآن فصاعدًا، برفقة أقربائهم في إسطنبول؛ فأوروبا ليست المكانَ الملائمَ لتربية ابنةٍ واحدة، ناهيك بابنتيْن. أمَّا د/علي، فسيلتحق بجامعةٍ في إسطنبول، وسيُبقي عينيْه مفتوحتيْن على أشقَّائه. وفي حال حدوث أيِّ خطب، فإنَّه سيتحمَّل المسؤوليّةَ كاملةً.

هكذا، وصل إلى اسطنبول وهو في التاسعة عشرة، بلغةٍ تركيَّةٍ ركيكةٍ، وبلغة ألمانيَّةٍ يتعذَّر إصلاحُها. كان قد اعتاد في ألمانيا الشعورَ بأنَّه غريب. ولكنْ منذ أن بدأ يعيش في إسطنبول، لم يفكِّر قطّ في أنَّه سوف يشعر الشعورَ نفسَه، إنْ لم يكن أشدَّ غربةً. ولم يقتصر الأمرُ على لكْنته، وطريقته في استخدام Ja أو ach so في نهاية عباراته، وهو ما كان يميِّزه بحقّ. بل وصل الأمرُ إلى الأمارات المرتسمة على وجهه، إذ بدا وكأنَّه غير مقتنعٍ دومًا أو غيرُ مهتمٍ بما يرى أو يسمع، أو ما لا يستطيع أن يكون جزءًا منه!

غَضَبٌ. في الأشهر الأولى التي قضاها في اسطنبول، كانت غالبًا ما تتملَّكه نوباتٌ مفرطةٌ ومفاجئةٌ من الغضب. لم يكن غضبُه على ألمانيا أو على تركيا، بقدْر غضبه على نظام الأشياء؛ على النظام الرأسماليّ الذي كان يُمزِّق الأُسرَ تمزيقًا، وعلى الطبقة البرجوازيَّة التي تقتات على عرق العمَّال وآلامِهم، وعلى النظام

غير المتوازن الذي يُعْوِزه التناغمُ والانسجام، ولم يسمح له بالانتماء إلى أيّ مكان. لقد قرأ الكثيرَ عن الماركسيَّة حين كان طالبًا في المدرسة الثانويَّة، ولطالما أبدى إعجابَه بروزا لوكسمبورغ؛ تلك المرأةِ الشجاعةِ الذكيَّةِ التي اغتالها الجيشُ ورمى بجثَّتها في ترعةٍ كانت مياهُها تجري هادئة داخل كروزبيرغ. وكان د/علي قد زار ذلك المكانَ مرارًا وتكرارًا، وفي إحدى زياراته، رمى بوردةٍ في تلك الترعة. وردةٍ لروزا. إلَّا أنَّه لم يلتقِ مصادفةً بمجموعةٍ من اليساريّين المتحمِّسين إلَّا عندما بدأ الدراسةَ في جامعة إسطنبول. كان رفاقُه الجُدد يتطلَّعون إلى إسقاط الأمر الواقع وتحطيمه، وإلى بناءِ كلّ شيءٍ من جديد؛ شأنهم في ذلك شأن د/علي.

لهذا، عندما ظهر د/علي أمام باب ليلى في تمّوز 1968، هاربًا من رجال الشرطة الذين كانوا يُفرِّقون مظاهرةً مناهضةً للأسطول السادس، أحضرَ معهُ رائحةَ القنابل المسيِّلةِ للدُّموع، إلى جانب أفكاره الراديكاليَّة، وماضيه المُعقَّد، وابتسامتِه المفعمةِ بالعواطف.

***

كان الرجال لا يسأمون من طرح السُّؤالَ الآتي على ليلى:

. كيف انتهى بكِ المطافُ إلى هنا؟

وكانت ليلى تَسْرد عليهم روايةً مختلفةً في كلِّ مرَّة، اعتمادًا على ما تظنُّ أنَّه سيروقهم سماعُه . قصَّة محبوكة بحسب طلبات الزبون . وتلك موهبةٌ تعلَّمتها من المديرة المُرَّة.

إلَّا أنَّها لم تشأ أن تفعل الأمرَ نفسَه مع د/علي. كما أنَّه بدوره لم يوجِّه هذا السّؤالَ إليها، وإنَّما أراد أن يعرف

مكتبة[16.07.20 15:26] @.,

أشياءَ أخرى عنها. سألها عن أطباق وجبة الفطور حين كانت طفلةً في بلدة ڤان، وعن الرَّوائح التي تتذكَّرُها أكثرَ من غيرها أثناء فصول الشتاء التي انقضت منذ أمدٍ طويل؛ وإذا طُلب منها أن تمنح كلَّ مدينةٍ رائحةً ما، فما الرائحةُ التي ستمنحُها مدينةَ إسطنبول؟ وإذا كانت الحرِّيّةُ صنفًا من صنوف الطعام، فكيف سيكون مذاقُها على لسانها؟ وماذا عن الوطن الأب؟ بدا واضحًا أنَّ د/علي يُدرِكُ العالمَ من خلال النكهات والروائح، بما في ذلك الأشياءُ المجرَّدةُ في الحياة، على غرار الحبّ والسَّعادة. وبمرور الوقت، أصبحتْ تلك الأسئلة لعبةً يلعبانها معًا، وعملةً خاصَّةً بهما: فكانا يأخذان الذكريات واللَّحظات، ويحوِّلانها إلى مذاقاتٍ وروائح.

كانت تُصغي إليه على مدى ساعات من غير أن تُصاب بالملل، مستطيبةً نبراتِ صوته ونغماته. وكانت تشعر في حضوره بشعورٍ من الخفَّة لم يسبق أن شعرتْ به منذ أمدٍ بعيد. واجتاحها قدرٌ ضئيلٌ من الأمل، وتسرَّب إلى أوردتها، فجعل فؤادَها ينبض نبضًا سريعًا؛ وهذا ما كانت قد تخيَّلتْ أنَّها لم تعد قادرةً على الإحساس به. وذكَّرها بما كانت تشعر به حين اعتادت وهي صغيرةٌ أن تجلس على سطح دارهم في بلدة ڤان، وتشاهد الطبيعةَ وكأنَّ الغدَ لن يأتي.

أمَّا أكثرُ ما أربك ليلى بخصوص د/علي، فكان طريقةَ تعامله معها منذ البداية، وكأنّها ندٌّ له؛ وكأنَّ الماخور ليس سوى قاعةٍ دراسيّةٍ أخرى في الجامعة التي يدرس فيها، وأنَّها طالبةٌ لن يلبث أن يصادفَها في الممرَّات ذاتِ الأضواء الخافتة. كان ذلك ما جعل ليلى غير حذرة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر: الإحساس بالمساواة. وذلك وهمٌ على وجه التأكيد، لكنَّه وهمٌ اعتزَّت به. وإذ راحت تَضْرب

في هذه الأرض غير المألوفة مُستكشفةً، فقد راحت تستكشف نفسَها من جديدٍ أيضًا. وكان في وسع كلّ شخصٍ أن يلاحظَ كيف كانت عيناها تمتلئان إشراقًا عند رؤيته، لكنْ قلائلُ عرفوا أنَّ الإثارةَ عادةً ما ترافقُها موجةٌ عارمةٌ من الذَّنْب.

في يومٍ من الأيَّام، قالت له ليلى:

. ينبغي ألَّا تأتي إلى هنا بعد اليوم. فهذا ليس في مصلحتك. هذا المكان محتشد بالبؤس. ألا تدركُ ذلك وتشاهدُه؟ إنَّه يُلوِّث أرواحَ الناس. ولا تظنّ أنَّك فوق ذلك، لأنَّه سوف يبتلعكَ. إنَّه مستنقع. نحن لسنا فتياتٍ سويَّات. ولا واحدة منَّا. ما من شيءٍ طبيعيٍّ هنا. وأنا لا أريدك أن تنفق الوقتَ معي بعد الآن. ثمَّ، ما الذي يجعلك تأتي إلى هنا في أغلب الأحيان، بينما أنت...

لم تكمِّل ليلى عبارتَها، إذ قلقتْ أن يكون قد ظنَّ أنَّها منزعجة بسبب عدم نومه معها حتَّى الآن؛ فالحقيقة أنَّها أُعجبتْ بذلك واحترمته، وكانت متشبّثةً به، وكأنّهُ هديَّةٌ نفيسة قدَّمها إليها. لكنْ، يا للغرابة! فهي في غياب الجنس كانت تسمح لنفسها بالتَّفكير فيه على ذلك النَّحو؛ إلى الحدّ الذي جعلها بين وقتٍ وآخر تضبط نفسَها متلبِّسةً بالتساؤل عمَّا سيكون عليه الأمرُ إنْ لمسَتْ رقبتَه، أو قبَّلَت تلك النَّدبةَ الصَّغيرةَ على جانب ذقنه.

قال د/علي بنبرةٍ مُستسلمة:

. إنَّني آتي إلى هنا لأنَّني أحبُّ أن أراكِ. هكذا، بكلِّ بساطة. وإنَّني لا أعرفَ من هو السويُّ في عالمٍ أساليبُه غيرُ شريفة، وسلوكُه ملتوٍ ومخادع .

وقال د/علي إنَّ الناس الذين يبالغون عادةً في استعمال كلمة «طبيعيّ» هم في الحقيقة لا يعرفون الكثيرَ عن أساليب الطبيعة الأمّ. فإذا قلتِ لهم إنَّ القواقعَ والدودَ وسمكَ البحر الأسود خُنْثى، أو إنَّ في وسع ذَكَرِ فرس البحر أن يُنجب، أو إنَّ ذَكَرَ سمك الكلاون ينقلب إلى أنثى في منتصف حياته، أو إنَّ ذَكَرَ الحبّار يسلكُ في الواقع سلوكيّات أنثى، فسوف يستبدّ بهم العجبُ العُجاب. إنَّ كلّ مَن درس الطبيعةَ عن كثب، سيفكِّر مرَّتيْن قبل أن يستخدم كلمة «طبيعيّ.«

. حسنًا، لكنَّكَ تدفع مالًا كثيرًا، والمديرةُ المُرَّةُ تتقاضى منك أجرًا بحسب الساعات.

قال د/علي مثبَّطًا:

مكتبة[16.07.20 15:27] ,.@

. آه، هذا صحيح. لكنْ دعينا نتخيَّل لحظةً واحدة أنَّنا كنَّا نتواعد، أو أنَّ في وسعي أن أخرج معكِ، أو أنَّ في وسعك أن تخرجي أنتِ معي، فماذا كنَّا سنفعل؟ كنَّا سنذهب إلى السينما، ثمَّ إلى مطعمٍ فاخر، ومرقص...

ردَّدتْ ليلى مبتسمةً:

. مطعم فاخر! مرقص!

. ما أريدُ قولَه هو أنَّنا سننفق نقودًا.

. لكنْ هذا مختلف. سيكون والداكَ مذعوريْن إذا علِما أنَّكَ تُبذِّر نقودَهما التي يكدَّان في الحصول عليها في مكانٍ كهذا.

. هه! أنا لا أحصل على النقود من والديَّ.

. حقًّا؟ لقد ظننت.. إذًا، كيف تقدر على الدفع؟

غمز بعينه قائلًا:

. إنَّني أشتغل.

. أين؟

. هنا وهناك وفي كلِّ مكان.

. لمن؟

. للثورة!

أشاحت بنظرها جانبًا في قلق. ها هي مرَّةً أخرى في حياتها ممزَّقةٌ بين عقلها وقلبها: فعقلُها يُحذِّرها من أنّ هذا الشاب المهذَّب النبيل يُخفي أكثرَ ممّا يُظهِر، وأنّ عليها أخذَ الحيطة والحَذَر؛ بيْد أنَّ قلبها ظلّ يدفعها إلى الأمام. تمامًا مثلما دفعها،

حين كانت مولودة حديثًا، إلى الاستلقاء من دون حَراك تحت دثار الملح. ولهذا، توقَّفتْ عن الاعتراض على زياراته. كان يزورها يوميًّا في بعض الأسابيع، وفي أوقاتٍ أخرى لم يكن يأتي إلَّا عند عطلة نهاية الأسبوع. وأدركتْ، بقلبٍ يترنَّح، أنَّه كان يقضي لياليَ طويلةً مع رفاقه، يُلقون بظلالهم الطويلة القاتمة على الشوارع المقفرة. أمَّا كيف كانوا يقضون أوقاتهم، فهذا ما لم تسأله عنه.

كانت المديرةُ المُرَّةُ تهتف بها من الطابق الأرضيّ في كلِّ مرَّة يحضر فيها:

ـ لقد حضر صديقُكِ!

فإذا كانت ليلى برفقة زبون، فقد كان على د/ علي أن ينتظر جالسًا على كرسيٍّ قرب المدخل. في تلك اللَّحظات، كانت ليلى تشعرُ بخجلٍ شديدٍ من نفسها، حتَّى تتمنَّى لو أنّ الأرض تنشقّ وتبلعها، وذلك حين كانت تدعوه إلى غرفةٍ تفوح منها رائحةُ رجلٍ آخر. لكنْ إذا كان د/علي يضطرب جرَّاء ذلك، فإنَّه لم يعلّق البتَّة. كانت حركاتُه تشير إلى تركيزٍ مكبوت، في حين تأخذ عيناه تراقبانها مراقبةً متعمّدة، متناسيًا كلَّ شيءٍ آخر، وكأنَّها كانت ولا تزال مركزَ العالم. كان حنانُه عفويًّا، غيرَ محسوب. وكلَّما ودَّعها وانصرف، بعد ساعةٍ تمامًا، كان الفراغُ يخيّم على كلِّ أركان الغرفة حتّى يبتلعها ابتلاعًا كلّيًّا.

مكتبة[16.07.20 15:27] .,@

إلَّا أنَّ د/علي لم ينسَ قطّ أن يأتيها في كلِّ مرَّةٍ بهديَّةٍ صغيرةٍ: دفتر خاصّ بها لتكتب فيه، وشريط مخمليّ تشدّ به شعرَها، وخاتم بهيئة أفعى تأكل ذيلَها، وأحيانًا حلوى من الشوكولاتة المحشوَّة . مثل الكراميل والكرز والبندق. كانا يجلسان على السَّرير، ويفتحان العلبة، ويَصْرفان وقتًا في اختيار الحلوى التي سيأكلانها أوَّلًا،

ويتجاذبان أطرافَ الحديث على امتداد ساعةٍ كاملة. وذاتَ مرَّة، لمسَ النَّدبة على ظهرها . تلك التي بقيَتْ أثرًا من الهجوم بالحامض . واقتفى برقَّةٍ أثرَ الجرح الذي فَرَقَ جلدَها إلى قسميْن، مثلما فرق نبيٌّ البحرَ.

قال لها:

. أريد أن أرسمَكِ. ممكن؟

. ترسمني أنا؟

احمرَّ وجهُ ليلى قليلًا، وخفضتْ من بصرها. وحين نظرتْ إليه من جديد، رأته يبتسم لها، تمامًا مثلما أدركتْ أنَّه سوف يبتسم.

في زيارته التالية، جاء حاملًا مَسْندًا للرَّسم، وصندوقًا خشبيًّا مملوءًا بِفُرشٍ كثَّة، وأصباغٍ زيتيّة، وسكاكين لوحة ألوان، ودفتر رسومٍ تخطيطيَّة، وزيت بزر الكتَّان. جلستْ أمامه على السَّرير، بتنُّورتها القرمزيَّة القصيرة الرقيقة، وبصدريَّةٍ تُناسبها ذاتِ خَرزات. وكان شعرُها مشدودًا إلى الخلْف، ومعقودًا على شكل كعكةٍ ليِّنة. أشاحَت بوجهها قليلًا عن باب الغرفة، كما لو أنّها ترغب في أن يبقى موصَدًا إلى الأبد. أما هو، فقد ترك أدوات الرَّسم في الخزانة حتّى زيارته القادمة. وحين فرِغ، بعد مرور أسبوعٍ تقريبًا، تملَّكتها الدَّهشةُ حين رأت أنَّه رَسَمَ فراشةً بيضاء صغيرةً مكانَ النَّدبة الحامضيّة.

» احذَري منه»، قالت زينب 122، «فهو فنَّان، والفنَّانون أنانيُّون. ولسوف يختفي ما إنْ يحصلَ على ما يريد.«

إلَّا أنَّ د/علي ظلَّ يزورُها، ما أثار دهشةَ الجميع. وسخرت المومساتُ منه، وقلن إنَّه عاجزٌ عن الانتصاب وعاجزٌ عن المضاجعة. وعندما نفدتْ نكاتُهنّ، أخذن يتذمَّرن من روائح التربنتينة. غير أنَّ ليلى لم تلتفتْ إليهنَّ مُدركةً أنَّهنَّ غيورات. لكنْ، حين بدأت المديرةُ المُرَّة أيضًا بالتذمُّر، منوِّهةً باستمرار إلى أنَّها لا تريد أيَّ يسارِيِّين في الماخور، راحت ليلى تقلق من أنّها قد لا تقدر على رؤيته مجدّدًا.

وذات يوم، اقترب د/ علي من المديرةِ المُرَّة، وعرض عليها عرضًا غيرَ متوقّعٍ:

. هذه اللَّوحة المعبِّرة عن طبيعةٍ صامتةٍ، والمعلَّقة على الجدار.. آسف، أعني أنَّ زهورَ النرجس واللَّيمون تبدو غيرَ متقنةٍ إلى حدٍّ ما. هل فكَّرتِ في وضع بورتريه مكانَها؟

قالت المديرةُ المُرَّة:

. الحقّ أنَّ لديَّ واحدة .

غير أنَّها امتنعتْ عن إخباره أنَّها لوحة تُصوِّر السُّلطان عبد العزيز. ثمّ أضافت:

. لكنَّني اضطُررتُ إلى الاستغناء عنها.

. يا للعار! لعلَّكِ بحاجةٍ إلى لوحةٍ جديدةٍ إذًا. لماذا لا أرسمُكِ . من دون مقابل؟

ضحكت المديرةُ المُرَّةُ ضحكةً مبحوحةً، واهتزَّت كتلُ الشحم من حول خصرها في سرور.

مكتبة[16.07.20 15:27] ,.@

. لا تكنْ سخيفًا. فأنا لستُ ملكةَ جمال. اذهبْ وابحثْ عن امرأةٍ أخرى.

ثمّ أمسكتْ عن الكلام برهةً، وقالت بلهجة جادَّة فجأةً:

. أنتَ لا تمزح، أليس كذلك؟

في ذلك الأسبوع، بدأت المديرةُ المُرَّةُ تقف أمام د/علي حاملةً أدواتِ الحِياكة على صدرها، لتُظهِر مهارتَها من جهة، ولتخفيَ لُغدَها من جهةٍ أخرى.

ولمّا فرغ د/علي من رسم اللَّوحة، لاحت المرأةُ على قماش اللَّوحة أكثرَ سعادةً وشبابًا ورشاقةً من العارضة الأصليَّة. وهُنا، رغبتْ كلُّ المومسات في الوقوف أمامه، وباتت الغيرةُ من نصيب ليلى هذه المرّة.

****

إنّ المرء إذا هوى، تغيَّرَ شكلُ العالمِ في نظره، في نظرِ مَنْ هو في مركز العالم؛ هذا الأخير الذي سيدور منذ الآن فصاعدًا أسرع من أيّ وقتٍ مضى.

مكتبة‎[16.07.20 15:27] ,.@

- 14 -

عشرُ دقائق

بمرور الوقت، استعاد عقلُ ليلى، بسعادةٍ، مذاقَ طعامها المفضّل من أطعمة الشارع: بلح البحر المقليّ بزيتٍ غامر . طحين، وصفار بَيْض، وبيكاربونات الصودا، وفلفل، وملح، وبلحِ بحرٍ طازجٍ من البحر الأسود.

تشرين الأوَّل 1973. اكتمل بناءُ جسر البوسفور، رابعِ أطول الجسور في العالم، بعد ثلاث سنوات من العمل، وافتُتِح أمام حركة المَرْكبات بعد احتفالٍ عامٍّ يَخْلب الألباب. وثُبِّتتْ على أحد طرفَي الجسر يافطةٌ كبيرةٌ كُتِبت عليها عبارة: «مرحبًا بقارّة آسيا». وفي نهاية الطرف الثاني، ثمَّة يافطةٌ أخرى تقول: «مرحبًا بقارّة أوروبا.«

في الصباح الباكر، تجمَّعت الحشودُ البشريَّةُ على كلا جانبَي الجسر احتفالًا بالمناسبة. وألقى رئيسُ الجمهوريَّة عصرًا كلمةً عاطفيَّةً أثارت المشاعر، وحضرَ أبطالُ الجيش الذين وقفوا مستعدِّين في صمتٍ وَقورٍ، وكان بعضُهم من المحاربين القدامى الذين خاضوا غمارَ الحروب في البلقان والحربِ العالميَّة الأولى وحربِ الاستقلال. وجلس كبارُ الشخصيَّات الأجنبيَّة على منصَّةٍ مرتفعةٍ، برفقة النبلاء السياسيِّين والمحافظين، ورفرفت الراياتُ الحمرُ والبيضُ في الهواء على مدّ النظر. وعزفتْ فرقةٌ موسيقيَّةٌ النشيدَ الوطنيّ، ورفع الناسُ عقيرتَهم بالغناء، وأُطلِقتْ آلافُ

البالونات في الهواء. ورقص الدراويشُ في حلقات، باسطين أذرعَهم إلى مستوى أكتافهم، وكأنّهم نسورٌ تُحلّق عاليًا في السماء.

لاحقًا، حين افتُتح الجسر أمام تنقُّل السابلة، سيصبح في وسع الناس الانتقالُ سيرًا على الأقدام من قارّةٍ إلى أخرى. إلَّا أنَّ ما يبعث على الدَّهشة هو أنَّ عددًا كبيرًا من المواطنين اختاروا هذا الموقعَ الرَّائعَ للإقدام على الانتحار. فقرَّرت السُّلطاتُ منعَ السابلة من السَّيْر على الجسر. غير أنَّ هذا القرار جاء في وقتٍ لاحقٍ.أمَّا الآن، فهذا أوانُ التفاؤل.

صادفَ اليومُ الذي سبق ذلك الاحتفالَ الذكرى الخمسين لتأسيس جمهوريَّة تركيا. تلك مناسبةٌ كبرى في حدِّ ذاتها. وها هم الإسطنبوليُّون يحتفلون بهذه المَفْخرة الهندسيَّة ـ التي يتجاوز طولُها خمسةَ آلاف قدمٍ ـ وهم من أبناء العمَّال والمهندسين

الأتراك، فضلًا عن المهندسين البريطانيِّين من جسر كليڤلاند والشركة الهندسيَّة. لطالما أطُلِق على مضيق البوسفور، الضيِّقِ والرفيعِ، اسمُ «خطّ عنق إسطنبول»، وها هو اليوم جسر يزيّن العنقَ مثلَ قلادةٍ متوهِّجة. كانت القلادة تتألَّق عاليًا من فوق المدينة، مُتدلِّيةً على المياه حيث يلتقي البحرُ الأسود ببحر مرمرة من جهة، في حين يجري بحرُ إيجه ليلتقي بالبحر الأبيض المتوسِّط من جهةٍ أخرى.

كان ذلك الأسبوعُ برمَّته عارمًا، والمشاعرُ الاحتفاليّةُ تملأ الجوّ إلى درجةٍ تدفعُ الشحَّاذين في المدينة إلى الابتسام، وكأنَّ مِعدَهم الخاوية قد امتلأتْ بالطعام. وبعد أن أصبحتْ تركيّا الآسيويَّةُ متَّصلةً على نحوٍ دائمٍ بتركيّا الأوروبيَّة، بات مستقبلٌ مشرقٌ ينتظر البلدَ برمَّته. لقد بشَّر الجسرُ ببداية عصرٍ جديد، وأصبحتْ تركيّا اليوم في أوروبا من الناحية الفنِّيَّة. أوافَقَ السكَّانُ في أوروبا أمْ لم يوافقوا.

وفي اللَّيل، اشتعلت الألعابُ الناريَّةُ من فوق الرؤوس مضيئةً سماءَ الخريف المظلمة. وفي شارع المواخير، وقفت الفتياتُ في جماعاتٍ على امتداد الرَّصيف، يراقبنَ ويدخِّنَّ، في حين ترقرقَ الدَّمعُ في مآقي المديرة المُرَّة، التي لطالما اعتبرتْ نفسَها مواطنةً أصيلة.

قالت زينب 122 وهي تنظر إلى الألعاب الناريَّة في السَّماء:

. يا له من جسرٍ مدهش. إنَّه جسرٌ هائل!

وقالت ليلى:

مكتبة[16.07.20 15:28] ,.@

. الطيور محظوظةٌ جدًّا. تصوَّري أنَّ في وسعها أن تتربَّع عليه كلَّما أرادت. النوارس والحمام والكندش... وبمقدور الأسماك أن تسبحَ من تحته. الدولفين وسمكُ البينيت المخطَّط الظهر. يا له من امتياز! ألا تحبِّين أن تُنهي حياتَكِ على هذا النحو؟

قالت زينب 122:

. كلَّا بالطبع!

قالت ليلى بعناد:

. لكنَّني أحبُّ ذلك.

قالت نوستالجيا نالان:

. كيف يمكنكِ أن تكوني رومانسيَّةً إلى هذه الدرجة يا حبيبتي؟

ثمَّ تنهَّدتْ تنهيدةً مبالغًا فيها، مسرورةً على ما يبدو. كانت تأتي لزيارةِ ليلى بين حينٍ وآخر، إلَّا أنَّ حضورَها أغضب المديرةَ المُرَّة. فالقانون واضحٌ في هذا الشأن: يُمنع توظيفُ مُقلِّدي النساء في المواخير. ولمَّا كنَّ لا يقدرن على الحصول على عملٍ في أيّ مكانٍ آخر، فقد كُنَّ مضطرَّاتٍ إلى العمل في الشوارع.

. أتدرين كم كلَّف هذا البناءُ العملاق؟ ومَن الذي يدفع ثمنَه؟ نحن، الشعب!

ابتسمتْ ليلى. «كم تشبهينَ د/ علي في بعض اللحظات «!

» بمناسبة الحديث عنه...» وأشارت نالان إلى شمالها برأسها.

التفتتْ ليلى، فشاهدتْ د/علي يقترب. سترتُه كثيرةُ التجاعيد، وحذاؤه يطقطق بشدَّة، وعلى كتفه حقيبةٌ كبيرةٌ من قماش، وفي يده مخروطٌ ورقيٌّ مملوءٌ ببلح البحر المقليّ.

قال لها، وهو يناولها البلح، الذي يعرف ولعَها به:

- هذا لكِ.

لم يتكلَّم د/علي ثانيةً إلى أن صعدا إلى الطابق العلْويِّ، وأوصد البابَ بقوَّة، ثمَّ اتَّخذ مجلسَه فوق السرير وهو يفرك جبينَه.

سألته ليلى:

. أأنت على ما يُرام؟

. معذرةً. إنَّني أستشيط غضبًا. كانوا على وشك أن يقبضوا عليَّ هذه المرَّة.

. من؟ الشرطة؟

. لا، الذئاب الرَّماديَّة. الفاشيُّون. هذه الجماعة هي المسؤولة عن المنطقة.

مكتبة[16.07.20 15:28] ,.@

. فاشيُّون مسؤولون عن هذه المنطقة؟

رمقها بنظرةٍ ثاقبة.

. في كلّ حيٍّ من أحياء إسطنبول جماعتان متنافستان: واحدة تمثِّلهم، وأخرى تُمثِّلنا. ولسوء الحظّ، فاق عددُهم عددَنا في هذه المنطقة. لكنَّنا نردُّ على هجماتهم.

. أخبرْني، ماذا حدث؟

. كنتُ أدور حول منعطف، وإذا بي أجدُهم مجتمعين، يصرخون ويضحكون. أظنُّهم كانوا يحتفلون بالجسر. ثمَّ رأوني بعد ذلك.

. أيعرفونك؟

ـ حسنًا، لقد أصبح أحدُنا يعرف الآخر الآن. وفي وسعنا أن نخمِّن بكلّ سهولةٍ الشخصَ من خلال مظهره.

الملابس سياسيَّة. وكذلك شعرُ اللِّحية، وبخاصَّةٍ الشوارب. للقوميّين شواربُ متدلِّية إلى أسفل على هيئة هلال. أمَّا الإسلاميُّون، فهم يُشذّبون شواربَهم، لتكون صغيرةً وأنيقة. وأمَّا الستالينيُّون فيفضِّلون الشواربَ الغليظةَ الشبيهة بشوارب فيل البحر، حتى لتبدو وكأنَّها لم تعرف شفرةَ حلاقةٍ يومًا. أمَّا د/علي، فكان دومًا حليقًا. ولم تعرف ليلى إنْ كان ذلك بمثابة رسالةٍ سياسيَّةٍ؛ وإذا كان الأمر كذلك، فما معناها؟ ووجدتْ نفسَها تتفحَّص شفتيْه المستقيمتيْن الورديَّتيْن. لم يسبق أن نظرتْ إلى شفتيْ رجل قطّ، إذ كانت تتفادى ذلك عمدًا. وحين ضبطتْ نفسَها وهي ترمقه بهذه النظرة، شعرتْ بشيءٍ من الاضطراب.

كان د/علي يقول من غير أن يُدرك ما يدور في ذهنها:

. طاردوني مطاردةً شديدة. وكان في وسعي أن أركض ركضًا أسرع لولا أنَّني كنتُ أحملُ هذا.

أظهر د/ علي ما تحتويه الحقيبةُ: مئات النشرات، إنْ لم تكن الآلاف. جذبتْ ليلى إحداها، وراحت تتأمَّلها. ثمَّة رسم يحتلّ نصفَ مساحة الورقة: عمَّالُ مصانع بزيِّهم الأزرق الفضفاض، من تحت بقعة ضوءٍ ينبعث من السقف، يقفون رجالًا ونساءً، جنبًا إلى جنب، بمظهرٍ يدلّ على ثقةٍ بالغة؛ مظهرٍ خياليٍّ وكأنّهم من عالم آخر، حتّى يكادوا أن يكونوا ملائكيّين. ثمَّ جذبتْ نشرةً أخرى: عمَّال مناجم الفحم بثيابهم الفضفاضة البرّاقة الزرقاء اللَّون؛ ملامحُهم

ملطَّخة بالسّخام، وعيونُهم واسعة تنمّ عن حكمةٍ من تحت خُوَذهم. انتقلتْ مُسرعةً إلى النشرات الأخرى. كانت الشخصيّات في المنشورات مفتولةَ العضلات، قويّةَ الفكَّيْن. ولم تكن وجوهُهم شاحبةً أو مرهقةً على غرار بقية العمَّال الذين كانت تراهم كلَّ يومٍ في ورشة النجارة. ففي عالم د/علي الشيوعيّ، كان كلُّ فردٍ مفتولَ العضلات، متينَ البنية، يفيض قوَّةً ونشاطًا. فكَّرتْ في شقيقها، فتلوَّى فؤادُها في صدرها.

قال وهو يراقبها:

ـ ألا تروقُكِ الصُّوَر؟

. بل تروقني. هل أنت مَن رسمها؟

أومأ برأسه، وأشرقتْ ملامحُه بوميض الاعتزاز والفخر. إذًا كانت لوحاتُه، التي تُطبَع في مطبعةٍ سرِّيَّةٍ، تُوزَّع في كلّ حدْبٍ وصوْب في المدينة.

. إنَّنا نترك هذه المنشورات في كلِّ مكان . في المقاهي والمطاعم والمكتبات ودور السينما.... غير أنَّني أشعر

مكتبة[16.07.20 15:29] ,.@

بالقلق الآن. فإنْ قَبَض عليَّ الفاشيُّون وبحوزتي هذه المنشورات، فسوف يشبعونني ضربًا حتَّى أرى نجومَ الظهر!

قالت ليلى:

. لِمَ لا تترك الحقيبةَ هنا؟ سوف أُخفيها تحت السرير.

. لا أستطيع، فقد تُعرِّضُكِ للخطر.

ضحكتْ ضحكةً رقيقة، وقالت:

. مَن ذا الذي سيفتّش في هذا المكان يا عزيزي؟ لا تقلقْ. سوف أحرسُ الثورةَ من أجلك.

في تلك اللَّيلة، وبعد أن أُغلقتْ أبوابُ الماخور، غرق المكانُ كلّه في الصمت. أخرجتْ ليلى المنشورات. كانت معظمُ المومسات قد ذهبنَ إلى بيوتهنَّ للخلود إلى النوم؛ مِنهنَّ من توجَّبتْ عليها رعايةُ والديْن متقدِّميْن في السنّ، أو أطفالٍ صغار، إلَّا أنَّ عددًا قليلًا منهنَّ كنَّ يلزمنَ المبنى. في مكانٍ ما في نهاية الممرّ، ثمَّة امرأةٌ تشخر شخيرًا عاليًا، في حين كانت امرأةٌ أخرى تتكلَّم في نومها، بصوتٍ ضعيف ومستعطِف، على الرَّغم من صعوبة معرفة ما تتفوَّه به. جلستْ ليلى مُتَّكئةً على سريرها، وبدأتْ تقرأ: «كونوا يقظين، أيُّها الرفاق. لقد خرجتِ الولاياتُ المتَّحدة من فيتنام الآن! لقد بدأت الثورة. دكتاتوريَّة البروليتاريا.«

تفحَّصَت الكلمات وتأمَّلتْها، محبَطَةً من الطريقة التي أفلتتْ منها قوَّتُها الكاملة ومعناها الحقيقيّ باستمرار. وتذكَّرتْ رعبَ العمَّة الصامت كلَّما رَنَتْ إلى قصاصة ورقٍ كُتِبتْ عليها بعضُ الكتابات. وشعرتْ بوخزة ندمٍ تسري في بدنها. لماذا لم يخطرْ في بالها قطّ حين كانت شابَّةً أن تُعلِّم أمّها القراءةَ والكتابة؟

قالت ليلى مخاطبة د/علي حين وفد إليها في اليوم التالي:

. أودّ أن أطرحَ عليك سؤالًا. هل ستبقى هُناك أيُّ دعارةٍ بعد الثورة؟

رمقها بنظرةٍ تنمّ عن عدم الفهم :

. من أين خطَرَ لكِ هذا؟

. كنتُ أتساءل عمَّا سيحدث لنا في حال فوزكم.

. لن يحدثَ أيُّ مكروه لكِ، أو لصديقاتِك. اسمعي، لا ذنبَ لأيٍّ منكنَّ في هذا، بل يقع اللَّومُ على الرأسماليَّة؛ على النظام غير الإنسانيّ الذي يخلق الأرباحَ للبرجوازيِّين الإمبرياليّيِن الذين لم يَعُد فيهم رمقٌ من حياة، وعلى المتآمرين معهم، إذ هم يَظلمون مَن لا حول لهم ولا قوَّة، ويستغلُّون الطبقةَ العاملة. إنَّ الثورة ستدافع عن

حقوقِكِ؛ فأنتِ بروليتاريَّة أيضًا، فردٌ من أفراد الطبقة العاملة. لا تنسي ذلك.

ـ لكنْ، هل في نيَّتكم غلقُ هذا المكان أمْ ستتركونه مفتوحًا؟ وماذا سيحدث للمديرة المُرَّة؟

ـ هي ليست أكثرَ من امرأةٍ رأسماليَّةٍ مُستغِلَّة، وليست بأفضل من أصحاب النفوذ والثروة الذين يكرعون الشامبانيا.

لم تقل ليلى شيئًا.

. اسمعي، تلك المرأة تحصل على المال من جسدكِ، من جسدكِ أنتِ وأجسادِ الكثيرات غيركِ. وبعد الثورة، لا بدّ

مكتبة[16.07.20 15:29] ,.@

من معاقبتها عقابًا عادلًا على وجه التَّوكيد. لكنَّنا سوف نغلق كلّ المواخير، وننظِّف مناطقَ انتشارها. سوف نحوّلها إلى مصانع. وستصبح المومساتُ وبغايا الأرصفة عاملاتِ مصانع أو فلّاحاتٍ.

قالت ليلى:

. آه، قد لا يروق هذا التحوّل بعضَ صديقاتي.

ضاقت عيناها، كأنَّها تتأمَّل مستقبلًا تركض فيه نوستالجيا نالان هاربةً بثوبٍ قصيرٍ وكعبيْن عاليَيْن من حقل ذُرةٍ أُجبِرَتْ على العمل فيه.

كان د/ علي مُستغرقًا في التَّفكير، على ما يبدو، في الموضوع نفسه. فقد التقى نالان مرارًا، وأعجبته قوَّةُ إرادتها. ولم يعرف ماذا كان ماركس ليفعل بأناسٍ مثلها! أو حتَّى تروتسكي أيضًا! ولم يتذكَّر أنَّه قرأ أيّ شيءٍ في كتبه عن المُتحوِّلات اللَّواتي لم برغبن في أن يصبحن فلّاحات.

. إنَّني متأكِّد أنَّنا سوف نعثر على عملٍ مناسبٍ لصديقاتك .

افترّ ثغرُ ليلى عن ابتسامة، وفرحتْ سرًّا بالإصغاء إلى كلامه العاطفيّ. إلّا أنَّ الكلمات التي صدرتْ عن فمها لم تعكس تلك الفرحة.

ـ كيف بمقدورَكِ أن تُصدِّق كلّ هذا؟ إنّهُ ليبدو أقرب إلى الخيال في نظري.

ـ ليس هذا خيالًا، ولا حُلمًا. بل هو مجرى التاريخ.

تجهَّم وجهُه، ولاح عليه الاستياء، واسترسل قائلًا:

. هل يمكنكِ جعلُ نهر يجري بعكس التيَّار؟ لا تستطيعين. إنّ التاريخ يتحرَّك حراكًا عنيدًا ومنطقيًّا باتِّجاه الشيوعيَّة. وعاجلًا أمْ آجلًا، سيأتي ذلك اليومُ العظيم .

حين لاحظتْ ليلى أنَّه انزعج بمثل هذه السهولة، راودها شعورٌ عاطفيٌّ نحوه. فوضعتْ يدها في رفقٍ على كتفه، واستقرَّت عليه استقرارَ عصفورٍ معتزلٍ ومستريح.

. لكنْ، إذا أردتِ أن تعرفي، لديَّ حلم.

ضغط د/علي على عينيْه وأغلقهما بإحكام، وكأنّهُ لا يرغب في رؤية وجهها حين تسمعُ ما يوشكُ أن يقوله.

. في الواقع، هو حلمٌ يتعلّق بكِ أنتِ.

. آه، حقًا. ما هو؟

. أريدُكِ أن تتزوَّجيني.

كان الصمت الذي أعقب كلامَه غايةً في العمق، إلى درجة أن ليلى التي ثبَّتتْ عينيْها على د/علي باتت قادرةً على سماع همهمة الموج الخافتة في الميناء، وصوت محرّك قارب صيد الأسماك عند ارتطام الماء به. أخذتْ نَفَسًا، غير أنَّها شعرتْ أنَّ الهواء لم يبلغْ رئتيْها، إذ كان صدرُها مملوءًا. ثمَّ دقَّ منبّهُ الساعة، فجفلا كلاهما. كانت المديرة قد وضعتْ مؤخَّرًا ساعةً في كلّ غرفة. فإذا ما انتهت الساعة، فعلى الزبون الخروجُ.

مكتبة[16.07.20 15:29] ,.@

اعتدلتْ ليلى.

. أرجو أن تُسْدي إليَّ خدمةً. لا تكلِّمني عن مثل هذه الأمور مرَّةً أخرى.

اتَّسعتْ عينا د/علي.

. أأنتِ غاضبة؟ لا تغضبي.

. انظرْ، ثمَّة أشياء لا ينبغي لكَ التفوُّهُ بها في هذا المكان، وإنْ تفوَّهتَ بها عن حُسن نيَّة، وأنا لا أشكّ أبدًا في أنَّك حَسَن النيَّة، لكنَّني أودّ أن أوضح لك أنَّني لا أحبُّ مثل هذا الكلام. بل أجدُه مقلِقًا... مثيرًا للاضطراب.

لاح عليه الذهولُ لوهلة.

. إنَّني مندهش، لأنَّكِ لم تنتبهي إلى ذلك حتَّى الآن.

. عمَّ تتحدّث؟

جذبتْ ليلى يدَها بعيدًا، وكأنَّها قد لامسَتْ نارًا.

قال لها:

ـ لم تنتبهي إلى أنَّني أحبُّكِ. منذ رأيتُكِ أوَّلَ مرَّةٍ على السلالم... في اليومِ الذي وصل فيه الأسطولُ السادس. هل تذكرين؟

شعرتْ ليلى أنَّ خدَّيْها متورِّدان، ووجهَها متَّقد. كانت تريد منه أن ينصرف من غير أن يتفوَّهَ بكلمةٍ أخرى، وألَّا يعودَ إلى هذا المكان أبدًا. صحيح أنَّ أوقاتَهما معًا كانت مُحبَّبةً على مدى سنين، غير أنَّه بدا واضحًا لها الآن أنَّ هذه العلاقة سوف تُلحق الضررَ بهما كليْهما.

بعد أن انصرف، سارت في اتِّجاه النافذة. وعلى الرَّغم من أوامر المديرةِ المُرَّة الصارمة، فقد فتحَت الستائرَ. وضعتْ خدَّها على الزجاج الذي كانت ترى من خلاله شجرةَ البتولا الوحيدة، وورشةَ الأثاث والدخانَ الصادر من منافذها. وتخيَّلتْ د/علي يخطو خطواتٍ واسعةً في اتِّجاه الميناء، خطواتٍ سريعةً ومتعجِّلةً كعادته. وراقبَتْه في ذهنها، بودٍّ ووفاء، إلى أن توارى عن الأنظار في زقاقٍ مُعتِم تحت شلّالٍ من الألعاب الناريَّة.

***

كانت الكازينوهات والنوادي اللَّيليَّة مملوءةً إلى حدّ الانفجار طوال ذلك الأسبوع، بفعل الجوّ العامّ من الفرح والسَّعادة. وفي يوم الجمعة، بعد صلاة المغرب، أرسلت المديرةُ ليلى إلى حفل سمرٍ يحضره الرجالُ فقط، في قصرٍ يُطلّ على البوسفور. انشغل فكرُ

ليلى طوال اللَّيلة بـ د/علي، وبما قاله لها، واستبدَّ بها وجومٌ لم تستطع التغلُّبَ عليه، ولم تكن قادرةً على التظاهر ومجاراة الآخرين. كان تصرُّفها كلّه بطيئًا متكاسلًاعلى نحو مؤلم، وكأنَّها جُثّةٌ لفظَتْها بحيرةٌ للتوّ. واستشعرتْ أنَّ المضيفين غير سعداءَ بأدائها، وأنَّهم سيَشْكون أمرَها إلى المديرة. وفكَّرتْ بمرارة: مَن يريد مُهرّجاتٍ وومسات إنْ كنَّ حزيناتٍ؟

في طريق العودة، سارت ليلى بخطواتٍ مرهقة، وكانت قدماها ترجفان من الوقوف طويلًا ساعاتٍ متواصلةً بكعبيْن عالييْن. كانت تتضوَّر جوعًا، لأنَّها لم تأكل شيئًا منذ أن تناولتْ طعامَ الغداء يوم أمس، ولم يفكِّر أحد في إعطائها الطعامَ في مثل هذه اللَّيالي . كما أنَّها لم تطلبه بنفسها قطّ.

مكتبة[16.07.20 15:30] .,@

كانت الشمس تبزغ على السطوح ذات القرميد الأحمر، والقباب المكسوَّة بالرصاص. وكان الهواء مُنعِشًا، وفيه طيفُ رائحةٍ تُبشِّرُ بخَير. اجتازت ليلى مبانيَ سكنيَّةً لا تزال نائمة؛ ولاحظتْ على بُعد خطواتٍ منها سلَّةً مربوطةً بحبلٍ متدلٍّ من نافذةٍ في طابقٍ علْويّ، وفي داخلها ما يشبه البطاطس والبصل. لا بدَّ أنَّ شخصًا ما أوصى بها من دكَّان البقالة القريب، ونسي أن يجذبها إلى أعلى.

توقَّفتْ على صوتٍ طَرَقَ سمعَها، ولبثتْ ساكنةً لا تتحرَّك، باذلةً قُصارى جهدها أن تصيخَ السمع. بعد بضع ثوانٍ، شعرتْ بألمٍ ضعيف. ظنَّت أوَّل الأمر أنَّه من نَسْجِ خيالها؛ صنيعة عقلها الذي حُرِمَ النومَ. ثمَّ لاحظتْ خيالًا غيرَ واضح المعالم على الرَّصيف، كتلةً من اللَّحم والفرو، قطَّةً جريحة.

في الوقت نفسه، كان شخصٌ آخر قد رأى الحيوان، وراح يقترب من الجهة المعاكسة للطريق. امرأة. كانت المرأة ذاتَ عينيْن بنِّيَّتيْن ورائقتيْن ومتغضِّنتيْن، وأنفٍ مدبَّب، وقوامٍ بدين، وبدَت هيئتُها أشبهَ بطيرٍ ـ على شاكلة الطيور التي يرسمها الأطفال: مُنتفخةً ومُدوّرة.

سألت المرأة:

ـ هل القطَّة على ما يرام؟

مالت المرأتان إلى أمام، فرأتا القطَّةَ في اللَّحظة نفسها: كانت أمعاؤها قد اندلقتْ من جوفها، وأنفاسُها بطيئةً ومنهكة. كانت إصابتُها رهيبة.

خلعتْ ليلى وشاحَها، ولفَّت القطَّةَ به. ثمَّ رفعتْها برقَّة، واستمهدتها في إحدى ذراعيْها.

. ينبغي أن نعثر على طبيبٍ بيطريّ.

. في هذه الساعة؟

. حسنًا، ليس لدينا إلَّا هذا الخيار. أليس كذلك؟

بدأت المرأتان تسيران معًا.

. على فكرة، اسمي ليلى.

. وأنا حُمَيراء، وأعملُ في كازينو على رصيف الميناء.

. ماذا تعملين هُناك؟

. أنا وفرقتي نعتلي خشبةَ المسرح كلَّ ليلة.

قالت المرأة ذلك، ثمَّ أردفتْ بنبرةٍ أكثر تأكيدًا، ولا تخلو من الفخر:

. أنا مُغنّية.

. آه، وهل تغنِّين أغاني ألڤيس پريسلي؟

. لا، نحن نغنِّي الأغاني القديمة، والشعبيَّة، بالإضافة إلى بعض الأغاني الحديثة، ومعظمُها باللغة العربيَّة.

مكتبة[16.07.20 15:30] ,.@

حين تمكَّنت المرأتان من العثور على طبيبٍ بيطريّ، لاحظتا أنَّه انزعج لإيقاظه في هذه الساعة، إلَّا أنَّه يستوجب الشكر لعدم طردهما.

قال الرجل:

. لم أشهد في حياتي مثلَ هذه الحالة: عظامَ صدرٍ مكسورة، ورئةً مثقوبة، وحوضًا مهشَّمًا، وجمجمةً مكسورةً، وأسنانًا مفقودةً... لا

بدَّ أنَّ سيَّارةً أو شاحنةً دهستْها. آسف، فأنا حقًّا أشكّ في إمكانيَّة إنقاذ هذه القطّة المسكينة.

قالت ليلى ببطء:

ـ لكنَّك تشكّ.

ضاقَت عينا الطبيب من وراء نظَّارته.

. معذرة؟

. أعني لستَ متأكِّدًا مئةً في المئة. أليس كذلك؟ أنت تشكّ، وهذا يعني أنَّ ثمَّة أملًا في النجاة.

. انظري. أفهمُ أنَّكِ تريدين مساعدتَها، لكنْ صدِّقيني أنَّه من الأفضل لها أن تتركيها «تنام». لقد عانَت هذه القطّةُ معاناةً شديدة، أكثرَ ممَّا يُحتمَل.

هنا التفتتْ ليلى إلى حُميراء، وقالت:

. سوف نجد طبيبًا بيطريًّا آخر. سوف نجد. أليس كذلك؟

تردَّدت المرأةُ الأخرى لثانيةٍ لا غير، ثمَّ أومأتْ مساندةً ليلى، وقالت:

. بلى.

قال الطبيب البيطريّ:

ـ حسنًا! إنْ كنتما تُصرَّان على ذلك، فسوف أحاول أن أساعدكما. لكنَّني لا أعِدُكما بشيء. ولا بدَّ لي من القول إنَّ ذلك لن يكون رخيص الثمن.

أعقبتْ ذلك ثلاثُ عمليَّات وأشهرٌ من المعالجة المؤلمة، ودفعتْ ليلى معظمَ التكاليف، في حين ساهمت حُميراء بأفضل ما تَقْدر عليه.

في النهاية، أثبت الوقتُ أنَّ ليلى كانت على صواب. وتشبَّثت القطَّة بالحياة، بمخالبها المتصدِّعة وأسنانها المفقودة، تشبُّثًا شديدًا. ولمَّا كان شفاؤها لا يقلُّ عن المعجزة، فقد أطلقتا عليها اسم «ثمانية»، لأنَّ القطَّة التي تستطيع تحمُّلَ كلّ هذا القدْرِ من

الألم لا بدَّ أن تكون ذات ثماني أرواح، ومن المؤكَّد أنّها أنفقَتْ سبعًا منها حتّى الآن.

تناوبت المرأتان على العناية بها، ونشأتْ بينهما رويدًا رويدًا صداقةٌ ثابتة.

بعد مرور بضع سنوات، وبعد مرحلةٍ طائشة من الهروب اللَّيليّ، حَملتِ القطَّة. وبعد عشرةِ أسابيع، أنجبتْ خمسَ

مكتبة[16.07.20 15:31] ,.@

قططٍ صغيرةٍ بأشكالٍ مختلفةٍ تمامًا. ومن بينِ ما أنجبَتْ ذكرٌ أسود، مرصَّعٌ ببقعةٍ بيضاء صغيرةٍ، فضلًا عن أنَّه كان أصمّ. فما كان من ليلى وحُميراء إلَّا أن أطلقتا عليه اسم «مستر تشاپلن.«

حُميراءُ هوليوود؛ المرأةُ التي تحفظ معظمَ الأغاني الشعبيَّة لبلاد الرافديْن، وكانت حياتُها تشبه إلى حدٍّ ما تلك القصصَ الحزينةَ التي كانت تُغنّي العديدَ منها.

حُميراء هوليوود: أحدُ خمسةٍ.

مكتبة[16.07.20 15:32] ,.@

- 15 -

قصَّة حُميراء

وُلدتْ حُميراء في ماردين، على مقربةٍ من دير القدِّيس غابرييل على هضاب ميسوپوتاميا الكلسيَّة، بشوارعها الملتوية كالأفعى، وبيوتها الحجريَّة. ونشأتْ في أرضٍ موغلةٍ في القِدم والاضطرابات، تحيط بقايا التاريخ بها من كلّ الجوانب. أطلالٌ فوق أطلال. قبورٌ جديدةٌ داخل قبورٍ قديمةٍ، مُصغيةً إلى أساطيرَ لا أوَّل لها ولا آخر عن البطولة، وإلى قصص الحبّ التي جعلتها دومًا تحنُّ إلى مكانٍ لم يَعُد له وجود. وبدا لها، ويا للغرابة، أنَّ الحدود ـ التي تنتهي فيها تركيا وتبدأ عندها سوريا ـ ليست خطًّا ثابتًا وفاصلًا، بل شيءٌ حيٌّ يتنفَّس، ومخلوقٌ ينشط ليلًا: فهي تُغيِّرُ من مكانها حين يكون الناسُ على كلا جانبيْها يَغطُّون في نومٍ عميق، وفي الصباح تُكيِّف نفسَها مجدَّدًا، وإلى حدٍّ ما يمينًا أو شمالًا. وكان المهرّبون يتنقَّلون عبر هذه الحدود، إلى الأمام وإلى الوراء، حابسين أنفاسَهم وهم يَعْبرون حقولًا تحتشد بالألغام. أحيانًا، وفي خضمِّ السكون، يترامى إلى الأسماع صوتُ انفجار، فيدعو القرويُّون أن يكون الانفجارُ قد مزَّق بغلًا إربًا إربًا، ولم يمزِّقِ المهرِّبَ الذي يمتطيه.

كانت الطبيعة تمتدّ من قدمات طور عابدين ـ جبل عباد اللّـه ـ باتِّجاه أرضٍ منبسطةٍ تتحوَّل صيفًا إلى لونٍ بنِّيّ فاتحٍ ورمليّ. لكنَّ سكَّان المنطقة كانوا يتصرَّفون غالبًا وكأنَّهم من سكَّان الجزر، وكانوا يختلفون عن القبائل المتاخمة لهم اختلافًا يسري في عروقهم. كان الماضي يُطْبِق عليهم مثلَ مياهٍ عميقةٍ ومظلمة، ولا يسبحون فيها منفردين أو وحيدين، وإنَّما برفقة أشباح أجدادهم.

كان ديْر غابرييل أقدمَ ديْر في العالم للسريان الأرثوذكس. وكما هو شأن الناسك الذي يقيم أَودَه على الماء وعلى لُقَمٍ شحيحةٍ من الطعام، فقد أفلحَ الدَّيْر في البقاء معتمدًا على الدِّين والنِّعم. وقد شهد الدَّير، على امتداد تاريخه العريق، سفكَ الدِّماء والإبادةَ والاضطهادَ، وطغى على الرّهبان كلُّ الغزاة الذين مرُّوا بالمنطقة. وفي حين صمدتْ أسوارُه الحجريَّةُ المحصَّنة، البيضاءُ كالحليب، فإنَّ مكتبته الهائلة والمُدهشة لم تصمد، ولم تبقَ صفحةٌ واحدةٌ من بين آلاف الكتب والمخطوطات التي كان يحتضنها بكلّ فخرٍ واعتزاز. وفي داخل سردابه، دُفِن مئاتُ القدّيسين ـ والشُّهداء أيضًا.

أمَّا خارج الدَّيْر، فقد امتدَّت أشجارُ الزيتون والبساتين على طول الطريق مانحةً الهواءَ عبقَ روائحها المميَّزة. وكان الهدوء ينتشر في كلّ الأنحاء، على نحوٍ يوهِم مَن لا يعرفون شيئًا عن التاريخ أنَّه ينطوي على سلام!

نشأتْ حُميراء، شأنَ عديد الأطفال في المنطقة، بصحبة الأغنيات، والأناشيد الشعبيَّة، وأغاني الأطفال بلغاتٍ مختلفة: التركيَّة، والكرديَّة، والعربيَّة، والفارسيَّة، والأرمنيَّة، والسريانيَّة ـ الآراميَّة. وسمعتْ قصصًا عن الدَّيْر، ورأت سيَّاحًا وصحفيّين ورجالَ دين وكهنةً، يأتون ويذهبون. وكانت الراهبات هنَّ اللَّواتي انجذبتْ إليهنَّ أكثر من الباقين، ووطَّدت العزمَ مثلهنَّ على ألَّا تتزوَّج. ولكنْ في فصل الرَّبيع الذي بلغتْ فيه الخامسةَ عشرة، أُرغِمتْ على ترك المدرسة فجأةً، وخُطِبتْ إلى رجلٍ كان والدُها شريكًا له في تجارتِه. وفي السَّادسة عشرة، أصبحتْ حُميراء زوجةً. كان زوجها رجلًا لا طموح له، قليلَ الكلام، يَسْهل ترويعُه. ولمَّا كانت تُدرك أنَّ الرجل لم تكن لديه نيَّةٌ في هذا الزواج، فقد اشتبهتْ أنَّ لديْه عشيقةً في

مكانٍ ما، وأنَّه لا يستطيع نسيانَها. وضبطتْه أكثرَ من مرَّة ينظر إليها نظراتٍ تنمّ عن اشمئزاز، وكأنَّه يوجِّه إليها اللَّومَ على حسرته وندمه على ما فات.

حاولتْ مرارًا وتكرارًا في السنة الأولى من الزواج، أن تَفهمه وتَفهم احتياجاتِه. وأمّا احتياجاتها الشَّخصيَّة، فكانت غيرَ ذات شأن. إلَّا أنَّه لم يشعر بالسَّعادة قطّ، وكانت تجاعيدُ العبوس على جبينه ترتسمُ من جديد سريعًا، مثلها في ذلك مثل نافذةٍ يعلوها البخارُ بعد مسحها مُباشرةً. وعلى أثر ذلك بوقتٍ قصير، واجهتْ تجارتُه أوقاتًا عصيبةً، واضطرَّ هو وزوجته إلى الانتقال إلى بيت أهله.

تحطَّمتْ معنوياتُ حُميراء بسبب سكنها مع الحمو والحماة. فقد عامَلاها معاملةَ خادمة ـ خادمة من غير اسم: «احضري لنا شايًا،

أيّتها العروس. اطبخي لنا الرزّ، أيَّتها العروس. اغسلي الملاءات، أيّتها العروس». كانا يرسلانها دومًا في مهمّةٍ ما، فلا تقدر على المكوث في مكانها من غير حَراك. وانتابها إحساسٌ غريبٌ ومتناقضٌ أنَّهما يريدان

مكتبة[16.07.20 15:33] @.,

أن تبقى على مقربةٍ منهما، وأن تختفي تمامًا عن ناظريْهما، في الوقت نفسه. ومع هذا، فقد كان في وسعها أن تتحمَّل ذلك، لولا الضرب. فذات مرَّةٍ، كسر زوجُها علَّاقةَ ثيابٍ خشبيَّةً على ظهرها. وفي مرَّة أخرى، ضربها على ساقيْها بملقطٍ حديديٍّ ترك على جانب ركبتها اليُسرى علامةً أرجوانيّةً داكنة.

إلَّا أنَّ رجوعَها إلى منزل والديْها لم يكن واردًا على الإطلاق، وكذلك البقاء في هذا المكان البائس. ولهذا، وفي باكورة أحد الأيَّام، وكان الكلُّ نيامًا، أقدمتْ على سرقة أسورة حماتها الذهبيَّة

التي كانت تحتفظ بها في علبة بسكويت على منضدةٍ بجانب سريرها، فابتسم لها طقمُ أسنان حميّها . الذي كان مُغطَّسًا في قدح زجاجيّ بجانب العلبة . ابتسامةً متواطئة. صحيح أنَّها لن تحصل على مبلغٍ كبير عن الأسورة في مكتب المسترهن، إلَّا أنَّه يكفي لشراء تذكرةِ سفرٍ إلى إسطنبول.

في المدينة، تعلَّمتْ سريعًا كيف تسير بكعبيْن عالييْن جدًّا، وكيف تكوي شعرَها ليصبح سبطًا غير جَعِد، وكيف تتجمَّل بمساحيق التَّجميل حتّى تبدو مثيرةً تحت أضواء الفلورسنت. وغيَّرت اسمَها إلى حُميراء، واستحصلتْ على هويَّةٍ شخصيَّةٍ مُزيَّفة. ولمَّا كان صوتُها مذهلًا، وذاكرتُها تمتلئ بمئات الأغاني الأناضوليَّة التي تحفظها عن ظهر قلب، فقد تمكَّنتْ من العثور على عملٍ في أحد النوادي اللَّيليَّة. وحين ارتقت خشبةَ المسرح أوَّلَ مرَّة، اهتزَّت كورقة شجرة، لكنَّ صوتَها استطاع أن يصمد. واستأجرتْ أرخصَ غرفةٍ تمكَّنتْ من العثور عليها في منطقة كراكوي، قبالةَ شارع المواخير تمامًا. وهناك، التقت ليلى ذاتَ ليلةٍ بعد الانتهاء من العمل.

تعاونت الاثنتان بنوعٍ من الوفاء والولاء، لا يستطيع أن يجمعه إلَّا مَن لا يملكون إلَّا القليلَ للاعتماد عليه. وبناءً على نصائح ليلى، صبغتْ حُميراءُ شعرَها باللَّون الأشقر، واستخدمتْ عدساتٍ لاصقةً فيروزيَّة اللَّون، وأجرت عمليَّةَ تجميل لأنفها، وغيَّرتْ ملابسها تغييرًا كاملًا. أقدمتْ على تنفيذ كلّ هذه الأشياء، بل أكثر منها كذلك، إذ ترامى إلى سمْعها أنَّ زوجَها جاء إلى إسطنبول بحثًا عنها، وانتابها الفزعُ في يقظتها ومنامها من أن تقع ضحيّةً لغسل العار. ولم تستطع الحيلولة دون أن تتخيَّل لحظة قتلها، وكانت في كلِّ مرَّة تتراءى لها نهايةٌ أشدُّ سوءًا. فكانت تعلمُ أنَّ مصير النساء المتَّهمات بالأعمال غير اللَّائقة ليس القتلَ دائمًا، إذ كُنَّ أحيانًا يُقْدِمن على الانتحار بعد أن يتمّ إقناعُهنَّ به. وقد ازداد عددُ حالات الانتحار الجبريَّة، وخصوصًا في البلدات الصَّغيرة الواقعة جنوبَ شرقيّ الأناضول، حتَّى صارت المسألة موضعَ اهتمام الصحافة الأجنبيَّة. وفي منطقة بطمان، التي لا تبعد كثيرًا عن مسقط رأسها، كان الانتحار السَّببَ الرئيسَ لنسبة الوَفَيات بين الشابَّات.

إلَّا أنَّ ليلى ظلَّت تخبر حُميراء بأن تَنْعم براحة البال. وأكَّدتْ لصديقتها أنَّها إحدى المحظوظات اللواتي يتمتَّعن بالصبر والجَلَد، وأنَّها أشبه بأسوار الدَّيْر الذي نشأتْ وترعرعتْ وهي تنظر إليه، وبالقطّة التي أنقذتا حياتَها معًا في تلك اللَّيلة التي التقتا فيها مصادفةً. ولهذا، فإنَّ قَدَرَها هو أن تبقى على قيد الحياة، على الرَّغم من كلِّ ما تراكم عليها من مشكلات.

مكتبة[16.07.20 15:33] ,.@

- 16 -

عشرُ دقائق وعشرون ثانية

في الثواني العشر الأخيرة التي سبقَت توقُّفَ دماغ ليلى عن العمل توقُّفًا تامًّا، تذكَّرتْ قالبَ حلوى زفاف: ثلاث طبقات بيضاء مكسوَّة بكريمة الزبدة، وتربَّعتْ فوقه بترتيبٍ مُتقَنٍ كرةٌ من الصوف الأحمر، وبجانبها إبرُ حياكةٍ صغيرةُ الحجم مصنوعة من السُّكَّر. كان القالبُ إشارةً تنمُّ عن موافقة المديرة المُرَّة التي لم يكن في مستطاع ليلى الرحيلُ لولا موافقتُها .

في غرفتها في الطابق العلْويّ، نظرتْ إلى وجهها في المرآة المتصدِّعة. وفي الانعكاس، ظنَّت أنَّها رأت في لحظةٍ عابرةٍ نفسَها السَّابقة، وقد حدَّقتْ إليها الفتاةُ التي كانت في بلدة ڤان بعينيْن واسعتيْن، وفي يدها طوقُ هيلا هوپ كبيرُ الحجم. فابتسمتْ إليها رويدًا رويدًا، متعاطفةً معها، وعقدت الصلحَ معها.

كان ثوبُ زفافها بسيطًا، ولكنَّه كان أنيقًا في الوقت نفسه، بكمَّيْن مخرَّميْن تخريمًا دقيقًا، وسيلويت داكن مناسب يُبرز محيطَ خصرها.

أعادتَها من عالمِ الخيال طرْقةٌ على الباب.

قالت زينب 122 متسائلةً وهي تدخل الغرفة:

. هل جعلتِ الخُمارَ قصيرًا عن عمد؟

وحين سارت فوق الأرضيَّة العارية، ترامى إلى السَّمع صوتٌ خامدٌ صادرٌ عن نعليْها.

. تذكَّري أنَّني تنبَّأتُ بأنَّ الخُمار سيكون طويلًا، وها أنتِ الآن تجعلينني أشطُّ في مهاراتي.

. لا تكوني غبيَّةً. كنتِ على حقّ في كلّ شيء. كلُّ ما في الأمر أنَّني أردتُ أن تبقى الأشياءُ سهلة .

سارت زينب 122 نحو فناجين القهوة في ركن الغرفة. وعلى الرَّغم من أنَّها كانت فارغة، فقد رنت إلى أحدها متنهِّدةً.

مرَّت لحظةٌ قلقةٌ قبل أن تتكلَّم ليلى من جديد:

ـ ما زلتُ غير مصدِّقة أنَّ المديرةِ المُرَّة ستسمح لي بالرَّحيل.

ـ لعلّ ذلك بسبب الهجوم بالحامض كما أظنّ؛ فهي لا تزال تشعر بالذَّنْب، وهو ما ينبغي أن تشعر به. أعني أنَّها تدري أنَّ ذلك الرجل مخبول، ولكنَّها أخذتْ نقودَه وقدَّمَتْكِ قربانًا إليه ـ تمامًا مثل الشاة للذبح. كاد ذلك المتوحِّشُ أن يقتلَكِ.

إلَّا أنَّ إقدامَ المديرةِ المُرَّةِ على منح ليلى البَرَكة، التي كانت في أمسّ الحاجة إليها، لم يكن بسبب عطفها عليها، ولا اعترافًا بذنبٍ لم تعترف به سابقًا. فلقد دفع إليها د/علي مبلغًا ضخمًا . مبلغًا لم يَطْرقْ سمعَ أحدٍ في شارع المواخير. وحين ضغطتْ عليه ليلى في وقتٍ لاحقٍ كي يَكْشف عن مصدر النقود، أخبرها أنَّ رفاقه مدُّوا إليه يدَ العون، وزعم أنَّ الثورة للحبّ والمحبِّين.

جذب أنظارَ زمرةٍ من المتفرّجين مشهدُ مومسٍ تخرج من الماخور بثوب زفاف؛ فذلك مشهد لم يحدث في الأعمّ الأغلب. فقد قرَّرت المديرةُ المُرَّةُ أن تمنح مبلغًا ماليًّا مُناسبًا إنْ غادرتْ أيُّ مومس المكان من غير رجعة. ولهذا،

مكتبة[16.07.20 15:33] .,@

استأجرتْ موسيقيَّيْن رومانيَّيْن، يبدوان شقيقيْن من مظهريْهما: أحدُهما يقرع الطبلَ، والآخرُ يعزف على الكلارنيت، فتنتفخُ وجنتاهُ،

وتتراقص عيناه على صوت النغم الجميل. خرج الناس أجمعين إلى الشارع، يهتفون ويصفِّقون ويدبكون، ويصفِّرون ويهلهلون، ويلوِّحون بالمناديل، ويراقبون ما يجري أمامهم باهتمامٍ ملؤه البهجةُ والفرح. وجاءت الشرطة أيضًا لمعرفة سبب الضجَّة، بعد أن تركوا مواقعَهم قرب البوَّابة.

أدركتْ ليلى أنَّ أُسرة د/علي قد تناهى إلى سمْعها الآن ما كانوا يَعدُّونه فضيحةً. فوالده، الذي سافر من ألمانيا على متن أوَّل طائرةٍ قادمة، حاول أن يعيدَ ولدَه إلى رُشده . بدايةً على نحوٍ موضوعيّ وواقعيّ، بالتَّهديد بضربه (وإنْ كان الرجلُ متقدِّمًا في السنّ ولا يقوى على فعل ذلك)، ثمّ بتهديده بحرمانه ثروةَ الأُسرة (وإنْ لم تكن ثروةً كبيرة)، وأخيرًا بمقاطعته قطيعةً تامَّة (وكان ذلك التهديدُ أشدَّ قسوةً من أيّ شيءٍ آخر). إلَّا أنَّ د/علي، مُنذ صباه، كان يتَّصف بالعناد في وجه أيّ اعتداء. ولم يكن سلوكُ والده إلَّا ليزيدَه إصرارًا، ويقوِّي من عزيمته. واستمرَّت شقيقتاه في الاتِّصال به لإبلاغه أنَّ الوالدة كانت تنفق وقتَها باكيةً نائحة، وكأنَّه مات ودُفن! كانت ليلى

تعلم أنَّ د/علي لم يُخبرها بكلّ شيءٍ كي لا يُزعجَها، فكانت ممتنَّةً له سرًّا.

ومع هذا، حاولتْ بضعَ مرَّاتٍ أن تتحدَّث إليه عن مشاغلها غيرَ مصدِّقة أنَّ الماضي، ماضيها هي، لن يشكِّل جدارًا بينهما، ويزداد حجمًا فيتعذَّر اختراقه. تقولُ له: ألا يُزعجك؟ وإنْ لم يزعجْكَ الآن، أفلن يزعجَكَ مستقبلًا، وأنتَ تدري من أنا، وما كنتُ أفعل؟

. لا أفهمُ ما تقصدينه.

. بل تفهم.

ثمَّ تردفُ بنبرةٍ ليّنةٍ بعد أن كانت قد اخشوشنتْ بسبب الجهد والضغط:

. أنت تعلم تمامًا ما أتحدَّث عنه.

. حسنًا. وأنا أقول لكِ، بكلّ لغةٍ تقريبًا، إنَّنا نستخدم مفرداتٍ مختلفةً للحديث عن الماضي والحاضر، ولسببٍ وجيه. إذًا، ذلك هو ماضيكِ، وهذا هو حاضرُكِ. وإنّهُ لسوف يُزعجني أشدَّ الانزعاج إذا ما أمسكتِ يدَ رجلٍ آخرَ اليوم. ولعلمِك، فأنَّني سأكون غيورًا إلى أبعد الحدود.

. لكنْ...

قبَّلها برفقٍ، وتألَّقَ في عينيْه دفء. ثمَّ قادَ أناملَها إلى النَّدبة الصَّغيرةِ في جانب ذقنه، وقال:

. أترين هذه؟ لقد أصبتُ بها يومَ سقطتُ من فوق سور، سورِ المدرسة الابتدائيَّة. وها هي نَدبةٌ أخرى على كاحلي، أصبتُ بها حين سقطتُ من على ظهر درَّاجتي الهوائيَّة في محاولتي القيادةَ بيدٍ واحدة. أمَّا النَّدبة التي على جبيني، فهي الأعمق، وكانت هديَّةً من أمِّي الحبيبة؛ فقد انزعجتْ منِّي الانزعاجَ كلّه، وطوَّحتْ بطَبَقٍ على الجدار، إلَّا أنَّها أخطأته بطبيعة الحال، وكاد أن يُصيبني في

عيني. فبكَت أكثر ممَّا بكيتُ أنا. وتلك علامةٌ أخرى أحملُها معي طوال الحياة. هل يضيركِ أن تكون لديَّ كلّ هذه النَّدَب؟

. لا، على وجه التأكيد. فأنا أحبُّكِ كما أنتِ.

. تمامًا.

استأجر الاثنان شقَّةً في شارع هيري كافكا. الشقَّة رقم 7 في الطابق العلْويّ. كانت تلك الشقَّة مهجورةً ومهملة، وفي منطقةٍ لا تزال وعِرة، توزَّعتْ من حولها معاملُ الدِّباغة والجلود. إلَّا أنَّهما كانا واثقيْن بأنَّهما

مكتبة[16.07.20 15:33] ,.@

يستطيعان مواجهةَ هذا التَّحدِّي. ففي الصباحات، كانت ليلى تستلقي من تحت الملاءات القطنيَّة، وتتنشَّق روائحَ الحيّ. خليطًا مختلفًا في كلّ يوم. وبدَت الحياة عذبةً، على غيرِ ما هو مألوف، وكأنَّها هِبةٌ من السماء.

كان لكلٍّ منهما مكانُه المفضَّل قرب النافذة نفسها، حيث يحتسيان الشايَ في أوقات المساء، ويراقبان المدينة تمتدّ أمامهما، مِيلًا بعد ميل من الخرسانة. كانا يرخيان بصرَهما بعينيْن مستطلعتيْن، كأنَّهما ليسا جزءًا منها، كأنَّهما وحدهما في هذا العالم، وما كلّ هذه المَرْكبات والعبَّارات والبيوت المشيَّدة بالقرميد الأحمر إلَّا ديكورٌ خلفيّ، وتفاصيلُ في لوحةٍ مخصَّصةٍ لعيونهما وحدهما. كان في وسعهما أن يسمعا صوتَ النوارس من فوق رأسيْهما، وطائرةَ الشرطة المروحيَّة من وقتٍ لآخر، لحالةٍ طارئةٍ

أخرى في مكانٍ ما. لكنَّهما لم يتأثَّرا بشيء، ولم يُقلقْ راحةَ بالهما أيُّ شيء. أمَّا في أوقات الصباح، فكانت مهمّةُ مَن ينهض من نومه أوَّلًا أن يضع الغلّايةَ على الموقد، ويعدّ طعامَ الفطور: خبزًا مُحمَّصًا، وفلفلًا مملَّحًا، وسميطًا يشترونه من بائعٍ جوّالٍ على الطريق مع مكعَّبات جبنة مغمَّسةٍ بزيت الزيتون، ووريقتيْن من أوراق إكليل الجبل. واحدة لها، وأخرى له.

وكان د/علي يتمسَّك بعد الفطور بعادةٍ لا تتغيَّر؛ وهي الإمساكُ بكتاب، وإشعالُ سيجارة، والبدءُ بقراءة مقاطع منه بصوتٍ عالٍ. وكانت ليلى تُدرك أنَّه يريد منها أن تُشارِكَه شغفَهُ بالشيوعيَّة. كان يريد أن يصبحا عضويْن في النادي نفسه؛ مواطنيْن في الأمَّة نفسها؛ حالميْن بالحلم نفسه. وقد أقلقها هذا الأمرُ قلقًا عميقًا. ومثلما أخفقتْ ذات مرَّةٍ في الإيمان بربّ والدها، فقد ساورها القلقُ أيضًا هذه المرَّة من الإيمان بثورة زوجها. لعلَّ السَّبب يرجع إليها. لعلَّها لا تملك في أعماق نفسها إيمانًا كافيًا.

على الرغم من ذلك، ظنَّ د/علي أنَّ القضيَّة قضيَّةُ وقت، وأنَّها سوف تنضمّ إلى الصفوف في يومٍ من الأيَّام. ولهذا، ظلَّ يرفدها بكلّ المعلومات التي يقدر عليها سعيًا إلى تحقيق هذا الغرض.

. أتعلمين كيف قُتِل تروتسكي؟

. لا يا حبيبي، أخبرني.

ثمَّ مرَّرتْ أناملها على لفائف الشعر الأسود النامية على صدره.

قال د/علي في وجوم:

ـ قُتِل بمعول ثلج. كانت تلك أوامرَ ستالين. لقد أرسل سفَّاكًا إلى المكسيك، إذ كان تروتسكي قد روَّعه برؤيته العالميَّة. كان الاثنان خصميْن سياسيَّيْن. ينبغي أن أحدِّثكِ عن نظريَّة تروتسكي الخاصَّة بالثورة الدَّائمة. سوف تعجبُكِ.

تساءلتْ ليلى إن كان ثمَّة شيءٌ دائمٌ في هذه الحياة! لكنَّها رأت أنَّ من الأفضل أن تحتفظَ بشكوكها لنفسها، وقالت:

. نعم يا حبيبي، أخبرْني.

كان د/علي قد طُرِد من الجامعة مرَّتيْن بسبب قلَّة علاماته وضعف حضوره، ثمّ أعيد مرَّتيْن أيضًا بفضل قرارَيْ عفوٍ مُنفصليْن صادريْن في حقّ الطلَّاب الفاشلين، غير أنَّه لا يزال يذهب إلى الجامعة. لكنَّ ليلى لم يكن لديْها أيُّ أملٍ في أن يأخذ تعليمَه على محمل الجِدّ؛ فالثورة هي شغلهُ الشاغل، ولا غسيل الدِّماغ البورجوازيّ الذي كان يصرّ البعض على تسميته «تعليمًا». وكان يلتقي كلَّ بضع ليالٍ أصدقاءه لتعليق الملصقات وتوزيع المنشورات. كان لا بدَّ من تنفيذ هذه المهامّ تحت جنح الظلام بأكبر قَدْرٍ من الحَذَرِ والسُّرعة. وعلى حدِّ قوله: «مثل العقبان الذهبيَّة». وفي يومٍ ما، عاد إلى البيت ومن حول عيْنه كدمة. فقد نصَبَ الفاشيُّون كمينًا لهم. وفي ليلةٍ أخرى، لم يَعُدْ إلى الدار قطّ، فأنفقت اللَّيلةَ وهي في منتهى القلق. غير أنَّها كانت تعلم، شأنه، أنَّهما على العموم زوجان سعيدان.

مكتبة[16.07.20 15:34] @.,

***

1 أيَّار 1977. في وقتٍ مُبكّر من النهار، خرج د/ علي وليلى من شقَّتهما الصَّغيرة للانضمام إلى المسيرة. كانت ليلى مُتوتِّرة الأعصاب، ونخزَ معدتَها ألمٌ شديد، إذ خَشيَتْ أن يراها أحدٌ ويستدلّ عليها. وفكَّرتْ في ما ستفعله إنْ تبيَّنَ أنَّ الرجل الذي يسير بجانبها في المسيرة زبونٌ قديم من زبائنها؟ شعر د/علي بمخاوفها، إلَّا أنَّه ألحّ عليها بالذهاب برفقته. أخبرها أنَّها تنتمي إلى الثورة، ولا ينبغي أن تسمح لأيّ شخصٍ بأن يُخبرَها أنَّها لا تملك موقعًا في مجتمع المستقبل العادل. وكلَّما ازداد تردُّدها، ازداد عنادًا بأنَّ لها الحقّ في المشاركة في عيد العمَّال أكثر من أيّ شخصٍ آخر، بل أكثر منه ومن أصدقائه: فهم في نهاية المطاف ليسوا سوى طلَّابٍ مُتعثِّرين؛ أمَّا هي، فكانت بروليتاريَّة حقيقيَّة.

ما إن اقتنعتْ ليلى حتَّى استغرقتْ وقتًا طويلًا في اتِّخاذ قرارٍ بشأن الثياب التي ينبغي أن ترتديها. بدا لها أنّ ارتداءَ البنطال خيار جيِّد، ولكنْ إلى أيِّ حدّ يكون ضيِّقًا، وما قماشُه، وما لونُه؟ أمَّا بالنِّسبة إلى الجزء الأعلى من البدن، فاعتقدتْ أنَّ المعقول هو أن تختار قميصًا اعتياديًّا من القمصان التي تُفضِّلها كثيراتٌ من النساء الاشتراكيَّات، فضفاضًا وغير كاشف . وإنْ كانت تريد أن تبدو جميلة أيضًا، أنثويَّة. أهذا شيء سيِّئ؟ شيء بورجوازيّ؟ في نهاية المطاف، قرَّرتْ أن ترتدي ثوبًا أزرقَ بياقة مخرَّمة، وتضع حقيبةً حمراء من حول صدرها، وترتدي سترةً صوفيَّةً قصيرةً بيضاءَ وتنتعل حذاءً خفيضًا، بلا بهرجة ولا تزويق. ولكنَّها كانت تأمل ألَّا يبدو مظهرُها وكأنَّها لا تتبع الزيّ الحديث. وكانت تبدو بجانب د/ علي وكأنَّها قوسُ قزح. فقد اختار هو بنطالًا من الجينز الغامق، وقميصًا بأزرارٍ سود، وحذاءً أسود.

عندما التحقا بالمسيرة، تملَّكتهما الدَّهشةُ من ضخامتها، إذ لم يسبق لليلى أن رأت مثلَ هذا العدد الكبير من الناس مجتمعين

على هذا النحو. فقد تجمَّع مئاتُ الآلاف . من طلبةٍ وعمَّالِ مصانع وفلَّاحين ومعلِّمين . يسيرون واحدهم خلف الآخر، وجوهُهم طافحةٌ بالتَّركيز. وكانت الأصوات مثلَ نهرٍ لا نهاية له، يتدفَّق إلى أمام. شعاراتٌ تُردَّد وأناشيدُ تُنشَد. في الصفوف الأماميّة من المسيرة عازفُ طبل، إلَّا أنَّ ليلى لم تتمكَّن من رؤيتِه على الرَّغم من بذلها قُصارى جهدها. وكانت عيناها الوجِلتان تشعَّان بطاقةٍ مُتجدِّدة. وشعرتْ لأوَّل مرَّةٍ في حياتها بأنَّها جزءٌ من شيءٍ أكبر من نفسها.

كانت هُناك لافتاتٌ وملصقاتٌ في كلِّ الأنحاء، وانتشرتْ حشودُ الكلمات في كلِّ الاتِّجاهات، وقد كُتِب عليها:

- حاربوا الإمبرياليَّة.

. لا واشنطن ولا موسكو، بل اشتراكيَّة عالميَّة.

. يا عمَّالَ العالم اتَّحِدوا.

. الزعيم بحاجة إليكم، وأنتم لستم بحاجة إلى الزَّعيم.

. التهموا الأغنياء.

ورأت لافتةً تقول: «كُنَّا هناك: وألقينا الأميركان في البحر.«

تورَّدتْ وجنتاها، فقد كانت هناك أيضًا في ذلك اليوم من شهر تموز 1968 تشتغل في الماخور. وتذكَّرتْ كيف دفعت المديرةُ المُزَّةُ كلَّ واحدةٍ منهنَّ إلى تنظيف المكان، وما أعظمَ خيبتَها حين لم يظهر الأميركيُّون!

كان د/علي ينظر كلّ بضع دقائق إلى ليلى ليرى كيف حالها. ولم يترك يدها طوال الوقت. كان ذلك النهار عابقًا بأريج شجرة الأرجوان، وجاشت صدورُ الجميع بأملٍ جديدٍ وشجاعةٍ مُتجدِّدة. ولكنْ بعد أن شعرتْ ليلى بالمرح والابتهاج، وكأنَّها تنتمي أخيرًا إلى مكانٍ ما، وبعد أن سمحتْ لنفسها بهذه اللَّحظة النادرة من الخفَّة، فإنَّه سرعان ما أطبقَ عليها ذلك الشعورُ المألوفُ من القلق

والحاجة إلى الحَذَر. وبدأت تَلحظُ تفاصيلَ أخفقتْ في البداية في رؤيتها.

مكتبة[16.07.20 15:34] .,@

فمن تحت الرائحة الطيِّبة، اشتمَّت رائحةَ الأجساد تتفصّد عرقًا، وتفوح منها رائحةُ التبغ والأنفاس الكريهة والغضب . غضب له من الشدَّة ما يجعله واضحًا وملموسًا.

راقبتْ ليلى كلَّ جماعةٍ تحمل شعاراتِها، وكلَّ جماعةٍ منفصلةٍ قليلًا عن غيرها. وبينما كانت المسيرةِ منطلقةً إلى أمام، انساب إلى سمْعها صوتُ بعض المحتجّين يصرخون ويصبُّون اللَّعناتِ على الآخرين. فتملَّكتها دهشةٌ لا توصف. فهي، حتَّى هذه اللَّحظة، لم تكن تفهم أنَّ الثوريِّين منقسمون على أنفسهم مثلَ هذا الانقسام! فالماويُّون يحتقرون اللينينيِّين، واللِّينينيُّون يتقزَّزون من الفوضويِّين. وكانت ليلى تعرف جيِّدًا أنَّ حبيبها يسير في اتِّجاهٍ

آخر مختلفٍ تمامًا: وهو اتِّجاهُ تروتسكي وثورته الدَّائمة. وتساءلتْ إنْ كانت كثرةُ الثوريّين قد تدمِّر الثورةَ، إلَّا أنَّها في هذه المرَّة أيضًا احتفظتْ بأفكارها لنفسها. وبعد مرور ساعاتٍ من شقّ الطريق بصعوبة، وصلا إلى المنطقة المحيطة بفندق إنتركونتيننتال في ساحة تقسيم. ازدادت حشودُ الجماهير، وانتفخَتْ مثلَ بالون، وأصبح الجوُّ رطبًا على نحوٍ لا يُطاق. وعند الغروب، اكتسحتْ أشعَّةُ الشمس البرونزيَّة وجوهَ المحتجِّين. وفي أحد منعطفات المنطقة، انبعث نورٌ من أحد مصابيح الشارع، وإنْ في وقتٍ مبكِّرٍ قليلًا، خافتًا مثلَ همسة. وعلى مبعدةٍ من المكان، كان أحدُ الزعماء الاتِّحاديِّين قد اعتلى ظهرَ حافلةٍ، وبدأ يُلقي خطابًا حماسيًّا، بصوتٍ تلقائيّ وقويّ، من خلال مكبِّر الصوت. انتاب التعب ليلى، وتمنَّت لو كان في وِسْعها الجلوسُ، ولو للحظةٍ واحدة. ومن طرف عيْنها، لاحظتْ د/علي وفكّه الجامدَ ومَيَلانَ عظام وجنتيْه والتوتُّرَ في كتفيْه. كان مظهرُه الجانبيّ بهيًّا بهاءً مذهلًا أمام آلاف الوجوه المحيطة بهما، وأمام الألَق المنبعث من الشمس الغاربة الذي صبغ شفتيْه بلون النبيذ. أرادت أن تُقبِّلَه، تتذوَّقَه، تشعرَ به في أعماقها. خفضتْ من نظرتها، منزعجةً من احتمال أن يَخِيب ظنُّه

إنْ أدرك أنَّ ما يشغل بالَها أمرٌ تافهٌ، في حين كان عليها أن تفكّرِ في أشياءَ مهمَّة.

سألها:

. أأنتِ على ما يرام؟

. آه، أكيد.

تكلَّمتْ ليلى بنبرةٍ ظنَّت أنَّها مناسبةٌ كي لا تُفصح عن حماسها الفاترِ تجاه المسيرةِ، وأضافت:

. ألديكَ سيجارة؟

. طبعًا يا حبيبتي.

أخرج علبةَ سجائره، وقدَّم إليها واحدةً، وأخذ لنفسه أخرى. حاول أن يشعل سيجارتها بولّاعته، إلَّا أنَّها لم تشتعل.

أمسكتْ ليلى الولّاعة بنفسها قائلةً له:

. دعني أشعلها.

حدث ذلك حين صكَّت سمعَها الأصواتُ: سلسلة من القعقعات صادرة من جميع الأماكن، ومن فوق، كأنَّ اللَّه يَضْرب بعَصًا على حاجزٍ في السماء! وغَشِي الساحةَ صمتٌ مريب، وكأنَّ الحركة توقَّفتْ فيها، وحَبَسَ الناسُ أنفاسَهم، وطغى هدوءٌ شامل. ثمَّ تناهت إلى الأسماع ضربةٌ قويَّة. هنا، أدركتْ ليلى ما هي هذه الضربة، فتقلَّصتْ أحشاؤها في هلع.

من خلف الأرصفة، ومن وراء الجدران الوقائيَّة، كان القنَّاصون قد اتَّخذوا مواضعَهم في الطوابق العلْويّة من فندق إنتركونتيننتال. قنَّاصون بأسلحة آليَّة يطلقون النارَ . مسدِّدين طلقاتهم على الحشد مباشرةً. ومزَّقتْ صرخةٌ مدوِّيةٌ صمتَ المحتجِّين المروّع. ثمَّة امرأةٌ تصرخ. وشخصٌ يصيح بالناس أَنِ اهربوا. راح الناس يهربون، لا يدرون

مكتبة[16.07.20 15:34] ,.@

أيَّ طريقٍ يسلكون. وكان إلى يسارهم شارعُ صنّاع المراجل . وهو الشارع الذي تقطن فيه نالان برفقة صديقاتها وسلاحفِها. فما كان من الناس إلَّا أن سلكوا ذلك الاتِّجاهَ بالآلاف، شأنهم في ذلك شأن نهرٍ يحطّم ضفَّتيْه. وراح الناس يشقُّون طريقَهم ويتدافعون بالمناكب، ويصرخون ويركضون، ويتعثَّرون الواحد بالآخر.

في نهاية الشارع، ظهرتْ للعيان مَرْكبةُ شرطةٍ مدرَّعة من حيث لا يدري أحدٌ، وقطعت الطريق. هنا، أدرك المحتجُّون أنَّهم باتوا واقعين بين خطر القنَّاصين من ورائهم، وحقيقةِ الاعتقال والتَّعذيب من أمامهم. وعلى حين غرَّة، ازدادت حدَّةُ الرَّمْي الذي كان قد خفَّ لحظةً، ليتحوَّل إلى طقطقةٍ لا نهاية لها. ونَدَتْ زمجرةٌ هائلةٌ حين فتح آلافُ الناس أفواهَهم بغتةً ومرَّةً واحدة، يصرخون صرخةً عميقةً في ذعر. وراح مَنْ في المؤخّرة يندفعون إلى الأمام في تكاتفٍ جماعيّ، ويسحقون مَنْ أمامهم، مثل حجرَيْ رحًى يطحن أحدُهما الآخر. وانسلَّت شابَّةٌ بثوب شاحبٍ مزخرفٍ بالورود، وانزلقتْ تحت المَرْكبة المدرَّعة. صاحت ليلى بأعلى صوتها، ودقَّاتُ قلبها تتردَّد في أذنيْها. وفجأةً، وجدتْ نفسَها وقد أفلتت منها يدُ د/علي. هل هي التي أفلتتْها أم هو الذي أفلتَها؟ لا تدري.. ففي لحظةٍ، كان في وسعها أن تشعر بأنفاسه على وجنتيْها، وفي لحظةٍ أخرى كان قد اختفى.

غير أنَّها تمكَّنتْ من رؤيته في لحظةٍ عابرةٍ على بعد ثماني أقدام أو عشر. فنادته باسمه مرَّةً أخرى، إلَّا أنَّ الحشود الغفيرة جرفتها بعيدًا عنه، مثلَ موجةٍ عاتيةٍ تدفع في طريقها كلَّ شيء. ترامى إلى مسامعها صوتُ إطلاق الرصاص، بيْد أنّهُ لم يَعُد في وسعها أن تُحدِّد مصدَره؛ فلربمّا كانت الرصاصات تأتي من تحت الأرض أيضًا. وعلى مقربةٍ منها، فَقدَ رجلٌ ضخمٌ توازنَه وسقط مصابًا في رقبته. لم يكن في مستطاعها نسيانُ التعابير التي ارتسمتْ على وجهه؛ تعابير تنمّ عن عدم التَّصديق أكثر ممَّا تدلّ على الألم. قبل بضع دقائق فقط، كانوا في دفَّة التاريخ، يغيِّرون العالم، يحطِّمون النِّظام. والآن صاروا مُطارَدين ولا تسنح لهم فرصةٌ لرؤية سفَّاكي دمائهم.

***

في اليوم التالي، الثاني من أيَّار، جُمِعَ أكثرُ من ألفيْ رصاصةٍ في المنطقة المحيطة بساحة تقسيم. وأوردت التَّقارير أنَّ أكثر من مائة وثلاثين شخصًا أصيبوا إصاباتٍ بالغة.

اتَّصلتْ ليلى بكلِّ المستشفيات الحكوميَّة والأطبَّاء الخصوصيِّين في المنطقة. وحين لم تَعُد تجد في نفسها القوَّةَ على الحديث مع الغرباء، تولَّت إحدى صديقاتها البحث. وكانتا في كلِّ مرَّةٍ حذرتيْن من إعطاء اسم د/ علي غير المستعار، لأنَّ الحياة ـ مثل ليلى ـ أعطته اسمًا مستعارًا طوال تلك المدَّة.

كان ثمَّة عددٌ كبير يحملون اسمَ «علي» في المستشفيات التي ذهبتا إليها. بعضُهم يتلقّوْن العلاج على الأسرَّة، والبعض الآخر كان في المشرحة، ولكنْ لم يكن ثمَّة أثر لزوجها. وبعد مرور يوميْن، جرَّبتْ نالان مكانًا آخر في غالاتا التي تعرفها منذ زمن. فأكَّدوا لها أنَّ د/علي أُحضِر إلى ذلك المكان، إذ كان أحد الضحايا الأربع والثلاثين الذين فقدَ معظمُهم حياتَه نتيجةً للدهس بالأقدام في شارع صُنَّاع المراجل.

مكتبة[16.07.20 15:35] ,.@

- 17 -

عشرُ دقائق وثلاثون ثانية

في الثواني الأخيرة، وقبل أن يستسلم دماغُ ليلى التكيلا، تذكَّرتْ مذاقَ الويسكي بالشَّعير. فقد كان هذا آخرَ ما مرّ بين شفتيْها ليلةَ وفاتها.

تشرين الثاني 1990. كان يومًا اعتياديًّا. ففي عصر ذلك اليوم، أعدَّت ليلى وعاءً من الفشار، لها ولجميلة التي كانت تقيم معها.

وَصفَة خاصَّة ـ زبد وسكَّر وذُرة وملح وإكليل الجبل. وكانتا قد بدأتا تتناولانه حين رنَّ الهاتف. كانت المديرةُ المُرَّة هي المتَّصلة.

ـ أأنتِ مرهقة؟

سمعَتْ في الخلفيّة موسيقى صوفيَّةً عذبة، تختلفُ عن النَّمط الذي تصغي إليه المديرةُ عادةً.

ـ ما الفرق؟

تظاهرت المديرةُ المُرَّة بأنَّها لم تسمع العبارة. فقد كانتا على معرفة واحدتهما بالأخرى منذ مدَّةٍ طويلة، وتتجاهلان الأشياءَ التي لا تزعجانهما بالمصارحة.

ـ اسمعيني، لديَّ زبونٌ رائع. يذكِّرني بذلك الممثِّل المشهور؛ الممثِّل الذي يقود السيَّارةَ الناطقة.

ـ أتقصدين بطلَ مسلسل «نايت رايدر»؟

. أجل، أصبْتِ! هذا الرجل يُشْبهه تمامًا. وعلى أيِّ حال، فإنَّ أسرتَه واسعةُ الثراء.

سألتْ ليلى مُحتدّةً قليلًا:

. إذًا، ما سرُّه؟ جيوبٌ عامرة، شابّ، بهيُّ الطَّلعة؛ إنَّ مثل هذا الرجل لا يحتاج إلى مومس.

ضحكت المديرةُ المُرَّةُ في سرِّها، وقالت:

. إنّ أُسرتَهُ ... كيف أوضح لك... إنّها أُسرةٌ محافظةٌ جدًّا. بل متطرِّفة. والدُه طاغيةٌ مُتنمِّر. ويريد من ابنه أن يتولَّى أعمالَه.

. لم تُخبريني بعدُ بسرِّ مجيئه إلى هُنا!

. الصبر فضيلة. في الأسبوع المقبل، سيتزوّج هذا الشابّ. غير أنَّ والده قلق قلقًا عميقًا.

. لماذا؟

ـ لسببيْن: الأوَّل، أنَّ الابن لا يريد الزواجَ؛ لا تُعجبُه خطيبتُه. وقد أخبرَتني مصادري بأنَّه لا يحتمل فكرةَ البقاء معها في غرفةٍ واحدة. وأمّا السَّبب الثاني، وهو ما يشكِّل مشكلةً عويصةً ـ أعني ليس من وجهة نظري، بل من وجهة نظر الأب ....

ـ أفصِحي، يا مديرتي الحلوة.

مكتبة[16.07.20 15:35] @.,

قالت المديرةُ المُرَّةُ متنهِّدةً، وكأنَّ دروب العالم قد أعيتها :

ـ هذا الشابّ لا يحبّ النِّساء ـ ولديْه عشيقٌ منذ زمنٍ طويل. والدُه يعرف بقصَّته؛ يعرف كلّ شيء، ويعتقد أنَّ الزواج سيشفيه من هذا

السلوك المثْلي. ولهذا، عثر له على عروس، وخطَّط له زواجه، واتَّخذ قرارًا بأسماء الضيوف، كما أعتقد.

. يا له من أب! يبدو لي أنّه غبيّ أو أحمق.

. نعم، لكنَّه ليس غبيًّا عاديًّا!

. هه! غبيّ باشا.

ـ حسنًا. إنَّ هذا الغبيّ باشا يريد امرأةً لطيفةً وخبيرةً ومُحنَّكة، تَعْرف كيف تُظهر له الشروطَ والقواعدَ في الإغراء قبل ليلة الزفاف.

ـ لطيفة وخبيرة ومُحنَّكة.

كرَّرتْ ليلى العبارةَ ببطء. مستطعِمةً كلَّ مفردةٍ من مفرداتها. إلَّا أنَّ المديرة المُرَّة نادرًا ما أثنت عليها، إنْ أثنت فعلًا. وقالت بنفاد صبر:

ـ كان في وسعي أن أتَّصل بإحدى الفتيات الأخريات، فقد تقدَّمتِ أنتِ في السنّ حتمًا. لكنَّني أعلم أنَّكِ تحتاجين إلى المال. ألا تزالين تتولّين رعايةَ تلك الفتاة الإفريقيَّة؟

خفضتْ ليلى صوتَها قائلةً:

. نعم، إنَّها في رفقتي. حسنًا إذًا. أين؟

. الإنتركونتيننتال.

تجهَّم وجهُ ليلى، وقالت:

. أنت تعلمين أنَّني لا أرتاد ذلك المكان.

تنحنحت المديرةُ المُرَّة، وقالت:

. حسنًا، ذلك هو العنوان، والخيارُ لكِ. لكنْ ينبغي أن تتعلَّمي مواصلةَ الطريق. فزوجُكِ د/علي قد توفِّي منذ زمن طويل. فما الفرق بين هذا الفندق وذاك؟

لم تتفوَّه ليلى بكلمة.

. حسنًا. أنا لا أستطيع الانتظارَ طوال النهار.

قالت ليلى:

. لا بأس، سوف أذهب.

مكتبة[16.07.20 17:07] ,.@

. أنتِ فتاة طيِّبة. سينتظركِ في جناحٍ فاخرٍ من الدَّرجة الأولى يُطلُّ على البوسفور. عليكِ أن تكوني هناك عند العاشرة إلَّا ربعًا. آه. ثمّة شيءٌ آخر... ينبغي أن ترتدي ثوبًا طويلَ الكُمَّيْن مقوَّر

الصَّدر، ذهبيّ اللَّون، برَّاقًا، ومن نافلة القول أن يكون قصيرًا. هذا مطلب خاصّ.

. أهو مطلبُ الابن أم مطلبُ الأب؟

ضحكت المديرةُ المُرَّة.

. بل مطلب الأب. لقد قال إنَّ ابنه يحبُّ الذَّهبَ وكلَّ لمَّاعٍ. وقال أيضًا إنَّ هذا قد يفيده.

. أودّ أن أقول لكِ شيئًا. دعكِ من الابن، وأرسليني إلى الغبيّ باشا، فأنا أودّ أن ألتقيه مباشرةً . حقًّا أقول. وقد يخفِّف هذا اللّقاءُ حدَّتَه.

. لا تكوني سخيفة. إنّ ذلك العجوز قد يطلق النارَ علينا كلتيْنا.

. لا بأس إذًا... لكنَّني لا أملك ثوبًا بتلك المواصفات.

قالت المديرةُ مستهجنةً:

. إذًا، اذهبي واشتري واحدًا، ولا تثيري غضبي واستيائي.

تظاهرتْ ليلى بأنَّها لم تسمع تلك العبارة، وقالت:

. أأنتِ متأكِّدة من أنَّ الابن سيكون مرتاحًا إلى هذه الخطَّة؟

. كلَّا، فقد سبق أن أرسلوا إليه أربعَ فتيات من قبل، والواضح أنَّه لم يلمس أيًّا منهنَّ. ولهذا، فإنَّ مهمَّتك أن تُغيّري رأيه. اتَّفقنا؟

ثمَّ أغلقت الهاتف.

***

في المساء، توجَّهتْ ليلى إلى شارع الاستقلال، وهو شارع كانت تتجنَّب الذهابَ إليه إلَّا عند الضرورة. كان الطريقُ الرئيس فيه مزدحمًا دومًا. انضمَّت إلى حشود المارَّة، مترنِّحةً ومتمايلةً بكعبيْها العالييْن، وقميصِها المقوَّر، وتنُّورتِها الجلديَّةِ القصيرة الحمراء. كان الناس يسيرون بخطواتٍ صغيرةٍ مُتزامنة، وبدَت أجسادُهم وكأنّها ذابَت بعضُها في بعض. ومن بداية الشارع حتّى نهايته، تدفّقتْ تلك الحشودُ وتسرّبَتْ في اللَّيل، مثلما يفعلُ الحبرُ السائلُ من قلمٍ مكسور.

حملقت النساءُ فيها، ونظر الرجالُ إليها شَزَرًا. ورأت الزوجاتِ متأبّطاتٍ أذرعَ أزواجهنَّ، بعضُهنّ يمتلكنَهم، والأخرياتُ سعيدات لأنَّهنَّ مملوكات. وشاهدت الأمَّهاتِ يدفعن عرباتِهنَّ الصغيرةَ في طريق العودة إلى بيوتهنَّ بعد زيارةِ أُسرهنّ. ورأت شابّاتٍ قد خفضن من أبصارهنَّ. وثمَّة بناتٌ وشبَّان يمسكون أيدي بعضهم بعضًا خلسةً. كان الناس يتصرَّفون وكأنَّهم فوق مستوى محيطهم، واثقين بأنَّ المدينة ستكون في انتظارهم في اليوم التالي وكلّ الأيَّام المقبلة. ثمَّ رأت، بنظرةٍ عابرةٍ، نفسَها على زجاج أحد المتاجر وقد بدَت مرهقةً، مشتّتةَ الذهن، بما يتجاوز صورتها عن نفسها. دخلت المتجرَ. استدلَّت عليها من زياراتها السَّابقة إحدى البائعات، وهي امرأةٌ مهذَّبةٌ ورقيقةُ الكلام، تشدّ منديلًا في مؤخَّرة رأسها. ساعدتْ ليلى في العثور على الثوب المناسب. وقالت مشرقةَ الوجه، حين خرجتْ ليلى من غرفة قياس الثياب:

مكتبة[16.07.20 17:07] @.,

- آه، يبدو ثوبًا رائعًا عليكِ. حقًّا، إنَّه يكمِّل ملامحَكِ.

تلك كلماتٌ قيلت لأعدادٍ لا تُحصى من النساء، بصرف النَّظر عمَّا يرتدين. لكنّ ليلى ابتسمتْ في وجه البائعة، وذلك لأنَّ الأخيرة لم تُظهِرْ أيّ علامةٍ تدلّ على حُكمٍ مُسبَّق تجاه ليلى، التي دفعتْ ثمنَ الثوب ولم تخلعْه. أمَّا الثيابُ التي كانت ترتديها، فقد وضعَتها في كيس من البلاستك، على أن تأخذها بعد عودتها.

نظرتْ مليًّا إلى ساعتها. وحين رأت أنَّ لديْها بعضَ الوقت ينبغي تزجيتُه، اتَّجهتْ إلى مطعم كروان. كانت الرَّوائح تنبعث من الأطعمة على امتداد الشارع. الكباب والأرزّ بالحمّص ومصارين الغنم المقليَّة.

في كروان، شاهدتْ نالان تتناول شرابًا برفقة زوجيْن مثليَّيْن من السويد كانا في رحلةٍ على الدرَّاجة من غوثنبرغ إلى كراتشي . 4,855 ميلًا. كان عليهما أن يقطعا تركيّا عَرْضًا من جهةٍ إلى أخرى، ثمَّ العبور إلى إيران. في الشهر الماضي، توقَّفا في برلين، وشاهدا علمَ ألمانيا الغربيّة يرفرف أمام مبنى الرايخستاغ عند منتصف اللَّيل. كان السويديَّان يُطْلعان نالان في تلك الأثناء على صُوَرٍ من رحلتهما، وبدَت أنَّها معجبة بالتواصل معهما على الرَّغم من عدم وجود لغة مشتركة بينها وبينهما. جلستْ ليلى معهما برهةً وجيزة، وكانت سعيدةً بمراقبتهما في صمت.

كانت ثمَّة جريدةٌ على المائدة. فقرأتْ ليلى الأخبار أوَّلًا، ثمَّ انتقلتْ إلى قراءة برجها:

» تعتقدينَ أنَّكِ ضحيَّةٌ لظروفٍ خارج نطاق سيطرتك. سيكون في مقدورِكِ اليومَ أن تُغيّري ذلك الوضع. إنّ اصطفافَ الكواكب سيضعك على نحوٍ غير مألوف في حالة معنويَّات مرتفعة. توقّعي مُقابلةً مثيرةً في القريب العاجل، لكنْ شريطة أن تأخذي أنتِ زمام المبادرة. حافظي على صفاء ذهنك، ولا تحبسي مشاعرَكِ داخلَكِ بعد الآن. اخرُجي في نزهة، وكوني سيِّدةَ حياتك. آن الأوان لكي تعرفي نفسَكِ.«

هزَّت ليلى رأسها وأشعلتْ سيجارة، ووضعت الولّاعة على الطاولة. ما أجمل تلك العبارة: «اعرفي نفسَكِ». لطالما كان القدماء مولعين بهذا الشعار، ونقشوه على جدران معابدهم. كانت ليلى ترى حقيقته، لكنَّها رأت أنَّ النصيحة غير كاملة، ويجب أن تكون: «اعرفي نفسك، واعرفي الأحمقَ حين ترينه». فلا بدَّ من أن تتلازم معرفةُ النَّفس ومعرفةُ الحمقى. ومع ذلك، ولو لم تكن مرهقةً آخر تلك اللَّيلة، لعادت إلى البيت سيرًا على قدميْها، ولحاولَتْ أن

تُصفّي ذهنَها، وأن تكون سيِّدةَ حياتها، بصرف النَّظر عن معنى ذلك.

***

في الساعة الموعودة، كانت ليلى قد ارتدت ثوبًا جديدًا، وانتعلتْ حذاءً بكعبٍ عالٍ، واتَّجهتْ إلى فندق إنتركونتيننتال بهيكله الشامخ والثابت الذي يرتفع صوب سماء الليل. شعرتْ بتوتُّرٍ في ظهرها، وراودها شعورٌ ضعيفٌ بأنّها ستسمع هديرَ مَرْكبةٍ مدرَّعةٍ من وراء منعطف، أو صوتَ رصاصةٍ تمرُّ بجانب رأسها، أو صرخاتٍ وصيحاتٍ تتضاعف. وعلى الرَّغم من أنَّ موقفَ السيَّارات أمام المبنى كان خاليًا، فإنَّها شعرتْ بوجود مئات الأجساد تضغط من كلِّ الجهات. ضاقت حنجرتُها قبل أن تطلق الهواءَ رويدًا رويدًا من رئتيْها الموجعتيْن.

بعد لحظة، دخلتْ من الأبواب الزجاجيَّة، وجالت ببصرها من حولها، متمالكةً رباطةَ جأشها. ثريّاتٌ صُنِعتْ خصّيصًا بحسب الطلب، ومصابيحُ من نحاسٍ أصفر، وأرضيَّاتٌ من رخام: المدخلُ المبهرجُ نفسُه في مؤسَّساتٍ مماثلةٍ في كلِّ مكان. لا علامة تدلّ على ذاكرة جماعيَّة، ولا معلومات مشتركة عن التاريخ. ذلك أنّ المبنى بأكمله قد أعيدتْ زخرفُته، وغُطِّيتْ نوافذُه بستائرَ فضّيَّةٍ، وحلَّت محلَّ الماضي بهرجةٌ رخيصة.

كان ينبغي الدخولُ عبر بوّابة أمنيّة للكشف عن المعادن. وثمّة حزامٌ ناقلٌ بجوارها، وإلى جانبه ثلاثةُ حرّاسٍ ضخامُ البُنية. كانت الحالة الأمنيَّة قد شُدِّدتْ على امتداد المدينة منذ الهجمات الإرهابيَّة التي استهدفتْ بعضَ الفنادق في الشرق الأوسط. وضعَتْ ليلى حقيبةَ يدها على الحزام الناقل، ومرّت عبر بوّابة المراقبة المعدنيّة وهي تهزّ ردفيْها. نظر إليها الحرّاسُ شزرًا، إلّا أنّهم كانوا أكثر من مكشوفين بالنسبة إليها. وبينما كانت تستردّ حقيبةَ يدها

من الطرف الآخر للحزام، مالت إلى الأمام كي تمنحهم نظرةً كاملةً إلى تضاريس جسدها.

مكتبة[16.07.20 17:07] .,@

وراء طاولة الاستقبال، وقفتْ شابَّةٌ ذاتُ سُمرةٍ حقيقيَّة وابتسامةٍ مُزيَّفة، ولاح على وجهها وميضُ السرور عند اقتراب ليلى منها. وفي غمضة عيْن، كانت غيرَ متأكِّدةٍ إنْ كانت ليلى كما تصوَّرتْها، أمْ ضيفةً أجنبيَّةً عازمةً على قضاء ليلةٍ ماجنة في إسطنبول، وتبحث عن ذكرى لا تُنسى كي تشاركها مع أصدقائها حينما تعود إلى بلادها. فإذا تبيّن أنّ القادمة تنتمي إلى التصنيف الأخير، فسوف تحافظُ الموظّفةُ على ابتسامتها. وأمَّا إذا كانت تقع ضمن التصنيف الأوّل، فستتحوّل إلى العبوس.

ما إنْ تكلَّمتْ ليلى حتَّى تغيَّرتْ ملامحُ الشابَّة من فُضولٍ مؤدَّب إلى ازدراءٍ مُطلَق:

قالت ليلى في حبور:

. مساء الخير يا عزيزتي.

ردَّت موظَّفةُ الاستقبال بصوتٍ باردٍ برودَ نظرتِها:

. كيف يمكنني مساعدتُكِ؟

أعطت ليلى الموظَّفةَ رقمَ الغرفة، وهي تنقر بأظافرها على الطاولة الزجاجيَّة.

ـ ومَن الزائرة؟

ـ قولي له إنَّها السيِّدة التي ينتظرها طوالَ حياته.

ضاقت عينا موظَّفة الاستقبال، إلَّا أنَّها لم تنبسْ بكلمة. وأجرت الاتِّصالَ بسرعة. وبعد حديثٍ قصيرٍ ـ بينها وبين الرجل على

الطرف الآخر من الهاتف ـ أنهت المكالمة، وقالت من غير أن تنظر إلى ليلى:

ـ إنَّه في انتظارك.

ـ شكرًا لكِ يا عزيزتي.

مشت ليلى إلى المصعد مشيةً متَّئدةً، وضغطتْ على زرِّ الصعود. كان ثمَّة عجوزان أميركيَّان في طريقهما إلى غرفتهما، فاستقلَّا المصعد، وألقيا التحيّة عليها بتلك الطريقة اللَّطيفة العفويّة التي كان يتمتَّع بها ذلك الجيلُ من الأميركيّين. كانت اللَّيلة بالنسبة إلى هذيْن العجوزيْن قد انتهت. أمَّا في نظر ليلى، فإنّها قد بدأتْ للتوّ.

***

الطابق السابع. ممرّاتٌ طويلةٌ جيّدةُ الإضاءة، وسجّادٌ بنقشات مرقَّطة. وقفتْ ليلى خارج الجناح الفاخر في سطح المبنى، وجذبتْ نَفَسًا قويًّا، وطرقت الباب، ففتحه رجل. كان حقًّا يشبه ذلك الممثِّلَ في السيّارة الناطقة. لاحظَت احمرارًا حول عينيْه اللَّتيْن كانتا ترمشان بسرعةٍ أكبر ممَّا ينبغي، وتساءلتْ إنْ كان يبكي! كان يحمل في يده هاتفًا، وقد تشبَّث به تشبُّثًا قويًّا، وكأنَّه يخشى أن يتركه. كان يتكلَّم مع شخصٍ ما. أتُراهُ عشيقَه؟ أخبرها حدسُها أنَّه لا بدَّ أن يكون كذلك ـ لا المرأة التي سيتزوَّجها.

ـ آه، مرحبًا.. كنتُ في انتظارِكِ. تفضَّلي بالدُّخول.

كان يخبط قليلًا في كلامه. وتأكَّدتْ شكوكُ ليلى حين شاهدتْ نصفَ زجاجةٍ فارغة من الويسكي على الطاولة المصنوعة من خشب الجوز.

مكتبة[16.07.20 17:07] ,.@

أومأ برأسه صوب الأريكة، وقال:

ـ تفضَّلي بالجلوس. ماذا تشربين؟

نزعت الوشاحَ من على رأسها، وقذفتْ به فوق السرير، ثمّ سألته:

- ألديْك تكيلا، يا عزيزي؟

- تكيلا؟ لا، لكنْ في وسعي أن اتَّصل بقسم الخِدمة إنْ شئتِ.

يا لَشدَّةِ أدبه - كسير القلب هذا! لم يمتلك شجاعةَ الوقوفِ في وجه والده، ولم يرغبْ في الاستغناء عن وسائل الرَّاحة التي اعتادها، وربَّما لهذا السَّبب كره نفسَه، وسيظلُّ يكرهها طوال حياته.

لوَّحتْ بيدها.

ـ لا ضرورةَ لذلك. سأشربُ ما تشربه أنت.

ولّاها ظهرَه قليلًا، ثمّ قرَّب الهاتفَ من شفتيْه، وقال:

ـ لقد وصَلَتْ. سأتَّصلُ بك في وقتٍ لاحق. أجل، طبعًا. لا تقلقْ.

بغضّ النَّظر عن هويَّة الشخص الآخر على طرف الهاتف، فلا بدَّ من أنَّه كان يصغي إليهما طوال الحديث. مدَّت ليلى يدَها قائلةً:

. انتظرْ.

حدَّق فيها مُستغربًا.

قالت:

. لا تقلقْ بشأني، وواصلْ حديثَكَ. فسوف أدخِّن على الشرفة.

خرجتْ ليلى من دون إعطائه فرصةً للاعتراض. كانت الإطلالةُ مُميَّزةً؛ إذ انسكبَتْ أضواءٌ خافتةٌ من آخر عبّارة، ومرَّت سفينةٌ سياحيَّةٌ على مبعدة. كما رأت عند الميناء قاربًا بعلامةٍ كبيرة مضيئة تشير إلى بيع الكفتة وسمك الإسقُمريّ. ما أشدَّ ما تمنَّت لو كان في وسعها أن تكون هناك الآن، مُتربِّعةً فوق أحد الكراسي الصغيرة، تأكل خبزًا محشوًّا بالطعام، بدلًا من أن تكون في هذا المكان في الطابق السابع من فندقٍ فخمٍ برفقة اليأس!

بعد عشر دقائق تقريبًا، فَتحَ البابَ المزدوج، وانضمَّ إليها حاملًا كأسيْن من الويسكي، وناولها إحداهما. جلسا متجاوريْن على الأريكة الطويلة، وتلامسَتْ ركبتاهما وهما يحتسيان شرابَهما: ويسكي الشّعير الفاخر.

سألته ليلى:

. سمعتُ أنَّ والِدَكَ مُتديِّن. أيعلم أنَّك تشرب الكحول؟

قطَّب جبينه:

مكتبة[16.07.20 17:08] ,.@

. والدي لا يعلم عنِّي أيَّ شيء.

وراح يحتسي شرابه ببطءٍ، ولكنْ بإصرارٍ أيضًا. فكَّرتْ ليلى إذا واصل الشرابَ على هذا النحو، فسيتملَّكه صداعٌ رهيبٌ في صباح اليوم التالي.

. أتدرين أنَّه كرّر هذا الأمرَ نفسَه خمسَ مرّات في غضون شهرٍ واحد؟ إنَّه لا يتوقَّفُ عن ترتيب مواعيدَ لي مع نساء، فيُرسلني إلى فندقٍ مختلفٍ في كلِّ مرَّة، ويدفع النفقات، ثمَّ يدفعني إلى لقاء هؤلاء الشابّات المسكينات وقضاءِ الليل معهنَّ. إنَّه لأمرٌ يثير الحَرَج .

ازدرد ريقَه، ومضى يقول:

. إنَّ والدي ينتظر بضعة أيَّام، ثمّ يُدرك أنَّني لم أتماثلْ للشفاء، فيرتِّب لي موعدًا آخر. وسيبقى الوضعُ على هذا الحال إلى يوم الزفاف، كما أظنّ.

. وإذا رفضتَ؟

قال، وقد ضاقت عيناه من الفكرة:

. سأفقدُ كلَّ شيء.

احتست ليلى كأسَها، ثمَّ نهضتْ، وأخذت الكأس من يده، ووضعتْها على الأرض بجانب كأسها. حملق فيها متوتِّرًا.

. اسمعْ يا عزيزي. أدرِكُ أنَّك لا تريد فعلَ هذا. وأدرِكُ أيضًا أنَّ هناكَ من تحبّ، وأنَّك تفضِّل أن تكون برفقةِ مَن تحبّ.

شدَّدتْ على الكلمة ما قبل الأخيرة على نحوٍ تفادَت فيه تذكيرَها أو تأنيثَها. ثم أردفتْ :

. اتَّصلْ بمن تحبّ، وادعُه إلى الحضور. انفِقا معًا في هذه الغرفة الرَّائعة، وتحدَّثا، وحاوِلا التوصُّلَ إلى حلّ.

. وماذا عنكِ؟

. سأنصرف، ولكنْ ينبغي ألَّا تُخبرَ أحدًا. ولا يتعيَّن على والدِكَ، ولا على مَنْ رتَّبتْ لقاءنا، أن يعرفا ذلك. سنُخبرهما أنَّنا أمضينا ليلةً حمراء، وأنَّكَ كنتَ مُذهلًا؛ آلةَ حبٍّ من الطراز الأوَّل. سأحصل أنا على أجري، وستَتَنْعم أنت ببعض الهدوء. ولكنْ، لا بدَّ لك من حسم الأمور. واعذُرْ صراحتي. لكنّ هذا الزواج يبدو الجنونَ بعيْنه، وليس من الصواب أن تُقحِم خطيبتَكَ في هذه الفوضى.

. آه، ستكون سعيدةً مهما كانت النتيجة. فهي وأفراد أسرتها ليسوا سوى عقبانٍ تفترسُ أموالنا.

وهنا، أمسك عن الكلام، مدركًا أنَّه تكلَّم أكثرَ ممَّا ينبغي. ثمَّ مال إلى أمام وقبَّل يدَها، قائلًا:

- أشكُركِ. أنا مدينٌ لكِ.

قالت ليلى، وهي تتَّجه ناحيةَ الباب:

- على الرَّحب والسعة. على فكرة، أخبرْ والدَكَ أنَّني كنت أرتدي ثوبًا ذهبيًّا لمَّاعًا. وهذا شيء مهمّ لسببٍ ما.

مكتبة‎[16.07.20 17:08] @.,

خرجتْ ليلى من الفندق بهدوء، مُتواريةً عن الأنظار وراء مجموعةٍ من السُّياح الإسبان. أمَّا موظَّفةُ الاستقبال، فلم تشاهدْها وهي تنصرف، إذ كانت منشغلةً باستقبال الضيوف الجُدد.

حين أمست ليلى في الشارع، تنشَّقتْ هواءً ملءَ رئتيْها. كان القمر هلالًا، شاحبًا كالرماد. ثمَّ أدركتْ أنَّها نسيتْ وشاحَها في الطابق العلْويّ. فكَّرت للحظةٍ في العودة كي تُحضِرَه، إلَّا أنَّها لم ترغب في إزعاج الشابّ. لقد كانت تحبّ ذلك الوشاح؛ فهو من الحرير الخالص.

وضعتْ سيجارةً بين شفتيْها، وفتَّشتْ في حقيبتها عن الولّاعة، ولكنَّها لم تعثر عليها. لقد اختفت ولّاعةُ د/علي.

. أأنتِ بحاجةٍ إلى ولّاعة؟

رفعتْ رأسَها، فشاهدتْ سيَّارةً تتحرّكُ بطيئًا بمحاذاة الرَّصيف، ثمَّ تتوقَّف على مبعدةٍ منها. مرسيدس فضِّيَّة، نوافذُها الخلفيَّة مظلَّلة، أضواؤها مطفأة. ورأت من خلال النافذة المفتوحة رجلًا يُراقبها وفي يده ولّاعة.

سارت إليه ببطء.

. مساء الخير أيُّها الملاك.

. مساء الخير.

أشعل سيجارتَها، وهو يحملق في نهديْها. كان يرتدي سترةً مخمليَّةً بلون الزبرجَد، ومن تحتها كنزةً صوفيَّةً ذات قبَّةٍ ضيّقةٍ بلونٍ أخضر قاتم.

. شكرًا لكَ يا عزيزي.

فُتِح البابُ الآخر، وترجَّل السَّائقُ منه. كان أنحفَ من صاحبه. كتفا سترته مهدَّلتان، أصلعُ، غائرُ الوجنتيْن، شاحبُ الوجه. كان الرجلان مُقوّسَي الحواجب من فوق عيون بنِّيَّة صغيرة. فكَّرتْ ليلى أنَّه لا بدَّ أنّ بينهما قرابةً ما؛ ولدا أخويْن، ربّما. إلَّا أنَّ انطباعها الأوّليّ عنهما تركَّزَ على التعاسة التي بدَت عليهما ـ خصوصًا أنَّهما في عزّ شبابهما.

قال السَّائق بنبرةٍ جافّة:

ـ مرحبًا. هذا ثوبٌ جميل.

لاحظتْ ليلى أنَّ الاثنيْن أبديا ملاحظةً ما، في ما بينهما، إقرارًا خفيًّا بشيءٍ ما، وكأنَّهما استدلَّا عليها، على الرَّغم من أنَّها كانت متأكِّدةً من أنَّهما غريبان تمامًا. فلئن كانت ليلى تنسى الأسماء، فإنَّها تتذكَّر الوجوهَ على الدَّوام.

قال السَّائق:

. كنَّا نتساءل إنْ كان يروقُكِ الذهابُ في جولةٍ برفقتنا.

. جولة؟

. أجل، تعلمين...

. يعتمدُ هذا على...

مكتبة[16.07.20 17:08] ,.@

عرض الرجلُ عليها رقمًا.

. كلاكما؟ لا، مستحيل.

قال السَّائق:

ـ بل صديقي فقط. اليوم يصادف عيدَ مولده، وهذه هديَّتي إليه.

فكَّرتْ ليلى أنَّ ما قالَه غريبٌ بعض الشيء، لكنْ سبق أن رأت أمورًا أشدَّ غرابةً في هذه المدينة ولم تعترضْ عليها.

ـ أأنت متأكِّد من أنَّك لن تشاركه؟

ـ لا، فأنا لا أحبِّذ ....

وترك الجملةَ ناقصةً من غير أن يكمَلها، فتساءلتْ ليلى عن الشيء الذي لا يُحبِّذه تمامًا: النساء عمومًا، أمْ هي تحديدًا؟ ثمّ طلبت ضعفَ المبلغ الذي عرضه عليها.

نظر السَّائقُ بعيدًا، وقال:

ـ حسنًا .

دُهِشتْ ليلى حين رأت أنَّ السَّائق لم يحاول المساومةَ على النقود. فمن النادر أن تكتمل الصفقاتُ في هذه المدينة من غير مساومة.

سأل الرجلُ الآخرُ وهو يفتح البابَ من الداخل :

. هل ستأتين؟

تردَّدتْ ليلى. فلو اكتشفت المديرةُ المُرَّةُ أَمرها، فسوف تثور ثائرتُها، إذ نادرًا ما وافقتْ ليلى على عملٍ من غير معرفتها. لكنَّ الثمن لاح أكثر من جيّدٍ جدًّا، فلا يُمكن رفضُه، لا سيَّما أنَّ فواتيرَ جميلة التي تعاني أمراضًا جلديَّةً تزداد زيادةً كبيرة. وهكذا، فسوف تتقاضى ليلى في ليلةٍ واحدة مبلغيْن هائليْن: الأوّل من والد الشاب في الفندق، والثاني من هذا الرجل!

. ساعة واحدة لا أكثر، وسوف أخبرُكَ أين تتوقَّف.

. اتَّفقنا.

تحرَّك المحرِّك. جلستْ ليلى في المقعد الخلفيّ. أنزلتْ زجاج النافذة وتنشَّقتْ هواءً منعشًا ونظيفًا. كانت ثمَّة لحظات تشعر فيها أنَّ المدينة منعشة، كأنَّها غُسِلتْ بدلوٍ مملوءةٍ بالماء، رشقتْه عليها يدُ الرعاية.

شاهدتْ علبةَ سجائر على لوحة عدّادات السيّارة، ومن فوقها ثلاثةُ ملائكة من الخزف بثيابٍ طويلة. راقبتهم لحظةً، شاردةَ الذهن.

كانت السيَّارة مسرعةً في تلك اللَّحظة.

مكتبة[16.07.20 17:09] ,.@

قالت ليلى:

. انعطفْ إلى جهة اليمين.

نظر إليها الرجلُ من خلال المرآة الخلفيَّة، فلَاحَ في عينيْه رعبٌ وحزنٌ لا يُطاقان.

شعرتْ ليلى بقشعريرةٍ تسري في بدنها، وأدركتْ، بعد فوات الأوان، أنَّه لن يُصغي إليها.

مكتبة[16.07.20 17:09] ,.@

- 18 -

الثواني الثماني الباقية

كان آخر شيء تذكَّرتْه ليلى هو مذاق قالب الحلوى بالفراولة.

أثناء نشأتها في بلدة ڤان، كانت الاحتفالاتُ مخصَّصةً لمناسبتيْن: الوطن والدِّين. وكان والداها يحتفيان بذكرى مولد النبيّ محمَّد، ومولدِ الجمهوريَّة التركيَّة، ولم يعتقدا أنَّ ولادةَ إنسانٍ عاديٍّ تمثِّل سببًا كافيًا للاحتفال سنويًّا. ولم تسألْهما ليلى قطّ عن سبب ذلك. غير أنَّ هذا السُّؤال لم يشغلْ ذهنَها إلَّا حين تركت البيتَ ورحلتْ إلى إسطنبول، واكتشفتْ أنَّ غيرَها من الناس كانوا يتلقَّون قالبَ حلوى أو هدّيةً في مناسباتهم الخاصَّة. ومنذ ذلك الوقت، في

السَّادس من كانون الثاني، صارت تبذل قُصارى جهدها كي تمرح، بغضّ النَّظر عن الطريقة. وإذا ما صادفتْ أناسًا يحتفلون على نحوٍ مُتهوّرٍ، فإنَّها لم تكن تُصدر حكمًا عليهم؛ فمَنْ يدري، لربّما كانوا مثلها تمامًا: يعوِّضون من طفولةٍ حُرِمتْ قبَّعاتِ الاحتفالات!

كانت صديقاتُها، وصديقُها، يقيمون حفلةَ عيد ميلاد لها في كلّ عام، فيُحْضرون قِطَعَ الكاپكايْك ولفائفَ الزينة والكثيرَ من البالونات. الخمسة: سنان المخُرِّب، ونوستالجيا نالان، وجميلة، وزينب 122، وحُميراء.

لم تفكِّر ليلى أنَّ في إمكان المرءِ أن يحظى بأكثر من خمسة أصدقاء. إنّ وجودَ صديقٍ واحدٍ يُعَدّ ضربةَ حظّ؛ وإذا نعمْتَ بالسَّعادة الرُّوحيَّة، فصديقان أو ثلاثة. وإذا وُلِدتَ تحت سماءٍ مرصَّعةٍ بأشدّ النجوم لمعانًا، فخمسة. وهذا أكثرُ ممَّا يكفي طوال

العمر. وليس من الحكمة أن يبحث المرءُ عن أصدقاء أكثر، لئلَّا يخاطر بفقدان مَنْ هم أصدقاؤه في الأصل.

كانت تظنّ في أغلب الأحيان أنَّ العدد خمسة مميَّز. فالتوراة تتألَّف من خمسة كتب، وأصيب المسيحُ بخمسة جروحٍ قاتلة، وأركانُ الإسلام خمسةٌ، وقد قتلَ الملك داوود جالوتَ بخمسِ حصوات، وفي البوذيَّة خمسُ طرق، في حين أنَّ شيفا كشف عن خمسة وجوه تنظرُ إلى خمسة اتِّجاهات مختلفة. وأمَّا الفلسفة الصينيَّة، فتدور حول خمسة عناصر: الماء والنار والخشب والمعدن والأرض. وهنالك خمسةُ مذاقات متعارف عليها: الحلو والمالح والحامض والمرّ والأومامي [اللَّاذع اللَّطيف]. كما يعتمد إدراكُ البشر على خمس حواسّ: السمع والبصر واللَّمس والشمّ والذوق؛ ولئن زعم العلماءُ أنَّ ثمَّة حواسَّ أخرى، ومنحوا كلًّا منها اسمًا عصيًّا على الفهم، فستظلُّ هُناك خمسُ حواسّ أصليّة يعرفها الجميع.

في عيد ميلادها الأخير، استقرَّ رأيُ أصدقائها على قائمة طعامٍ غنيّةٍ بالأطباق: يخنة لحم الضأن مع حساء الباذنجان المُركَّز، والبورك بالسبانخ وجبن الفيتا، والفاصولياء مع البسطرما المتبَّلةِ بالبهار، والفلفل الأخضر المحشوّ، وزجاجة صغيرة من الكافيار الطازج. أمَّا قالب الحلوى، فكان مفاجأةً على ما يُفترض، إلَّا أنَّ ليلى سمعتْ أصدقائها مصادفةً وهم يتناقشون في أمره. كانت جدران الشقَّة أرقَّ من شرائح البسطرما. وبعد سنين طويلة من التَّدخين وشرب الكحول بكمّيَّاتٍ كبيرة، شهقتْ نالان حين همستْ بصوتٍ أجشّ يشبه ورق صنفرةٍ يَصقلُ سطحًا معدنيًّا.

كريمة الفراولة بطبقةٍ مُثلَّجةٍ منفوشة، وبدرجةٍ من اللون الزهريّ كتلك التي في حكايات الجنّيّات: هذا ما خطَّط له أصدقاؤها. غير أنَّ ليلى لم تكن من المعجبات باللَّون الزهريّ، بل كانت تهوى اللَّون الأرجوانيّ الضاربَ إلى الحُمرة . فهو لونٌ له شخصيَّتُه المميَّزة. وكان اسمُ هذا اللَّون يذوب على اللِّسان، ويُسيِّل اللُّعابَ،

وجميلًا وآسرًا. كان اللَّون الزهريُّ أرجوانيًّا من غير خشونة، شاحبًا بلا حياة، كأنَّه ملاءة سرير باتت رقيقةً لكثرة الغسيل. ربَّما يتعيَّن عليها أن تطلب قالب حلوى أرجوانيًّا!

سألت حُميراء:

. إذًا، ما عددُ الشموع التي سنضعها فوق قالب الحلوى؟

مكتبة[16.07.20 17:10] .,@

قالت ليلى:

ـ إحدى وثلاثون شمعةً يا حبيبتي.

ضحكتْ نالان، وقالت:

ـ طبعًا. إحدى وثلاثون شمعة يا مُنافِقة.

إذا كانت الصداقةُ تعني طقوسًا، فإنّ لديهم منها ما يملأ شاحنةً. فإضافةً إلى أعياد الميلاد، كانوا يحتفلون بأعيادٍ أخرى مثل عيد النصر، ويوم ذكرى أتاتورك، ويوم الشباب والرياضة، وعيد السِّيادة الوطنيَّة، ويوم الطفل، وعيد الجمهوريّة، وعيد الملاحة البحريّة، وعيد الحبّ، وليلة رأس السنة الميلاديّة... وكانوا في كلِّ فُرصَة يتناولون العشاءَ معًا، ويجلبون الطعامَ الشهيَّ الذي نادرًا ما كانوا

قادرين على دفع ثمنه. تُحضِّرُ نالان مشروبَها المفضَّل باتا باتا بوم بوم . وهو خليطٌ كحوليّ تعلَّمتْ كيف تمزجه حين كانت تُغازل ساقي الحانة في مطعم كروان؛ وهو مكوَّن من: عصير الرمّان، وعصير اللَّيمون، والڤودكا، والنعناع المطحون، وحبَّات الهال، وقَدْرٍ لا يُستهان به من الويسكي. ومن كان يستهلك الكحول منهم، فإنَّك تجده مخمورًا بلطفٍ، محمَرَّ الوجنتيْن. أمَّا الممتنِعون عن تناول المشروبات الرُّوحيَّة، فيشربون الفانتا بالبرتقال، ويقضون بقيَّةَ اللَّيلة في مشاهدة الأشرطة السينمائيَّة بالأسود والأبيض، الواحد تلو الآخر، وهم يتراقصون على الأريكة، منشغلين في المشاهدة، والصمتُ يخيِّم عليهم، باستثناء تنهيدةٍ هنا وشهقةٍ هُناك بين كلّ حينٍ وآخر. وكان النجومُ القدامى في هوليوود وتركيا قادرين على أسر أيّ جمهور. وقد حفظتْ ليلى وأصدقاؤها أدوارَ هؤلاء الممثِّلين والممثِّلات عن ظهر قلب.

لعلّ ليلى لم تُخبرْ أصدقاءها بهذا، ليس بكلماتٍ كثيرة على أيّ حال، ولكنَّهم كانوا بالنسبة إليها شبكة أمانها. وكلَّما تعثَّرتْ أو

سقطتْ، وجدتْهم على مقربةٍ منها يساندونها أو يُخفِّفون من وقع السقطة. وإذا ما أساء زبونٌ معاملتها ذات ليلة، فإنها كانت لا تزال تجد في نفسها القوَّة لتتمالك رباطةَ جأشها، مدركةً أنَّ بمجرَّ وجودهم فحسب، سيمسحون على روحها بمرهمٍ يعالجُ ما ألمّ بها من كدماتٍ وخدوش. وحين تغرقُ في رثاء نفسها، وتشعرُ كأنَّ فجوةً في صدرها، كانوا يجذبونها برفق ممَّا هي فيه، وينفخون الحياة في رئتيْها.

الآن، وبعد أن توقَّف دماغُها عن العمل، وذابت كلُّ الذكريات إلى جدارٍ من ضبابٍ سَميكٍ مثل حزن، فإنَّ آخر ما رأته في ذهنها هو قالبُ حلوى عيد مولدها الزهريّ البرّاق. لقد قضوا تلك الأمسية يثرثرون ويضحكون، كأنْ لا شيء يمكنه أن يُفرِّق بينهم، وكأنَّ الحياة ليست سوى مشهدٍ مسرحيٍّ، مُثيرٍ ومقلقل، لكنْ من دون أن ينطوي على أيّ خطرٍ حقيقيٍّ. كأنَّهم دُعُوا إلى مشاهدة حلمِ شخصٍ آخر.

على شاشة التلفاز، طوّحتْ ريتا هيوارث بشعرها وهي تهزّ ردفيْها، فسقط ثوبُها على الأرض مُصدرًا حفيفًا حريريًّا. التفتتْ إلى الكاميرا، وابتسمتْ تلك الابتسامةَ المشهورة، التي ظنَّ الكثيرون في مختلف أنحاء العالم خطأً أنَّها ابتسامةٌ شهوانيّة. أمَّا هم، فلم يخطر في بال أيٍّ منهم مثل ذلك الظنّ. فريتا العزيزة العجوز لن تخدعهم؛ إذ لم يحدث أبدًا أن أخفقوا في الاستدلال على امرأةٍ حزينةٍ إنْ رأوْها.

مكتبة[16.07.20 17:10] ,.@

القسم الثاني

الجسد

- 19 -

المشْرَحة

كانت المشرحة في الجزء الخلفيّ من المستشفى، في الرُّكن الشماليّ الشرقيّ من السرداب. وكان الممرّ المؤدِّي إليها مطليًّا بطلاءٍ أخضر شاحب، وأكثر برودة من بقيَّة أنحاء المبنى، وكأنَّه مُعرَّضٌ للتيَّارات الهوائيَّة ليلًا ونهارًا. وفي الداخل، كانت ثمَّة رائحة لاذعة تنبعث من الموادّ الكيمياويَّة وتغطِّي الأجواء؛ فضلًا عن لونٍ أبيض طباشيريّ، ورصاصيٍّ فولاذيّ، وأزرق جليديّ، وأحمر غامقٍ صدِئ من الدَّم المتخثِّر.

ألقى الطبيبُ الشرعيّ نظرةً خاطفةً إلى آخر الواصلين إلى المشرحة، بينما راح يمسح يديْه بجانبيْ معطفه. كان الطبيب رجلًا

نحيلًا، محنيَّ الظهر قليلًا، عالي الجبين، وأسودَ العينيْن. «إنّها ضحيَّة أخرى من ضحايا القتل». وارتسمتْ على وجهه أماراتٌ تنمّ عن اللّامبالاة. فعلى مدى سنواتٍ طويلة، رأى من أمثال تلك الضحايا أعدادًا غفيرةً . شيبًا وشبَّانًا، وأغنياء وفقراء، منهم مَن قُتِل مصادفةً برصاصةٍ طائشة، ومنهم من قُتِل مع سبق الإصرار والترصُّد. كانت الجثث الجديدة تصل كلَّ يوم. وكان يعلم تمامًا في أيِّ وقتٍ من أوقات السنة يزداد عددُ الضحايا وفي أيّ وقتٍ ينخفض: فعمليَّاتُ القتل في الصيف أكثرُ من مثيلاتها في الشتاء، وتصل إلى ذروتها بين أيَّار وآب بسبب زيادة الاعتداءات الجنسيَّة ومحاولات الاغتيال في إسطنبول. وبحلول تشرين الأوَّل، تنخفض الجريمةُ انخفاضًا مُذهلًا، شأنها شأن درجات الحرارة.

كانت لديْه نظريّته الخاصَّة في تعليل ذلك، إذ كان مقتنعًا تمامًا بأنَّ للأمر صلةً بأنظمة الحِمْية التي يتبعها الناسُ. ففي الخريف، كانت حشودُ أسماك البينيت البحريَّة المُخطَّطةِ الظهر تنطلق جنوبًا، قادمةً من البحر الأسود، ومتَّجهةً إلى بحر إيجه، فتسبح على

مقربةٍ من السطح؛ ما يدفع المرءَ إلى الظنّ بأنَّها مُنهَكةٌ من الهجرة القسريَّة، ومن التهديد المستمرّ الذي تُمثِّله شبكاتُ الصيد المخروطيَّةُ الكبيرة، فترغب في أن تُصادَ مرَّةً واحدةً وإلى الأبد. في المطاعم والفنادق وكافتيريات أماكن العمل والمنازل، ترتفع مستوياتُ السيروتونين وتنخفض مستوياتُ الإجهاد، إذ يستهلك الناسُ هذا السَّمكَ اللذيذَ والغنيَّ بالدهون. وتكون النتيجةُ انتهاكاتٍ أقلّ للقانون. إلَّا أنَّه ليس في وسع هذا السَّمك اللَّطيف أن يفعل الشيء الكثير؛ وسرعان ما تعود مُعدّلاتُ الجرائم إلى الارتفاع من جديد.

ففي بلدٍ لا تأتي فيه العدالة إلَّا في وقتٍ لاحق، هذا إنْ أتت حقًّا، كان المواطنون يَسْعدون بالانتقام لأنفسهم، ويبادلون الأذى بأذًى أكبر. عينان بعيْن، وفكٌّ بسنّ. لم تكن الجرائمُ كلُّها مُدبَّرة. بل كان معظمُها يحدث ارتجالًا في الحقيقة. فإذا ما فُسِّرَتْ نظرةٌ خاطفةٌ بأنَّها قذرة، فقد تكون سببًا للقتل. وإذا ما أُسيءَ فهمُ كلمةٍ، فقد

تكون سببًا لسفك الدَّم. لقد سَهَّلت إسطنبولُ القتلَ، وجعلَت الموتَ أكثرَ يُسْرًا.

فَحَص الطبيبُ الشرعيُّ الجثَّةَ، وأفرغها من سوائلها. فتح الصدرَ، وأحدثَ شقًّا من عظم الترقوة إلى عظم القفص. أنفق وقتًا طويلًا في فحص الجروح، ولاحظ الوشمَ على كاحل المرأة الأيمن، وحدَّد بقعةَ الجلد المُشوَّهةَ اللَّون على رقبتها: كانت ندبةً، والواضح أنَّ سببها حرقٌ كيمياويٌّ نتيجةً لمادَّةٍ كاويَةٍ، حامضيَّةٍ على الأرجح. وخمَّن أنَّ عمرها عقدان من الزمن. وتساءل عن كيفيَّة حدوثها: أهوجمت من الخلف؟ أم أنَّ الحادثةَ ناتجةٌ من تعاطي المخدِّرات؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما سببُ احتفاظها بهذا النوع من الحامض؟

لم تكن ثمَّة ضرورةٌ لتحليلٍ باطنيٍّ كامل. لذا، جلس الطبيب لكتابة تقريرٍ مُقتضَب. ولمعرفة المزيد من التفاصيل، رجعَ إلى تقرير الشرطة المُرفَق.

الاسم واللَّقب: ليلى أكارسو.

مكتبة[16.07.20 17:10] ,.@

الأسماء الوسطى: عفيفة كاملة.

العنوان: شارع هيري كافكا، 8/70. بيرا، إسطنبول..

الجثَّة لامرأةٍ قوقازيَّةٍ بالغةٍ وحَسَنَةِ التغذية. يبلغ طولُها خمسَ أقدام وسبعَ بوصات، ووزنُها 135 رطلًا. يبدو العمر مُتضاربًا مع العمر الموضَّح على بطاقة الهويَّة باثنين وثلاثين عامًا. المُرجَّح أنَّها بين الأربعين والخامسة والأربعين، وقد أُجريَ اختبارٌ لمعرفة سبب الوفاة وطريقتها.

الملابس: ثوبٌ (مُمزَّق) مُزيَّنٌ باللَّون الذَّهبيّ، وحذاءٌ عالي الكعبيْن، ولباسٌ داخليّ مُخرَّم. ثمَّة حقيبة تحتوي على بطاقة هويَّة شخصيَّة، وأحمر شفاه، ودفترٍ، وقلمِ حبر، ومفاتيحَ منزليَّة. لا نقود ولا مجوهرات (ربَّما سُرِقتْ منها.(

يُقدَّر زمنُ الوفاة ما بين الثالثة والنصف والخامسة والنصف فجرًا. لا أثر على وجود علاقةٍ جنسيَّة. تعرّضَت الضحيَّةُ للضرب

بآلةٍ ثقيلة (حادَّة)، وخُنِقتْ حتَّى الموت بعد أن ضُرِبتْ ضربًا أفقدها الوعيَ.

توقَّف الطبيبُ الشَّرعيُّ عن الضرب على الآلة الكاتبة. فقد أربكته العلاماتُ الواضحةُ على رقبة المرأة. وبعد أن أخذ بصمات أصابع القاتل، اتَّضح وجودُ شريطٍ أحمرَ تبيَّن أنَّه تالٍ للحادثة. وتساءل إنْ كانت تتقلَّد قلادةً وقد انتُزِعتْ منها عنوةً. لم يَعُد لهذا أيُّ أهمِّيَّة. وسوف يُعهد بها إلى «مقبرة الغرباء»، شأن سائِر الموتى الذين لا يُطالِبُ بهم أحد.

لن تُجرى لهذه المرأة مراسمُ دفنٍ على الطريقة الإسلاميَّة، ولا على أيّ طريقةٍ دينيَّةٍ أخرى. ولن تَغْسل جثَّتَها يدُ أحدٍ من أُسرتها أو أنسبائها. ولن يُضفَر شعرُها ثلاثَ ضفائر مُنفصلة. ولن توضَع يداها برفقٍ على قلبها دلالةً على السَّلام الأبديّ. ولن يُغمضَ

جفناها للتأكُّد من أنَّ نظرتَها ستتَّجه إلى الداخل من الآن فصاعدًا. وفي المقبرة، لن يكون هُناك مشيِّعون يحملون النعشَ ولا معزّون، ولا إمامٌ يَؤُمّ المُصلّين، ولا نادبةٌ تُستأجَرُ من أجل البكاء والعويل بصوتٍ أعلى من الآخرين. وسوف تُدفن على النحو الذي دُفِن فيه كلُّ من ليسوا مرغوبين: بعُجالةٍ وصمت.

وبعد ذلك، فعلى الأرجح ألَّا يزورَها أحد. ربَّما جارةٌ قديمة أو قريبة . قريبةٌ بعيدةٌ بما يكفي لئلّا تُباليَ بالعار الذي لحِقَ بالعائلة. قد تأتي بضعَ مرَّات، لكنَّ الزيارات ستتوقَّف في نهاية المطاف. وبعد بضعة أشهر، سوف يختلط قبرُ المرأة ببيئته، ومن غير علامةٍ أو شاهدة. وفي أقلّ من عقدٍ من الزمان، لن يكون في مقدور أحدٍ أن يستدلَّ على موقع قبرها. وبهذا ستصبح رقمًا آخر في مقبرة الغرباء؛ روحًا أخرى تستحقّ الشفقةَ لحياةٍ تعيدُ صدى مُستَهلِّ كلِّ حكايةٍ أناضوليَّة: كان يا ما كان، وربَّما لم يَكُن...

احدودب الطبيبُ الشَّرعيُّ من فوق مكتبه، وتجعّدَ جبينُه، وهو يركِّزُ. لم يشعر برغبةٍ في معرفةِ هويَّة هذه المرأة، ولا نمطَ الحياة التي يمكن أن تكون قد عاشتها. وحتَّى عندما كان حديثَ العهد بوظيفته، فإنَّ قصص الضحايا لم تكن تشغل اهتمامَه إلَّا قليلًا، بل كان اهتمامُه يتركَّز في الموت ذاتِه، لا في وصفه مفهومًا دينيًّا أو قضيَّةً فلسفيَّة، وإنَّما في وصفه بحثًا علميًّا. ولبث مُحتارًا لأنَّ البشريَّة لم تتقدَّم إلَّا قليلًا في خصوص الطقوس الجنائزيَّة.

فالجنس البشريّ الذي راوده الحلمُ بساعات اليد الرَّقميَّة، واكتشف الحمضَ النوويّ، وطوَّر آلاتِ التصوير بالرنين المغناطيسيّ، توقَّف على نحوٍ بائسٍ حين تعلَّق الأمرُ بدفن موتاه. والحقّ أنَّ هذا المجال يكاد ألَّا يتقدَّم اليومَ عمَّا كان عليه قبل ألف عام. صحيح أنَّ مَنْ يتقلَّبون في نعمة المال والخيال يجدون أمامهم خياراتٍ أوسعَ بقليلٍ من الآخرين . فهم يستطيعون ذرَّ رمادهم في الفضاء الخارجيّ إنْ رغبوا، أو تجميدَ جثثهم . مؤمِّلين أنَّ هناك من سيبعثهم إلى الحياة بعد مئة سنة. لكنَّ الخيارات أمام أغلب الناس كانت محدودةً جدًّا: فإمَّا أن يُدفَنوا أو يُحرَقوا. وإنْ كان هُناك ربٌّ في الأعالي، فلا بدَّ من أن يضحك ملءَ شدقَيْه من جنسٍ بشريّ

قادرٍ على صنع قنابل ذريَّة وابتكارِ الذكاء الاصطناعيّ، لكنَّه لا يزال غيرَ مطمئنّ إلى مسألة موته وغيرَ قادرٍ على التوصُّل إلى ما ينبغي عملُه إزاء موتاه. ولشدَّ ما يُرثى لهم حينما يحاولون أن يُحيلوا الموتَ على محيط الحياة، في حين أنَّ الموت مركزُ كلّ شيء.

مكتبة[16.07.20 17:11] .,@

لقد اشتغل بالجثث وقتًا طويلًا، مُفضِّلًا رفقتَها الصامتةَ على ثرثرة الأحياء التي لا تنتهي. لكنْ كلَّما ازداد عددُ الجثث التي يتفحَّصها، ازدادت دهشتُه بسيرورة الموت، إذ متى يتحوَّل الحيّ إلى جُثَّةٍ تمامًا؟ حين تخرَّج من كليَّة الطبّ، كانت لديه إجابةٌ واضحةٌ على هذا السؤال. أمَّا اليوم، فلم يعد متأكِّدًا. فقد تبيَّن له أنَّ توقُّف الحياة، شأن حجرٍ يُرمى في بركة ماءٍ فيَخْلق دوائرَ متَّحدةَ المركز، يولِّد سلسلةً من التغييرات، الماديَّةِ وغيرِ الماديَّة. ولهذا، ينبغي عدمُ الإقرار بالموت إلَّا بعد حدوث التغييرات النهائيَّة.

وفي المجلَّات الطبِّيَّة التي كان يتابعها بعنايةٍ وثبات، قرأ مُصادفةً عن بحثٍ رائدٍ أثارَ اهتمامَه كثيرًا. فقد لاحظَ الباحثون في مختلف أرجاء المعاهد المعروفة على نطاقٍ عالميّ أنَّ هناك نشاطًا عقليًّا دؤوبًا لدى الأشخاص الذين لم يمرّ على موتهم سوى القليلِ من الوقت. في بعض الحالات، دام هذا النشاطُ بضعَ دقائق لا غير، في حين استمرَّ في حالاتٍ أخرى عشرَ دقائق. ماذا حدث في تلك الفاصلة من الزمن؟ هل تذكَّر الموتى الماضي؟ وإذا كان الأمرُ كذلك، فأيَّ أجزاءٍ منه تذكَّروا، وبأيِّ ترتيب؟ وكيف يُمكن أن يُكثِّف العقلُ حياةً برمَّتها في وقتٍ يستغرقه غليانُ ماءٍ في إبريق لا غير؟

كما أظهر البحثُ المتواصلُ أيضًا أنَّ أكثرَ من ألف جينةٍ قد واصلتْ أداءَ وظائفها داخل الجثث بعد أيَّام من إعلان الوفاة. خلبَتْ لبَّه كلُّ هذه الاكتشافات. ربَّما بقيتْ أفكارُ المرءِ مدَّةً أطول من قلبه، وأحلامُه مدَّةً أطول من البنكرياس، ورغباتُه مدَّةً أطول من مثانته.... فإذا كان هذا صحيحًا، أفلا ينبغي اعتبارُ البشرِ

جنسًا شبهَ حيٍّ ما دامت الذكرياتُ التي شكَّلتهُ لا تزال مُنسابةً [بعد الموت]؛ جزءًا من هذا العالم؟ على الرَّغم من أنَّ الطبيب لم يحر جوابًا على هذه التساؤلات، فإنَّه ثمَّن قيمةَ البحث عنها. بيْد أنّهُ لن يُخبرَ أحدًا بذلك، لأنَّ الناس لن يفهموا قصدَه. ومع ذلك فقد استمتع استمتاعًا هائلًا في العمل داخل المشرحة.

أخرجتهُ طرْقةٌ على الباب من تأمُّلاته.

ـ ادخلْ.

دخل الممرِّضُ المُساعدُ كميل أفندي يعرجُ قليلًا. كان هذا الرجل روحًا رقيقة، سليمَ الطويّة، ورُكنًا ثابتًا من أركان المستشفى بعد

سنواتٍ طويلة قضاها فيه. وعلى الرَّغم من أنَّه استؤجر للقيام بأعمالٍ خدميَّة، فإنَّه كان يؤدِّي كلَّ عملٍ مطلوبٍ في أيّ يومٍ من الأيَّام، بما في ذلك رتقُ جروح المرضى حين تخلو غرفةُ الطوارئ من أيّ جرَّاح.

. السَّلام عليكم، يا دكتور.

. وعليكم السَّلام، يا كميل أفندي.

. أهذه هي المومسُ التي تتهامس الممرّضاتُ عنها؟

. نعم، لقد أحضروها قبيْل الظهيرة.

. يا لَلْمسكينة! ليغفر اللَّـهُ لها كلَّ ذنبٍ قد تكون اقترفتْه.

ابتسم الطبيبُ الشرعيُّ ابتسامةً لم تصل مستوى عينيْه تمامًا، وقال:

. المضحك أنَّك تقول «قد» إذا ما أخذنا في الحسبان مَن هي. إنَّ حياتها برمَّتها طافحةٌ بالذنوب.

ـ لا بأس، ربَّما يكون الأمر كذلك. لكنْ من يَعْلم مَنْ ذا الذي يستحقّ الجنَّةَ أكثر ـ هذه المرأة التعيسة، أم ذلك المتعصِّب الذي يعتقد أنَّه الشخصُ الوحيدُ الذي اختاره الربّ؟

ـ حسنًا، حسنًا، حسنًا، يا كميل أفندي! لم أكُن أعرف أنَّك رفيقٌ بالعاهرات. لكنْ، يجبُ أن تكون حذرًا. بالنسبة إليّ.

مكتبة[16.07.20 17:11] .,@

ليس لديَّ أيّ اعتراض. بيْد أنَّ كثرةً من الناس خارج هذا المكان على استعدادٍ لجَلْدِكَ بالسَّوْط إنْ ترامى إلى مسامعهم مثلُ هذا الكلام.

لبث العجوزُ واقفًا وصامتًا. ثمّ ألقى على الجثَّة نظرةً بعينيْن حزينتيْن، وكأنَّه عرفها ذاتَ مرَّة. بدَت عليها ملامحُ الهدوء والسَّكينة. لعلّ معظمَ جثث الموتى التي صادفها على مدى سنواتٍ طويلةٍ كانت تشبه هذه الجثَّة، وغالبًا ما راوده تساؤل إنْ كان أصحابها قد ارتاحوا من الصراع وسوء الفهم في هذا العالم!

. هل أتى أيٌّ من أبويْها يا دكتور؟

. لا. أبواها في بلدة ڤان. لقد أُبلغا بالحادث، ولكنَّهما رفضا أن يتسلّماها. أمرٌ اعتياديّ.

. وهل ثمَّة إخوةٌ لها أو أخوات؟

تحقَّق الطبيبُ الشرعيُّ من ملاحظاته، ثمّ قال :

. لا يبدو أنَّ لديْها أيًّا منهم... آه، فهمت. ثمَّة أخٌ واحد، ولكنَّه توفِّي.

. أليس هناك شخصٌ آخر؟

. يبدو أنَّ هُناك عمَّةً مريضة... ولهذا لم تتسلّم الجثّةَ. كما أنّ هُناك عمَّةً أخرى وعمًّا.

. ربَّما يساعدنا أحدُهما.

. لا أمل. فقد قال الاثنان إنَّهما نَفَضا أيديَهما منها.

مسَّد كميل أفندي شاربَه، ثمّ حوّل اتّجاهَ قدميْه .

قال الطبيبُ الشرعيُّ:

. حسنًا، لقد فرغتُ تقريبًا من هذه. وفي وسعكَ أن تنقلها إلى المقبرة المعتادة.

. كنتُ أفكِّر في الأمر يا دكتور. هنالك جماعة في الباحة تنتظرها منذ ساعات. الواضح أنَّهم منهارون.

. ومَن هم؟

. أصدقاؤها.

. أصدقاء؟

كرَّر الطبيب الشرعيّ الكلمة وكأنَّها لم تطرُقْ مسامعَه من قبل. لم يُبدِ سوى القليلِ من الاهتمام بهم؛ فأصدقاءُ مومس لا يُمكن إلَّا أن يكونوا مومساتٍ أخريات، نساءً يُرجَّحُ أن يراهنَّ هنا في يومٍ من الأيَّام، مُستلقياتٍ على طاولته المعدنيَّة نفسها.

سعل كميل أفندي سعالًا خفيفًا:

. أتمنَّى لو كان في وسعنا إعطاؤهم الجثَّة.

مكتبة@., [16.07.20 17:11]

قطَّب الرجل الآخر جبينَه، ولاح في عينيْه بريقٌ حادّ، وقال:

. أنت تعلم جيِّدًا أنَّنا لسنا مخوَّلين بذلك، إذ لا يسعنا إعطاءُ الجثث إلَّا أفرادَ الأسرة المقرَّبين.

. أعرف ذلك، ولكنْ...

توقَّفَ كميل أفندي، ثمَّ استرسل قائلًا:

ـ إذا لم تكن لديْها أسرةٌ، فلِمَ لا يتكفَّل الأصدقاءُ بالجنازة؟

ـ حكومتنا لا تسمح بذلك لأسبابٍ وجيهة. فنحن لا يُمكننا أن نَعْرفَ هذا من ذاك. ففي خارج هذا المكان، تجد كلّ أنماط المجانين: لصوص الأعضاء البشريَّة، والعصابيّين... وسيكون هناك هرجٌ ومرج.

ثمَّ تحقَّق من وجه الرجل العجوز، غيرَ مصدِّقٍ أنَّه فهم معنى الكلمتيْن الأخيرتيْن.

. نعم، لكنْ ما وجهُ الضرر في هذه الحالة؟

. استمعْ إليَّ. نحن لم نضع القوانين، وإنَّما ننفِّذها فحسب. فلا تحاولْ أن تأتي بعاداتٍ جديدةٍ إلى قريةٍ قديمة. هذا المكان تصعُب إدارتُه على وضعه الحاليّ.

رفع الرجلُ ذقنَه اعترافًا بما قاله الطبيبُ الشرعيّ. وقال:

. حسنًا، أفهمُ ذلك. سأتَّصل بالمقبرة للتأكُّد من وجود مكانٍ فيها.

. نعم، فكرة جيّدة. تحقَّقتُ من الأمر معهم.

ثمَّ جذب الطبيبُ الشرعيُّ رُزمةً من الوثائق من أحد الملفَّات، وأمسك بقلم حبرٍ، ونقر به على وجنته، ووقَّع كلّ صفحة، وختَمَها قائلًا:

. أَبلغْهم أنَّك سوف ترسل الجثَّةَ عصرَ هذا اليوم.

ومع ذلك، فقد كان الأمر شكليًّا، وكانا يعرفان كلاهما أنَّ مقابر المدينة محجوزةٌ منذ سنوات، لكنَّ ثمَّة فراغًا متوافرًا دومًا في مقبرةِ الغرباء . أكثرِ المقابرِ المستوحدة في إسطنبول.

مكتبة[16.07.20 17:12] ,.@

- 20 -

الخمسة

في الباحة الخارجيَّة، جلس خمسةُ أشخاص مُتراصِّين جنبًا إلى جنب على مصطبةٍ خشبيَّة، بينما امتدّتْ ظلالُهم فوق حجارة الرصيف بأشكالٍ وأحجامٍ مُتنافرة. وعلى أثر الوصول بعد الظهر مباشرةً، راحوا ينتظرون على مدى ساعات. بدأت الشمسُ تنحدر رويدًا رويدًا، وتسلَّلَ الضوءُ مائلًا من خلال أشجار الكستناء. ودأبَ كلٌّ منهم على النهوض كلّ بضع دقائق والاتِّجاه مرهقًا إلى المبنى

ليُكلِّمَ مديرًا أو طبيبًا أو ممرِّضة . أو أيًّا ممَّن يمكنه العثورُ عليه. لكنْ بلا طائل. ومهما بذلوا من إصرارٍ وإلحاح، فإنَّهم عجزوا عن الحصول على إذنٍ لرؤية جثَّة ليلى . ناهيك بدفنها.

لكنَّهم رفضوا الانصراف. ملامحُهم منحوتةٌ بالحزن، صلبةٌ مثل خشبٍ مُعدٍّ للاستعمال بعد معالجته. أمَّا الآخرون في الباحة، زوَّارًا وعاملين في المستشفى، فرشقوهمْ بنظراتٍ خاطفة متسائلة، وهمسوا في سرِّهم. وراقبتْ فتاةٌ مُراهِقةٌ تجلس بجانب والدتها كلَّ حركةٍ من حركاتهم بفضولٍ يَشوبُهُ الاحتقار. وعبستْ في وجوههم عجوزٌ مُحجَّبةٌ بازدراءٍ خصّت به الدخلاءَ وغريبي الأطوار. كان أصدقاءُ ليلى غُرباء هنا عن هذا المكان، لكنْ لم يَبْدُ عليهم الانتماءُ إلى أيِّ مكانٍ في كلِّ الأحوال.

حين رُفِع الأذانُ لإقامة صلاة المغرب في جامعٍ قريب، خرجتْ من المبنى امرأةٌ ذاتُ شعرٍ قصيرٍ وأنيق، وقامةٍ معتدلة على نحوٍ غريب، واتَّجهتْ إليهم. كانت ترتدي تنُّورةً باللون الخاكي، رفيعةً كقلم الرصاص، تصل إلى ما دون الرّكبة، وسترةً ملائمة، وتشكّ في رأسِها دبّوسًا كبيرًا له شكلُ زهرة أوركيد. كانت هذه المرأة مديرةَ خدمات العناية بالمرضى.

قالت المديرةُ من غير أن تُوجِّه نظرَها إلى أيٍّ منهم:

. لا ضرورةَ لبقائكم هُنا. إنَّ صديقتكم... لقد فحص الطبيبُ الشرعيُّ الجثّةَ ودوَّن تقريرًا رسميًّا. وفي استطاعتكم طلبُ نسخةٍ منه وستكون جاهزةً بعد أسبوع. أمَّا الآن، فأرجو منكم الانصراف. فأنتم تُسبِّبون الضِّيقَ لكلّ فردٍ هُنا.

قالت نوستالجيا نالان:

. لا تُضيّعي أنفاسَكِ في حديثٍ لا طائلَ منه. فنحن لن نذهب إلى أيّ مكان.

وعلى عكس الآخرين الذين نهضوا حين رأوا المديرة، فقد لبثتْ نالان جالسةً وكأنَّها تريد إثباتَ رأيها. كانت عيناها بنيَّتيْن متَّقدتيْن وكأنَّهما لوزتان . غير أنَّ الناس لم يلحظوا هاتيْن العينيْن حين النظر إليها، بل كانوا يرون أظافرَها الطويلةَ الصقيلة، وكتفيْها العريضتيْن، وبنطالَها الجلديّ، ونهديْها المحشوَّيْن بالسيليكون.

كانوا يروْن عينَي امرأةٍ مُتحوّلةٍ جنسيًّا وصفيقة، على غرار ما رأتهُ المديرةُ في تلك اللحظة تمامًا.

قالت المرأةُ وقد لاح عليها الانزعاج:

. عفوًا؟

فتحتْ نالان حقيبةَ يدها على مهلٍ، وأخرجتْ سيجارةً من عُلبةٍ فضِّيَّة. إلَّا أنَّها لم تُشعلْها على الرَّغم من حاجتها الماسّةِ إليها.

. قلتُ إنَّنا لن ننصرف حتَّى نرى صديقتنا ليلى. وسوف نُخيِّمُ هنا إذا اضطُررنا إلى ذلك.

عقدت المديرةُ حاجبيْها:

مكتبة[16.07.20 17:12] ,.@

. أعتقد أنكِ ربَّما لم تفهمي ما قُلته، فدعيني أوضح لكِ الأمر: لا ضرورةَ للانتظار. كما أنَّه لا يُمْكنكمْ عملُ شيء لصديقتكم؛ فأنتم لستم من العائلة نفسها.

قال سنان مرتعشَ الصوت:

ـ نحن أقربُ إليها من عائلتها.

ازدردتْ نالان ريقها؛ ثمَّة شيءٌ متكتِّلٌ في بلعومها يرفض الانزلاق. فمنذ أن طرق سمعَها نبأُ مقتل ليلى، لم تَسفحْ دمعةً واحدة. شيءٌ ما حالَ بينها وبين الألم ـ غضبٌ يزيد من صلابةِ حوافِ كلّ إشارةٍ وكلّ كلمة.

قالت المديرة:

- اسمعوا. لا علاقةَ لهذا بنا نحنُ كمؤسّسة. ما أريدُ قولَه هو أنَّ صديقَتكم قد نُقِلتْ إلى إحدى المقابر، وعلى الأرجح أنّها دُفِنتْ الآن.

نهضتْ نالان ببطء، كأنَّها تستيقظ من حلم:

- ما... ماذا قلتِ؟ لماذا لم تُخبرينا؟

- قانونيًّا، لسنا مُلزَمين بـ...

. قانونيًّا؟! وماذا عن إنسانيًّا؟ كان في وسعنا أن نرافقَها لو علِمنا. وإلى أيّ مقبرةٍ أخذتموها بحماقتكم وحقارتكم هذه؟

جفلت المديرةُ، واتَّسعت عيناها برهةً وجيزة :

. أوَّلًا: لا يحقّ لكِ مخاطبتي بهذا الأسلوب. وأمّا ثانيًا، فلستُ مخوَّلةً بالكشف عن...

. إذًا، اذهبي واحضري داعرًا مُخوَّلًا.

قالت المديرةِ وفكُّها يرتعش بوضوح:

. لن أسمحَ لأحدٍ بأن يخاطبَني بهذه اللَّهجة، وأخشى أنَّني سأطلب من الحرّاس إخراجَكم من هذا المبنى.

قالت نالان:

. أخشى أنَّني سأضطرُّ إلى صفعِكِ على وجهك.

إلَّا أنَّ الآخرين تشبَّثوا بيدها وجذبوها إلى الوراء.

همستْ جميلة لنالان، من غير أن تتيقّن إنْ سمعتْها:

. يجبُ أن نظلّ هادئين.

استدارت المديرةُ على عقبيْها استدارةً حادَّة، وكانت توشك أن تبتعد، إلَّا أنَّها توقَّفتْ ونظرتْ إليهم شزرًا.

مكتبة[16.07.20 17:12] ,.@

ـ ثمَّة مقابر مُخصَّصة لأشخاصٍ كهذه المرأة. ويُدهشني حقًّا أنَّكم لا تعرفون شيئًا عنها.

قالت نالان في صوتٍ خفيض: « عاهرة». كان الصوت أجشَّ وخشنًا؛ ولكنَّه يبلغ مداه. والمؤكَّد أنَّها أرادت أن تُسْمع المديرةَ رأيَها فيها.

***

بعد دقائق، رافق الحرَّاسُ أصدقاءَ ليلى إلى خارج مبنى المستشفى. في ذلك الوقت، كان قد اجتمع حشدٌ من الناس على الرصيف يراقبون الحادثَ بعيونٍ مشدودة وابتساماتٍ تنمّ عن سرور، مبرهنين مرَّةً أخرى أنَّ إسطنبول كانت وستظلّ مدينةَ المُشاهدات العفويّة، والمشاهدين الحاضرين للفرجة. وفي هذه

الأثناء، لم يهتمّ أحد بالعجوز الذي كان يمشي وراء المجموعة على مبعدة خطواتٍ قليلة.

بعد أن تركهم الحرسُ عند منعطفٍ غير بعيد عن المستشفى، اقترب كميل أفندي قائلًا:

. معذرةً عن التطفُّل. هل تسمحون لي بالكلام؟

التفت أصدقاءُ ليلى، الواحدُ تلو الآخر، وحدَّقوا به.

قالت زينب 122:

. ماذا تريد يا عمّ؟

كانت نبرتُها مُتشكِّكةً، وإنْ لم تكن فظَّةً تمامًا. وكانت عيناها مُحمرّتَيْن ومنتفختيْن من وراء نظّارتها ذاتِ الإطار المصنوع من ترس السلحفاة.

أجاب الممرّضُ وهو يميل مقتربًا:

. أنا أعمل في المستشفى. وقد رأيتُكم هناك في الانتظار.... تعازيَّ على خسارتكم.

وقف أصدقاءُ ليلى من دون حراك برهةً وجيزةً من الزمن، غير متوقِّعين سماعَ أيّ كلمات عطفٍ من غريب.

سألتهُ زينب 122:

. أخبِرْنا، هل رأيتَ الجثَّة؟

ثمَّ انخفض صوتُها وهي تضيف:

ـ أتعتقد أنَّها... تعذَّبتْ كثيرًا؟

أومأ كميل أفندي محاولًا أن يُقْنع نفسَه بقدر ما يُقْنع غيرَه:

ـ نعم، رأيتُها. أعتقدُ أنَّها كانت مِيتةً سريعة. أنا الشخص الذي رتَّب كلَّ شيء حتَّى تُؤخذَ إلى المقبرة؛ المقبرة الكائنة في منطقة كيليوس ـ لا أدري إنْ سبق أن سمعتم بها، لأنَّ عددًا كبيرًا من الناس لم يسمع بها قطّ. يُسمّونها مقبرةَ الغرباء، وهذا اسمٌ غيرُ لطيفٍ إن سألتموني رأيي. لا شواهدَ تعلو قبورَها، بل مجرّدُ ألواحٍ

خشبيّةٍ تحملُ أرقامًا. لكنْ، في وسعي إخبارُكم بمكان دفنها. فلكم الحقُّ في معرفة ذلك.

بعد أن قال العجوزُ قولَته، أخرج قصاصةَ ورقٍ وقلمَ حبر. كانت يداه مكسوَّتيْن بأوردةٍ منتفخةٍ وبوشومِ

مكتبة[16.07.20 17:13] ,.@

الشيخوخة. وراح، على عجل، يدوِّن الرَّقمَ بخطٍّ غيرِ متقن.

. ها هو الرَّقم. احتفظوا به. اذهبوا لزيارة قبر صديقتكم. وازرعوا ورودًا جميلة، وصلُّوا من أجل روحها. تناهى إلى سمعي أنَّها من بلدة ڨان، مثل زوجتي الراحلة التي قضت نحبَها في الهزَّة الأرضيَّة عام 1976. وقد أنفقنا أيَّامًا ونحن نحفر تحت الأنقاض، إلَّا أنَّنا

لم نتمكَّن من العثور عليها. وبعد شهريْن ، سوَّت الجرّافاتُ المنطقةَ برمَّتها. واعتاد الناسُ أن يقولوا لي: «لا تحزنْ كثيرًا يا كميل أفندي. ما الفرق في نهاية الأمر؟ لقد دُفِنتْ. أوَلن نَلْحق بها تحت ستّ أقدام في يومٍ ما؟» ربَّما كانت نوايا هؤلاءِ الناس حسنةً، لا بأس. لكنَّ الربّ يعلم مدى كرهي لهم لأنَّهم تفوَّهوا بمثل هذه الأشياء. الجنازات هي للأحياء، هذا أكيد! من المهمّ ترتيبُ دفنٍ لائق، وإلَّا فلن يشعرَ المرءُ بالارتياح في أعماقه. ألا تُشاطرونني هذا الرأي؟ على أيِّ حال، لا تأبهوا بي، فأنا أثرثر لا أكثر.

أعتقدُ... ما أردتُ قولَه أنّني أعرفُ ذلك الشعور الذي يخالج صدرَ المرءِ حين يعجز عن التفوُّه بكلمة وداعٍ لمن يحبّ.

قالت حُميراء هوليوود:

. لا بدَّ أنَّ ذلك شَقَّ عليكَ كثيرًا!

كانت حُميراء ثرثارةً جدًّا بطبعها، ولكنْ بدت وكأنَّ الكلمات نفدتْ من جعبتها.

قال:

ـ إنّ الحزن طائرُ سنونو. قد يستيقظُ المرءُ من نومه في أحد الأيَّام ليجد أنَّه قد رحل. لكنَّه في الواقع لم يرحلْ، وإنَّما هاجر إلى مكانٍ آخر كي يُدفِّئ ريشَه، وسيعودُ عاجلًا أمْ آجلًا ليتربَّعَ على القلب مُجدَّدًا.

ثمَّ شرع الممرِّضُ يصافحهم واحدًا تلو الآخر، وتمنَّى الخيرَ لهم. رآه أصدقاءُ ليلى وهو يَعْرج مبتعدًا، إلى أن دار حول منعطف مبنى المستشفى وتوارى عن الأنظار من وراء البوَّابة العظيمة. وبعد ذلك فقط، جلستْ نوستالجيا نالان، هذه المرأةُ ذاتُ العظام الخشنة والكتفيْن العريضتيْن، والتي يبلغ طولُها ستَّ أقدام وبوصتيْن، على حافَّة الرَّصيف، وجذبتْ ساقيْها إلى صدرها، وشرعتْ تبكي بكاءَ طفلٍ مهجورٍ في أرضٍ غريبة.

صمت الجميع.

بعد مرور برهةٍ وجيزة، وضعتْ حُميراء يدَها على ظهر نالان، وقالت:

ـ هيَّا يا عزيزتي. لنخرجْ من هنا. علينا أن نُرتّب حاجيَّات ليلى، وأن نُطْعم السيِّد تشاپلن. ستنزعج ليلى كثيرًا إنْ لم نَرْعَ قطَّها. لا بدَّ أنَّ المسكينَ يتضوَّر جوعًا الآن.

عضَّت نالان شفتها السُّفلى، ومسحتْ عينَها بظاهر كفِّها، ثمَّ نهضتْ تعلو الآخرين، وإن شعرتْ بضعفٍ في ساقَيها وكأنَّهما من مطّاط. دهمها ألمٌ ممضٌّ وممِلّ في صدغيْها، فأشارت إلى أصدقائها أن يذهبوا من دونها.

قالت زينب 122 وهي تنظر إلى أعلى بقلق:

. أأنتِ متأكِّدة؟

أومأتْ نالان برأسها:

. متأكِّدة يا حبيبتي. سوف ألحقُ بكم لاحقًا.

فما كان منهم إلَّا أن سمعوا كلمتها، شأنهم دومًا.

مكتبة[16.07.20 17:13] ,.@

***

أشعلتْ نالان سيجارةً بعد أن بقيتْ وحدها. كانت تلك هي السيجارةَ التي تتطلَّع إلى تدخينها منذ بواكير العصر، لكنَّها كانت تُمْسِك عنها بسبب الربو الذي تعانيه حُميراء. غبَّت نَفَسًا عميقًا، واحتفظتْ به في رئتيْها قبل أن تُطلِقهُ دوّامةً من دخان. كانت المديرةُ قد خاطبتها بالقول: «أنتم لستم من العائلة نفسها». لكنْ ماذا تعرف المديرة؟ إنَّها لا تعرف أيّ شيء البتّة. ولا تعلم أيَّ شيء عن ليلى، أو عن أيّ واحدٍ منهم.

كانت نوستالجيا نالان تعتقد أنَّ ثمَّة نوعيْن من الأُسَر في هذا العالم: الأقارب وهُم الأسرةُ البيولوجيّة، والأصدقاءُ وهُم أسرَةُ الماء. فإذا كانت الأولى لطيفةً ومهتمَّة، فإنَّ عليكَ أن تشكرَ السماءَ جزيلَ الشكر، وتستفيدَ منها استفادةً كاملةً. وإنْ لم يكن الأمرُ كذلك، فإنَّه لا يزال ثمَّة أمل؛ فقد تتحسَّن الأمور حين تتقدَّم في السنّ تقدُّمًا يكفي لترك بيتك البغيض.

أمَّا بخصوص أسرةِ الماء، فهي تتشكّلُ في مرحلةٍ لاحقةٍ جدًّا من الحياة، وتكون من صنيعِكَ أنتَ إلى درجةٍ كبيرةٍ. صحيح أنَّ شيئًا لا يحلّ محلَّ أسرةٍ بيولوجيّةٍ سعيدةٍ ولطيفة، إلّا أنّه في غياب هذه الأسرة، فإنَّ بمقدور أسرةِ الماء الجيِّدة أن تغسلَ الجروحَ والآلامَ المتراكمة في الداخل كالسُّخام الأسود.

ولهذا السَّبب، كان بإمكان الأصدقاء أن يحظوْا بمكانةٍ غاليةٍ في القلب، ويحتلُّوا مساحةً أكبرَ من المساحة التي يحتلُّها كلّ الأقرباء مجتمعين. إلَّا أنَّ مَنْ لم يختبروا كيف يمكن أن يزدريَهم أقاربُهم لن يَفهموا هذه الحقيقة ولو بعد مليون سنة، ولن يعرفوا أبدًا أنَّ ثمَّة أوقاتًا يكون الماءُ فيها أكثفَ من الدم(7.(

التفتتْ نالان جانبًا وشخصتْ ببصرها إلى المستشفى مرَّةً أخيرة. صحيح أنَّه لا تُمْكن رؤيةُ المشرحة من هذه المسافة البعيدة، إلَّا أنَّها ارتعشتْ وكأنَّها تشعر بالقشعريرة تسري في أوصالها. لم يكن الموتُ هو ما أفزعها، ولا الإيمانُ بالحياة الآخرة حيث تُصحَّحُ مظالمُ هذا العالم تصحيحًا إعجازيًّا. ولمَّا كانت نالان هي الملحدةَ الوحيدةَ من بين أصدقاء ليلى، فقد اعتبرت الجسدَ، وليس المفهوم المجرَّد عن الرُّوح، أبديًّا. فالجزيْئات تمتزج بالتراب، فتقدّم الغذاءَ إلى النباتات؛ التي سوف تقتات عليها الحيواناتُ؛ التي يلتهمها البشر. وهكذا، وبخلاف افتراضات الأغلبيَّة، يصبح جسدُ الإنسان خالدًا، في رحلةٍ لانهائيّة عبر دورات الطبيعة. فما الذي يمكن أن يطلبه الفردُ من الحياة الآخرة؟

بيْد أنَّ نالان افترضتْ دومًا أنَّها سوف تموت قبل الآخرين. ففي كلِّ مجموعةٍ من الأصدقاء الكبار في السنّ وأصحاب التجربة، ثمَّة شخصٌ واحدٌ يعرف غريزيًّا أنَّه سوف يرحل عن العالم قبل

الآخرين، وكانت نالان متأكّدةً من أنَّها ستكون ذلك الشخص. وكلّ تلك المكمِّلات من الأستروجين، وعلاجات تثبيط التستوستيرون، ومسكِّنات ما بعد العمليَّة، ناهيك بالسنوات الطويلة من الإسراف في التدخين وتناول الطعام غير الصحّيّ، والمشروبات... فإنَّ الدَّور سيكون دورَها، لا دورَ ليلى التي كانت تفيض حيويَّةً ونشاطًا وعطفًا وحنانًا. وخالج نالان إحساسٌ بدهشةٍ لا نهاية لها . إحساسٌ لا يخلو من بعض الانزعاج . لأنَّ إسطنبول لم تجعل من ليلى امرأةً قاسيةً وساخرةً ومُرَّةً مثلما فعلَتْ بها هي.

ثمَّة ريحٌ قارصةٌ تهبّ من الشمال الشرقيّ، شاقّةً طريقَها نحو البرّ، مُسبِّبةً هيجانَ أبخرةٍ من البواليع. تماسكتْ نالان من البرد، ومن الألم الذي شعرتْ به في صدغيْها، وانتشر في أنحاء صدرها، وراح يحفر قفصَها الصدريّ كأنَّ يدًا تعصر فؤادَها. على مبعدةٍ منها، كانت حركةُ المرور في ساعة الذروة تسدُّ شرايينَ المدينة، التي أصبحتْ تشبه حيوانًا عملاقًا مريضًا، أنفاسُه مرهقةٌ وخشنةٌ وبطيئةٌ على نحوٍ مؤلم. وعلى العكس، كانت أنفاسُ نالان سريعةً

وعنيفة، وملامحُها محفورةً بنقمة متَّقدة. ولم يكن ما عمَّقَ مشاعرَ يأسها موتُ ليلى المفاجئ وحده، أو الطريقة الوحشيَّة والمُرعبة التي ماتت بها، وإنَّما الافتقار الكلّيّ إلى العدالة في كلِّ شيء.
الحياة ظالمة، وها هي نالان تدرك الآن أنَّ الموت أشدّ ظلمًا.

لطالما كان دمُ نالان يغلي في أعماقها منذ طفولتها حين كانت تشهد شخصًا ما ـ أيَّ شخص ـ يتعرّضُ إلى معاملةٍ قاسيةٍ وظالمة. ولم تكن بتلك الدرجة من السذاجة بحيث تتوقَّع العدلَ من عالمٍ معوجّ، كما كان د/علي يردد

مكتبة[16.07.20 17:13] @.,

إلى ما لا نهاية، ولكنَّها آمنتْ بأنَّ لكلّ فردٍ الحقَّ في قسطٍ من الكرامة، وفيها يمكنك أن تبذر بذرةَ الأمل، وكأنَّها قطعةٌ من التراب لا يملكها أحدٌ سواك. بذرة صغيرة قد تُثمر يومًا من الأيَّام وتُزهر.

وبقدر ما يخصّ الأمرَ نوستالجيا نالان، فإنَّ تلك البذرةَ الصَّغيرةَ هي كلُّ ما يستحقّ أن يناضلَ المرءُ من أجله.

أخرجتْ قصاصةَ الورق التي أعطاهم إيَّاها العجوزُ، وقرأتْ كتابتَه غيرَ المتقنة: «كيليوس. مقبرة الغرباء، . 705». وبعد فحصٍ دقيقٍ، تبيّن لها أنَّ الرَّقم الأخير المدوَّن على أسفل الصفحة بخطٍّ تتعذّر قراءتُه هو الرقم 2. أخرجتْ قلمَ الحبر من حقيبتها، وراحت تغمِّق الخطّ من جديد. ثمَّ طوَت القصاصةَ ووضعتها في جيبها.

ليس من العدل أو الإنصاف دفنُ ليلى التي لم تكن غريبةً على الإطلاق في «مقبرة الغرباء». فقد كان لليلى أصدقاء، أصدقاءُ عُمْرٍ، مخلصون، محبّون. ربَّما لم تكن تملك ما يتجاوز ذلك، لكنّها، بكلِّ تأكيدٍ، كانت تَحْظى بأصدقاء.

فكَّرتْ نالان: «كان العجوزُ على صواب؛ فليلى تستحقُّ أن تُدفن دفنًا لائقًا.«

رمت عقبَ السيجارةِ على الرَّصيف، وسحقتْ نهايتَه المشتعلة تحت حذائها. ثمَّة ضبابٌ بطيءٌ يزحف من الميناء، حاجبًا مقاهي النارجيلة والمشاربَ الواقعةَ على واجهة المياه. في مكانٍ ما من مدينة الملايين، كان قاتلُ ليلى يتناول عشاءً أو يشاهد تلفازًا، بلا ضمير، ولا يحمل من صفات الإنسان سوى اسمِه.

مسحتْ نالان عينيْها، إلَّا أنَّ دموعها ظلَّت تنهمر. وأخذت «المَسْكَرة» تسيح على وجنتيْها. مرَّت أمامها امرأتان تدفع كلّ

واحدةٍ منهما عربةً صغيرة، ورمقتاها بنظرةٍ تنمّ عن الدَّهشة والشفقة، قبل أن تشيحا بنظريْهما وتواصلا سيرهما.

هنا اكتسى وجهُ نالان بأمارات الألم. فلقد اعتادت ملاحظةَ الازدراء والنفور بسبب مظهرها ومهنتها. لا بأس، لكنَّها لم تستطع احتمالَ أن يُشفِقَ عليها أو على صديقاتها أيُّ شخص.

انطلقتْ نالان بخطواتٍ متعجِّلةٍ ورشيقة، بعد أن عزمتْ على شيءٍ ما. لقد قرَّرتْ أن تردَّ، وهو الأسلوب الذي اتَّبعَته دومًا؛ أن تردَّ على الأعراف والأحكامِ والأهواءِ الاجتماعيَّة... وعلى الكراهية الصامتة التي ملأتْ حياةَ هؤلاء الناس مثل غازٍ عديمِ الرائحة. سوف تناضل. لا أحدَ يملك الحقَّ في رمي جثَّة ليلى وكأنَّها غرضٌ لا قيمةَ له، ولم تكن له قيمةٌ البتَّة. سوف تحرصُ نوستالجيا نالان على أن تحظى صديقتُها القديمةُ بمعاملةٍ لائقةٍ وكريمة.

لم ينتهِ الأمرُ عند هذا الحدّ. ليس الآنَ. ففي هذه اللَّيلة، سوف تتحدَّث إلى باقي الأصدقاء، وسيَعْثرون جميعُهم على طريقةٍ لإقامة جنازةٍ لليلى. ولن تكون أيَّ جنازةٍ، وإنَّما أروعَ جنازةٍ شهدتْها هذه المدينةُ القديمةُ المجنونة.

مكتبة[16.07.20 17:14] .,@

- 21 -

هذه المدينة القديمة المجنونة

كانت إسطنبول وهمًا من الأوهام، حيلةَ ساحرٍ، أخفقتْ.

كانت إسطنبول حلمًا لم يعش إلَّا في أذهان مدمني الحشيش. الحقّ أنْ لا إسطنبولَ واحدة، بل أكثرُ من إسطنبول . وكلّ واحدةٍ تكافح، وتنافس، وتصارع، وتُدرك في نهاية المطاف أنَّ إسطنبول واحدةً فقط قادرةٌ على أن تبقى على قيد الحياة.

على سبيل المثال، ثمَّة إسطنبول قديمةٌ صُمِّمتْ لتكون مَعْبرًا على الأقدام أو بالعبّارات، مدينةَ جوَّالين، مثل: الدراويش والعرّافات، وصُنَّاعِ علب الكبريت، وندَّافي القطن، وأصحابِ العبّارات، وطارقي السجَّاد، والحمَّالين الذين يحملون على ظهورهم سلالًا من خيزران.وثمّة إسطنبول حديثةٌ . تمدُّدٌ حضريٌّ يحتشد بالسيَّارات والدرَّاجات الناريَّة المتنقِّلة ذهابًا وإيَّابًا، والشاحناتِ المحمَّلةِ بموادّ البناء لتشييد المراكز التجاريَّة وناطحاتِ السحاب والمزيد من المواقع الصناعيَّة. إسطنبول الإمبرياليَّة في مواجهة إسطنبول المبتذلة؛ إسطنبول الكونيَّة في مواجهة إسطنبول الضيّقة والمحدودة؛ إسطنبول الكوزموبوليتانيَّة في مواجهة إسطنبول

المادِّيَّة النزعة؛ إسطنبول الهرطقيَّة في مواجهة إسطنبول الوَرِعة؛ إسطنبول الذَّكر في مواجهة إسطنبول الأنثى التي تبنَّت أفروديتَ . إلهةَ الرَّغبةِ والحرب . رمزًا وحاميةً لها؛ وهناك إسطنبول الذين تركوها منذ زمنٍ بعيد، وأبحروا إلى مرافئ نائية: هذه المدينة ستظلّ في نظرهم حاضرةً دومًا، والمدينةَ الأمَّ المشيَّدةَ بالذكريات والأساطير والحنينِ المخلِّص والمنتَظَر، والمُراوِغةَ أبدًا مثل وجهِ حبيبةٍ يتلاشى في الضَّباب.

كانت كلُّ هذه الوجوه التي تمثِّلها مدينةُ إسطنبول تعيش وتتنفَّس، الواحدة داخل الأخرى، مثلَ لعب ماتريوشكا بُعِثَتْ فيها الحياة. لكنْ حتَّى لو أفلح ساحرٌ شرّيرٌ في الفصل بين هذه الوجوه، ووضعِها متجاورةً، فإنَّه لن يتمكَّن، في هذا الصفّ المتراصف الكبير، من العثور على جزءٍ من المدينة مرغوبٍ وشيطانيٍّ ومُدانٍ أكثر من حيّ پيرا. فهو حيّ يشكِّل محورَ الاهتياج والفوضى منذ قرونٍ، وارتبط ارتباطًا وثيقًا بالليبراليَّة والفسوق والتوجُّه الغربيّ . وهي القوى الثلاث التي جعلت الشبَّانَ الأتراكَ تائهين. اسمُ الحيّ

مُشتقّ من اللُّغة اليونانيَّة، ويعني: «في الجانب الأبعد»، أو بكلّ بساطة: «عبر» أو «وراء»؛ عبر القرن الذهبيّ، أو وراء أعراف المجتمع وتقاليده. هذا هو حيّ Peran en sykais . «على الساحل المقابل»، مثلما كان يُعرَف في يومٍ من الأيَّام، وهو المكان الذي كانت ليلى التكيلا قد جعلته مأوًى لها حتَّى يوم أمس.

بعد وفاة د/علي، رفضَتْ ليلى الانتقالَ من الشقَّة؛ فكلّ رُكنٍ من أركانها كان يردِّد صدى ضحكاته وصوته. صحيح أنَّ الإيجار باهظ الثمن، إلَّا أنَّها أفلحتْ في تدبُّر أمورها. وكانت حين عودتها من العمل إلى بيتها في وقتٍ متأخِّر من اللَّيل، تبدأ بالاستحمام من تحت دشٍّ صدئ لم يمنحْها قطُّ ما يكفي من الماء الحارّ، وتفرك جسمَها بقوَّة. وبعد أن يحمرّ ويغدو مؤلمًا مثل جسم مولودٍ جديد، تجلس على كرسيٍّ قرب النافذة تراقب بزوغَ الفجر على المدينة. وكانت ذكرى د/علي تهيمن عليها، ناعمةً ومهدِّئةً مثل بطَّانيَّة. وكانت في أوقات العصر غالبًا ما تستيقظ، مكوَّرةً ومتألِّمةً بسبب نومها على هذا النحو، وعند قدميْها قطّها السيِّد تشاپلن.

كان شارع هيري كافكا يمتدّ بين مبانٍ مُتداعية، آيلةٍ إلى السقوط، ودكاكينَ صغيرةٍ داكنةٍ ورثّةٍ متخصِّصةٍ في بيع المصابيح الكهربائيَّة. وفي أوقات المساء، حين تُضاء كلُّ المصابيح، تكتسب المنطقةُ ألقًا بنّيًّا داكنًا بلون السيبيا، وكأنَّها تنتمي إلى قرنٍ آخر. ذات يوم، كانت هذه المنطقة تسمَّى «شارع القفطان المبطَّن بالفرو»، على الرَّغم من أنَّ جماعةً من المؤرِّخين أصرَّت على أنَّ اسمَه كان «شارع المحظيّات الشقراوات». وفي الحالتيْن، حين قرَّرت البلديَّة أن تُجدِّد لافتات الشارع في المنطقة، كجزءٍ من مشروعٍ طموحٍ لتطويره، اختصر المديرُ المسؤولُ عن التطوير الاسمَ، إذ وجده غريبًا ومُحرِجًا أكثرَ ممَّا ينبغي، وسمّاهُ شارع القفطان .Kaftan Street وهكذا، أصبح يُعرف بهذا الاسم. إلى أن حدث ذاتَ يوم، بعد ليلةٍ عاصفة، أن سقط حرفُ n من الاسم، فصار .Kafta Street لكنَّ هذا الاسم لم يستقرّ طويلًا، إذ عمد طالبٌ يدرُس الأدبَ إلى تغييره من Kafta إلىKafka ، مستخدمًا بذلك قلمَ تأشير. فرحَّب معجَبو الكاتب كافكا

مكتبة[16.07.20 17:14] ,.@

بهذا اللَّقب، في حين ظلَّ آخرون لا يَمْلكون أيّ فكرةٍ عمَّا يعنيه الاسمُ الجديد، وإنْ قبِلوا به بعد أن أعجبهم صوتُه.

بعد شهرٍ واحد، نشرتْ إحدى الصحف القوميَّة المتشدِّدة قصَّةً قصيرةً عن المؤثِّرات الأجنبيَّة السرِّيَّة في إسطنبول، زاعمةً أنَّ هذا الاحتفاءَ الواضحَ بكاتبٍ يهوديّ كان جزءًا من خطَّةٍ فظيعةٍ لمحو الثقافة الإسلاميَّة المحلِّيَّة، ووزِّعَتْ عريضةً تطالبُ بإعادة الاسم القديم إلى الشارع، مع أنَّ النقاش لم يُحسم بشأنه. ورُفِعتْ لافتةٌ بين شرفتيْن كُتب عليها: «أحبِبْها أو ارحَلْ: أمّة عظيمة واحدة». وظلَّت اللَّافتةُ بعد أن غسلتها الأمطارُ، وشحب لونُها بفعل الشمس، ترفرف في ريح إسطنبول الجنوبيَّة الغربيَّة، إلى أن تقطَّعتْ خيوطُها ذات يوم، وطارت بعيدًا مثلَ طائرةٍ ورقيَّةٍ غاضبةٍ في السَّماء.

في هذه الأثناء، انتقل الرَّجعيُّون إلى معارك أخرى. لكنَّ الحملة سرعان ما نُسيَت بالسرعة التي بدأتْ بها. وفي وقت محدَّد، شأن جميع السكَّان في هذه المدينة المصابة بانفصام الشَّخصيَّة، اجتمع القديمُ والجديد، الحقيقيُّ والخياليّ، الواقعيُّ والسورياليّ، وأصبح الشارع يُعرف باسم شارع كافكا الكثيف الشعر Hairy Kafka Street.

في منتصف هذا الشارع، وبين حمَّامٍ قديمٍ ومسجدٍ حديث، انتصبتْ عمارةٌ تحتوي على شققٍ كانت يومًا ما حديثة ورائعة، وأضحَت اليوم تتَّصف بكلّ الصفات إلَّا هاتيْن الصفتيْن. فقد حطَّم لصٌّ غيرُ محترف نافذةَ المدخل الرئيس؛ ولمَّا أفزعتْه الضوضاءُ، هرب من غير أن يسرق شيئًا. وحين رفض سكّانُ العمارة جمعَ

مبلغ من المال لاستبدال الزجاج المكسور، استخدموا لتثبيته شريطًا لاصقًا بُنِّيًّا من النوعِ الذي تستعمله شركاتُ النقل.

كان السيِّد تشاپلن يجلس أمام ذلك الباب، وذيلُه يلتفّ من حوله. كان أسودَ الشعر، وعيناه شذريَّتان مرقَّطتان بلونٍ ذهبيّ. وكانت له كفٌّ بيضاء، وكأنَّه قد غمرها في دلوٍ من الكلس قبل أن يُغيِّرَ سريعًا. أمَّا رقبتُه المزيَّنةُ بأجراسٍ فضِّيَّةٍ صغيرة، فكانت ترنّ كلَّما تحرَّك. لم يسمَع الصوتَ البتَّة، ولا شيء يَقْدره أن يزعجَ الصمتَ في عالمه.

كان قد تسلَّل خارجًا عشيَّةَ توجُّه ليلى التكيلا إلى العمل. ولم يكن ذلك الأمر بالغريب؛ فالسيِّد تشاپلن كان متسكِّعًا ليليًّا، يرجع إلى البيت قبل الفجر دائمًا، ظمآنًا، ومدرِكًا أنَّ صاحبتَه تترك البابَ

مواربًا. لكنْ، هذه المرَّة، استبدَّت به الدَّهشةُ حين وجد البابَ مغلقًا. ومنذ ذلك الوقت، لبث ينتظر صابرًا!

انقضَت ساعةٌ أخرى، ومرّت سيَّاراتٌ تطلق أبواقَها بحيويَّة، وصاح الباعةُ الجائلون منبِّهين إلى سِلَعهم، وعزفَت المدرسةُ الكائنةُ وراء المنعطف النشيدَ الوطنيَّ من خلال مكبِّرات الصوت ومئات التلاميذ في جوقةٍ واحدة. ولمَّا فرغوا من النشيد، أقسموا قَسَمًا موحَّدًا: «لتكن حياتي فدًى لحياة تركيَّا». وعلى مبعدةٍ من المكان، قربَ موقع بناءٍ سبق أن سقط فيه أحدُ العمَّال ولَقِي مصرعَه، هَدَرَ صوتُ جرَّافةٍ يهزّ الأرض. كانت علاماتُ الصوت الإسطنبوليَّة تملأ السماء، إلَّا أنَّ القطّ لم يسمع أيًّا منها أيضًا.

اشتاق السيّد تشاپلن إلى مَن يُربّتُ على رأسه تربيتًا يريحه. واشتاق إلى أن يكون في الطابق العلْويّ، في شقَّته، رفقةَ إناءٍ

مملوءٍ بباتيه البطاطس وسمكِ الإسقمري ـ طعامِهِ المفضَّل. وبينما هو يتمطَّى ويقوِّس ظهرَه، تساءل أين صاحبتُه، ليلى التكيلا، وما سببُ تأخُّرها هذا اليوم على غير عادتها!

مكتبة[16.07.20 17:14] @.,

- 22 -

حُزن

حين لاحت عتمةُ الغسق، ووصل أصدقاءُ ليلى ـ باستثناء نوستالجيا نالان التي لم تكن قد لحقتْ بهم حتَّى تلك اللَّحظة ـ إلى مبنى الشقَّة في شارع هيري كافكا، لم يواجهوا أيَّ مشكلةٍ في الدخول إليها، إذ كان كلٌّ منهم يَمْلك مفتاحًا احتياطيًّا.

لاحت نظرةٌ ارتيابيَّةٌ على ملامح سنان المُخرِّب حينما اقترب من الباب الرئيس. وأدرك بألمٍ مفاجئ يَعْتصر صدرَه أنَّه غيرُ مستعدّ لدخول شقَّة ليلى، ورؤيةِ الفراغ المؤلم الذي خلَّفه غيابُها. وخالجه دافعٌ قويّ إلى الابتعاد من الأعزّاء على قلبه أنفسهم. كان بحاجةٍ إلى الانفراد ولو لبرهةٍ وجيزةٍ على الأقلّ.

. ربَّما ينبغي أن أعود إلى المكتب أوَّلًا. فقد خرجتُ فجأةً ومبكِّرًا جدًّا.

في هذا الصباح، حين طرقت الأنباءُ سمعَه، اختطف سترتَه، وخرج من الباب. أبلغ مديرَه بأنَّ أحدَ أطفاله قد أصيب بتسمُّم، وأنَّ السَّبب لا بدَّ من أن يكون جرَّاء تناوله الفطر في وجبة العشاء. لم

يكن هذا العذر أفضلَ أعذاره، غير أنَّه لم يقدر على اختراع آخرَ أفضلَ منه، ولم يكن في وسعه أن يُخبر زملاءه بالحقيقة، إذ لا يعرف أيٌّ منهم بصداقته لليلى. لكنْ خطر في باله أنَّ زوجته ربَّما اتَّصلت بمقرّ عمله، واكتشفتْ بذلك كذبَهُ، الأمرُ الذي سيوقعه في ورطةٍ كبيرة.

سألته جميلة:

ـ أأنت متأكِّد؟ ألم يفُت الأوان؟

ـ سأمرُّ لوقتٍ قصيرٍ فحسب، وسأتأكَّد من أنَّ كلَّ شيء على ما يُرام، ثمّ سأعود من فوري.

قالت حُميراء:

. لا بأس. لا تتأخَّر.

. الزحام الآن في ذروتـه... سأبذل قُصارى جهدي.

كان المخُرِّب يكره السيَّارات. لكنْ لمَّا كان يعانـي رُهابَ الأماكن المغلقة، ولا يستطيع احتمالَ الوقوف محصورًا داخل حافلة أو

عبّارة مكتظَّة . إذ كانت كلّ الحافلات والعبّارات مزدحمةً في هذه الساعة من النهار . فقد اضطُرَّ إلى الاعتماد عليها.

وقفت النساءُ الثلاثُ على الرَّصيف، وراقبنه وهو يبتعد عنهنَّ. خطواتُه غير ثابتة إلى حدٍّ ما، ونظراتُه ثابتة على حصى الطريق، وكأنَّه لم يَعُد قادرًا على الوثوق بثبات الأرض! الواضح أنَّه فقد كلّ نشاطه وحيويَّته، إذ كانت كتفاه متهدِّلتيْن، ورأسه محنيًّا في زاوية حادَّة. لقد هزَّه موتُ ليلى حتَّى العظم. ثمَّ رفع ياقةَ سترته لمواجهة الريح التي راحت تهبّ نشيطةً، وتوارى عن الأنظار في خضمِّ بحرٍ من الناس.

مسحتْ زينب 122 سرًّا دمعةً، ورفعتْ نظّارتَها إلى أعلى، ثمَّ التفتتْ إلى المرأتيْن الأُخريَيْن، وقالت:

ـ اسبقاني أيَّتها الفتاتان. سأذهب إلى دكّانٍ لشراء حلاوةٍ على روح ليلى.

قالت حُميراء:

مكتبة[16.07.20 17:15] ,.@

ـ حسنًا، يا حبيبتي، وسأترك البابَ مفتوحًا للسيِّد تشاپلن.

أومأتْ زينب 122 برأسها، وعبرت الطريقَ، تخطو برجلها اليمنى أوَّلًا وهي تقول «بسم اللّه الرحمن الرَّحيم». كان جسدُها المشوَّه،

بسبب اضطرابٍ وراثيٍّ استَحكم بها منذ أن كانت طفلةً، قد شاخ بسرعةٍ أكبر من المعتاد. كأنَّ الحياة كانت سِباقًا يتعيَّن عليها الانتهاءُ منه بأقصى سرعة. إلَّا أنَّها نادرًا ما تذمَّرتْ؛ وإنْ فعلتْ فلكي تشكو أمرَها إلى اللَّه.

كانت زينب 122 امرأةً متديِّنةً جدًّا، بخلاف الآخرين في المجموعة. وكانت مؤمنةً بكلّ ما في الكلمة من معنى، إذ كانت تُصلِّي خمسَ مرَّات في اليوم، وتمتنع عن شرب الكحول، وتصوم رمضانَ كلَّه. كما أنَّها درست القرآنَ في بيروت، وقارنتْ بين مختلف ترجماته المتعدِّدة، وكان في وسعها أن تتلو سوَرًا برمَّتها عن ظهر قلب. غير أنَّ الدِّين لم يكن في منظورها كتابًا مُتجمّدًا في الزمان، وإنَّما وجودًا عُضويًّا يتنفَّس؛ اتِّحادًا. فقد مزجتْ بين النصّ المكتوب والعادات الشفاهيّة، وأضافت إلى المزيج رشَّةً من الخرافات والتراث. ثمَّ إنَّ هناك أشياءَ ينبغي أن تفعلها لمساعدة روح ليلى في رحلتها الأبديَّة. لم يكن لديْها متَّسعٌ من الوقت. لهذا، تحرَّكتْ سريعًا، وتعيَّن عليها أن تشتري عجينةَ خشب الصندل

والكافور وماء الورد... وأن تُعِدّ تلك الحلاوةَ التي سوف توزِّعها بعدئذٍ على الغرباء والجيران على حدٍّ سواء. لا بدَّ من أن يكون كلُّ شيء جاهزًا، وإنْ كانت تعلم أنَّ بعض أصدقائها قد لا يقدِّرون جهدَها حقَّ قدره. ولاسيَّما نوستالجيا نالان.

ولمَّا لم يكن ثمَّة متَّسعٌ من الوقت، فقد اتَّجهتْ زينب 122 إلى أقرب متجر، وإنْ كانت لا تَدخُلُه عادةً، إذ لم يَرُقْ صاحبُه لليلى أبدًا.

***

كان المَتْجر شاحبَ الإضاءة، تغطِّي جدرانَه من الأرض إلى السقف رفوفٌ، عليها منتجاتٌ معلَّبةٌ ومغلَّفة. داخلَ المتجر، وقف الرجلُ المعروفُ بين سكَّان المنطقة بلقب «البقّال الشوفينيّ»،

محنيَّ الظهر من فوق نضدٍ أضحى ناعمَ الملمس بتقادم الزمن. كان يجذب لحيَته الطويلةَ والجعْدة، منهمكًا في مطالعةِ صفحةٍ من جريدةٍ مسائيَّة، محرّكًا شفتَيْه أثناء القراءة. حدَّقتْ في وجهه صورةُ ليلى التكيلا، ومن تحتها عنوان: «رابعُ جريمة قتل غامضة في غضون شهرٍ واحد: عاهراتُ إسطنبول في حالة تأهُّبٍ قصوى.«

ثمَّ جاءت بقيّةُ الخبر على الوجه الآتي:

» أثبتت التحقيقاتُ الرَّسميَّةُ أنَّ المرأة عادت إلى العمل في الشوارع، بعد أن رحلتْ عن ماخورٍ مُرخَّصٍ قبل عقدٍ من الزمن في أقلّ تقدير. وتعتقد الشرطة أنَّها تعرَّضتْ للسرقة أثناء الهجوم، استنادًا إلى عدم العثور على أيّ مالٍ أو مجوهرات في المكان. ويجري البحثُ الآن عن صلةٍ بين قضيَّتها وقضيَّةِ المومسات الثلاث الأخريات، اللواتي قُتِلن في الشهر الماضي خنقًا. ويسلِّط

موتُهنَّ الضوءَ على حقيقةٍ لا يُعرَف عنها إلّا النزرُ اليسير، وتتمثّلُ في أنَّ نسبةَ القتل في أوساط العاملات في حقل الجنس بمدينة إسطنبول أكبرُ من مثيلاتها في أوساط بقيَّة النساء بثماني عشرة مرَّة، وأنَّ معظم جرائم قتل المومسات تبقى من غير حلّ، ويرجع هذا جزئيًّا إلى أنَّ عددًا قليلًا من العاملات في هذه المهنة يرغبن في الحضور للإدلاء بمعلوماتٍ مهمَّة في هذا الشأن. وعلى أيّ حال، فإنَّ الجهات التي تُنفِّذ القانونَ تتابعُ عددًا من الأدلَّة المهمَّة. هذا، وقد أبلغ معاونُ رئيس الشرطة الصحافة أنّ«...

حين رأى البقّالُ زينب 122 تقترب، طوى الجريدةَ ووضعها في أحد الأدراج، واستغرق وقتًا أطولَ ممَّا ينبغي كي يتمالك رباطةَ جأشه.

قال بصوتٍ مرتفعٍ لا ضرورة له:

. السَّلام عليكم.

مكتبة[16.07.20 17:15] ,.@

ردَّت زينب 122، وهي تقف قرب كيسٍ من الفاصولياء أطولَ منها:

. وعليكم السَّلام .

قال وهو يمدُّ عنقه، ويُبرز ذقنَه ليحظى بنظرةٍ أفضل إلى زبونته:

ـ تعازيَّ لخسارتِكِ. أُذيعَ النبأُ على شاشة التلفاز. هل شاهدتِ أخبارَ العصر؟

قالت زينب 122 باقتضاب:

ـ لا، لم أشاهدها.

ـ إنْ شاء اللّـه سوف يقبضون على ذلك المهووس قريبًا. ولن تستبدَّ بي الدَّهشةُ إنْ تبيّن أنَّ القاتل فردٌ من عصابة.

ثمَّ أومأ برأسه موافقًا على ما يقوله:

. إنَّهم يفعلون أيَّ شيءٍ من أجل المال، هؤلاء اللُّصوص. هناك أعداد كبيرة جدًّا من الأكراد والعرب والغجر، وخليطٌ كبير من الناس في هذه المدينة. لقد تبخَّرتْ جودةُ الحياة منذ أن جاؤوا إلى هنا.. أُف!

. أنا عربيّة.

ابتسم لها، وقال:

ـ لكنَّني لم أقصدْكِ أنتِ.

تحقَّقتْ زينب من الفاصولياء، وفكَّرتْ: «لو أنَّ ليلى حاضرةٌ، للقَّنتْ هذا الرجلَ البغيضَ درسًا». لكنَّ ليلى رحلتْ، ولا تعرف زينب 122 التي تَنْفر من الشجار كيف تتعامل مع الناس الذين يسبّبون لها الانزعاجَ.

حين رفعتْ بصرَها من جديد، رأت البقّالَ منتظرًا دورَها للكلام. قالت:

. معذرة، ذهني مشغول بشيءٍ آخر.

أومأ الرجلُ إيماءةَ العارف، وقال:

. هي رابعُ ضحيّة في شهر. صحيح؟ لا أحد يستحقّ الموتَ تلك المِيتَةَ، حتَّى المرأة الساقطة. إنَّني لا أحكم على أيّ شخص، فلا تُخْطئي الظنَّ بي. إنَّني دائمًا أقول إنَّ اللَّه سوف يعاقب كلَّ فردٍ بحسب مشيئته العقابَ المناسبَ، ولن يترك خطيئةً واحدةً من غير عقاب.

لمستْ زينب 122 جبينَها، وشعرتْ بصُداعٍ يتجدَّد. غريب! فهي غير مُصابة بداء الشقيقة، بل إنَّ ليلى هي التي كانت تعاني ذلك المرض.

. إذًا، متى يحين موعدُ الجنازة؟ هل أعدَّت أُسرتُها أيَّ ترتيبات؟

جفلتْ زينب 122 من السؤاليْن. فقد كان آخر شيء ترغب فيه هو أن تقول لهذا المتطفِّل الفضوليّ إنَّ ليلى دُفنتْ في مقبرةِ الغرباء لأنَّ أسرتَها رفضتْ أن تتسلَّم جثَّتها.

مكتبة[16.07.20 17:15] .,@

. آسفة، إنَّني في عجالة من أمري. من فضلك، أيُمكنني الحصولُ على زجاجة حليب وعلبة زبدة؟ آه، وكذلك السميد.

. أكيد، هل تُعدِّين الحلاوة؟ لطيف. لا تنسَي جلبَ قطعةٍ لي. ولا تقلقي، فهذه كلُّها على حسابي.

. لا، شكرًا. لا يمكنني أن أقبلَ هذا.

وقفتْ زينب 122 على قدميْها، ووضعت النقودَ على النضد، ورجعتْ خطوةً إلى الوراء. قرقرتْ معدتُها . فقد تذكَّرتْ أنَّها لم تأكل شيئًا طول النهار.

. ثمّة شيء آخر. هل تبيع ماءَ الورد وعجينةَ خشب الصندل والكافور؟

رمقها بنظرةٍ فضوليّة، وقال:

. بالتأكيد، يا أختاه، في الحال. في متجري كلُّ ما تحتاجين إليه. وأنا لم أفهم قطّ لماذا لم تتسوَّق ليلى من متجَري في أغلب الأحيان!

مكتبة[16.07.20 17:19] ,.@

- 23 -

الشقَّة

كان السيِّد تشاپلن مسرورًا إثر عودته من نزهته، إذ وجد البابَ الرئيسَ مواربًا، فتقدَّم بطيئًا إلى مبنى الشقَّة 2. وما إنْ أصبح داخله حتَّى انطلق مسرعًا على السلالم، والأجراسُ المعلَّقةُ في رقبته ترنّ رنينًا عاليًا.

وبينما راح يقترب من شقَّة ليلى، فُتِح البابُ من الداخل، وبانت للعيان حُميراء هوليوود حاملةً بإحدى يديْها كيسَ نفايات، ووضعته خارج المدخل، حتى يتاح للمُشْرف على المبنى أن ينقلَه في وقتٍ

لاحق من ذلك المساء. كانت توشك على الرجوع حين أبصرت القطّ، فدخلت الرُّواقَ، الذي حجب ضياءَهُ ردفاها الكبيران.

. كنَّا نتساءل أين كنتَ، يا سيِّد تشاپلن؟

مسح القطُّ بدنَه على ساقَي المرأة الثخينتيْن والقويَّتيْن، والمكسوَّتيْن بأوردةٍ خضراءَ مزرقّةٍ مندفعةٍ من تحت الجلد.

. آه، أيُّها المخلوق المشاغب. ادخل.

ثمَّ ضحكتْ لأوَّل مرَّة منذ ساعات.

واندفع السيِّد تشاپلن مختصِرًا الطريقَ صوب غرفة الطعام، التي كانت غرفةَ معيشةٍ وغرفةَ ضيوفٍ أيضًا. ثمَّ وثب داخل سلَّةٍ مفروشةٍ ببطَّانيَّة من صوف، وراح يمسح المكانَ مسحًا بعيْنٍ مفتوحة. أمَّا العينُ الأخرى فكانت مغمضة، وكأنَّه يدوِّن كلَّ التَّفاصيل في ذاكرته، متأكِّدًا من أنَّ شيئًا لم يتغيّرْ خلال فترة غيابه.

على الرَّغم من حاجة الشقَّة إلى بعض الترميمات، فقد كانت آسرة على نحوٍ لا يُحتمَل، بما فيها من أصباغ خفيفة، ونافذتيْن تواجهان جهةَ الجنوب، وسقوفٍ عاليةٍ، ومدفأةٍ يبدو الهدفُ منها جماليًّا لا واقعيًّا، وورقِ جدرانٍ أزرق - ذهبيّ متقشِّرٍ عند الحافَّات، وثريّاتٍ بلَّوْريَّة متدلِّية تدلِّيًا منخفضًا، فضلًا عن ألواح أرضيَّة من

خشب الجوز نُظِّفتْ حديثًا. وكانت على كلّ جدار لوحاتٌ مؤطَّرةٌ بمختلف الأحجام، وكلُّها من رسوم د/علي.

كانت النافذتان الكبيرتان تُطلَّان على سطح برج غالاتا القديم، الذي كان يحملق غاضبًا في اتِّجاه العمارات السَّكنية وناطحات السِّحاب النائية، وكأنَّه يُذكِّرها بأنَّه كان ذاتَ يومٍ أعلى مبنًى في المدينة، وإنْ بات يَصْعب تصديقُ ذلك الآن.

دخلتْ حُميراء غرفةَ نوم ليلى، وبدأتْ تفتِّش داخل علب التحفيّات وهي تُهمهم في نفسها، شاردةَ الذهن، لحنًا شعبيًّا. كان صوتُها مرهقًا . ولكنَّه عميقٌ وممتلئ. لقد لبثتْ سنواتٍ طوالًا تغنِّي في نوادي

مكتبة‏[16.07.20 17:19] @.,

إسطنبول اللَّيليَّة الرديئة السمعة، ومثَّلتْ في أفلامٍ تركيَّةٍ ذاتِ ميزانيَّةٍ منخفضة، ومن ضمنها بعضُ الأفلام المُخصّصة للبالغين، والتي لا تزال تسبِّب لها الحَرَج. كانت، يومذاك، ذاتَ قوامٍ جميلٍ، وبلا دوالٍ في الساقيْن. وكانت حياتُها مليئةً بالمخاطر: فذات يومٍ، أصيبت بجروح عند تبادل إطلاق نار بين جماعتيْن مُتنافستيْن من المافيا؛ وفي المرَّة الثانية، أصيبت في إحدى ركبتيْها على يد عاشقٍ مخبول. أمَّا اليوم، فقد أصبحتْ أكبرَ سنًّا من أن تحيا تلك الحياة. وكان تنفُّسُها لدُخانِ الآخرين ليلةً بعد ليلة قد فاقم من الربو الذي تعانيه، فكانت تحمل في جيبها جهازَ استنشاقٍ تستخدمه بين وقتٍ وآخر. وازداد وزنُها على مرّ السنين . وكانت الزيادة أثرًا من الآثار الجانبيَّة التي خلّفتْها حبوبٌ متنوِّعة، تناولتها تناولَ الحلوى على مدى عقودٍ من الزمان: حبوبٌ منوِّمة، ومضادّاتُ اكتئاب، ومضادّاتُ ذُهان....

كانت حُميراء تعتقد بوجود تشابُهٍ في تجربتَيْ زيادة الوزن والقابليَّة للاكتئاب. ففي الحالتيْن، يُوجِّهُ المجتمعُ اللَّومَ إلى المريض نفسه، في حين لا ينظر إلى أيِّ حالةٍ طبِّيَّةٍ أخرى بهذا المنظار.

فالمرضى المُصابون بأمراض أخرى يحصلون، في الأقلِّ، على درجةٍ من العطف والإسناد المعنويّ. أمَّا المُصابون بالاكتئاب وأصحابُ الوزن الزائد، فيُحْرَمون ذلك، إذ يقال لهم: «كان في إمكانكم السَّيطرةُ على شهيَّتكم للطعام... كان في وسعكم السَّيطرةُ على أفكاركم...» غير أنَّ حُميراء كانت تعلم أنَّ وزنَها واكتئابَها لم يكونا حقًّا اختيارًا شخصيًّا. وكانت ليلى تعرف ذلك.

ـ لماذا تريدين محاربةَ الاكتئاب؟

ـ لأنَّ هذا ما ينبغي أن أفعله... وهو ما يردِّده الجميع.

ـ كانت أمّي ـ وكنتُ أناديها يا عمَّتي ـ تشعر بالشعور نفسه، وربَّما أسوأ، فكان الناس يقولون لها: «حاربي الاكتئاب». إلّا أنّهُ يراودني إحساسٌ بأنَّنا حالما نَعتبر شيئًا ما عدوًّا لنا، حتَّى نعزِّزَ من سطوته علينا. مثل الكيد الذي يرتدُّ إلى صاحبه؛ فأنتِ تُبعدينه عنكِ، وإذا به يعود ويضربك بالقوَّة نفسها. لعلَّ ما تحتاجين إليه هو أن تُصادقي اكتئابَكِ.

ـ يا له من كلامٍ مضحك يا حبيبتي. كيف أفعلُ ذلك؟

ـ حسنًا، فكِّري في الأمر. فالصديق هو الذي تسيرين برفقته في الظلام، وتتعلَّمين أشياءَ كثيرةً منه، ولكنَّكِ تعلمين أيضًا أنَّكما مختلفان. فأنتِ لستِ الاكتئابَ، بل أنتِ أكثر بكثير من المزاج الذي أنت عليه اليوم أو غدًا.

حثَّتْها ليلى على تقليل الحبوب، وممارسةِ هواية من الهوايات بدلًا من ذلك، والبدء بالتمارين الرياضيَّة، أو التطوُّع في ملجأ للنساء ومساعدة اللواتي لديهنَّ من القصص ما يشبه قصَّتها. إلَّا أنَّ حُميراء وجدتْ مشقَّةً لا تُصدَّقُ في ملازمة مَنْ كانت حياته صعبة على نحوٍ غير منصف. وحين حاولتْ ذلك من قبل، انقلبتْ كلماتُها المنطويةُ على حُسن نيَّةٍ إلى نفخٍ فارغٍ في الهواء. إذ كيف يمكنها أن تمنحَ الآخرين أملًا

مكتبة[16.07.20 17:19] .,@

وبهجةً في حين أنَّها هي نفسها تعاني باستمرار نوباتِ الخوف والقلق؟

اشترت ليلى كتبًا عن الصوفيَّة والفلسفة الهنديَّة واليوغا . وهي كُتُب اهتمَّت بها على أثر وفاة د/ علي. إلَّا أنَّ حُميراء لم تُحرِز أيَّ تقدُّم في ذلك الاتِّجاه أيضًا، مع أنَّها واظبتْ على تصفُّح تلك الكتب مرَّاتٍ ومرَّات. وتبيَّن لها أنَّ كلّ هذه الأشياء التي قد تبدو سهلةً، بحسب مزاعم الغير، إنَّما هي مُصمَّمةٌ أساسًا للأصحَّاء الذين يحيون حياةً سعيدة، أو هم أسعدُ حظًّا منها. إذ كيف يمكن أن يُهدِّئ التأمُّلُ من ذهنِكَ حين يكون ما تحتاجُ إليه هو أن تهدأَ كي تتأمَّل؟ وهكذا، عاشت وفي أعماقها فوضى لا نهاية لها.

بعد أن رحلتْ ليلى اليوم، هاجم خوفٌ أسودُ رأسَ حُميراء مثلَ ذبابةٍ في مصْيَدة. فقد أخذتْ الزاناكس بعد خروجها من

المستشفى، لكنَّ الواضح أنَّه لم يكن له تأثير. فقد كان عقلُها مُعذَّبًا بصُوَر عنفٍ مرعبة: قسوة. مذبحة. شرّ بلا معنى وبلا إحساس وبلا عقل. والتمعتْ أمام عينيْها سيَّاراتٌ فضِّيَّة اللَّون التماعَ السكاكين في اللَّيل. وفي خضمِّ الرَّعشة التي ألمَّت بها، فرقعتْ أصابعَها المتعبة، وأرغمتْ نفسَها على المضيِّ قُدمًا من غير أن تلتفتَ إلى أنَّ كعكة الشعر في مؤخّر رأسها قد تفكَّكتْ، وأنَّ نسمات الهواء تتساقط بحريّةٍ على مؤخّر رقبتها. وعثرتْ على مجموعة صور تحت السرير، إلَّا أنَّ النظر إليها كان مؤلمًا جدًّا. هذا ما كانت تفكِّر فيه حينما لاحظتْ ثوبَ الشيفون الأرجوانيّ الضارب إلى الحُمرة مرميًّا من فوق ظهر كرسيّ. وحين أمسكتْ به، تجعَّد وجهُها. لقد كان ثوبَ ليلى المفضَّل.

مكتبة[16.07.20 17:20] @.,

- 24 -

مواطنات سويَّات

دخلتْ زينب 122 الشقَّةَ تحملُ في كلِّ يدٍ كيسًا مملوءًا بموادّ البقالة والعطارة، مبهورةَ الأنفاس، تلهث قليلًا.

. آه، إنَّ هذه السلالم تقتلني.

فسألتها حُميراء هوليوود:

. لماذا تأخَّرتِ كلَّ هذه المدَّة؟

. اضطررتُ إلى الكلامِ مع ذلك الرجل الفظيع.

. من؟

. البقّال الشوفينيّ، الذي لم يُعجِبْ ليلى قطّ.

قالت حُميراء مستغرقةً في التَّفكير:

. صحيح، لم يعجبْها.

لبثت المرأتان صامتتيْن برهةً وجيزةً من الزمان، كلٌّ منهما منشغلةٌ بأفكارها الخاصَّة.

قالت زينب 122:

. علينا أن نتخلَّصَ من ثياب ليلى، ومن أوشحتها الحريريَّة . يا ربّ! لديها أوشحة كثيرة جدًّا.

. ألا تعتقدين أنَّ علينا أن نحتفظ بها؟

. علينا أن نلتزم بالعادات. فعندما يموت شخصٌ ما، فإنَّ ثيابه توزَّع على الفقراء. إنَّ بركات الفقراء تساعد الميِّتَ في عبور الجسر إلى العالم الآخر. والتوقيت غايةٌ في الأهمِّيَّة. لذا، ينبغي أن نتصرَّف سريعًا؛ فروحُ ليلى توشك على بدء رحلتها. إنَّ جسرَ الصراط أحدُّ من سيفٍ وأرقُّ من شعرةٍ...

. آه، ها نحن نبدأ من جديد. أريحينا قليلًا بحقِّ الجحيم!

نما إليهما الكلامُ السابقُ من الخلف، بصوتٍ أجشّ. فُتِح الباب، ما دفع الامرأتيْن والقطَّ إلى الوثوب

مكتبة[16.07.20 17:20] .,@

دهشةً، مقشعرِّي الأبدان خوفًا. كانت نوستالجيا نالان تقف عند المدخل مقطِّبةً. فقالت لها حُميراء وهي تضع يدَها على قلبها الذي راح يخفق بشدَّة:

ـ كدتِ تقتليننا من شدَّة الخوف.

ـ حسنًا. تستحقَّان ما جرى لكما. فأنتما مستغرقتان في كلامكما الغيبيّ الفارغ!

شبكتْ زينب 122 يديْها في حضنها، وقالت:

. لا أرى أيَّ ضيرٍ في مساعدة الفقراء.

. لكنّ الأمر ليس على هذا النحو تمامًا، أليس كذلك؟ بل هو نوع من المُقايضة: هيّا، أيّها المساكينُ التعساء، خذوا هذه الصدقات وامنحونا بركاتكم. وأنتَ، يا ربّنا العزيز، خذْ قسائمَ البركات هذه، وامنحْنا ركنًا مشمسًا في الجنَّة. لا أقصد الإهانةَ هُنا، لكنَّ الدِّين محضُ تجارة. أخذٌ وعطاءٌ.

. هذا... ظلمٌ كبير.

قالت ذلك زينب 122 مكشِّرةً. ولم يكن الغضبُ تحديدًا هو ما يخامرها حين تَسمع مَن يستخفُّ بمعتقداتها، بل الحزنُ. ويكون الحزنُ أشدَّ وطأةً إنْ كان أحدُ أصدقائها مَن سبَّبَه.

. على أيِّ حال، انسي ما قلتِهِ.

تهالكتْ نالان على الأريكة، وسألت:

. أين جميلة؟

. في الغرفة الأخرى. قالت إنَّها بحاجة إلى الاستلقاء.

لاح طيفُ كَدَرٍ على وجه حُميراء.

. إنَّها لا تتكلَّم كثيرًا، ولم تأكلْ أيَّ شيء. أنا قلقة، وأنت تدرين وضعَها الصحيّ...

خفضتْ نالان من نظرتها:

. سأكلِّمها. أين المُخرِّب؟

أجابت زينب 122:

مكتبة[16.07.20 17:20] ,.@

. لا بدَّ أنَّه في طريق العودة الآن، ولعلَّه تأخَّر بسبب ازدحام المواصلات.

قالت نالان:

. لا بأس، سوف ننتظر. والآن أخبريني، لماذا تركتِ البابَ مفتوحًا؟

تبادلت المرأتان الأخريان نظرةً خاطفة.

. لقد لقيتْ أفضلُ صديقاتِكِ مصرعَها بدمٍ بارد، وها أنتِ جالسةٌ هنا في شقَّتها والباب مفتوح! هل فقدتِ رشدَكِ؟

أخذتْ نَفَسًا مرتجفًا، وقالت:

. ما بِكِ؟ لم يقتحم أحد هذه الشقَّة. لقد كانت ليلى في الشارع في وقتٍ متأخِّرٍ من اللَّيل، ورآها شهود عيان تستقلّ سيَّارة مرسيدس فضِّيَّة. وأنت تعلمين أنَّ كلّ الضحايا قُتِلن بالطريقة نفسها.

. وماذا إذًا؟ أهذا يعني أنَّكِ في منأًى عن الأذى؟ أمْ تظنِّين هذا الظنَّ لأنَّ إحداكما صغيرة والأخرى...

احمرَّ وجهُ حُميراء خجلًا، وقالت:

. بدينـة؟

ثمَّ أخرجتْ جهازَ استنشاقها، ورفعتْه. لقد أظهرتْ لها التجربةُ أنَّها تَستخدم الجهازَ في أغلب الأحيان حين تكون نالان على مقربة منها.

هزَّت زينب 122 كتفيْها:

. إنَّني مرتاحة مهما كانت الكلمةُ التي تتفوَّهين بها.

لوَّحتْ نالان بيدٍ مُجمَّلة الأظافر، وقالت :

ـ كنت أريد أن أقول، و«الأخرى منعزلةٌ ومكتئبة». فكرتي هي أنَّكما إذا افترضتما، أيَّتها السيِّدتان، أنَّ قاتلَ ليلى هو الشخص الوحيد المعتوه في هذه المدينة، فإنَّني أتمنَّى لكما حظًّا سعيدًا، واتركا بابَكما مفتوحًا. بل لماذا لا تضعان ممسحةَ أرجلٍ قرب الباب وعليها عبارة: «مرحبًا بكَ، يا عزيزي المعتوه»؟!

قالت حُميراء مقطِّبةً:

. أتمنَّى أن تتوقَّفي قليلًا عن تجاوز الحدود في كلّ شيء.

مكتبة[16.07.20 17:21] ,.@

فكَّرتْ نالان في هذا الكلام برهةً وجيزةً، وقالت:

. أنا أَمْ هذه المدينة؟ أتمنَّى لو تتوقَّف إسطنبول عن تجاوز الحدود في كلّ شيء.

جذبتْ زينب 122 خيطًا مترنِّحًا من سترتها الصوفيَّة، وكوَّرته مثل كُرة، وقالت:

. خرجتُ لفترةٍ قصيرةِ من الوقت لشراء بعض الأغراض و...

قالت نالان:

. حسنًا! لا يستغرق الأمرُ سوى فترةٍ قصيرةٍ من الوقت... أعني أن يُهاجمَكِ أحدُهم.

قالت حُميراء وصوتُها يتضاءل ويخفت، إذ عزمتْ على تناول حبَّة أو حبَّتيْن من حبوب زاناكس:

. توقَّفي عن التفوّه بأشياءَ فظيعةٍ، أرجوكِ....

وافقتْ زينب 122 قائلةً:

. إنَّها على صواب. فهذا الكلام ازدراءٌ بالموتى.

ثمَّ فتحتْ حقيبتَها بهزَّةٍ من يدها، وأخرجتْ صحيفةً مسائيَّة، وفتحت الصفحةَ التي ظهرت فيها صورةُ ليلى وسط التقارير المحلِّيَّة والوطنيَّة، وشرعتْ تقرأ بصوتٍ عالٍ:

وأبلغ معاونُ مدير الشرطة الصحافةَ قائلًا:

» اطمئنّوا، فلسوف نَعثر على مُرتكب الجريمة في غمضةِ عين. ولقد أعددنا وحدةً خاصَّةً لمعالجة هذه القضيَّة. أمَّا في هذه المرحلة، فإنَّنا نطلب من المواطنين والمواطنات المساعدةَ في تنفيذ القانون، والإبلاغَ عن أيّ نشاطٍ مشبوهٍ قد يروْنه أو يسمعونه. لكنْ ينبغي ألَّا يُصابَ أحدٌ، وبخاصَّةٍ النساء، بالذعر. فهذه الجرائم لم تُرتَكبْ عشوائيًّا، بل استهدفتْ فئةً معيَّنةً من غير استثناء. فكلّ الضحايا من المومسات. أمَّا المواطنات السويَّات، فليس عليهنّ أن يقلقن على سلامتهنَّ.«

طوَت نالان الجريدةَ وفق طيَّاتها السَّابقة، وطقطقتْ لسانَها على طريقتها حين تكون غاضبةً، وقالت:

. «مواطنات سويَّات». ما الذي يقولُه هذا الغبيُّ المغفّل؟ لا تقلقن كلُّكنَّ، أيَّتها النساءُ الطيِّبات، فأنتنَّ في أمان، والوحيدات اللواتي يُذبَحن في الشوارع مومسات!

تكاثف إحساسٌ بالهزيمة في الغرفة ثقيلًا ولاذعًا، مثلَ دخان كبريتيّ يتشبَّث بكلِّ شيءٍ يلامسه. رفعت

مكتبة[16.07.20 17:21] ,.@

حُميراء جهازَ استنشاقها إلى فمها، وتناولتْ منه بخَّةً. انتظرتْ كي يهدأ تنفُّسُها، وأغمضتْ عينيْها، وتمنَّت أن تَخْلد إلى النوم، نومًا

عميقًا يُنسيها كلَّ شيء. أمَّا زينب 122، فجلستْ منتصبةً كبندقيَّة، وازدادت آلامُ رأسها سوءًا. عمَّا قريب، ستبدأ بالصلاة، وستُعِدّ الأكلةَ الجديدةَ التي ستساعد ليلى في رحلتها المقبلة، وإنْ لم يحن الوقتُ بعد، إذ كانت لا تزال تفتقر إلى القوَّة ، ولعلَّها كانت تفتقر قليلًا إلى الإيمان. وأمَّا نالان، فلبثتْ صامتةً، متصلِّبةَ الكتفيْن، وغائرةَ الملامح.

في أحد أركان الغرفة، لعق السيِّد تشاپلن نفسَه بعد أن فرِغ من تناول طعامه الأخير.

مكتبة[16.07.20 17:21] ,.@

- 25 -

المرسيدس الفضِّيَّة

ثمَّة قاربٌ بلونيْن أحمر وأخضر، اسمُه «غوناي»، أي الجنوب، تُمْكن مشاهدتُه مساءَ كلّ يوم راسيًا على ساحل القرن الذهبيّ قبالة الطريق المتَّجه من فندق إنتركونتيننتال.

وكان هذا الاسمُ قد أُطلِق على المَرْكب احتفاءً بالمُخرج السينمائيّ الكرديّ يلماز غوناي، وظهر في أحد أفلامه السينمائيَّة. المالكُ الحاليّ لهذا القارب لا يعرف شيئًا عن أصل هذه التسمية. ولو عرف، فلن يدفعَه ذلك إلى أن يُبدي أيّ اهتمام. فقد اشتراه منذ سنواتٍ خلت من صيّادِ سمكٍ لم يَعُد يُبْحر منذ أمدٍ طويل. وشيَّد المالكُ الجديد مطبخًا صغيرًا، ونصب مشواةً حديديَّةً لإعداد سندويشات الكفتة. وسرعانَ ما انضمَّ إلى قائمة الطعام السمكُ الإسقمريُّ المشويُّ مع البصل المقطَّع وشرائحِ الطماطم. هذا، وإنَّ نجاح بائع الطعام الجائل في إسطنبول لا يعتمد على ما يُباع بقدْرِ اعتماده على مكان البيع وزمانه. ففي اللَّيل، يدرُّ مثلُ هذا الطعام ربحًا أكثر، وإنْ كان محفوفًا بالخطر؛ لا لأنَّ الزبائن أكثرُ كرمًا، بل

لأنَّهم أشدُّ جوعًا، وهم يخرجون زُرافاتٍ ووحدانًا من النوادي والمشارب وقد أخذ الكحولُ مجراه في عروقهم. وكانوا يتوقَّفون قرب منصَّة القارب عازمين على عدم الاستسلام، بل على إطلاق العنان لشهواتهم أيضًا، قبل أن يذهبوا إلى بيوتهم. نساءٌ في ثيابهنَّ اللمَّاعة، ورجالٌ ببذلات سود، يتربَّعون فوق كراسٍ صغيرةٍ على الرصيف، يلتهمون سندويشاتهم، ويقضمون الخبزَ الأبيضَ الخشن الذي كان سينْفرون منه في وضح النَّهار.

في ذلك المساء، ظهر أوَّلُ الزبائن عند السَّابعة. وهو وقت مبكِّر أكثر من المعتاد. هذا ما فكَّر فيه البائعُ حين شاهد سيَّارةَ مرسيدس ـ بنز تتوقّف عند الرصيف البحريّ. فصاح مناديًا صانعَه، وهو ابنُ أخته وأكثرُ الصبيان كسلًا في المدينة، وكان مسترخيًا في زاوية، يشاهد مسلسلًا تلفازيًّا، ويقشِّر حبَّ زهر الشمس المشويّ بين أسنانه، مُستسلمًا ومنغمسًا كلِّيًّا. وكانت على طاولةٍ بجانبه كومةٌ من القواقع الجوف.

- حرّكْ عجيزتَكَ! لدينا زبائن، فاذهبْ وانظرْ ماذا يريدون.

نهض الصبيُّ ومطَّ ساقيْه، وملأ رئتيْه من نسيمٍ بحريٍّ مالحِ النكهة. وبعد أن ألقى نظرةً خاطفةً إلى الموج الذي كان يضرب جانب القارب، لوى قسماتِ وجهه وكأنَّه على أُهبةِ حلّ أحد الألغاز، غير أنَّه تخلَّى عنه. تمتم في سرِّهِ وهو يخطو على الرَّصيف يجرُّ قدميْه في اتِّجاه المرسيدس.

كانت السيَّارة تتألَّق تحت مصباح الشارع. كانت نوافذُها ظليلةً، وعجلاتُها أنيقةً، ذاتَ مواصفاتٍ تلائم طلب الزبون، ومصنوعةً من مادة الكروم باللَّونيْن الرَّماديّ والأحمر. راح الصبيُّ، الذي كان طوال عمرهِ معجبًا كثيرًا بالسيَّارات الفخمة، يُصفِّر لشدّة افتتانه بها.

كان شخصيًّا يُفضِّل قيادةَ پونتياك فايربيرد زرقاء بلون السماء، وها هي سيّارةٌ بكلّ ما في الكلمة من معنًى! سيّارةٍ لن يقودَها فحسب لو أُتيح له ذلك، بل سيطير بها طيرانًا!

. أيُّها الصبيّ! هل ستُدوّن طلباتِنا أمْ لا؟

مكتبة[16.07.20 17:21] ,.@

هذا ما قاله السَّائقُ، وقد مال بجسمه من وراء النافذة نصف المفتوحة.

جفل الصبيُّ من أحلام يقظته، وتمهَّل في الردّ:

. نعم، حسنًا. ماذا تريد؟

. شيئًا من الأدب أوَّلًا.

رفع الصبيُّ رأسَه، ورنا إلى الزبونيْن على نحوٍ لائق. كان المتكلِّمُ نحيلًا، أصلعَ الرأس، نحيلَ الفكّ، محفورَ الوجه بآثار حَبِّ الشباب. أمَّا الثاني، فكان على العكس من صاحبه، مكتنزًا ومتورِّدَ الخدَّيْن. إلَّا أنَّهما يبدوان قريبيْن بصورةٍ أو بأخرى... ربَّما لشيءٍ ما في عيونهما.

تقدَّم الصبيُّ من السيَّارةِ مدفوعًا بالفضول. كان باطنُ السيَّارة فخمًا مثلَ ظاهرها. فالمقاعد جلديَّة ذات لون بنِّيٍّ فاتح، وعجلةُ القيادة من الجلد البنّيّ الفاتح أيضًا. كما أنَّ لوحةَ القياس كانت بمواصفات اللَّون نفسه. إلَّا أنَّ ما شاهده الصبيُّ بعد ذلك جعله يشهق، وطار الدمُ من وجهه. فدوَّن الطلبَ، وهرع عائدًا إلى القارب، يسير بأسرع ما تتيحُه قدماه. أمَّا قلبُه، فكان يَخفق خفقانًا شديدًا في قفصه الصدريّ.

سأل البائعُ الصَّبيَّ:

. إذًا؟ ماذا يريد؟ كفتةً أمْ سمكَ الإسقمري؟

. آه، كفتة. ولبنًا أيضًا. ولكنْ...

. لكنْ ماذا؟

. لا أريد أن أخدمَهما. فهما غريبا الأطوار .

. ماذا تعني؟

شعر البائعُ أنَّه لن يحصلَ على جواب حين طرح السُّؤال. فتنهَّد وهو يهزّ رأسه. فقد أصبح الصبيُّ معيلًا وموردَ رزقٍ في أسرته منذ أن لقي والدُه، العاملُ في البناء، مصرعَه عند سقوطه من سقالةٍ عالية.

لم يكن الرجل قد تلقَّى أيَّ تدريبٍ مناسب، ولم يكن مجهَّزًا بمعدَّات أمان، وتبيَّن لاحقًا أنَّ السقالة لم تُنصَبْ نصبًا صحيحًا. وقد رفعتْ أسرتُه دعوى في المحكمة على شركة البناء . لكنَّ الواضح أنَّه ما من شيءٍ سينجم عن تلك الدَّعوى؛ فأمام المحاكم من القضايا ما يجعلها عاجزةً عن النَّظر فيها كلِّها. ولمَّا كانت إسطنبول تشهد ثراءً سريعًا وارتفاعًا هائلًا في أسعار العقارات، فقد ازداد الطلبُ على الشقق الفاخرة زيادة

مكتبة[16.07.20 17:22] ,.@

كبيرةٍ، ما تسبَّبَ في أعدادٍ مذهلةٍ من الحوادث المؤسفة في مواقع البناء.

هكذا اضطُرَّ الصبيُّ إلى العمل ليلًا، بينما لا يزال تلميذًا في المدرسة. إلَّا أنَّه كان بالغَ الحساسيَّة، كثيرَ الصمت، شديدَ العناد، على نحوٍ لا ينسجم مع عمله الشاقّ، أو مع إسطنبول، وهو ما كان يرقى إلى الشيء نفسه في النهاية.

قال البائعُ بصوتٍ بلغ من الارتفاع ما جعل الصبيَّ يسمعه:

- صبيّ بلا فائدة.

غير أنَّ الصبيّ تجاهل الملاحظة، ووضع كُراتِ اللَّحم على المشواة، وراح يُعدّ الطلب.

قال البائع ممتعضًا:

ـ اتركْها. كم مرَّةً قلتُ لك أن تدهنَ المشواةَ أوَّلًا؟

لوَّح البائعُ للصبيّ بالتنحّي جانبًا بعد أن أنتزعَ الملقطَ من يده. في الغد، سوف يطرده ـ وهذا قرار ظلّ دومًا يؤجّله حتَّى هذا اليوم،

بدافع الشفقة. لكنْ مَنْ قنع بحاله قرّت عينُه. ثمَّ إنَّه ليس جمعيَّةَ الهلال الأحمر، ولديْه أسرتُه التي ينبغي أن يهتمّ بها، وعملُه الذي يتعيَّن عليه أن يحميه.

سعَّر البائعُ الجمراتِ المتوهِّجةَ بيدٍ رشيقةٍ وسريعة، وراح يشوي ثمانيَ قطعٍ من الكفتة، ويحشرها في أنصاف أرغفةٍ من الخبز مع بعض شرائح الطماطم. ثمَّ أخذ زجاجتيْن من اللَّبن، ووضع كلّ شيءٍ فوق صينيَّة، وتوجَّه إلى السيَّارة.

قال البائع بصوتٍ يفيض أدبًا:

ـ مساء الخير يا سيِّدي.

سأل السَّائقُ:

. أين عاملُكَ الكسول؟

. نعم، كسول. أنت على حقّ. أعتذرُ بكلّ تواضع إنْ كان قد اقترف أيَّ هفوة. سوف أطردُه عمّا قريب.

. إنْ سألتَني، فلا تطردْه في وقتٍ أقربَ ممَّا ينبغي.

أومأ البائعُ برأسه، وناوله الصينيَّةَ من خلال النافذة نصفِ المفتوحة، واختلس النَّظرَ إلى داخل

مكتبة[16.07.20 17:22] ,.@

السيَّارة.

كان على لوحة المقاييس أربعةُ تماثيل صغيرة، ملائكةٌ بهالاتٍ وقيثارات، ملطَّخةٌ بطلاءٍ بنِّيّ ضاربٍ إلى الحُمرة، رؤوسُها تتنطَّط على نحوٍ غير محسوس، إذ كانت السيَّارة واقفة.

قال الرجل:

. احتفظْ بالباقي.

. شكرًا جزيلًا.

لم يستطع البائعُ أن يُحوِّل نظرتَه عن الملائكة، حتَّى بعد أن وضع النقودَ في جيبه. راوده شعورٌ بالغَثَيان رويدًا رويدًا؛ وفكَّر في ما يمكن أن يكون الصبيُّ قد لاحظه من فوره: البُقَعَ على الدمى، والبُقَعَ على لوحة المقاييس. هذه البقعُ البنِّيَّةُ الضاربةُ إلى الحُمرة ليست طلاءً، بل دمٌ متخثِّر!

قال السَّائق، وكأنَّه قرأ ما يدور في ذهن البائع:

ـ لقد وقع لنا حادثٌ في اللَّيلة الماضية، وأصيب أنفي، ونزفتُ نزفًا شديدًا.

ابتسم البائعُ ابتسامةً تنمّ عن إحساسٍ بالعطف:

ـ آه، هذا أمرٌ سيِّئ جدًّا. تمنّياتي بالشفاء العاجل.

ـ كان لا بدَّ لنا من تنظيفه، ولكنْ لم تسنحْ لنا فرصة.

أومأ البائعُ وأخذ الصينيَّة، وأوشك أن يودّعهما حينما فُتِح بابُ السيَّارةِ من الجهة الأخرى، وخطا الراكبُ إلى الخارِج. وبعد أن لبث صامتًا طوال هذا الوقت، وفي يده الخبز، قال:

ـ الكفتة التي أعددتَها لذيذة.

رشق البائعُ الرجلَ بنظرةٍ خاطفةٍ ملاحظًا العلاماتِ على ذقنه، والتي بدت وكأنَّ شخصًا ما قد خدش وجهَه. فكَّر أنَّها لامرأة، ولكنْ هذا لا يعنيه. حاول أن يُهدِّئ من أفكاره، وقال بصوتٍ أعلى من المألوف:

- حسنًا، نحن معروفون جدًّا هنا، ولديَّ زبائنُ يأتون من مدنٍ أخرى.

قال الرجل ضاحكًا من مزاحه:

- جيِّد... أعتقدُ أنَّكَ لا تُطعمُنا لحمَ حمار.

مكتبة[16.07.20 17:22] ,.@

. لا، مؤكَّدًا. إنَّه لحمُ بقرٍ من الدَّرجة الأولى.

. ممتاز. أسعدَنا ذلك، وكنْ واثقًا بأنَّك سترانا من جديد.

قال البائع وهو يضغط على شفتيْه حتى أصبحتا خطًّا رقيقًا:

. أهلًا في أيِّ وقت.

شعر بالارتياح والامتنان إلى حدٍّ كبير على الرَّغم من الاضطراب والضجر. وفكَّر أنَّ هذيْن الرجليْن، لو كانا خطريْن، فستكون تلك مشكلةَ غيره، لا مشكلتَه.

سأله السَّائق:

. أخبرْني، هل تشتغل دائمًا في اللَّيل؟

. دائمًا.

ـ لا بدَّ أنَّ مختلفَ الزبائن يأتون إليك، فهل هناك زبائنُ فاسقون؟ مومسات؟ منحرفون؟

في الجانب الخلفيّ من المشهد، راح القاربُ يعلو ويهبط مضطربًا بالأمواج المنبعثة نتيجةً لمرور إحدى السفن.

ـ إنَّ زبائني ناس مهذَّبون. محترمون ومهذَّبون.

قال الراكبُ وهو يرجع إلى مقعده:

. هذا لطيف. فنحن لا نريد ناسًا غيرَ مهذَّبين في هذا المكان، أليس كذلك؟ لقد تغيَّرت المدينةُ تغيُّرًا كبيرًا، وأصبحتِ اليومَ في منتهى القذارة.

قال البائعُ الذي لم يجد شيئًا آخرَ يتفوَّه به:

. نعم، في مُنتهى القذارة.

***

حين عاد إلى القارب، وجد أنَّ ابنَ اخته ينتظر، واضعًا يديْه على خصره، ووجهه مشدود ومرتبك، وهو يقول:

مكتبة[16.07.20 17:23] ,.@

. إذًا، كيف سارت الأمور؟

. على ما يُرام. كان ينبغي أن تخدمَهما. لماذا أؤدِّي أنا واجبَكَ؟

. لكنْ، ألمْ تلاحظ؟

. أُلاحظ ماذا؟

نظر الصبيُّ إلى خاله شزرًا، كأنَّ الرجل كان ينكمش أمام عينيْه ويتضاءل:

. داخل السيَّارةِ... ثمَّة دماءٌ على عجلة القيادة... وعلى التماثيل الصغيرةِ... دماء في كلِّ مكان. ألا ينبغي أن نتَّصلَ بالشرطة؟

. هه! لا شرطة في هذا المكان، فلديَّ عمل يتعيَّن أن أحافظ عليه.

. آه، صحيح. عملك!

صاح البائع في وجهه:

. ما الخطأُ في ذلك؟ ألا تعلم أنَّ هناك المئات خارج هذا المكان على أُهبة الاستعداد للموت من أجل الحصول على عملك؟

. إذًا، امنحهْم إيَّاه! فأنا لا تهمُّني الكفتةُ التافهة، وإنّني أكره رائحتَها على أيّ حال، فهي لحم حصان.

قال البائعُ متوهِّجَ الخدَّيْن:

. كيف تتجرَّأ؟

إلَّا أنَّ الصبيّ لم يُصغِ إليه، فقد تحوَّل اهتمامهُ إلى سيَّارة المرسيدس الفضِّيَّة. شيء بارز مهيب من تحت سماءٍ تزداد ظلمةً انتشرت على الرَّصيف. وتمتم:

. إنَّ هذيْن الرجليْن...

لانت أماراتُ البائع ورقَّت، وقال:

. انسَ أمرَهما يا بنيّ، فأنت صغيرُ السنّ. ولا تكن فضوليًّا إلى هذا الحدّ. هذه هي نصيحتي لك.

. ألستَ فضوليًّا بدورك؟ ولو قليلًا؟ ماذا لو أنَّهما ارتكبا عملًا خاطئًا؟ ماذا لو أنَّهما قتلا شخصًا ما؟

مكتبة[16.07.20 17:23] ,.@

عندئذٍ، سنكون متواطئيْن في نظر القانون.

ضرب البائعُ الصينيَّةَ الفارغة، وقال:

. هذا يعني أنَّك تشاهد التلفازَ كثيرًا جدًّا، وكلَّ أفلام الإثارة الأميركيَّة المدروسة بإتقان. وها أنت الآن تظنّ أنَّك شرطيُّ التَّحرِّي! غدًا صباحًا، سأكلِّم والدتَكَ، وسوف نعثر لك على مهنةٍ جديدة. ومن الآن فصاعدًا، لن تشاهد التلفاز.

. أجل، لا يهمّ.

ثمَّ لم يَعُد ثمَّة قولٌ آخر، إذ لم يُكلِّم واحدُهما الآخر من جديد برهةً وجيزة. وخالجهما إحساسٌ بالكسل والبلادة. وإضافة إلى قارب صيد الأسماك الأحمر والأخضر، المسمَّى غوناي، كان البحر يُرغي ويُزبد، ضاربًا بكلّ قوَّته الجلاميدَ الضخمةَ التي تحدُّ الطريقَ الملتوي من إسطنبول إلى كيليوس.

مكتبة[16.07.20 17:23] ,.@

- 26 -

المشهد من الأعلى

جلس شابّ في غرفة الانتظار، يهزّ ساقيْه بعصبيَّة إلى أعلى وأسفل، داخل مكتبٍ أنيقٍ يحتلّ طبقةً بأكملها من عمارةٍ شاهقة جديدة، تُطلّ على حيّ المدينة التجاريّ الذي ينمو نموًّا سريعًا.

أتلعَت السكرتيرة رأسَها من وراء حاجزٍ زجاجيّ لتنظر إليه نظرةً خاطفةً بين الفينة والفينة، وعلى شفتيْها ابتسامةُ اعتذار. ووجدتْ مثلهُ صعوبةً في فهم السَّبب الذي يجعل والدَه يُبقيه منتظرًا على مدى الدقائق الأربعين الفائتة. لكنْ هذا هو حال والده: يتعمَّد أن يعلِّمه درسًا بأنَّه لم يكن في حاجة إليه ولا يملك وقتًا له. تحقَّق الشاب من الساعة من جديد.

أخيرًا، فُتِح الباب، وأعلنتْ سكرتيرةٌ ثانيةٌ أنَّ في وسعه الدخول.

كان والده يجلس وراء مكتبه المصنوع من خشب الجوز القديم. وكان المكتب ذا مقابضَ من نحاسٍ أصفر، وقوائمَ مخلبيَّةٍ، وجزءٍ أعلى منحوت. جميل، ولكنَّه لا ينسجم مع غرفةٍ حديثةِ الطِّراز مثل هذه الغرفة.

تقدَّم الشابّ نحو المكتب من دون أن ينبسَ بكلمة، ووضع عليه الجريدةَ التي أحضرها معه. وعلى الصفحة التي كانت مفتوحة، برز وجهُ ليلى من النصّ.

. ما هذا؟

. اقرأْ من فضلك يا أبي.

نظر الأب إلى الصحيفة نظرةً عاجلة، ثم انتقلتْ نظراتُه إلى العنوان: «العثور على مومس مذبوحة في حاوية قمامة في المدينة». قطَّب جبينَه، وقال:

. لماذا تُطْلعني على هذه؟

. لأنَّني أعرف هذه المرأة.

قال الأب وقد أشرق وجهُه:

ـ آه! يسرُّني أن أعلم أنَّ لديْك صديقة.

ـ ألا تفهم؟ إنَّها المرأة التي أرسلتَها إليّ. وهي الآن ميِّتة. مقتولة.

مكتبة[16.07.20 17:23] ,.@

عمَّ الصمتُ المكانَ، وانبسط وانعقد ليصبح طبقةً قبيحةً غير مستوية، راكدةً كالطحلب على بركة ماءٍ في صيفٍ متأخِّر. رنا الشابُّ من أمام والده في اتِّجاه المدينة الممتدّة خارج النافذة، حيث تنتشر المنازلُ انتشارًا غيرَ منتظم كالمروحة تحت سديمٍ رقيق، وتزدحم الشوارعُ ازدحامًا شديدًا، وتتموّج التلالُ عن بُعد. كان المشهد من الأعلى مدهشًا وإنْ كان ـ ويا لَلْغرابة ـ بلا حياة.

قال الشابّ من جديد باذلًا قُصارى جهده كي يسيطر على نغمة صوته:

ـ كلّ شيءٍ مذكورٌ في التقرير. ثلاثُ نساء أخريات قُتِلن في هذا الشهر، وكلُّهنَّ بالطريقة الرهيبة نفسها. ثمَّ، خمِّنْ ماذا؟ أنا أعرفهنَّ أيضًا، كلَّهنَّ. إنهنَّ النساء اللواتي أرسلتَهنَّ اليّ. ألا تظنّ أنَّ في الأمر أكثرَ من مصادفة؟

ـ أعتقدُ أنَّنا رتَّبنا لك مواعيدَ مع خمس نساء.

أمسك الشابُّ عن الكلام برهةً وجيزة، يخالجه إحساسٌ بالحَرَج على نحوٍ لا يَقْدر إلّا والدُه على إشعاره به.

ـ نعم، خمسُ نساء، أربع منهنَّ لقين حتَفهنَّ الآن. لهذا، أطرحُ عليك السُّؤالَ من جديد: ألا تعتقد أنَّ في الأمر أكثرَ من مصادفة؟

لم تكشفْ عينا والده عن أيِّ شيء حين قال:

ـ ما الذي تحاول أن تقولَه؟

جفل الشابّ، غيرَ واثقٍ من أين يبدأ. واعتراه خوفٌ مألوف، خوفٌ يعود إلى الماضي، فرجع من فوره صبيًّا، يتفصَّد عَرَقًا تحت

نظرة والده المحملقة نحوه. لكنَّه بعد قليل، وعلى حين غرَّة، تذكَّر النساءَ، الضحايا، وبخاصَّةٍ الأخيرة. وتذكَّر الكلامَ الذي دار بينه وبينها على الشُّرفة، وكيف كانت رُكبُهما متلامسةً ملامسةً طفيفة، وأنفاسُهما عابقةً برائحة الويسكي: «اسمعْ، يا عزيزي. أُدركُ أنَّك لا تريدُ فعلَ هذا. وأُدركُ أيضًا أنَّ لديكَ مَن تحبّ، وأنّك تُفضِّل أن تكون في رفقتهم.«

ترقرقت الدموعُ في عينَي الشابّ. لقد أخبره عشيقُه أنَّ معاناته ناجمةٌ عن قلبه الطيّب، فهو صاحبُ ضمير، وهذا شيءٌ ليس في وسع كلّ مَن هبَّ ودبَّ أن يزعمه. غير أنَّ هذا لا يشكِّل سوى عزاءٍ بسيطٍ. فهل ماتت النساءُ الأربعُ بسببه؟ كيف يُمكن حدوثُ ذلك؟ خشي الشابّ أن يفقد عقلَه!

ـ أهذا هو أسلوبُكَ في إصلاحي؟

ثمَّ أدرك متأخِّرًا أنَّه رفع صوتَه ـ ليصل درجةَ الصراخ تقريبًا.

مكتبة[16.07.20 17:24] ,.@

دفع والدُه الجريدةَ بعيدًا عنه، وبانت ملامحُ وجهه قاسيةً، وهو يقول:

ـ كفى! لا علاقةَ لي بهذا الغباء. وصراحةً، يُدهشني أيّما دهشة مجرَّدُ تفكيرك بأنَّني قد أخرج إلى الشوارع مُطاردًا المومسات .

. إنَّني لا أتَّهمكَ أنتَ يا أبي. ولكنْ ربَّما هناك في الجوار شخصٌ ما قريبٌ منك. لا بدَّ من وجود تفسير. أخبرْني، كيف رتَّبتَ هذه اللِّقاءات؟ هل تولَّى أحدٌ ما ترتيبَ المواعيد؟ الزيارات؟

. بالطبع.

ثمَّ ذكر الأبُ اسمَ أحد مُساعديه.

. أين هو الآن؟

. لماذا؟ إنَّه لا يزال يعمل لديّ.

. ينبغي أن تستجوبَه. أريد وعدًا منك بأن تستجوبَه.

. انظرْ. لا تتدخَّلْ في ما لا يعنيك، وأنا لن أتدخَّل في ما لا يعنيني.

رفع الشابُّ ذقنَه، فتلاشت الأماراتُ المتوتِّرةُ على وجهه، وهو يبذل قُصارى الجهد ليتفوَّه بالكلمات الآتية :

ـ سأنصرفُ يا أبي. إنَّني بحاجة إلى الخروج من هذه المدينة، وسأسافر إلى إيطاليا لقضاء بضعة أعوام. فقد قُبِلتُ لدراسة الدكتوراه في ميلانو.

ـ كفاكَ هراء. سوف تتزوّج عمّا قريب، ولقد سبق أن أرسلنا الدَّعوات إلى الحفل.

ـ آسف. عليك أن تُعالجَ هذا الموضوع بنفسك، فأنا لن أكون حاضرًا.

نهض والدُه، وصاح بصوتٍ أجشّ للمرَّة الأولى:

. لن أسمحَ لك بأن تفضحَني!

. لقد اتَّخذتُ قراري.

ثمَّ نظر الشابُّ إلى السجَّادة، وأضاف:

مكتبة[16.07.20 17:24] ,.@

. النساء الثلاث...

ـ آه، توقَّفْ عن هذا الهراء! قلتُ لك انْ لا صلة لي بهذا الموضوع.

تفرَّس الشابّ في وجه أبيه، متفحِّصًا قسماتِ وجهه القاسيةَ، وكأنَّه يبغي حفظَ ما رفض أن يتحوَّل إليه. فكَّر في الذهاب إلى الشرطة، غير أنَّ لوالده صلاتٍ جيّدةً جدًّا، ومن شأن القضيَّة أن تُغلقَ بمُجرَّد فتحها. كلُّ ما أراده هو الابتعاد برفقة عشيقه.

ـ لن أرسلَ إليك ملّيمًا واحدًا. أتسمعُني؟ وسوف تعود إليَّ زاحفًا على ركبتيْك متوسِّلًا.

- وداعًا يا أبي!

قبل أن يلتفتَ إلى الوراء، مدَّ يده وأمسك بالجريدة، وطواها قبل أن يضعَها في جيبه. لم تكن لديْه الرَّغبةُ في ترك صورةِ ليلى على هذا المكتب البارد. إنّهُ لا يزال يحتفظ بوشاحها.

***

كان الرجل الثاني، وهو أنحفُ من زميله، أعزبَ طوال حياته. وكان غالبًا ما يتحدَّث عن تفاهة الجسد؛ فهو رجلُ أفكارٍ ونظريَّاتٍ عالميَّة. وعندما طلب إليه المديرُ، صاحبُ الأمر والنهي، أن يُرتِّب مومساتٍ لولده، شعر بأنّهَ حظي بالشرف لتولِّيه هذه المهمَّةَ الحسَّاسةَ والسرِّيَّة جدًّا. في المرَّة الأولى، انتظر خارجَ الفندق

ليتأكَّد أنَّ المرأة وصلتْ وتصرَّفتْ تصرُّفًا حميدًا، وأنَّ كلَّ شيء سار على نحوٍ مُتَّسِق .

في تلك اللَّيلة، وبينما كان جالسًا في السيَّارة يدخِّن، خطرتْ في باله فكرة. فقد اعتقدَ أنَّ هذه المهمَّة قد لا تكون مهمَّةً عاديَّة، ولعلَّ المتوقَّع منه أن ينفِّذ مهمَّةً أخرى، مهمَّةً كبيرة. استبدَّت به فكرتُه تلك، وهزَّته هزَّةً قويَّة. وهكذا شعر بأنَّه شخصٌ مهمّ، ومُفعمٌ بالنشاط غير المحدود.

فاتحَ قريبَه بالموضوع، وكان هذا رجلًا خشنًا وساذجًا، حادَّ الطبع، وسريعَ الاهتياج والغضب. لم يكن يفكِّر مثله، بَيْد أنَّه مخلِصٌ وواقعيّ، وقادرٌ على تنفيذ المهمَّات الصَّعبة. شريكٌ مثاليّ.

وبهدف التأكُّد من أنَّهما حصلا على المرأة المناسبة، فقد دبَّرا خطَّة. ففي كلِّ مرَّة، كانا يطلبان من مديرة ماخور أن تطلب إلى المومس ارتداءَ ثوبٍ معيَّن، وبهذا يستطيعان الاستدلالَ عليها بسهولةٍ حين تغادر الفندق. في المرَّة الأخيرة، كان الثوبُ قصيرًا وضيّقًا ومزخرفًا باللَّون الذَّهبيّ. وكانا بعد كلّ جريمة قتلٍ يضيفان لعبةً جديدةً من الخزف إلى مجموعة الملائكة التي يملكانها. وهذا ما كانا يعتقدان أنّهما يفعلانه: تحويل المومسات إلى ملائكة.

لم يَحدُثْ أن لمسَ الرجلُ الثاني أيًّا من النساء لمسةً واحدة، وكان يفتخر بهذا الأمر . فهو يتجاوز حاجاتِ الجسد. وببرودة الحديد، كان يراقب من الجانب في كلِّ مرَّة، من البداية وحتَّى النهاية. إلَّا أنَّ المرأة الرابعة قاتلتْ قتالًا شديدًا، على نحوٍ غير متوقّع، وقاومتْ بكلّ قوَّتها حتَّى خشي بعد لحظات أن تضعه في

مكتبة[16.07.20 17:26] ,.@

ورطة. غير أنَّ قريبه كان شديدَ البأس، فتفوَّق عليها بدنيًّا. فضلًا عن أنّه كان يحتفظ بقضيبٍ حديديٍّ مخفيّ على أرضيَّة السيَّارة.

مكتبة[16.07.20 17:26] ,.@

- 27 -

الخطَّة

قالت نالان وهي تفتح بابَ الشرفة وتخرج:

- أحتاجُ إلى التدخين.

ثمَّ ألقت نظرةً خاطفةً على الشارع الممتدّ طويلًا إلى أسفل. كان الحيّ في طور التغيير، ولم يَعُد كلُّ ما فيه مألوفًا. فالمستأجِرون يأتون، وغيرُهم يذهبون - والجديدُ يحلّ محلَّ القديم. وتبادلَتْ مناطقُ في المدينة سكَّانَها مثلما يفعل طلَّابُ المدارس ببطاقات كرة القدم.

وضعتْ نالان السيجارةَ بين شفتيْها وأشعلتْها. وبينما هي تتنشَّق أوَّل نَفَسٍ منها، راحت تتفحَّص قدّاحةَ ليلى. أشعلتْها وأطفأتْها. ثمّ أشعلتْها وأطفأتْها مرَّةً أخرى.

كانت القدّاحةُ تحتوي على كتابة بالإنكليزيَّة على أحد جانبيْها:
«فيتنام، لم تعيشي حقًّا إلَّا بعد أن أوشكتِ على الموت.«

تراءى لليلى أنَّ هذه القدّاحة الأثريَّة لم تكن الشيءَ الذي تبدو عليه فحسب، وإنَّما هي رحّالةٌ أبديّةٌ أيضًا، تنتقل من شخصٍ إلى آخر، وتُعمِّر أكثرَ من أيٍّ من مالكيها. فَقَبْلَ ليلى كانت ملْكَ د/علي. وقبل د/علي كانت ملْكَ جنديّ أميركيّ بلغ به سوءُ الحظّ أن جاء إلى إسطنبول رفقةَ الأسطول السادس في تمّوز 1968. وبينما كان الجنديّ يهرب من أمام المحتجِّين اليساريِّين الغاضبين، سقطت القدّاحةُ من يده، والقبَّعةُ من على رأسه. فما كان من د/علي إلَّا أن التقط القدّاحةَ، في حين أخذ أحدُ رفاقه القبَّعةَ. وفي معمعان الفوضى التي أعقبتْ ذلك، لم يتمكَّنا من رؤية الجنديّ من جديد. ولكنْ لو رأياه فلن يثقا بإعادة القدَّاحة والقبَّعة إليه .

بمرور الأعوام، نظَّف د/علي القدّاحةَ، وصقلها مرَّاتٍ ومرَّات. وحين انكسرتْ، أخذها إلى أحد الأشخاص في أحد أزقَّة حيّ تقسيم، وكان يصلّح الساعات ومختلفَ الموادّ الأخرى. إلَّا أنَّه لبث يفكِّر في مدى الأهوال التي شهدتها هذه القدّاحةُ أثناء الحرب، وما إذا شاهدتِ المقتلةَ على كلا الجانبيْن، والوحشيَّةَ التي يَقْدر البشرُ على إلحاقها بغيرهم من البشر، وما إذا كانت حاضرةً في مذبحة ماي لاي ، وهل سمعَتْ صراخَ المدنيِّين العُزْل . نساءً وأطفالًا؟

وعلى أثر وفاة د/علي، احتفظتْ ليلى بالقدّاحة، حاملةً إيَّاها في كلِّ مكان، باستثناء يوم أمس حين نسيتها على طاولةٍ في كروان بعد أن كانت مشغولةَ الذهن إلى حدٍّ ما، وهادئةً هدوءًا غير مألوف. وكانت نالان تُخطِّط لإعادتها إليها هذا اليوم، وأن تقول: «كيف يمكنُكِ أن تنسي هذا الغرضَ الثمين؟ لقد بدأتِ تشيخين يا حبيبتي». وكانت ليلى ستضحك قائلةً: «أنا أشيخ؟ مستحيل يا عزيزتي. لكنْ لا بدَّ أنَّ خطبًا ما قد أصاب القدّاحةَ نفسَها.«

جذبتْ نالان منديلًا من جيبها، ومسحتْ أنفَها. سألتها حُميراء وهي تدفع رأسَها من حول باب الشرفة:

. أأنتِ على ما يُرام هنا؟

. نعم، بالتأكيد. سأعود بعد دقيقة .

أومأتْ حُميراء برأسها . وإنْ لم يبدُ عليها أنَّها اقتنعتْ، وانصرفتْ من غير أن تنبسَ بكلمةٍ أخرى.

جذبتْ نالان نَفَسًا من سيجارتها، ولم تطلق منهُ سوى خيطِ دخان. أمَّا النفخة التالية، فقد أرسلتْها في اتِّجاه برج غالاتا، وهو تُحفةٌ من تُحف بنّائي جَنَوة العاملين في الأشغال الخشبيَّة. كم من الناس في هذه المدينة يعملون

مكتبة[16.07.20 17:26] ,.@

في هذا المجال اليوم؟ تساءلتْ وهي تتأمَّل البرجَ الأسطوانيَّ العريقَ في قِدَمه، وكأنَّه يمتلك إجابةً على كلّ متاعبها!

في الشارع الممتدّ إلى أسفل، شاهدتْ شابًّا ينظر إلى أعلى . فلمحها. اتَّسعتْ تحديقتُه، وعلَّق بأعلى صوته تعليقًا بذيئًا.

مالت نالان من فوق حاجز الشُّرفة، وقالت متسائلةً:

. هل هذا الكلامُ موجَّهٌ إليَّ؟

كشَّر الشابُّ مبتسمًا ابتسامةَ استهزاء، وقال:

. من دون أدنى ريْب. فأنا معجبٌ بالنساء من أمثالِك.

عبستْ نالان واعتدلتْ، والتفتتْ إلى الجانبيْن، وسألتْ بقيَّة النساء بصوتها الهادئ المعهود:

. أهناك منفضةُ سجائر في مكانٍ ما؟

أجابت زينب 112:

. لقد احتفظتْ ليلى بمنفضةٍ على طاولة القهوة. هنا.

أمسكتْ نالان المنفضةَ، ورازتْها في راحتها، ثم قذفتْ بها فوق الحاجز، فتهشّمَتْ على الرصيف. أمَّا الشابّ، فأفلح في تفادي الضربة بالتراجع إلى الوراء مشدوهًا، ممتقعَ الوجه، مطبقَ الفكّ.

صاحت به نالان:

. أيُّها الأبله! هل تراني أُصفِّر لساقيْكَ الكثيفتَيِ الشعر، هه؟ هل أُزعِجُكَ؟ كيف تتجرَّأ على أن تكلِّمني بهذه الطريقة ؟

فغر الرجلُ فاه، ثمَّ أطبقه. وراح يخطو خطواتٍ سريعةً مبتعدة، ومن ورائه انفجر ضحكٌ خفيفٌ من مقهًى قريب.

قالت حُميراء:

. ادخلي، أرجوكِ. لا يمكنكِ أن تقفي في الشرفة وترمي الأشياءَ على الغرباء. هذا البيتُ في عزاء.

استدارت نالان على عقبيْها، ودخلت الغرفةَ والسيجارة ما تزال في يدها.

. أنا لا أريد أن أحزن، بل أريدُ أن أفعل شيئًا ما.

قالت زينب 122:

. ماذا يسعنا أن نفعل يا حياتي؟ لا شيء.

بدت حُميراء منشغلةَ الفكر، قلقةً . وناعسةً قليلًا، بعد أن تناولتْ حبّتيْن أخريَيْن خِفيةً.

مكتبة[16.07.20 17:27] ,.@

. أرجو ألّا تخطِّطي للخروج بحثًا عن قاتل ليلى.

. لا، سنترك هذا الأمرَ لرجال. وهذا لا يعني أنّني أثق بهم.

استنشقتْ نالان خيطَ دخانٍ من خلال أنفها، وحاولتْ، بعد أن راودها إحساسٌ بالذَّنْب، إبعادَه بيدها عن حُميراء، من غير نجاحٍ يُذكر.

قالت زينب 122:

. لماذا لا تُصلّين لمساعدةِ روحِها... وروحِكِ أيضًا؟

عصرتْ نالان جبينَها، وقالت:

. لماذا أصلّي إذا لم يكن ثمَّة مَن يُجيد الإصغاءَ؟ فجميعُهم يشتركون مع السيِّد تشاپلن في هذه الصفة.

قالت زينب 122:

. أستغفرُ اللَّـهَ! أستغفرُ اللَّـهَ !

وهذا ما كانت تردِّده دائمًا حين تسمع اسمَ الإله يُلفَظ عبثًا.

عثرتْ نالان على فنجان شاي فارغ، فأطفأتْ فيه عقبَ السيجارة.

ـ اسمعي، صلِّي أنتِ. أمَّا أنا، فلا أريد أن أجرحَ شعورَ أيٍّ كان. إنَّ ليلى تستحقّ حياةً عظيمةً، ولكنَّها لم تحصل عليها. ومع ذلك فهي تستحقّ دفنًا لائقًا على أقلّ تقدير . ولا يمكننا أن نتركَها تتعفَّن في مقبرةِ الغرباء، إذ هي لا تنتمي إلى ذلك المكان.

قالت زينب 122:

. عليكِ أن تتعلَّمي تقبُّلَ الأمور يا حبيبتي. فليس في وسع أيٍّ منَّا أن يفعل شيئًا.

في مهاد المشهد، كان برجُ غالاتا يلفُّ نفسَه بغلالةٍ بنفسجيَّة وقرمزيَّة من تحت الشمس التي شارفَتْ على المغيب. كانت المدينة تبدو على مدّ البصر، فوق سبع تلال، وما يقرب من ألف حيٍّ سكنيّ كبيرٍ وصغير. مدينةٌ تنبَّأتْ بأن تبقى صامدةً لا تُقهر إلى أن تحين نهايةُ العالم. وعلى مبعدة، راح البوسفور يدور ويدور، مازجًا بدَوَرانه ماءً مالحًا وماءً عذبًا، بالسهولة التي كان يمزج فيها الحقيقةَ بالحلم.

قالت نالان بعد وقفةٍ قصيرة:

. لكنْ ربَّما هناك شيء، ربَّما هناك شيءٌ واحدٌ وأخيرٌ نستطيع أن نفعلَه من أجل ليلى التكيلا.

مكتبة[16.07.20 17:27] ,.@

- 28 -

المُخرِّب

حين وصل سنان المُخرِّب إلى شارعِ هيري كافكا، كانت غِلالةُ المساء الحبريّةُ اللَّونِ قد خيَّمتْ على التلال الواضحة من مكانٍ بعيد. راح سنان يراقب آخرَ شعاعٍ من الضياء المتلاشي وراء الأفق، والنهارُ يبلغ منتهاه، فيملأه بإحساس المهجور. وكان في العادة ليتفصّد عرقًا وليشعر بالانزعاج من كلّ ذلك الوقت الذي ينفقه في الزحام، وليستشيطَ غضبًا من سائقي السيَّارات والمارّة على حدِّ سواء. غير أنَّه لم يشعر الآن إلَّا بالاستنزاف. كان يحمل في يديْه علبةً مغلَّفةً برقاقةٍ معدنيَّةٍ حمراء، مربوطةٍ بقوسٍ ذهبيّةٍ. استخدم مفتاحَه الخاصَّ، ودخل المبنى، وارتقى السلالم.

كان المُخرِّب في مستهلّ الأربعينيَّات من العمر، متوسِّطَ الطول، ومتينَ البُنيان. حنجرتُه بارزة، وعيناه خضراوان تكادان تختفيان عندما يبتسم، وشاربُه الحديثُ النموّ لا يناسب وجهَه المدوَّر. أمَّا رأسه، فقد ظهر عليه الصلعُ قبل أوانه بأعوام. قبل أوانه هو على وجه الخصوص، لأنَّه كان يعتقد أنَّ حياتَه، حياتَه الحقيقيَّة، لم تبدأْ بعد.

رجلٌ ذو أسرار. هكذا انتهى به الأمرُ عندما لحق بليلى إلى إسطنبول قبل عامٍ على رحيلها. لم يكن ذلك سهلًا عليه، لكنَّه رحل لسببيْن. الأوَّل واضحٌ، والثاني خفيّ: مواصلةُ تعليمه (فقد كان قادرًا على الحصول على مقعدٍ في جامعة مرموقة)، والعثورُ على صديقة طفولته. لكنّه لم يكن يملك من هذه الصديقة سوى رزمةٍ من البطاقات البريديَّة، وعنوانٍ لم يَعُد له وجود. لقد كتبتْ إليه بضعَ مرَّات، ولكنَّها لم تحدِّثه كثيرًا عن طبيعة حياتها الجديدة، ثمَّ توقَّفت البطاقاتُ البريديَّةُ فجأةً. راوده إحساسٌ بأنَّ أمرًا ما قد حدث لها، ولم ترغبْ في الحديث عنه. ولكنَّه علِم أنَّه لا بدَّ له من العثور عليها بصرف النَّظر عن كلِّ شيء. فتَّش عنها في كلِّ مكان ـ في دُور السينما والمطاعم والمسارح والفنادق والمقاهي. وبعد أن أعيته الحيلةُ في العثور عليها في هذه الأماكن، راح يُفتِّش عنها في المراقص والمشارب وصالات القمار. وأخيرًا، بحث عنها، بقلبٍ حزين، في النوادي اللَّيليَّة والبيوتِ السيِّئةِ السُّمعة. وبعد بحثٍ طويلٍ لا يلين، استطاع أن يستدلّ على مكانها عن طريق المصادقة لا أكثر. فقد كان يشاطره السَّكنَ في إحدى الغُرَفِ

غلامٌ يتردَّد دائمًا على شارع المواخير، وانساب إلى سمعه كلامُ هذا الغلام وهو يُخْبر طالبًا آخرَ عن امرأةٍ تحمل وشمًا لوردةٍ على كاحلها.

حين التقيا أوَّلَ مرَّةٍ بعد فراقٍ طويل، قالت له ليلى:

ـ كنتُ أتمنَّى لو لم تعثرْ عليَّ، فأنا لا أرغب في رؤيتك.

كان برودُ ليلى نحوه طعنةً في القلب. ففي عينيْها ألقُ الغضب، وأكثرُ من ذلك قليلًا. إلَّا أنَّه شعر أنَّ العار هو ما يتوارى تحت سحنتها الصارمة. ومع هذا، فقد دأب على المجيء قلِقًا ومُتعمِّدًا. فبعد أن عثر عليها، قرَّر ألَّا يَدَعَها تُفْلت من بين يديْه مجدَّدًا.

ولمَّا كان لا يقدر على تحمُّل ذلك الشارع الرديءِ السُّمعة، بما فيه من روائحَ كريهةٍ، فقد لبث ينتظر في أغلب الأوقات عند مدخله، وتحت ظلال أشجار الجوز المعمِّرة، على مدى ساعاتٍ أحيانًا.
وحين تخرج ليلى بين الفينة والفينة لشراء شيءٍ ما لنفسها، أو لشراء مرهمٍ لعلاج داء البواسير الذي تعانيه المديرةُ المُرَّة، كانت تراه هناك، جالسًا على الرَّصيف، يقرأ في كتاب، أو يحكّ ذقنَه مفكِّرًا في معادلةٍ رياضيَّة.

ـ لماذا تواظب على المجيء إلى هنا، يا مُخرِّب؟

ـ لأنَّني أشتاقُ إليكِ .

كانت تلك سنواتٍ أنفق فيها نصفُ الطلَّاب وقتَهم في مقاطعة الصفوف الدراسيَّة، والنصفُ الآخر في مقاطعة الطلَّاب المنشقِّين. ففي كلِّ يومٍ تقريبًا، كان ثمَّة حدثٌ في حرمٍ جامعيٍّ ما في البلاد: وصولُ فريق خبراء في المتفجّرات لنزع عبواتٍ ناسفة؛ طلَّابٌ يشتبكون في الكافتيريا؛ أساتذةٌ يتعرَّضون لإهاناتٍ كلاميَّة واعتداءات

مكتبة[16.07.20 17:27] ,.@

جسديَّة. لكنْ على الرَّغم من كلِّ تلك الحوادث، فقد تمكَّن المُخرِّبُ من اجتياز امتحاناته، وتخرَّج بمرتبة الشرف، وعثر على وظيفةٍ في مصرفٍ حكوميّ، ورفض كلَّ الدَّعوات الموجَّهة إليه، باستثناء بعض النزهات التي كانت تنظِّمها شركاتٌ، فيلبِّيها بدافع الالتزام الاجتماعيّ لا غير. أمَّا كلّ أوقاتِ فراغة، فقد حاول أن ينفقَها برفقة ليلى.

في السنة التي تزوَّجتْ فيها ليلى د/علي، خرج المُخرِّب في موعدٍ غراميّ مع إحدى زميلاته. وبعد شهرٍ، تقدَّم لخطبتها. لكنْ، على الرَّغم من أنَّ زواجه لم يكن زواجًا سعيدًا تمامًا، فإنَّ الأبوَّة تحديدًا كانت أفضلَ ما حدث في حياته. ومضت حياتُه الوظيفيَّة تتقدَّم سريعًا، ملؤها القناعةُ واليقين، ولكنَّه تراجع حين بدا له أنَّه قد يحقِّق أعلى المستويات. وبصرف النَّظر عن قدرات عقله المدبِّر، فإنَّ الخجلَ الشديد، والانطواءَ الكثير على نفسه، حالا دون أن يكون لاعبًا رئيسًا في أيّ مؤسّسة. فعندما قدَّمَ أوَّلَ عرضٍ مُلخَّص، نَسِي الكلمات، وتفصَّد عرقًا على نحوٍ مريع، وغشِيَ الصمت قاعةَ المؤتمر برمَّتها، لم يتخلَّله سوى سعالٍ مضطرب، وظلَّ يخطف بصرَه ناحيةَ الباب كأنَّه يريد التراجعَ والهرب. وظلَّ يساوره هذا الشعورُ على الدوام. ولهذا فضَّل أن يُقنِع نفسَه بمنصبٍ متواضع، واستقرَّت حياتُه عند مستوًى متوسّط الجودة: مواطنًا صالحًا، وموظَّفًا طيِّبًا، وأبًا جيِّدًا. إلَّا أنَّه لم يقرِّر التَّخلِّي عن صداقته بليلى في أيِّ من مراحل هذه الرحلة.

كانت ليلى تقول له:

. كنتُ أسمِّيكَ محطَّةَ التخريبِ التي تخصُّني. انظُرْ إلى نفسك اليوم. إنَّك تخرِّب سمعتَكَ يا عزيزي. ماذا ستقول زوجتُك وزملاؤك إنْ عرفوا أنَّك صديقُ واحدةٍ مثلي؟

. ينبغي ألَّا يعرفوا.

. إلى متى تظنّ أنَّك ستقدر على إخفاء ذلك؟

- إلى أطول مدَّة.

ولم يعرفْ أيٌّ من زملائه في العمل، ولا زوجتُه، ولا أقرباؤه، ولا أُمّه التي تقاعدتْ عن العمل في الصيدليَّة منذ أمدٍ بعيد، أنَّه يحيا حياةً ثانية. وفي حياته رفقةَ ليلى والفتياتِ الأخريات، كان رجلًا مختلفًا الاختلافَ كلّه.

أنفق المُخرِّبُ أيَّامَه ورأسهُ مدفونٌ بين كشوف الميزانيَّة، لا يُحدِّث أحدًا إلَّا عند الضرورةِ القُصوى. وبحلول الغسق، كان يغادر المكتبَ ويثب إلى سيَّارته، كارهًا القيادةَ كرهًا شديدًا، فيتوجَّه إلى كروان - وهو نادٍ ليليّ مشهور في أوساط غير المشهورين. وهناك يسترخي ويدخِّن، وفي بعض الأحيان يرقص. وكان يبرِّر غيابَه الطويل بإخبار زوجته أنَّ مرتَّبه الزهيدَ يدفعه إلى العمل في مناوباتِ حراسةٍ ليليَّةٍ في أحد المصانع، وأضاف:

- إنَّ المصنع يُنتج حليبَ أطفال.

وكان بهذا الكلام يعتقد أنَّ ذِكْرَ الأطفال يجعله يبدو أكثرَ براءةً.

لحسن الحظّ، لم تطرح زوجتُه أيَّ أسئلة. وفي كلِّ الأحوال، كانت تبدو مرتاحةً إلى حدٍّ ما وهي تراه يغادر المنزلَ مساءَ كلِّ يوم. غير أنَّها كانت تثير اضطرابَه أحيانًا، وتجعله يغلي في مرجل عقله؛ فهل كانت تريد إبعادَه عن طريقها؟ ومع هذا، فإنَّها لم تكن شخصيًّا مبعثَ اضطرابه كلّه، بل أسرتها الكبيرة. فقد تحدَّرتْ زوجتُه من أُسرةٍ تفتخر بكثرةِ أئمَّتها وحجيجها، ولم يكن يمتلك الشجاعةَ لإخبارهم [باضطرابه بسببهم]. يضاف إلى ذلك أنّه كان يحبّ أولادَه

ويشغف بهم. وإذا ما أرادت زوجتُه الطلاقَ بذريعة عمله ليلًا مع الغانيات والمتحوِّلات جنسيًّا، فإنَّ المحاكم لن تمنحه الوصايةَ على أولاده، وقد لا تسمح له ولو برؤيتهم من جديد. إنَّ الحقيقة قد تكون مادَّةً مزعجةً ومتلِفةً وأكّالةً مثل كلوريد الزئبق؛ وفي وسعها أن تَحْفر في متاريس الحياة اليوميَّة وتَحتَّها، مدمِّرةً أبنيةً بكاملها. وإذا عرف كبارُ أفراد الأسرة بسرِّه، فإنَّ أبوابَ الجحيم كلّها سوف تتحطَّم وتنفتح في وجهه. وكان في وسعه أن يسمع أصواتَهم وهي

مكتبة[16.07.20 17:28] ,.@

تدقّ في رأسه، زاعقةً وشاتِمةً ومُهدِّدة.

في صباحات بعض الأيَّام، وبينما هو يحلق لحيته، كنتَ تجده يتدرَّب أمامَ المرآة على إلقاء خطابه الدِّفاعيّ الذي سيُلْقيه إنْ ضبطتْه أسرتُه ذات يومٍ وأخضعته للتقريع. ستسأله زوجتُه، وبجانبها يقف أقرباؤها:

. هل تضاجع تلك المرأةَ؟ آه، إنَّني نادمة على اليوم الذي تزوَّجتُكَ فيه! أيّ رجل هذا الذي يُضيِّع نقودَ أطفاله على عاهرة؟

. لا! لا! ليس الأمرُ كذلك.

. أتعني أنَّها تقبل المضاجعةَ من غير مقابل؟

فيتوسَّل إليها بقوله:

. لا تتفوَّهي بمثل هذه الأشياء، أرجوكِ. إنَّها صديقتي. أقدمُ صديقةٍ لي . منذ أيام المدرسة.

لكنَّ أحدًا لن يصدِّقَه.

***

قال المُخرِّب وهو يتَّكئ على كرسيّ، منهكَ القوى، وظمآنًا:

ـ حاولتُ أن أَحْضر مبكِّرًا، لكنَّ حركةَ المرور كانت كابوسًا بكلّ ما في الكلمة من معنًى.

فسألته زينب 122:

ـ أترغب في كوبٍ من الشاي؟

ـ لا، شكرًا.

سألته حُميراء مشيرةً إلى علبةٍ في حضنه:

. ما هذه؟

. آه، هذه... هديَّة إلى ليلى. كانت في المكتب، وكنتُ عازمًا على تقديمها إليها في هذه اللَّيلة.

جذب الشريطَ وفتح العلبة. كان في داخلها وشاح:

. حرير خالص. كانت ستحبُّه.

غصَّ في حنجرته، كأنَّ فيها شيئًا لا يَقْدر على ابتلاعه، فشهق. انفجر الآن كلُّ الأسى الذي حاول أن يكبته. شعر بحكَّةٍ في عينيْه، ووجد نفسه يبكي قبل أن يُدرك ذلك.

هرعتْ حُميراء إلى المطبخ، وعادت حاملةً كأسًا من الماء، وزجاجةً من عصير اللَّيمون بالكولونيا، وراحت ترشّ من الأخير في كأس الماء التي أعطتْها المُخرِّبَ، قائلةً:

. اشربّ، وسوف تشعر بتحسُّن.

مكتبة[16.07.20 17:28] ,.@

سألها:

. ما هذا؟

. علاجُ والدتي للحزن، ولغيره من الحالات. وكانت دائمًا تحتفظ بقَدْرٍ من الكولونيا في متناول اليد.

احتجَّت نالان قائلةً:

ـ توقَّفي لحظةً. أتجعلينه يشرب هذا؟ لا. إنَّ علاج والدتك قد يقضي على حياة إنسانٍ لا يستطيع تحمُّلَ الكحول.

فغمغمتْ حُميراء غيرَ متأكِّدةٍ من كلامها:

ـ لكنَّه ماءُ الكولونيا....

قال المُخرِّب:

- إنَّني على ما يُرام.

ثمَّ أعاد الكأسَ وقد ساوره شعورٌ بالحَرَج بعد أن أصبح مركزَ الاهتمام.

المعروف أنَّ المُخرِّب لا يَحتمل تعاطي المشروبات، وأنَّ ربعَ كأسٍ من النبيذ كفيلٌ بتدميره. وفي عديد المناسبات، كان يفقد وعيَه بعد أن يحتسي مقدارًا من الجِعة مجاراةً للآخرين. وفي مثل تلك اللَّيالي، كانت له مغامراتٌ لا يستطيع تذكُّرها في صبيحة اليوم التالي. وكان الناس يُخبرونه بتفاصيل مرهقة: كيف تسلَّق سطحًا ما لمشاهدة النوارس؛ أو تجاذَبَ أطراف الحديث مع مانيكان عند

واجهة متجرٍ ما؛ أو وثب من فوق المشرَب في كروان، ورمى بنفسه على الراقصين معتقدًا أنَّهم سوف يُمسكون به ويرفعونه فوق أكتافهم، ولكنَّهم قذفوا به على الأرض. كانت القصص التي يسمعها تبلغ من الإهانة والتَّحقير لشخصه ما يجعله يتظاهر بأنَّه لا يعرف شيئًا عن الشخص الأخرق في وسطهم. إلَّا أنَّه كان يعرف مَنْ هو بكلّ تأكيد: كان يعرف أنَّه لا يحتمل الكحولَ، ولعلَّه كان يفتقر إلى الأنزيم المناسب، أو أنَّه مصابٌ بتليُّفٍ في الكبد، أو أنَّ الحجيجَ والأئمّةَ من أسرةِ زوجته قد استنزلوا اللَّعناتِ عليه ليتأكَّدوا من أنَّه لن يَضِلّ عن الصراط المستقيم.

أمَّا نالان، فكانت تختلف اختلافًا جذريًّا عن المُخرِّب، إذ هي أسطورةٌ في دوائر إسطنبول السرِّيَّة. فقد بدأتْ تعاقر الخمرَ بعد أن أُجريَتْ لها أوَّلُ عمليَّة لتعديل جنسها. وعلى الرَّغم من أنَّها تخلَّت بسعادة عن بطاقة هويَّتها الزرقاء القديمة (التي تُمنَح المواطنين الذكورَ)، واكتسبتْ بطاقةًورديَّةً جديدةً (خاصَّةً بالمواطنات الإناث)، فإنَّ آلامَ ما بعد العمليَّة كانت تُعذِّبها وتنهكها، حيث لا

تستطيع تحمُّلها إلَّا بمساعدة الخمر. وفي وقتٍ لاحق، أُجريَتْ لها عمليَّةٌ أخرى فأخرى، وكلٌّ منها أكثرُ تعقيدًا وأغلى ثمنًا من سابقتها. ولم يُحذِّرها أحدٌ من هذه العمليَّات، إذ كان ذلك من الموضوعات التي لا يرغب أحدٌ في الحديث عنها، بما في ذلك ضمن أوساط المتحوِّلات جنسيًّا! وإذا ما تحدَّثتْ إحداهنَّ عنها، فذلك يكون بنبراتٍ خفيفة. أحيانًا، كانت الجروحُ تلتهب، والأنسجةُ ترفض الشفاء، والألمُ القاسي يغدو مزمِنًا. وإذ راح بدنُها يقاوم كلَّ هذه التَّعقيدات غير المتوقَّعة، فإنَّ ديونَها تراكمتْ، فشرعتْ تبحث عن عملٍ ما في كلِّ مكان، أيّ عمل قد يفيد. وحين أُغلِقَ في وجهها عديدُ الأبواب، حاولت العملَ في ورشة نجارةِ الأثاث التي سبق أن اشتغلتْ فيها. لكنَّ أحدًا لم يرضَ أن يمنحَها عملًا.

كانت المهنتان الوحيدتان المتاحتان للنساء المتحوِّلات هما تصفيفُ الشَّعر والجنس. غير أنَّ ثمَّة عددًا كبيرًا من مصفِّفي الشعر ومُصفِّفاته في إسطنبول، حتى لترى صالونًا واحدًا في نهاية كلّ زقاق وفي كلِّ قبو. كما أنَّ النساء المتحوِّلات غيرُ مرخَّصاتٍ

بالعمل في المواخير المجازة، وإلَّا شَعَرَ الزبائن بالتضليل فتذمَّروا. وفي النهاية، بدأتْ نالان،

مكتبة[16.07.20 17:28] @.,

أسوةً بالعديد من النساء من قبلها ومن بعدها، تعمل غانيةً في شوارعَ مُظلمةٍ ومرهقةٍ وخطرةٍ. وكانت كلّ سيَّارةٍ تتوقَّف من أجلها، تترك انطباعًا في روحها الضعيفةِ الحساسيَّة المتحجّرةِ الفؤاد، شأنها في ذلك شأن عجلات سيَّارةٍ فوق رمل الصحراء. ولهذا، قسَّمتْ نفسَها، بشفرةٍ غير مرئيَّة، إلى قسميْن: نالان الأولى تراقب نالان الثانية مراقبةً سلبيَّةً، ملاحِظةً كلّ التَّفاصيل، ومستغرِقةً في تفكيرٍ عميق؛ في حين أنَّ نالان الثانية كانت تفعل كلّ شيء يُفترض بها أن تفعله، ولا تفكِّر في أيِّ عواقب. كان المارّة يشتمونها، ورجالُ الشرطة يعتقلونها اعتقالًا عشوائيًّا، والزبائنُ يهينونها، وكانت تعاني الإذلالَ مرّةً تلو الأخرى. فمعظمُ الرجال الذين اختاروا أمثالَها من النساء المتحوِّلات كانوا من نمطٍ معيَّن، يتذبذب على نحوٍ غير متوقَّع بين الرَّغبة والاحتقار. وكانت نالان قد أنفقتْ مدَّةً طويلةً في هذا العمل، مدَّةً تكفي لأن تعرف أنَّ

الشعوريْن يمتزجان امتزاجًا سهلًا، بعكس الماء والزيت. فأولئك الذين يحتقرون المرأةَ قد يميطون اللثامَ، على نحوٍ لا يمكن التَّنبُّؤ به، عن شهوةٍ عاجلة؛ وأمَّا الذين يتبيَّن أنَّ المرأة قد راقتهم، فيمكن أن ينقلبوا خبثاءَ حاقدين، مولعين بالإغاظة والعنف، حالَما يحصلون على ما يبغون.

في كلِّ وقت، ثمَّة مناسبةٌ وطنيَّة أو مؤتمرٌ دوليّ مهمّ في إسطنبول، فتشقّ السيَّاراتُ السودُ المحمَّلةُ بالوفود الأجنبيَّة طريقَها من المطار إلى فنادق بخمس نجوم، منتشرةٍ على امتداد المدينة. وعندئذٍ، يقرِّر مديرُ الشرطة تنظيفَ الشوارع التي تمرّ بها تلك السيَّارات. في مثل هذه المناسبات، تُعتَقل كلُّ النساء المتحوِّلات بين عشيَّةٍ وضحاها، ويُكنَس كنسَ القاذورات المتراكمة. وفي إحدى المرَّات، أثناء إحدى عمليَّات التنظيف، لبثتْ نالان في مركز التوقيف، حيثُ حَلَقوا شعرَها حلاقةً عشوائيَّة، وجرّدوها من ثيابها، وجعلوها تنتظر في زنزانة، عاريةً ووحيدة. وكانوا كلَّ نصفِ ساعة أو نحو ذلك، يأتون للتحقُّق من وضعها، ويقذفونها بدلوٍ من الماءِ

الآسن. لكنْ يبدو أنَّ أحدَ رجال الشرطة ـ وكان شابًّا هادئًا ودقيقَ الملامح ـ لم يكن مرتاحًا إلى الأسلوب الذي كان رفاقُه يعاملونها به. ولا تزال نالان تتذكَّر نظرةَ الأسى واليأس الواضحة على وجهه، وساورها شعورٌ بالأسى على حاله! فليست هي المعتقَلة، وإنَّما هو المعتَقَلُ في مساحةٍ ضيّقة، والمسجونُ في زنزانةٍ غير مرئيَّةٍ خاصَّةٍ به. في الصباح، كان هذا الشرطيّ هو الذي أعاد إليها ملابسَها، وقدَّم إليها قدحًا من الشاي ومكعَّبًا من السكّر. وعلمتْ نالان أنَّ نساءً أخرياتٍ عوملن معاملة أسوأ ممّا تعرّضَتْ إليه في تلك اللَّيلة. وبعد انتهاء أعمال المؤتمر وإطلاق سراحها، لم تُخبرْ أحدًا بما حدث.

العمل في النوادي اللَّيليَّة أكثرُ أمانًا شريطةَ أن تعثر على طريقةٍ لدخولها، وهو ما فعلتْه مرارًا وتكرارًا. واكتشف أصحابُ النادي اللَّيليّ فرحين أنَّ نالان تتمتَّع بموهبةٍ مدهشة؛ فهي تستطيع أن تَشرب وتشرب من غير أن تثملَ ولو بمقدار ذرّة. وكانت تجلس من وراء طاولة الزبون، وتتجاذب وإيَّاه أطرافَ حديثٍ قصير، برَّاقةَ

العينيْن مثلَ نقودٍ معدنيَّة تحت أشعَّة الشمس، فتشجِّعُه على طلب أغلى مشروبٍ على القائمة. وهكذا كانت مشروباتُ الويسكي والكونياك والشمبانيا والڤودكا تتدفَّق تدفُّقَ مياه الفرات العظيم. وما إنْ يثمل الزبونُ حتَّى تنتقل نالان إلى طاولةٍ أخرى، حيث تكرِّرُ العمليَّةَ نفسَها مرَّاتٍ ومرَّات. لهذا، كان أصحابُ النادي مُتيَّمين بها: فهي آلةٌ لصناعة النقود.

***

نهضتْ نالان، وملأتْ قدحًا بالماء، وقدَّمته إلى المُخرِّب.

ـ الوشاح الذي اشتريتَه لليلى جميلٌ جدًّا.

. شكرًا لكِ. إنَّه ليروقُها على ما أعتقد.

. آه، أنا متأكِّدة من ذلك.

ثمَّ لمستْه مواساةً وتشجيعًا، واستقرَّت أناملُها على كتفه برفق، واسترسلتْ قائلة:

. سأقترحُ عليك شيئًا: لماذا لا تضعُه في جيبِكَ؟ في وسعكَ أن تقدِّمه إلى ليلى هذه اللَّيلة.

رمش المخرِّبُ عينيْه، وسألها:

مكتبة[16.07.20 17:29] ,.@

. ماذا قلتِ؟

. لا تقلقْ. دعني أوضح لك...

لكنَّها أمسكتْ عن الكلام، إذ جذب انتباهَها صوتٌ ما. ثبّتتْ عينيْها على الباب المغلق في الرواق، وسألتْ:

. هل أنتنَّ متأكّدات أيَّتها البنات من أنَّ جميلة نائمة؟

هزَّت حُميراء كتفيْها.

. لقد وعدتْنا بالخروج من الغرفة بعد أن تستيقظَ من نومها مباشرةً.

خطت نالان خطواتٍ طويلةً وسريعةً ومدروسةً باتِّجاه الباب، وأدارت المقبض، لكنَّها وجدته موصدًا من الداخل.

. أأنتِ نائمة يا جميلة، أمْ تبكين مريرًا؟ أم ربَّما تسترِقين السمعَ إلينا؟

لا جواب.

قالت نالان من خلال ثقب مفتاح الباب:

. لديَّ إحساسٌ بأنَّكِ يقظةٌ طوال الوقت، تشعرين بالتعاسة وتشتاقين إلى ليلى. لماذا لا تخرجين إلينا ما دمنا كلُّنا نشعر الشعورَ نفسَه؟

فُتِح الباب ببطء، وبانت جميلة للعيان.

كانت عيناها السَّوداوان الواسعتان منتفختيْن ومتَّقدتيْن.

تكلَّمتْ نالان برقّةٍ مع جميلة كعهدها حين تتكلَّم مع الأخريات، وكلُّ كلمةٍ من كلماتها تفَّاحةٌ لذيذةٌ ينبغي تلميعُها قبل تقديمها إلى أحد:

. آه يا حبيبتي، انظري إلى نفسِكِ. ينبغي ألَّا تبكي، بل أن تهتمِّي بنفسك.

ردَّت جميلة:

ـ أنا بخير.

قالت حُميراء:

ـ نالان على حقّ للمرَّة الأولى. فكِّري في الأمر من هذه الناحية. إذا رأتكِ ليلى على هذه الحالة، فسوف تَحْزن حزنًا شديدًا.

ابتسمتْ زينب 122 ابتسامةً مهدِّئة، وقالت:

. هذا صحيح. لِمَ لا نذهب أنا وإيَّاكِ إلى المطبخ لنتحقَّق إنْ كانت الحلاوةُ باتت جاهزةً؟

قالت حُميراء :

مكتبة[16.07.20 17:29] .,@

. علينا أن نرسل في طلب بعض الطعام، إذ لم يأكل أيٌّ منَّا لقمةً منذ الصباح.

نهض المُخرِّب من مجلسه، وقال:

. سوف أساعدكنّ يا فتيات.

. فكرة عظيمة، اذهبْ واطلبْ لنا طعامًا.

قالت نالان ذلك، وشبكتْ يديْها وراء ظهرها، وبدأتْ تذرع الغرفةَ جيئةً وذهابًا مثلَ جنرالٍ يتحقّق من جاهزيَّة جنوده قبل المعركة

الأخيرة. تألَّقتْ أناملُها تحت نور الثريّا تألُّقًا ساطعًا، مظلَّلَةً باللَّون الأرجوانيّ.

ألقَتْ نظرةً خاطفةً إلى الخارج وهي واقفةٌ قرب النافذة، ووجهُها منعكسٌ على الزجاج. ثمَّة عاصفةٌ توشك أن تهبَّ من مكانٍ بعيد، وسُحبٌ ماطرةٌ تمتدّ نحو الشمال الشرقيّ في المنطقة المحيطة بكيليوس. اكتسبتْ عيناها وميضًا محدَّدًا، بعد أن كانتا حزينتيْن وكئيبتيْن طوال المساء. ربَّما لم تسمع صديقاتُها بمقبرة الغرباء إلى ما بعد ظهر هذا اليوم، ولكنَّها تعلم كلَّ ما تنبغي معرفتُه عن ذلك المكان الفظيع. فقد سبق أن التقت عددًا من الناس الذين دُفِنوا بعدئذٍ هُناك، وفي إمكانها أن تتخيَّل بكلِّ يُسرٍ ما حدث لقبورهم لاحقًا. فالبؤس الذي كان العلامةَ المميَّزةَ لتلك المقبرة قد انفتح وكأنَّه فمٌ جائع، وازدردهم دفعةً واحدة.

لاحقًا، بعد أن جلست المجموعةُ كلُّها حول الطاولة، وتناول كلٌّ منهم قليلًا من الطعام، قرَّرتْ نوستالجيا نالان أن تشرحَ خطَّتَها. كان عليها أن توضحَ هذا الموضوعَ بأكبر قدرٍ مُمكنٍ من العناية والرقَّة، لأنَّها تَعلم أنَّ الخوف سوف يستبدّ بهم جميعًا في البداية.

مكتبة[16.07.20 17:31] @.,

- 29 -

كارما

بعد نصف ساعة، جلست النساءُ رفقةَ المُخرِّب حول طاولة العشاء، وكانت في وسطها كومةٌ من اللَّحم . خبز باللَّحم من مطعمٍ قريب من الشقَّة. لم يلمس الطعامَ أحدٌ. لم تكن لدى أيّ منهم شهيَّةٌ للأكل، على الرَّغم من ممارسة الضغوط على جميلة كي تأكل، إذ بدت في منتهى الضعف، وصار وجهُها الرَّقيقُ أكثرَ هزالًا ممَّا هو مألوف.

في البداية، تجاذبت المجموعةُ حديثًا متقطِّعًا. غير أنَّ الحديث، كما يبدو، مثل الأكل، يتطلَّب جهدًا جهيدًا. فقد كان الجلوس غريبًا هنا في شقَّة ليلى من غير أن تطلَّ برأسها من باب المطبخ لتقدِّم إليهم المشروبات والطعام، في حين تنسدل خصلاتٌ من شعرها وراء أذنها. وجالت الأبصارُ حول الغرفة، تنظر نظراتٍ طويلةً وحزينةً إلى كلّ ما فيها، صغيرًا وكبيرًا، وكأنَّها تكتشفها أوَّل مرَّة. ماذا سيحدث لهذه الشقَّة الآن؟ وخطر في بال الجميع أنَّ ليلى نفسها قد تتوارى عن الأنظار أيضًا إذا نُقِل الأثاثُ واللَّوحاتُ الزيتيَّة إلى الخارج.

بعد برهةٍ قصيرة، ذهبتْ زينب 122 إلى المطبخ، وعادت أدراجَها حاملةً إناءً فيه شرائحُ تفَّاح، وطَبَقًا من حلاوةٍ حديثة الصنع ـ على روح ليلى ـ ملأتْ رائحتُها العذبةُ أرجاءَ الغرفة.

قال المُخرِّب:

ـ كان ينبغي أن نضعَ شمعةً على الحلاوة، فقد كانت ليلى تجد دومًا سببًا ما لتحويل العشاء إلى مُناسبة، لأنَّها كانت تحبّ الحفلات.

مطَّت حُميراء شدقيْها وهي تكبت تثاؤبًا:

ـ لاسيَّما حفلات أعياد الميلاد.

وندمتْ لأنَّها تناولتْ ثلاثَ حبّات من المسكِّنات، الواحدةَ تلو الأخرى. ولأجل إبعاد شبح النعاس عنها، فقد عمدتْ إلى إعداد فنجان قهوةٍ، وبدأتْ تمزج السكَّر فيه وتَطْرق الملعقةَ على الفنجان الخزفيّ مُحْدثةً ضوضاء.

تنحنحتْ نالان، وهي تقول:

ـ آه، كم كذبَتْ بخصوص عمرها! ذات يومٍ قلتُ لها: إنْ كنتِ ستروين حكاياتٍ طويلةً يا حبيبتي، فيُستحسن أن تحفظيها. ما عليكِ سوى أن تكتبيها في مكانٍ ما. إذ ليس من المنطق أن تكوني في الثالثة والثلاثين مرَّةً، وفي الثامنة والعشرين في السنة التالية!

ضحكوا جميعًا، لكنْ حين ضبطوا أنفسَهم متلبِّسين بالضحك شعروا بالخطأ، وبتجاوز حدودِ الأدب، فتوقَّفوا فورًا.

قالت نالان:

ـ حسنًا، أريد أن أُخبر الجميعَ أمرًا مهمًّا، ولكنْ أرجو الإنصاتَ حتّى أفرغَ قبل إبداء أيّ اعتراض.

قالت حُميراء بهمَّةٍ فاترة:

. آه يا عزيزتي. لن ينتهي هذا الموضوعُ على خير.

أجابت نالان:

. لا تكوني سلبيَّة.

ثمَّ التفتتْ إلى المُخرِّب مُضيفةً:

. أتتذكَّر تلك الشاحنةَ التي تملكها؟ أين هي؟

. لا أملك أيّ شاحنة.

. ألا يملك أحدُ أقربائك شاحنةً؟

. أتعنين سيَّارةَ الشيڤروليه المُغبرَّةِ التي يملكها والدُ زوجتي؟ لقد مرَّت سنواتٌ طويلةٌ منذ أن استخدم أحدٌ كومةَ الحديد هذه. لماذا تسألين؟

. لا بأس بها ما دامت قادرةً على إنجاز المهمَّة. فنحن سنحتاج إلى بعض الأشياء الأخرى: جرف، ورفش، ومسحاة، وربَّما عربة يد أيضًا.

قال:

. هل أنا الوحيد الذي لا أملك فكرةً عمَّا تتحدَّث عنه نالان؟

مسحتْ حُميراء زوايا عينيْها الداخلتيْن بأناملها، وأوضحتْ:

. لا تقلقْ، ليست لدينا أيُّ فكرة نحن أيضًا.

اتَّكأتْ نالان في مقعدها، وصدرُها يعلو ويهبط. شعرتْ أنَّ فؤادها يَخْفق أسرعَ من ذي قبل تحت وطأة الإجهاد بسببِ ما ستقوله:

. أقترح أن نذهب كلُّنا إلى المقبرة هذه اللَّيلة.

سألها المُخرِّب بصوتٍ أجشّ ومبحوح:

. ماذا؟

رويدًا رويدًا، بدأ يتذكَّر كلّ شيء الآن: طفولتَه في بلدة ڤان، والشقَّةَ الصَّغيرة الضيِّقة فوق الصيدليّة، والغرفةَ المطلَّةَ على مقبرةٍ موغلةٍ في القدم، والحفيفَ تحت الحوافّ الناتئة والأفاريز، صادرًا ربَّما عن السنونو أو الرِّيح أو أيّ شيءٍ آخر. ثمَّ أوصد المخرِّبُ بابَ ذاكرته، وركَّز في نالان.

ـ امنحني فرصةً كي أوضح لكَ، ولا تتصرَّفْ قبل أن تسمَعني جيّدًا.

بدأتْ كلماتُ نالان تتدفَّق كالطوفان وهي في توقٍ شديدٍ إلى الكلام:

ـ سوف أُصاب بلوثةٍ في عقلي، إذ كيف يُمْكن امرأةً عَقَدتْ صداقاتٍ مدهشةً طوال حياتها أن تُدفَن في مقبرة الغرباء؟ كيف يمكن أن يكون هذا هو عنوانَها إلى الأبد؟ هذا ظلم!

من مكانٍ مجهول ظهرتْ ذبابةٌ، وحامت فوق التفَّاح. راح الجميع يراقبونها، شاكرين لها أنَّها صرفتْ أذهانهم.

قالت زينب 122 ملتقطةً كلماتِها بعناية:

ـ لقد أحببنا كلُّنا ليلى، فهي التي جمعتنا. لكنَّها لم تَعُد في هذا العالم، وينبغي أن ندعو لها، أن ندعَها ترقد في سلام.

قالت نالان:

ـ كيف يمكنها أن ترقدَ في سلام إذا كانت في منطقةٍ فظيعة؟

أجابت زينب 122:

. لا تنسي، يا حبيبتي، أنَّه جسدُها لا غير. أمَّا روحُها، فليست في تلك المنطقة.

قاطعتْها نالان:

. كيف تعرفين ذلك؟ انظري، ربَّما يكون الجسدُ شيئًا تافهًا وزائلًا عند المؤمنين من أمثالك. أمَّا بالنسبة إليّ، فالأمر ليس كذلك. ثمَّ هل تعرفون ماذا؟ لقد كافحتُ كفاحًا شاقًّا من أجل جسدي! من أجل هذيْن . وأشارت إلى ثدييْها . ومن أجل عظامِ وجنتيّ...

ثمَّ توقَّفتْ قبل أن تضيفَ:

. آسفة إذا بدا ذلك تافهًا. أعتقد أنَّكم جميعًا تهتمُّون بهذا الذي تُسمُّونه «الروح». وربَّما ثمَّة روح، ما أدراني؟ إلَّا أنَّني أريدكم أن تلاحظوا أنَّ الجسد مهمّ أيضًا، لا أنَّه «لا شيء» كما يُقال.

تنشَّقتْ حُميراء رائحةَ القهوة، قبل أن ترشفَ رشفةً أخرى، وقالت: واصلي الكلام.

. أتتذكَّرين الرجلَ العجوز؟ إنَّه لا يزال يلوم نفسَه لعدم إقامة جنازةٍ لائقةٍ لزوجته، حتَّى بعد كلّ تلك السنوات. هل ترغبين في

الإحساس بالشعور نفسه طوال الحياة؟ كلَّما تذكَّرنا ليلى أَحرَق الذَّنْبُ أعماقَنا، وأدركْنا أنَّنا قصَّرنا في واجبنا تجاه صديقتنا.

رفعتْ نالان أحدَ حاجبيْها باتِّجاه زينب 122، وقالت:

ـ لا أريد الإساءة، ولا أريد أن أجرحَ شعورَكِ، لكنَّني لا أعير العالمَ الآخرَ أيَّ أهمِيَّة. لعلَّكِ على صواب، ولعلَّ ليلى أصبحت الآن في الجنَّة، تُعلِّم الملائكةَ تقنيَّاتِ المكياج وإزالةِ الريشِ الزائدِ على أجنحتها. فإذا كان الأمر كذلك، فذلك عظيم. لكنْ ماذا عن سوء المعاملة التي تلقَّتها هنا على الأرض؟ هل نَقْبل بذلك؟

قال المُخرِّب منقادًا إلى نزواته:

ـ كلَّا بالتَّأكيد. أخبرينا ماذا نفعل!

ثمَّ أمسك عن الكلام على حين غرّة، إذ مرَّت بخاطره أغربُ فكرة، وقال:

ـ لحظة! أنتِ تقترحين الذهابَ إليها وحَفْرَ القبر وإخراجَها، أليس كذلك؟

توقّع الجميعُ أنْ تلوّحَ نالان بيدها، وأن تتَّجه ببصرها إلى الجنَّة التي لا تؤمن بها. وهو ما دأبتْ عليه حين تواجِهُ ملاحظةً غير معقولة. ولمَّا ذكرَت الذهابَ إلى المقبرة، افترض الباقون أنَّ ما كانت تفكِّر فيه إنَّما هو إقامةُ جنازةٍ مُناسبةٍ لليلى، وتوديعُها الوداعَ الأخير. كان ذلك قبل أن يدركوا أنَّ نالان قد تطرح اقتراحًا موغلًا في التطرُّف.

شاع صمتٌ مقلقٌ في الغرفة، وكانت تلك لحظةً يريد كلُّ حاضرٍ فيها أن يحتجّ، إلَّا أنَّ أحدًا لم يرغب في أن يتصدَّرَ الاحتجاج.

قالت نالان:

- أعتقد أنَّ علينا أن نُنفِّذ ما يأتي، لا من أجل ليلى فحسب، بل من أجلنا أيضًا. هل فكَّر أحدٌ منكم بما سيحدث لنا حين نموت؟ الواضح أنَّنا سوف نُعامَلُ معاملةً واحدةً من الطِّراز الأوَّل.

ثمَّ أشارت بإصبعها إلى حُميراء، وأضافت:

- لقد هربتِ يا حبيبتي. هجرتِ زوجِكَ وألحقتِ الخزيَ والعارَ بأسرتكِ وعشيرتك. ماذا في نبذةِ حياتك؟ الغناء في النوادي الحقيرة العديمة الأخلاق، ثمَّ شاركتِ في تمثيل عدد من الأفلام العديمة

الذوق، والمخالِفة للأعراف والقواعد المرعيّة، وكأنَّ ما فعلتِهِ في النوادي لم يكن سيِّئًا بما يكفي!

تورَّدَ وجهُ حُميراء واحمرَّ خجلًا وارتباكًا:

. كنتُ شابَّة يومئذٍ، وكنتُ مضطرَّة...

. أعرفُ ذلك. لكنَّهم لن يفهموا. فلا تتوقَّعي أيَّ تعاطف. آسفة يا حبيبتي، لكنّكِ سوف تذهبين مباشرةً إلى مقبرة الغرباء. وربَّما سيذهب المُخرِّب أيضًا إذا اكتشفوا أنَّه كان يحيا حياةً مزدوجة.

اعترضتْ زينب 122، وهي تشعر أنَّها ستكون المستهدفةَ التالية:

. حسنًا، كفى. أنتِ تكدِّرين الجميع.

قالت نالان:

. إنَّني أقول الحقيقة. لنقل إنَّ لدينا جميعًا عاداتٍ باليةً، ولا أحد لديْه منها أكثر منِّي. هذا النفاق يقتلني. كلُّ واحد يهوى مشاهدةَ المغنِّين المثليّين والمغنيَّات المثليّات على شاشة التلفاز. إلَّا أنَّ هؤلاء الناس أنفسهم يُجنّ جنونُهم إنْ أصبح أولادُهم أو بناتُهم مثل

هؤلاء المغنّين والمغنيّات. لقد شاهدتُ ذلك بأمّ عيني. هذه المرأة مثلًا، خارج آيا صوفيا، كانت ترفع لافتةً كُتِب عليها: «النهاية قريبة، وستحلّ علينا الزلازل. إنَّ المدينة المحتشدة بالعاهرات والمتحوّلات جنسيًّا تستحقّ غضبَ اللّه!» والحقيقة أنّني قوّةٌ تجذب الكراهية. وحين أموت، فسوف تُرمى جثّتي في مقبرة الغرباء.

قالت جميلة متوسّلةً:

ـ لا تقولي هذا.

ـ قد لا تدركون أنَّ هذه المقبرة التي نتحدَّث عنها ليست مقبرةً اعتياديَّة. فهي... هي بائسة تمامًا.

سألتْ زينب 122:

ـ وكيف تعرفين هذا؟

أدارت نالان أحدَ خواتمها في إصبعِها، وقالت:

ـ لديَّ معارفُ دُفنوا فيها.

لم تكن مضطرَّةً إلى إخبارهم أنَّ كلَّ المتحوّلات جنسيًّا انتهى بهنَّ المطافُ إلى هذا العنوان الأخير.

ـ علينا أن نُخرِج ليلى من ذلك المكان.

هزَّت حُميراء كوبَها بين يديْها، وقالت:

ـ ذلك أشبهُ بدورةِ كارما. نحن نَخْضع لاختبارٍ يوميّ: فإذا قال أحدُهم إنَّه صديقٌ مخلِص، فسوف يأتي وقتٌ يتعرَّض فيه كلامُه للاختبار، وسوف تَطلُب منه القوى الكونيَّةُ إثباتَ مدى اهتمامه حقًّا. وهذا مُدوَّنٌ في أحد الكتب التي أعطتني إيَّاها ليلى.

قالت نالان:

ـ ليست لديَّ أدنى فكرةٍ عمَّا تتحدَّثين، لكنَّني أوافقُكِ على هذا الكلام. كارما، بوذا، يوغا... وكلّ ما من شأنه التأثير فيكِ. مفادُ فكرتي أنَّ ليلى أنقذتْ حياتي. ولن أنسى تلك اللَّيلةَ! فقد كنَّا وحدنا حينما ظهر أصحابُ الرؤوس العفنة من مكانٍ خفيٍّ، وراحوا يضربوننا ضربًا مبرِّحًا. لقد طعنني هؤلاء الأوغادُ في عظام صدري، وسال الدم في كلِّ مكان. أقول لكم إنَّني نزفتُ مثل حمَلٍ مذبوح. ظننتُ أنَّني أُحتضر، وأنا لا أمزح! ثمّ هبطتْ عليَّ فتاةٌ خارقة، قريبةُ كلارك كنت. أتتذكَّرون؟ أمسكَتْ بذراعي وجذبتْني إلى أعلى. عندئذٍ، فتحتُ عينيَّ، فلم أشاهد الفتاةَ الخارقة، بل شاهدتُ ليلى. كان في وسعها أن تهرب، إلَّا أنَّها لبثتْ... من أجلي. أخرجتنا من

ذلك المكان. لا أعرف حتَّى هذه الساعة كيف أفلحتْ في إخراجنا، ثمَّ اصطحبتني إلى طبيب. طبيب دجَّال، ولكنَّه نجح في علاجي، وأنا مَدينة بذلك لليلى.

أخذتْ نالان نَفَسًا، ثمَّ زفرتْه ببطء، وأضافت:

ـ أنا لا أريد أن أضغطَ على أحد. إذا لم ترغبوا في مرافقتي، فأنا أتفهَّم ذلك حقًّا. لكنّني سأنفِّذُ مرادي بمفردي إنِ اضطررتُ.

سمعتْ حُميراء نفسَها تقول:

ـ سأرافقُكِ.

ثمَّ احتست ما تبقَّى في فنجانها من القهوة، وقد ازدادت نشاطًا.

ـ أأنتِ واثقة؟

قالت نالان ذلك وعليها أماراتُ العجب، مُدركةً نوباتِ الرُّعبِ والقلق التي تهاجم صديقَتها.

غير أنَّ المسكِّنات التي تناولتها حُميراء في هذا المساء بدت وكأنّها حَمَتْها من الخوف . إلى أن يخفَّ مفعولُها وينتهي على أيّ حال.

. نعم! سوف تحتاجين إلى مساعدة. لكنْ ينبغي أوَّلًا أن أُعِدَّ كمِّيَّةً أخرى من القهوة. وربَّما سأضعها في حافِظةٍ، وآخذها معي.

مكتبة[16.07.20 17:33] ,.@

قال المُخرِّب:

. وأنا أيضًا سأرافقُكما.

قالت حُميراء:

. لكنَّك لا تحبّ المقابر.

. صحيح، أنا لا أحبُّها... لكنْ لما كنتُ الرجلَ الوحيدَ في هذه المجموعة، فإنَّني أشعر أنَّ لديَّ مسؤوليَّةً لحمايتكنّ من أنفسكنّ. يُضاف إلى ذلك أنّه لن يكون في مقدوركنّ الحصولُ على تلك الشاحنة من دوني.

اتَّسعت عينا زينب 122:

. انتظروا جميعًا، انتظروا. إنَّنا لا نستطيع القيامَ بهذا العمل لأنَّ نبشَ القبور وإخراجَ جثَّة الميِّت حرام! وإذا جاز لي أن أسأل، فإلى أين ستأخذون الجثَّةَ بعد ذلك؟

تململتْ نالان في كرسيِّها وقد أدركتْ أنَّها لم تفكِّر تفكيرًا كافيًا في الجزءِ الثاني من الخطّة.

. سوف نأخذها إلى مثوًى لطيفٍ ولائق، وسنزورها في أغلب الأحيان، ونأتيها بالأزهار. وربَّما قد نتمكَّن من تكليف أحدٍ بمهمَّة صناعةِ شاهدةِ قبر؛ شاهدةٍ من مرمر، لمَّاعةٍ وصقيلةٍ، وعليها

وردةٌ سوداء، وقصيدةٌ من قصائد شاعر مفضَّل من شعراء د/علي. مَنْ كان ذلك الشاعر الأميركيّ اللَّاتينيّ الذي أحبَّهُ حبًّا جمًّا؟

قال المُخرِّب:

. پابلو نيرودا.

انزلقتْ عيناه إلى لوحةٍ على الجدار، تظهَرُ ليلى فيها جالسةً على السرير، مرتديةً قميصًا قرمزيًّا قصيرًا، بارزةَ النهديْن من تحت حمَّالة صدر، وشعرُها مصفَّف إلى أعلى، ووجهُها ملتفت قليلًا من ناحية الناظر. كانت غايةً في الجمال، يصعب الوصولُ إليها. وكان المُخرِّب يعرف أنَّ د/علي قد رسم هذه اللَّوحةَ في الماخور.

قالت نالان:

ـ نعم، نيرودا! إنَّ لدى هؤلاء الأميركيِّين اللَّاتينيِّين قدرةً عجيبةً على مزج الجنس والحزن. معظم الأمم تتفوَّق في هذا الأمر أو ذاك، في حين يتفوَّق اللَّاتينيُّون فيهما كليْهما.

قال المُخرِّب:

. أو نضع على الشاهدة قصيدةً من قصائد ناظم حكمت، الشاعر الذي أحبّه د/علي وليلى.

أومأتْ نالان مُستحسنةً الفكرةَ:

. حسنًا، عظيم. لقد توصَّلنا إلى نتيجةٍ في قضيَّة شاهدة القبر.

قالت زينب 122 رافعةً يدَها إلى أعلى:

. أيُّ شاهدة قبرٍ هذه؟ أنتِ لا تعرفين حتَّى أين ستدفنينها!

مكتبة[16.07.20 17:33] ,.@

عبستْ نالان وجهها:

. سأقترح شيئًا ما. اتَّفقنا؟

قال المُخرِّب:

. أعتقد أنَّنا يجب أن ندعَها ترتاح في مثواها بجانب د/علي.

التفتَتْ كلُّ الأنظار إليه. أمَّا نالان، فنفختْ بشدَّة، وقالت:

ـ صحيح، لماذا لم أفكِّر في هذا؟ فهو مدفون في تلك المقبرة المشمسة في بيبك ـ ذاتِ الموقعِ الساحر والمنظر الرائع. وهناك عددٌ كبير من الشُّعراء والموسيقيِّين دُفنوا فيها. وستكون ليلى عندئذٍ في رفقةٍ ممتازة.

قال المُخرِّب من غير أن ينظر إلى أيِّ منهنَّ:

. سوف تكون مع حبيب حياتها.

تنهَّدتْ زينب 122:

. أيُمكنكم أن تثوبوا كلّكم إلى رشدكم؟ إنَّ د/علي مدفونٌ في مقبرةٍ تحظى بحمايةٍ جيِّدة، ونحن لا نستطيع الذهابَ إليها والحفرَ فيها بهذه البساطة. لذا ينبغي أن نحصل على تصريحٍ رسميّ.

قالت نالان ساخرة :

. تصريح رسميّ؟! مَن ذا الذي سوف يتحقَّق من الجثَّة في منتصف اللَّيل؟

اتَّجهتْ حُميراء إلى المطبخ، وأومأتْ لزينب 122 إيماءةَ استرخاءٍ، وقالت:

. أنتِ غير مضطرَّةٍ للذهاب، فلا بأس.

قالت زينب 122 بصوتٍ متهدِّجٍ انفعالًا:

ـ لا خيارَ لديَّ. لا بدَّ من أن يقف أحدٌ بجوارك، وأن يصلّيِ صلاةَ العشاء، وإلَّا فسوف تحلّ اللَّعنةُ عليكم جميعًا بقيَّةَ حياتكم.

ثمَّ رفعتْ رأسها ورنت إلى نالان، وتمطّت، واعتدلتْ:

ـ أريد وعدًا بألَّا تَعْمدي إلى السبّ في المقبرة، ولا إلى انتهاك الحُرمات.

قالت نالان مبتهجةً:

. أعِدُكِ، وسأكون لطيفةً مع الجنّ أيضًا.

بينما كان الآخرون يتناقشون، غادرتْ جميلة في هدوءٍ طاولةَ الطعام، ووقفتْ بجانب الباب، بعد أن ارتدت سترتَها، وانشغلتْ في شدّ شريط حذائها.

مكتبة[16.07.20 17:33] ,.@

سألتْها نالان:

. إلى أين أنتِ ذاهبة؟

قالت جميلة في هدوء:

. إنَّني أستعدّ.

. كلّا يا حبيبتي. ينبغي أن تلزمي الدار، وتُعِدِّي لنفسك كوبًا من الشاي، وتراقبي السيِّد تشاپلن، وتنتظري عودتنا.

. لماذا؟ إذا كنتم ستذهبون، فأنا ذاهبة.

ضاقت عينا جميلة، وانتفخ منخراها قليلًا، وأضافت:

. وإذا كان هذا هو واجبَكِ بوصفكِ صديقةً، فهو واجبي أيضًا.

هزَّت نالان رأسها:

. آسفة، لكنْ ينبغي أن نفكِّر في صحَّتك. أنا لا أستطيع اصطحابَكِ إلى مقبرةٍ في منتصف اللَّيل؛ فليلى قد تسلخ جلدي وأنا على قيد الحياة.

مالت جميلة برأسها إلى الخلف:

. هلا توقَّفتِ عن معاملتي وكأنَّني أُحتضر! ليس الآن، مفهوم؟ إنَّني لا أُحتضر الآن.

كان الغضب شعورًا نادرًا لدى جميلة، لهذا لبثت المرأتان صامتتيْن.

هبَّت ريحٌ فجائيَّةٌ من الشُّرفة، مرفرفةً الستائرَ. وخلال لحظةٍ، تبيَّن وكأنَّ ثمَّة حاضرًا جديدًا في الغرفة؛ دغدغةً نادرًا ما يحسّ بها المرءُ على مؤخّر العنق. إلَّا أنَّ قوَّتها ازدادت، وأصبح في وسع الحضور الإحساسُ بقوَّتها وشدَّة جذبها. فإمَّا أنَّهم دخلوا ملكوتًا

غيرَ مرئيّ، أو أنّ ملكوتًا آخر يدخل ملكوتَهم. وفي حين بدأتْ ساعةُ الجدار تدقّ دقّات الثواني، انتظر الجميعُ حلولَ منتصفِ اللَّيل: اللَّوحاتُ على الجدار، والشقَّة المدوِّية، والقطُّ الأصمّ، وذبابةُ الفاكهة، وأصدقاءُ ليلى التكيلا القدامى الخمسة.

مكتبة[16.07.20 17:34] ,.@

- 30 -

الطريق

في منعطف شارع بيوكديري، وقبالةَ مطعمٍ يبيع الكباب، ثمَّة شَرَكٌ لمراقبة سرعة المَرْكبات مزوَّدٌ برادار خفيّ، يكمن فيه رجالُ الشرطة لضبط السيَّارات التي تتجاوز السرعاتِ المحدّدة، وقد وقع فيه عديدُ السائقين المتهوِّرين، والمؤكَّد أنَّه سيوقِع أعدادًا أكبر

بمرور الوقت. وكانت سيَّارة دوريَّة تترصَّد خِفيةً وراء مجموعةٍ كثيفةٍ من الشجيْرات ذات السيقان المتعدِّدة، فتوقِع مَرْكباتٍ تَعْبر التقاطع بسرعةٍ قصوى من دون أن ترتاب في وجود تلك السيَّارة.

يرى هؤلاء السائقون أنَّ سبب عدم توقُّع الشَّرك هو الساعات التي يحظى فيها بالحراسة. ففي بعض الأحيان، تجد رجالَ شرطة المرور في هذه النقطة عند الفجر؛ وفي أحيانٍ أخرى، لا تجدهم إلَّا عند العصر، كما أنَّ هناك أيَّامًا لا يراهم فيها المرء، فيعتقد أنَّهم غادروا المنطقة؛ إلَّا أنَّهم في أيامٍ أُخَر تجدهم في سيَّارةٍ تَحْمل اللَّونيْن والأزرق تترصَّد مثلَ نمرٍ وحشيّ يتحيَّن الفرصةَ المناسبةَ قبل أن يهجم هجمتَه المهلِكة.

أمَّا رجالُ الشرطة، فيروْن أنَّ هذه هي من أسوإ النقاط في إسطنبول. ولا يرجع سببُ ذلك إلى عدم وجود سائقين لتوقيفهم

وتغريمهم، وإنَّما يرجع إلى أنَّ عددَهم أكثرُ ممَّا ينبغي، بل هو يوازي أكوامَ الوصولات التي تدرُّ دخلًا للدولة، التي لا تبدو وكأنَّها مستعدَّة لإظهار الامتنان. لهذا، كان رجال الشرطة يسألون أنفسَهم عن فائدة بقائهم في يقظةٍ وحذر. ثمَّ إنَّ هذه الوظيفة كانت تنطوي على مخاطر. فبين الفينة والفينة، يتَّضح أنَّ السيَّارة التي أوقفوها تعود إلى ابن مسؤولٍ حكوميٍّ رفيعِ المستوى، أو إلى ابنِ أخته أو أخيه، أو زوجتِه أو عشيقتِه، أو إلى أحدِ كبار رجال الأعمال، أو إلى أحدِ كبار القضاة، أو إلى أحد كبار القادة العسكريِّين. وحينئذٍ، يقع الشرطيُّ في ورطةٍ كبيرة.

وقد حدث مثلُ هذا الأمر لأحد رجال الشرطة. وكان رجلًا جادًّا ومحترمًا. فقد أوقف شابًّا يقود سيَّارةَ پورش ذاتَ لون أزرق فولاذيّ، بسبب قيادةٍ متهوِّرة (إذ كان يأكل قطعةً من الپيتزا تاركًا عجلةَ القيادة بمفردها)، وتجاوزَ إشارةَ المرور الحمراء. هذه المخالفة يرتكبها، صراحةً، عشراتُ السائقين في إسطنبول كلَّ يوم. فإذا كانت باريس مدينةَ الحبّ، والقدسُ مدينةً مقدَّسة، ولاس

ڤيغاس مدينةَ الخطيئة، فإنَّ إسطنبول كانت مدينةَ المهمَّات المتعدِّدة. إلَّا أنَّ الشرطيّ أوقف سيَّارةِ الپورش في كلِّ الأحوال.

ـ لقد تجاوزتَ الإشارةَ الحمراء و....

قاطعه الرجلُ بقوله:

ـ حقًّا؟ أتعلم مَن هو عمِّي؟

كان ذلك السُّؤال تلميحًا من شأن أيّ شرطيٍّ حذِرٍ أن يراعيه ويتجنَّبه. وكان آلافُ المواطنين من كلّ طبقات المجتمع يسمعون مثلَ هذه التلميحات يوميًّا، ويتلقّون فحوى رسائلها. كانوا يفهمون أنَّ الغرامات يمكن تعديلُها أو إزالتُها، وأنَّ القوانين يمكن تحريفُها، وأنَّ الاستثناءات يمكن فرضُها. وكانوا يعلمون أنَّ عينَي الموظَّف الحكوميّ يُمكن أن تُصابا بالعمى موقَّتًا، وأنَّ الأذنيْن يمكن أن تُصابا بالصمم مدَّةً طويلة. إلَّا أنَّ هذا الشرطيّ، الذي لم يكن حديثَ العهد بوظيفته، كان مصابًا بمرضٍ لا شفاء منه: مرضِ المثاليَّة. فحين انساب إلى أذنيْه كلامُ السَّائق، لم يتراجعْ عن موقفه، بل قال له: «لا يهمّني مَن هو عمُّك. القانون هو القانون.«

حتَّى الأطفالُ كانوا يعلمون جيِّدًا أنَّ هذا غير صحيح. فالقانون قانون في بعض الأحيان فقط، ولكنَّه في أحيانٍ أخرى . واستنادًا إلى الظروف المتوافرة . يصير القانونُ مفرداتٍ جوفاءَ وعباراتٍ عبثيَّةً. والقانون أشبهُ بمَناخِل ذاتِ ثقوبٍ تبلغ من الاتِّساع ما

يسمح لكلّ الأشياء بالمرور من خلالها. إنَّه أشبه بعلكةٍ فقدتْ مذاقَها منذ زمنٍ بعيد، ولكنْ لا يُمكن التَّخلُّصُ منها. القانون في هذا البلد، وعلى امتداد الشرق الأوسط كلّه، يُمثِّل كلَّ شيء إلَّا القانون. ولقد

مكتبة[16.07.20 17:34] .,@

كلّف نسيانُ الشرطيّ هذه الأمورَ خسارتَه وظيفَته، لأنَّ عمَّ ذلك السَّائق . وهو وزيرٌ رفيعُ المستوى . عمل على أن يُنقلَ هذا الشرطيّ إلى بلدةٍ صغيرةٍ موحِشة على الحدود الشرقيَّة، حيث لا سيَّارةَ فيها على مدى أميال.

وهكذا، حين اتَّخذ رجلا الدوريَّة مكانَهما في البقعة السيّئة الصيت تلك اللَّيلة، تردَّدا في تحرير أيّ وصلِ مخالفة. فجلسا متَّكئيْن في السيَّارة، وراحا يستمعان عبر المذياع إلى مباراة كرة قدم؛ وكانت مباراةً من الدرجة الثانية، لا الأولى. بدأ الشرطيُّ

الأصغر سنًّا يتحدَّث عن خطيبته حديثًا طويلًا من غير توقُّف. أمَّا الشرطيُّ الثاني، فلم يستطع أن يفهم السَّببَ الذي يَدْفع رجلًا إلى الحديث على هذا النحو؛ فهو شخصيًّا كان يتطلَّع إلى إبعاد ذهنه عن زوجته قدر الإمكان، على الأقلّ أثناء الساعات القليلة المباركة التي يكون فيها بعيدًا عنها في عمله. وهكذا، ترجَّل من السيَّارة معتذرًا بأنَّه يريد التدخين، وأشعل سيجارةً، وراح يُجري بصرَه على الطريق الخالي. كان يكره مهنتَه، وهذه الكراهية جديدة عليه: فقد راوده إحساسٌ بالضجر من قبل، وبالإرهاق أيضًا؛ أمَّا الكراهية، فهي لم تكن أمرًا اعتاده، وراح يكابد شدَّةَ انفعاله.

ارتفع حاجباه وهو ينظر إلى أعلى، فرأى جدارًا سميكًا من السحاب في الأفق البعيد؛ الجوّ إذًا ينذر بعاصفةٍ رعديَّة. توجَّس بحدوث شيءٍ قريبًا. وبينما هو يفكِّر في احتمال أن يفيض المطرُ في الأقبية الممتدّة في أنحاء المدينة، كما فاض في المرَّة السَّابقة، إذْ به يَجْفل على أثرِ زاعقٍ قويّ. وقفتْ شعيراتُ عنقه فزعًا. وأرسل صوتُ الدواليب على إسفلت الشارع قشعريرةً في أوصاله، إذ لمح

حركةً بطرف عينه حتَّى قبل أن تسنح له الفرصةُ للالتفات. ثمَّ شاهد المَرْكبة. كانت وحشًا مندفعًا على الطريق؛ حصانَ سباقٍ معدنيَّ الصنع، يعدو سريعًا باتّجاه خطِّ نهايةٍ غيرِ مرئيّ.

كانت المَرْكبة شاحنةً خفيفةً لنقل السلع والبضائع (پيك آپ) شيڤروليه سيلڤرادو 1982، من النوع الذي نادرًا ما يراه المرءُ في إسطنبول، وهي مُناسِبةٌ للقيادة في شوارع أستراليا وأميركا الفسيحة. بدت وكأنَّها كانت ذات يومٍ صفراءَ بلون الحسّون المغرّدِ الذهبيّ، ساطعةً ومرحةً، ولكنَّها اليوم مُغطَّاةٌ ببقعٍ من القاذورات والصدأ. ومع هذا، فإنَّ الشخص الجالس وراء عجلة القيادة هو الذي جذب اهتمامَ الشرطيّ حقًّا. فهناك جلست امرأةٌ متينةُ البُنيان، شعرُها الأحمر البرَّاق يتطاير في كلِّ الجهات، وسيجارتُها تتدلَّى من فمها.

وبينما كانت المَرْكبة منطلقةً، انتبه الشرطيُّ إلى الراكبتيْن المتكدّستيْن في المقعد الخلفيّ، إذ كانتا متشبِّثتيْن واحدتُهما بالأخرى في مواجهة الريح. وعلى الرَّغم من صعوبة الاستدلال على أيٍّ من الوجوه، فقد كان عدمُ الارتياح واضحًا. وكانت أيديهنّ تمسك بفؤوسٍ ورفشٍ وجرف. وعلى حين غرَّة، انحرفت المَرْكبةُ شمالًا ثمَّ يمينًا، وكان من المؤكَّد أنّها ستتسبَّب في وقوع حادثٍ لو كانت على الطريق مَرْكبةٌ أخرى. زعقت المرأةُ الثقيلة الوزن في مؤخّر الشاحنة، وفقدتْ توازنَها، فسقطتْ منها فأسٌ كانت متشبِّثةً بها، وتدحرجتْ على الطريق مُحدِثةً صوتًا قويًّا. ثمَّ توارى الجميعُ عن الأنظار: الشاحنة والسَّائق والركّاب.

قذف الشرطيُّ سيجارتَه على الأرض، وداس عليها، وهو يزدرد ريقَه، مُستغرِقًا لحظةً من الزمان كي يستوعبَ ما رآه. ارتعشتْ يداه وهو يفتح الباب، وينتزع جهازَ الاتِّصال من السيَّارة.

كان زميلُه يُحدِّق إلى الطريق بدوره. وكان صوتُه مفعمًا بالحماسة حين بدأ بالكلام:

. أوه، يا إلهي! هل رأيتَ ذلك؟ أهي فأسٌ؟

قال الشرطيُّ الأكبر سنًّا، باذلًا قُصارى جهده كي يبدو هادئًا ومتمالكًا رباطةَ جأشه ومسيطرًا على الوضع:

. اذهبْ والتقطها، فقد نحتاج إليها دليلًا، ولا يمكن تركُها هناك.

. ما الذي يحدث في رأيك؟

مكتبة[16.07.20 17:34] ,.@

. أعتقد أنَّ تلك الشاحنة لا تحاول الوصولَ إلى مكانٍ ما على جناح السرعة فحسب... ثمَّة ما يثير الشكَّ هنا.

ثمَّ فتح جهازَ الاتِّصال، وقال:

. اثنان ثلاثة ستّة في الواجب يريد الاتِّصال، هل تسمعني؟

. أجل، يا اثنان ثلاثة ستّة.

. سيَّارة شيڤروليه پيك آپ. تجاوزُ سرعةٍ. يمكن أن تكون خطرة.

. هل فيها ركّابٌ آخرون؟

علقت الكلمةُ في بلعومه، وهو يقول:

. نعم. شُحنةٌ مشكوكٌ فيها؛ أربعةُ ركّابٍ في الخلف في طريقهم إلى كيليوس.

. كيليوس؟ أكِّدْ.

كرَّر الشرطيّ الوصفَ والموقعَ، ثمّ انتظر المرسِلَ كي يبلّغ المعلومات إلى وحدات شرطةٍ أخرى في المنطقة.

عندما تلاشى التشوّشُ من مذياع السيَّارة، قال الشرطيُّ الشابّ:

. لماذا كيليوس؟ لا يوجد شيء هناك في هذا الوقت من اللَّيل. إنَّها بلدةٌ قديمةٌ ونائمة.

. إلَّا إذا كانت السيَّارة متَّجهةً إلى الساحل. من يدري؟ ربَّما هناك حفلة تحت ضوء القمر...

فردَّد الشرطيّ الشابّ بصوتٍ ينمّ عن الحسد:

. حفلة تحت ضوء القمر...

. أو ربَّما تراهم يهرعون إلى المقبرة التعيسة.

. أيّ مقبرة؟

. آه، لن تعرفها. إنّها مكانٌ غريبٌ تسكنه الأشباحُ عند البحر، على مقربة من القلعة القديمة.

فكَّر الشرطيُّ الأكبر سنًّا، ثمَّ راح يوضح:

ـ في وقتٍ متأخِّرٍ من إحدى اللَّيالي، كنَّا قبل سنوات عدَّة نتعقَّب هذا الوغدَ الذي هرب إلى المقبرة. لحقتُ به. يا إلهي! ما أشدَّ سذاجتي! تعثَّرتْ قدمي فوق شيءٍ ما في الظلام. أكان جذرَ شجرةٍ أمْ عظمَ فخذ؟ لم أملك الشجاعةَ الكافيةَ لألقي نظرة.حسبي أنَّني تعثَّرتُ، وسمعتُ صوتًا أمامي ـ أنينًا عميقًا وبطيئًا. تيقّنتُ أنَّه ليس صوتَ إنسان، ولكنَّه لم يكن يشبه صوتَ حيوانٍ أيضًا. فما كان منِّي إلَّا أن رجعت من حيث أتيت. أحلفُ بالقرآن أنَّ الصوت بدأ يلاحقني بعد ذلك! وكان الهواءُ عبقًا برائحةٍ غريبةٍ وعفنة. لم أخَفْ يومًا في حياتي مثلما خفتُ وقتذاك، لكنَّني أفلحتُ في الخروج. غير أنَّ زوجتي قالت لي في اليوم التالي: ماذا كنت تفعل ليلةَ أمس؟ فرائحةُ ثيابِكَ كريهةٌ جدًّا!

ـ آه، كان ذلك مُروِّعًا. ماذا أقول!!

مكتبة[16.07.20 17:34] ,.@

قال الشرطيّ الآخر وهو يهزّ رأسه:

ـ نعم، حسنًا. اعتبرْ نفسَكَ محظوظًا. فالمقبرة إحدى المناطق التي يُستحسنُ ألّا تعرفَها. الملعونون وحدهم ينتهي بهم المطاف في مقبرة الغرباء. الملعونون فحسب.

مكتبة[16.07.20 17:35] ,.@

- 31 -

الملعونون

على مسافةِ ساعةٍ بالسيَّارة تقريبًا من مركز مدينة إسطنبول، وعلى سواحل البحر الأسود، قريةٌ يونانيَّةٌ عُرِفتْ بصيد الأسماك، تدعى كيليوس. وقد اشتُهِرتْ بشواطئها الرَّمليَّة، وفنادقِها الصَّغيرة، وجروفها الحادَّة، وقلعتِها القروسطيَّة التي لم تنجح قطّ في صدّ أيّ جيشٍ غازٍ. وعلى امتداد قرون، جاء الكثيرون، وذهب الكثيرون، مُخلِّفين وراءهم أغانيَهم وصلواتِهم ولعناتِهم: البيزنطيُّون، والصليبيُّون، والقراصنة، والعثمانيُّون، والقوقازيّون، وشعبُ جَنَوة، ثمَّ الرُّوس وإنْ لمدّةٍ قصيرةٍ من الزمان.

لا أحد يتذكَّر شيئًا من هؤلاء اليوم. فالرِّمال التي مَنحتِ المنطقةَ اسمَها اليونانيّ ـ كيليا ـ مَحَتْ كلَّ شيء، وجعلت النسيانَ الرَّقيقَ يحلّ محلَّ آثار الماضي. اليوم، أضحت البقعةُ الساحليَّة برمَّتها منطقةً شعبيَّةً لقضاء الإجازات، إذ يقصدها السُّيَّاحُ والمغتربون وأهلُ المنطقة أنفسُهم. إنَّها منطقةٌ تحتشد بالتناقضات: شواطئ عامَّة وخاصَّة، ونساء بثياب السباحة ونساء محجَّبات، وأُسَر جاءت للنزهة تجلس على بطَّانيَّات، وراكبو درَّاجات يمرّون من

أمامها، وصفوفٌ من قصور فخمة متكدِّسة قبالةَ مساكنَ رخيصةٍ الكلفة، وبقاعٌ كثيفةٌ بأشجار الجوز والصنوبر والزَّان، ومواقفُ سيَّارات مصنوعةٌ من الخرسانة.

كان البحرُ هائجًا إلى حدٍّ كبيرٍ في كيليوس. جَيَشانُ الأمواج وتلاطُمُها يُغْرِقان بضعةَ أشخاصٍ سنويًّا، ثمّ ينتشلهم خَفَرُ السواحل من المياه مستخدمين الزوارقَ المطَّاطيَّة. ويستحيل القول إنْ كان الضحايا سبحوا خارج نطاق عوّامات إرشاد السفن، واثقين ثقةً متهوّرةً بأنفسهم، أمْ أنَّ التيَّار المائيّ التحتيّ هو الذي جذبهم إلى أحضانه مثلَ قطعة حلوى. ومن حافة المياه، يشاهد المستمتِعون بالإجازات كلَّ حادثٍ مأساويّ يَظْهر للعيان. وكانوا يحمون عيونَهم من أشعَّة الشمس، وينظرون من خلال مناظيرهم، محدِّقين في اتِّجاهٍ واحد، وكأنَّ سحرًا شلَّهم عن الحركة. وحين يعودون إلى الكلام من جديد، فإنَّهم يتحدّثون على نحوٍ نابضٍ بالحياة، كأنَّهم رفاقٌ شاركوا في مغامرة، وإنْ لبضع دقائق لا أكثر. أخيرًا، يعودون إلى أراجيحهم الشبكيَّة، وإلى التسكُّع تحت أشعّة الشمس. وتلبث

وجوهُهم مدَّةً وجيزةً مشدوهةً، وكأنّهم يُفكّرون في الذهاب إلى مكانٍ آخر . إلى شاطئٍ آخر حيث الرِّمالُ ذهبيَّةٌ أيضًا، والرِّيحُ أهدأُ على الأرجح، والبحرُ أقلُّ جنونًا. لكنّ هذه المنطقة جميلةٌ من عديد النواحي، بما في ذلك الأسعارُ المعقولةُ، والمطاعمُ الجيِّدة، والطقسُ المعتدل، والمناظرُ الخلَّابة التي تحبس الأنفاس، واللَّـه يعلم مدى حاجتهم الماسَّة إلى قسطٍ من الراحة. وعلى الرَّغم من أنَّهم لا يُعلنون عن رأيهم بصوتٍ عالٍ، وربَّما لا يعترفون في قرارة أنفسهم، فإنَّ بعضهم يَنْفرون من الموتى الذين كانوا يملكون من الشجاعة ما يجعلهم يغرقون في مصْيَف سياحيّ، وهو ما يبدو لهم عملًا في منتهى الأنانيّة. لقد كدُّوا واجتهدوا على امتداد السنة، ووفَّروا المالَ، وسيطروا على غضبهم، وحلِموا في لحظات يأسهم بالأيَّام الكسلى تحت أشعَّة الشمس. وهكذا، يبقى المستمتعون بالإجازة. وحين يريدون أن يَنْعموا بالهدوء، تجدهم يغطسون غطسةً واحدة، ويطردون تلك الفكرةَ المؤرِّقة التي تقول إنَّ بعضَ النفوسِ التعسة قد لقيتْ نهايتَها قبل لحظاتٍ في المياه نفسها.

وبين الفينةِ والفينة، ينقلبُ قاربٌ يحتشد بطالبي اللُّجوء في هذه المياه. فتُسْحَبُ جثثُهم من البحر، وتوضع متجاورةً، ويتجمَّع الصحافيُّون لكتابة تقاريرهم. ثمَّ توضع الجثثُ في مَرْكباتٍ مُبرّدةٍ مُخصَّصةٍ لنقل المثلَّجات والأسماك المجمَّدة، وتشقّ طريقَها إلى مقبرةٍ خاصَّة. مقبرةِ الغرباء. أفغان وسوريُّون وعراقيُّون وصوماليُّون وأريتيريُّون وسودانيُّون ونيجيريُّون وليبيُّون وإيرانيُّون وباكستانيُّون يُدفنون بعيدًا جدًّا عن مساقط رؤوسهم، ويوارَوْن الثَّرى عشوائيًّا حيثما توافرَتْ قطعةُ أرض. وكان يحيط بهم من كلّ جانب مواطنون أتراك، كانوا يشعرون أيضًا بأنَّهم غيرُ مرحَّبٍ بهم في وطنهم، مع أنَّهم ليسوا من طالبي اللُّجوء، ولا من المهاجرين غير الموثَّقين. وهكذا، في كيليوس، ثمَّة مدفنٌ لا يعرفه السيَّاحُ، ولا العديدُ من أهالي المنطقة. وهو مَدفَن مُميَّز من حيث إنَّه مُخصَّصٌ لثلاثة أنماطٍ من الموتى: غيرِ المرغوب فيهم، والتافهين، والمجهولي الهويّة.

هذه هي أغربُ مقبرةٍ في إسطنبول، وهي مغطَّاةٌ بأشجار المريميَّة ونباتات القرّاص الشائكة الوبر والقنطريُون الأسود، ومحاطةٌ بسياجٍ خشبيّ، بعضُ أوتاده مفقود، وأسلاكُه متهدِّلة. زوَّارها قلائل، إنْ كان ثمَّة مَن

مكتبة[16.07.20 17:35] ,.@

يزورها أصلًا. بل إنَّ لصوصَ القبور، المحنّكين، العريقين في لصوصيَّتهم، كانوا يبتعدون عنها، خشيةَ لعنة الملعونين. لقد كان إقلاقُ راحة الموتى مُرعِبًا ومحفوفًا بالخطر؛ وأمَّا إقلاقُ راحة الملعونين الموتى، فيمثِّل دعوةً مفتوحةً إلى الكارثة.

كان كلُّ المدفونين في مقبرةِ الغرباء تقريبًا منبوذين أو طُرَداء. وكان الكثيرون منهم قد تحاشتهم أُسرُهم، أو نأتْ عنهم قراهم أو مجتمعاتُهم على وجه العموم. وكانوا مدمنين السطوَ والكحولَ والقمارَ. وكانوا مجرمين تافهين عديمي الشأن، ينامون في

الشوارع، ومن الهاربين والملفوظين من المجتمع، ومن المفقودين والمخبولين والمتشرّدِين والمعاتيه، ومن الأمّهات غير المتزوِّجات، والمومسات، وسماسرةِ الفواحش، والمتحوِّلات جنسيًّا، والمُصابين والمصابات بمرض الإيدز، ومن غير المرغوب فيهم، والمنبوذين اجتماعيًّا، والمنبوذين ثقافيًّا.

ومن بين المقيمين في المقبرة، قَتَلَةٌ بدمٍ بارد، وسفَّاحون، وانتحاريُّون، ومغتصِبون ، ومعهم ـ ويا لَلْعجب ـ ضحاياهم الأبرياء؛ الطالح والصالح، والقاسي والرَّحيم، وقد طُمِروا ستَّ أقدامٍ تحت الأرض، متجاورين صفًّا صفًّا، في مكانٍ موحشٍ ومهجور. ولم يكن لمعظمهم ولو أبسط نوعٍ من شواهد القبور، ولا أيُّ اسمٍ أو تاريخ ميلاد، وإنَّما لوحٌ خشبيٌّ خشن الملمس ثُبِّت عليه رقم؛ وفي بعض الأحيان، تجد اللَّوحَ خاليًا من هذا الرَّقم نفسه، وترى عوَضًا منه قطعةً معدنيَّةً صدئة. وفي مكانٍ ما في هذه الفوضى الفظيعة، ومن بين المئات والمئات من القبور التي لا يَسْهر أحدٌ على خدمتها ، ثمَّة قبرٌ حُفِر حديثًا .

في هذا القبر، دُفِنتْ ليلى التكيلا.

الرَّقم 7053.

***

كان القبر ذو الرقم 7054، الكائنُ إلى يمينها، لكاتب كلمات أغانٍ، وقد أَقدَم على الانتحار. لا يزال الناسُ يُردِّدون أغانيه في كلِّ مكان، من غير أن يعرفوا أنَّ كاتبَ تلك القصائد الغنائيَّة الشَّجيَّة يرقد في قبرٍ منسيّ. هنالك العديد من ضحايا الانتحار في مقبرة الغرباء، وكانوا في الأعمّ الأغلب يتحدَّرون من بلداتٍ وقرًى

صغيرة، رفض أئمَّتُها تشييعَهم، فوافقتْ أُسَرُهم الثكلى ـ بدافع الخزي أو الأسى ـ على دفنهم بعيدًا.

وكان القبر ذو الرقم 7063، الكائنُ شمال قبر ليلى، لقاتلٍ قَتَل زوجتَه في لحظة هَيَجانٍ بسبب الغيرة، ثمَّ توجَّه إلى منزل الرجل الذي كان يرتاب في أنَّ لزوجته علاقةً غراميَّةً به وقتله أيضًا. ولمَّا لم تَعد لديْه سوى رصاصةٍ واحدة، وما من أحدٍ ليستهدفه، فقد سدَّد المسدَّسَ إلى صدغه، لكنَّ الرصاصةَ أخطأته وأصابت جانبَ رأسه، فدخل في غيبوبة، وفقد وعيه، وتوفِّي بعد يوميْن من غير أن يُطالِبَ أحدٌ بجثَّته.

وأمَّا القبر ذو الرقم 7052، جارُ ليلى إلى جهة اليسار، فهو مثوى روحٍ شرّيرةٍ أُخرى: رجل مُتزمّت. وكان قد وطّد العزمَ على دخول نادٍ ليليٍّ، وإطلاقِ النار على كلّ آثمٍ يَرقص ويَشرب. إلَّا أنَّه

لم يتمكَّن من اقتناء الأسلحة، فقرَّر في غمرة إحباطه أن يَصْنع قنبلةً، مستخدمًا قِدْرًا ضغطيَّةً مملوءةً بالمسامير المغمَّسة بسُمِّ الجرذان. كان قد خطَّط كلَّ شيء، وبأدقِّ التفاصيل. غير أنَّه أثناء إعداده هذه الأداةَ المهلِكةَ، انفجر منزلُه، وطار أحدُ المسامير في كلّ الجهات، إلى أن استقرَّ مباشرةً في قلبه. حدثتْ هذه الواقعةُ قبل يوميْن، وها هو الآن في هذا المكان.

أمَّا القبر ذو الرَّقم 7043، وهو جارُ ليلى من جهة الجنوب، فكان لامرأةٍ بوذيَّةٍ تأمُّليَّة (تعتقد أنَّ في مستطاع المرء أن ينفذَ إلى الحقيقة عن طريق التأمُّل) . وهي فريدةُ النوع في المقبرة. كانت في طريقها جوًّا من نيبال إلى نيويورك، لزيارةِ أحفادها، حين شَكَتْ نزيفًا في الدماغ، فهبطت الطائرةُ هبوطًا اضطراريًّا، وتوفِّيتْ في إسطنبول، المدينةِ التي لم تطأْها قدماها من قبل. أرادت أسرتُها حرقَ جثّتها وإعادةَ رمادها إلى نيبال. وبحسب معتقداتهم، فإنَّه ينبغي أن تُضرَم النارُ في المحرقة في المكان الذي لَفظتْ فيه أنفاسَها الأخيرة. غير أنَّ القانون في تركيا لا يَسمح بحرق الجثث.

ولهذا، كان لا بدَّ من دفنها. فدُفنَتْ سريعًا، وفقًّا لتعاليم الشريعة الإسلاميَّة.

مكتبة[16.07.20 17:35] ,.@

لا مقابرَ بوذيّةً في المدينة، بل هنالك مختلفُ المقابر . تاريخيَّة وحديثة، إسلاميَّة (سنّيَّة، وعَلَويَّة، وصفويَّة)، وكاثوليكيَّة، وأرثوذكسيَّة، وأرمنيَّة غريغوريَّة، وأرمنيَّة كاثوليكيَّة، ويهوديَّة . ولكنْ لا مقبرةَ خاصَّةً بالبوذيّة. لذا جيءَ بالجدَّة إلى مقبرةِ الغرباء، وكانت أسرتُها قد وافقتْ على ذلك، ما دامت ترقد في سلامٍ بين الغرباء.

وثمَّة قبورٌ أخرى بجانب قبر ليلى، دُفِن فيها ثوريُّون قضوا رهنَ الاعتقال في معتقلات الشرطة. وكانت السجلَّاتُ الرَّسميَّةُ تشير إلى أنَّ سببَ الوفاة هو الانتحار، وأنَّهم «وُجِدوا في زنزانة مع حبل (أو ربطة عنق، أو ملاءةِ سرير، أو شريطِ حذاء) من حول العنق». إلَّا

أنَّ الكدمات والحروقَ الواضحةَ على الجثث تحكي حكايةً مغايرة، فحواها التعذيبُ الشديدُ في معتقلات الشرطة.

وهناك عددٌ من الثوَّار الأكراد دُفِنوا هنا، بعد أن نُقلوا من الطرف الآخر للبلاد إلى هذه المقبرة. لم ترغب الدولةُ في أن يتحوَّلوا إلى شهداء في أعين السكّان، ولهذا رُزِمت الجثثُ في عناية، وكأنَّها مصنوعةٌ من زجاج، ونُقلتْ.

أمَّا أصغرُ المقيمين سنًّا في المقبرة، فهم من الأطفال المهجورين الذين تُرِكوا في صُرَرٍ ملفوفةٍ ومرميّةٍ في صحون المساجد، أو ساحاتِ اللَّعِبِ المغمورةِ بالشمس، أو دُورِ السينما الخافتة الإضاءة. إلَّا أنَّ المحظوظين من هؤلاء الأطفال أنقذهم عابرو سبيل، أو سُلّموا إلى الشرطة، حيث أطعموهم في شفقةٍ وحنان، وألبسوهم، وسمّوْهم بأسماء مرحةٍ مثل: أمل وبهيجة وسعاد،

نقيضًا لبداياتهم الكئيبة. لكنْ، بين حينٍ وآخر، تجد أطفالًا لم يحالفْهم مثلُ هذا الحظّ؛ فليلةٌ واحدة في برودة العراء كانت تكفي لقتلهم.

المعدَّلُ العامُّ لوفاة الناس في إسطنبول هو خمسة وخمسون ألف وفاةٍ سنويًّا. وكان عددُ الموتى الذين ينتهي بهم المطافُ إلى كيليوس لا يزيد عن مئةٍ وعشرين.

مكتبة[16.07.20 17:36] ,.@

- 32 -

الزوّار

في جوف اللَّيل البهيم، مرَّت شاحنةُ بيك آب شيڤروليه من أمام القلعة العريقة، مُحْدِثةً موجاتٍ جارفةً من التراب، في حين كانت ومضاتُ البرق تُمزّق السماءَ شرائحَ. كانت الشاحنة تندفع إلى أمام هادرةً، تنزلق عجلاتُها فوق حاجزٍ حجريٍّ على الطريق، وتنحرف انحرافًا عنيفًا في اتِّجاه الطبقة البارزةِ من الصخر فوق سطح الأرض، الفاصلة بين اليابسة والبحر. إلَّا أنَّها تمكَّنتْ من العودة إلى الطريق في الثانية الأخيرة. وبعد بضع ياردات، اهتزَّت وتوقَّفتْ. مرّت برهةٌ وجيزةٌ لم يُسمَعْ خلالها أيُّ صوت . لا من داخل المَرْكبة ولا من خارجها. وبدت الريحُ نفسُها وقد تلاشت تمامًا، بعد أن كانت تهبّ هبوبًا عاصفًا منذ أواخر العصر.

فُتِح بابُ السَّائق مُصدرًا صَريرًا، ووثبتْ نوستالجيا نالان خارج السيَّارة، وشعرُها يلمع تحت نور القمر، كأنَّه هالةٌ من نار، وتقدَّمتْ بضعَ خطوات. كانت نظرتُها ثابتةً على المقبرة المترامية الأطراف أمامها، وتفحَّصت المشهدَ في حيطةٍ وحذر. بدت لها المقبرةُ موحشةً وقابضةً للصدر، منفِّرةً، ببوَّاباتها الحديديّة الصدئة،

وصفوفِ القبور المتداعية البالية، والألواحِ الخشبيَّة التي يظنُّها الناسُ علامات، والسياجِ المكسور الذي لا يُوفِّر أدنى حمايةٍ من الأشقياء، وأشجارِ السرو المغضّنة الكثيرة العُقد. كان منظرُ المقبرة كما توقَّعَته تمامًا. فتنشَّقت هواءً ملء رئتيْها، ونظرتْ نظرةً عجلى من فوق كتفها، وأعلنتْ:

. ها قد وصلنا!

في تلك اللَّحظة بالذات، تجرَّأ الركّابُ الأربعةُ المتكدِّسون في المقعد الخلفيّ على الحركة. فارتفعت الرؤوسُ واحدًا تلو الآخر، وتنشَّقت الهواءَ مثل غزلانٍ تتحقَّق من وجود صيَّادين في المنطقة.

كانت حُميراء هوليوود أوّلَ الواقفين. وما إن انتزعتْ نفسَها من الشاحنة، والحقيبةُ على ظهرها، حتّى ربّتتْ على قمَّة رأسها لتتأكَّد من كعكة مؤخّر شعرها التي انتصبتْ بزاويةٍ غريبة.

. آه، يا رب. شعري في حالةٍ يُرثى لها، ولا أستطيع الإحساسَ بوجهي، لقد تجمّد.

. إنَّها الرِّيح، أيَّتها الجبانة. ستهبُّ عاصفةٌ في هذه اللَّيلة، وقد طلبتُ أن تغطّوا رؤوسَكم. لكنْ.. آه، لا أحد يستمع إليَّ!

قالت زينب 122 وهي تخفض جسمَها في صعوبةٍ من الجزء الخلفيّ من الشاحنة:

. هذه ليست الريح، بل قيادتك.

ووثب المُخرِّب على الأرض، وساعد جميلة:

. أتسمِّين هذه قيادةً؟

انتصب شعرُ المخرِّب الخفيف في لفافات، وندم لأنَّه لم يعتمرْ قبَّعةً صوفيَّة. لكنَّ هذا لم يكن شأنًا مهمًّا قياسًا إلى ندمه على موافقته على زيارةِ هذه المنطقة التعيسة في هدأة اللَّيل.

سألتْ زينب 122:

. باللّـه عليكِ، كيف حصلتِ على رخصة القيادة؟

مكتبة[16.07.20 17:36] ,.@

تمتمتْ حُميراء بصوتٍ خفيض:

. لقد ضاجعَتُ المدرِّب.

قطَّبتْ نالان:

. آه، اخرسوا جميعًا. ألم تشاهدوا الطريق؟ شكرًا لي، فعلى الأقلّ، وصلنا في سلامٍ ومعافاة.

قالت حُميراء:

. في سلام!

وقال المُخرِّب:

. ومعافاة!

. أيُّها الأوغاد!

اتَّجهَت نالان إلى مؤخّر الشاحنة بسرعةٍ وعن عمد.

تنهَّدتْ زينب 122 قائلةً:

. هلَّا انتبه الجميع إلى الألفاظ غير المهذَّبة؟ لقد عقدنا اتِّفاقًا: لا زعيق ولا شتائم في المقبرة.

ثمَّ أخرجتْ سبحتَها من جيبها، وبدأتْ تسبِّح. ومرّ بخاطرها هاجسٌ يُخبرها أنَّ المهمَّةَ في هذه اللَّيلة لن تكون سهلة، وأنَّها ستحتاج إلى كلّ المساعدة التي يمكنها الحصولُ عليها من النفوس الطيِّبة.

في تلك الأثناء، جذبتْ نالان بابَ ذيل الشاحنة، وشرعتْ بإخراج الأدوات: عربة يدٍ بعجلةٍ واحدة، ومعزقة حفر، ومعول، ورفش،

ومجرفة، ومصباح، ولفَّة حبال. وضعتها على الأرض، وحكّت رأسَها قائلةً:

. لقد فقدنا الفأسَ.

قالت حُميراء :

. آه، الفأس... ربَّما أسقطتُها من يدي.

. ماذا تعنين بأنَّك ربَّما أسقطتِها من يدك؟ إنَّها فأسٌ، لا منديل!

. لم أتمكَّنْ من إمساكها جيِّدًا. عليكِ توجيهُ اللَّوم إلى نفسك؛ فقد كنتِ تقودين الشاحنةَ كالمعاتيه.

رشقتْها نالان بنظرةٍ باردة لم تنتبهْ إليها تحت جنح الظلام.

. حسنًا، كفى ثرثرة. ولنتحرَّكْ، إذ ليس لديْنا أيُّ متَّسعٍ من الوقت.

ثمَّ أمسكت المجرفةَ والمصباحَ، وأضافت:

. فليأخذْ كلُّ فردٍ أداةً!

مكتبة[16.07.20 17:36] ,.@

سار الباقون وراءها. وفي مكانٍ ما على مبعدة، هرج البحرُ ومرج، واصطدم موجُهُ بالشاطئ صدماتٍ عنيفةً، واستأنفت الريحُ نشاطَها من جديد، حاملةً معها رائحةَ مياه البحر. وفي مؤخّر المشهد، مكثَت القلعةُ القديمةُ صابرةً . كعهدها على مدى عقودٍ من الزمان . ولاح ظلُّ حيوانٍ يهرع أمام بوّاباتها، ربَّما كان جُرذًا أو قنفذًا يبحث عن ملاذٍ يحتمي به قبل هبوب العاصفة. دفعوا بوّابةَ المقبرة في هدوء، ودخلوا. خمسة متطفِّلين، خمسةُ أصدقاء يبحثون عن الشخص الذي فقدوه. ولاح القمرُ منسجمًا مع مهمَّتهم، فتوارى عن الأنظار خلف سحابة، تاركًا المشهدَ كلَّه يغرق في ظِلالٍ سُود. وفي

لحظةٍ عابرةٍ، كان ممكنًا أن يكون هذا الموقعُ المستوحدُ أيّ مكانٍ في العالم.

مكتبة[16.07.20 17:37] ,.@

- 33 -

اللَّيل

ليلُ المقبرةِ لا يشبه ليلَ المدينة. ففي المقبرة، ليس الظلامُ غيابَ النور بقدْرِ ما يعني حضورًا طاغيًا في حدِّ ذاته: هو كائنٌ حيّ يتنفَّس، يلحق بهم مثلَ حيوانٍ فضوليٍّ، أكان يريد تحذيرَهم من الخطر الكامن أمامهم، أمْ ليدفعهم دفعةً عنيفةً إليه حين تحين اللَّحظةُ المناسبةُ. وهذا ما لا يستطيعون معرفتَه.

تقدَّموا بعكس اتِّجاه الريح العاتية. في البدء، كانوا يمشون مشْيًا خفيفًا، ورشيقًا وسريعًا، بتوْقٍ أطلق شرارتَه عدمُ ارتياحهم، إنْ لم يكن خوفُهم الواضح، فساروا واحدًا تلو الآخر: نالان في المقدِّمة، المعولُ في يد، والمصباحُ في اليد الأخرى؛ ومن ورائها جميلة والمخرِّب، وأدواتُهما بأيديهما؛ ثمَّ حُميراء التي كانت تدفع عربةَ اليد الفارغة. أمَّا زينب 122، فسارت في المؤخّرة، ليس لأنَّ ساقيْها أقصرُ من سيقان الآخرين فحسب، بل لأنَّها كانت كذلك منشغلةً في رشّ الملح وبذور الخشخاش لطرد الأرواح الشرِّيرة.

انبعثتْ رائحةٌ لاذعةٌ من الأرض: أرض رطبة، وصخر مبلَّل، وشوْك برّيّ، وأوراقُ شجرٍ عفنة، وأشياء أخرى لم يرغبوا في ذكرها. رائحة عفنٍ ثقيلة. ورأوْا صخورًا وجذوعَ أشجارٍ مغطَّاة بالطحالب الخضر، قشورُها الشبيهة بالأوراق لامعةٌ وشجيَّةٌ من تحت الظلام. وفي بعض الأماكن، ثمَّة ضبابٌ عاجيٌّ يخيِّم أمام أعينهم. وتناهى إلى سمعهم مرَّةً صوتُ حفيفٍ، خُيِّل إليهم أنَّه صادرٌ من تحت

الأرض، فتوقَّفتْ نالان وحرَّكتْ مصباحَها حولها. وعندئذٍ، أدركَت المجموعةُ اتِّساعَ المقبرة وحجمَ المهمَّة.

لبثوا سائرين في دربٍ واحد أطولَ مدَّةٍ ممكنة، لا يغيِّر من وجهتهم ضيقُ السَّطح أو انزلاقُه، إذ يبدو وكأنَّه يسير بهم في الطريق الصَّحيح. لكنْ سرعان ما تلاشى الدربُ ليجدوا أنفسَهم وهم يَرْتَقون تلًّا، بلا أيِّ أثر لطريقٍ وسط القبور، التي كان عددُها بالمئات، ومعظمُها مؤشَّر بلوحاتٍ تحمل أرقامًا، وإنْ كان بعضُ القبور بلا لوحات. بدوا كالأشباح تحت ضوء القمر الشاحب!

في طريقهم، مرُّوا ببضعة قبور مميَّزة بألواح حجر الكلس. وذات مرَّةٍ، قرأوا على أحد الألواح:

لا تحسَبْ أبدًا أنّك حيٌّ وأنّي ميِّت؛ فلا شيء يبدو كما هو عليه في هذه الأرض المنسيَّة. (ي.ف(

قال المخرِّب ويدُه تقبض على المجرفة:

. يكفي إلى هُنا. سأعود من حيث أتيت.

أزالت نالان قطعةَ علَّيقٍ من كمِّها، وقالت:

. لا تكن غبيًّا، فهذه ليست سوى قصيدةٍ سخيفة.

. قصيدة سخيفة؟ هذا الرجل يُهدِّدنا.

. أنتَ لا تدري إنْ كان رجلًا أمْ لا، فليس هناك سوى حرفيْن أوَّليْن من الاسم.

هزَّ المُخرِّبُ رأسَه، وقال:

. لا يهمّ. الجثّة المدفونة هُنا تُحذِّرنا من المُضيّ قُدمًا.

تمتمتْ حُميراء:

مكتبة[16.07.20 17:37] ,.@

. كما يحدث في الأفلام السينمائيَّة.

أومأ المخرِّبُ رأسَه، ومضى يقول:

. نعم، حين تأتي مجموعةٌ من الزوَّار إلى بيتٍ مسكونٍ بالأشباح في الهزيع الأخير من اللَّيل، فإنَّهم يَلْقَون حتفَهم جميعًا! أتعرفين ما الذي يفكِّر فيه جمهورُ السينما؟ إنّهم يقولون: حسنًا، لقد كانوا يعلمون ماذا ينتظرهم! وهذا ما ستقوله الصحفُ عنّا في صباح الغد.

قالت نالان:

. إنَّ صحفَ صباح الغد قد دخلت المطبعةَ منذ مدَّة.

حاول المخرِّبُ أن يبتسم، ويقول:

ـ آه، عظيم إذًا.

مرّت لحظةٌ قصيرةٌ شعروا فيها كأنَّهم في شقَّة ليلى في شارع هيري كافكا؛ حيثُ الأصدقاء الستّة يثرثرون ويناكدون بعضهم بعضًا، وأصواتُهم ترنّ رنينَ أجراسٍ زجاجيَّةٍ.

***

وميضُ برقٍ آخر، قريبٌ هذه المرَّة على نحوٍ جعل الأرضَ تتوهَّج وكأنَّها مُضاءةٌ من الأسفل. وسرعان ما أعقب وميضَ البرق هزيمُ الرَّعد. وقف المُخرِّب وأخرج من جيبه كيسَ تبغ، ولفَّ لنفسه سيجارةَ ماريغوانا، ولكنَّه بذل جهودًا جبَّارةً لإشعالها بالكبريت، إذ

كانت الرِّيحُ شديدةً جدًّا. بيْد أنَّه أفلح أخيرًا في إشعالها، وغبّ نَفَسًا عميقًا.

سألته نالان:

. ماذا تفعل؟

. أُريحُ أعصابي؛ أعصابي المسكينةَ والضعيفة. سوف أُصاب بنوبةٍ قلبيَّة في هذا المكان! لقد توفِّي أقرباءُ أبي قبل أن يتجاوز أيٌّ منهم الثالثةَ والأربعين. كما أنَّ والدي أصيب بنوبةٍ قلبيَّة وهو في الثانية والأربعين. خمّنوا كم هو عمري؟ أقسمُ باللَّه أنَّ وجودي هنا يُعرِّض صحَّتي للخطر.

قالت نالان عاقدةً حاجبيْها:

. باللّـه عليك، ماذا سنستفيد منكَ إنْ تخدَّرتَ؟ ثم إنَّ من الممكن مشاهدةَ السيجارةِ من على بُعدِ أميال. لماذا تظنّ أنَّه يُحظَّر على الجنود التدخينُ في جبهات القتال؟

. يا اللّـه، نحن لسنا في حالة حرب! ثمَّ ماذا عن مصباحك اليدويّ؟ هل في وسع العدوّ رؤيةُ طرف سيجارتي ولا يستطيع رؤيةَ عمود مصباحك المتوهِّج؟

قالت نالان:

. إنَّني أوجِّه المصباحَ ناحيةَ الأرض.

ثمَّ وجَّهتْ نورَ المصباح على أحد القبور القريبة لتوضيح كلامها، فطار خفَّاشٌ منزعجًا، مرفرفًا بجناحيْه فوق رؤوسهم.

مكتبة[16.07.20 17:37] ,.@

أطفأ المخُرِّبُ سيجارتَه، وقال:

. لا بأس. سعيدة الآن؟

ساروا في مساراتٍ ملتوية حول ألواحٍ خشبيَّة وأشجارٍ كثيرة العُقَد، يتفصَّدون عرقًا على الرَّغم من برودة الجوّ، متوتِّرين مثل زوَّار غير مرغوبٍ فيهم، وهذا ما كانوا عليه في الواقع. كانت الأعشاب والنباتات تلامس سيقانَهم، وأوراقُ الخريف تنسحق تحت أقدامهم.

انغرس حذاءُ نالان الثقيل في جذر شجرة، فتمايلتْ كي تستعيد توازنَها، وقالت:

. أوه، شِت !

حذَّرتها زينب 122 بالقول:

. لا ألفاظَ نابية! قد يسمعُكِ الجنُّ الذين يعيشون في أنفاقٍ تحت القبور.

قالت حُميراء:

. ربَّما الوقت غير مناسب لإخبارنا.

قالت زينب 122 وهي ترنو إليها بحزن:

. أنا لا أحاول إثارةَ خوفك. هل تعرفين ما عليكِ فعلُه إنْ رأيتِ جنِّيًّا؟ لا تخافي: هذه هي القاعدة الأولى. ولا تهربي: وهذه هي القاعدة الثانية، فهُم أسرعُ منك. أمّا القاعدة الثالثة فهي: لا تَسْخري منهم، فمزاجُهم أسوأ مزاج.

قالت نالان:

. لا أستطيع أن أقول هذا.

سألت جميلة:

. هل هناك قاعدة رابعة؟

. نعم. لا تسمحي لهم بأن يمارسوا السِّحرَ عليك، فالجنّ أساتذة في التنكُّر.

نخرتْ نالان، ثمَّ قالت:

. آسفة.

لكنَّ زينب 122 استرسلتْ في إلحاحها:

. صحيح. لو قرأتِ القرآنَ لعرفتِ. ففي مستطاعِ الجنّ أن يَظْهروا بأيِّ شكلٍ يريدونه: إنسان، حيوان، نبات، جماد... أترين تلك الشجرة؟ أنتِ تعتقدين أنَّها شجرة، لكنْ من الممكن أن تكون روحًا.

اختلس كلٌّ من المُخرِّب وحُميراء وجميلة نظراتٍ خاطفةً إلى شجرة الزان المقصودة، فبدت معمّرةً واعتيادية

مكتبة[16.07.20 17:38] ,.@

جذعُها كثير العُقَد، أغصانُها تبدو بلا حياة مثل جثثٍ تحت الأرض. لكنْ بعد أن حدّقوا إليها عن كثب، شعروا بأنّها ربّما كانت تُفرِز طاقةً خارقة؛ عبيرًا غيرَ أرضيٍّ.

خفضتْ نالان سُرعتها، واختلستْ نظرةً إلى الوراء من فوق كتفها بعد أن كانت تواصل السَّير من غير اضطراب، وقالت:

- كفى! توقَّفي عن إثارةِ الرعب!

ردَّت زينب 122 مُتحدِّيةً:

- إنَّني أحاول المساعدة.

أرادت نالان أن تقول: «لو كان كلُّ الهراء صحيحًا، فما سبب تحميل الناس معلوماتٍ لا يعرفون ما يفعلون بها؟» إلَّا أنَّها امتنعتْ ولم تقل شيئًا. ففي رأيها أنَّ البشر يُشْبهون طيورَ الشاهين التي تملك القوَّةَ والقدرةَ على التَّحليق، حرَّةً وبالغةَ الرقَّة، إلَّا أنَّها في أحيانٍ أخرى تقبلُ بالأسْر، طوعًا أو كرهًا.

في الأناضول، سبق لنالان أن رأت عن قربٍ كيف تتربَّع البزاةُ على أكتاف مربّيِها أو مدرِّبيها، البزادرة، تنتظر بطاعةٍ عمياءَ الوجبةَ المقبلةَ أو الأمرَ التالي. إنّ صافرةَ البازدار هي النداء الذي يُنهي الحريَّة. كما لاحظتْ كيف كان البرقعُ يُوضَع على هذه الكواسر النبيلة للتأكُّد من عدم إصابتها بالذعر؛ فالرؤية تعني المعرفةَ، والمعرفةُ مُخيفةٌ. وكان كلّ مُدرِّبٍ أو مربٍّ يعلم أنَّه كلّما ضاقَت رؤيةُ الباز ازداد هدوؤه.

لكنْ من تحت هذا البرقع الذي تنعدم فيه الاتِّجاهات، وتمتزج الأرضُ بالسماء لتصبح عباءةً من الكتّان الأسود، ولو مريحةً، فإنَّ الطائر سيظلّ يشعر بالتوتُّر، كأنَّه يستعدّ لتلقِّي ضربةٍ قد تُسدَّد إليه في أيِّ لحظة.

والآن، بعد مرور سنوات، ظهَرَ الدِّينُ في نظر نالان . وكذلك السُّلطةُ والمالُ والإيديولوجيا والسياسة . وكأنَّه يؤدِّي عملَ هذا البرقع أيضًا. فكلّ هذه الخرافات والتنبُّؤات والمعتقدات قد حرَمَتْ أبناءَ الجنس البشريّ الرؤيةَ، وجعلتهم تحت السيطرة، كما أضعفَتْ في أعماقهم احترامَهم الذاتيَّ، على نحوٍ يدفعهم اليوم إلى الخوف من أيّ شي؛ من كلّ شيء.

لكنَّ هذا لن ينطبقَ عليها. وإذ ثبَّتتْ نظرتَها على نسيج عنكبوتٍ يلمع تحت ضوء المصباح اليدويّ لمعانَ الزئبق، فقد ردَّدتْ في سِرِّها أنَّها لا تؤمن بشيء، لا الدِّين ولا الإيديولوجيا. وأنَّها . نوستالجيا نالان . لن تَعْصب عينيْها أبدًا.

مكتبة[16.07.20 17:38] ,.@

- 34 -

ڤودكا

توقَّف الأصدقاءُ قليلًا عند الوصول إلى منعطفٍ يبدأ فيه الدَّربُ باتِّجاهٍ جديد. في هذا المكان، بدت أرقامُ القبور اعتباطيَّةً وغيرَ مُتسلسلة. فقرأتْ نوستالجيا نالان على ضوء مصباحها اليدويّ بصوتٍ عال:

- 7040، 7024، 7048...

ثمَّ عقدتْ حاجبيْها وكأنَّ شخصًا ما يَسْخر منها. فهي لم تكن تُتقن الرياضيَّات، ولا تجيد أيَّ مادَّةٍ أُخرى. ولا تزال إلى اليوم تَحْلم بالعودة إلى المدرسة، فترى نفسَها صبيًّا صغيرًا يرتدي زيًّا مدرسيًّا قبيحًا، وشعرُه قصير جدًّا، ويضربه المعلِّم أمام تلاميذ الصفّ كلِّهم بسبب ضعفه في مادّتَي التهجئة والنحو. في تلك المرحلة من عمرها، لم يكن مصطلحُ «عسْر القراءة» قد عرف طريقَه إلى معجم الحياة اليوميَّة في القرية، ولم يُظهِر المعلِّمُ أو مديرُ المدرسة ذرّةَ عطفٍ على نالان.

سألتْ زينب 122:

. أأنتِ على ما يُرام؟

قالت نالان مستعيدةً رباطةَ جأشها:

. بالتأكيد!

تمتمتْ حُميراء:

. هذه العلامات غايةٌ في الغرابة. أيّ طريقٍ سوف نسلك الآن؟

أجابت نالان:

ـ لماذا لا تبقون جميعًا في هذا المكان، وسأذهب أنا وأتحقَّق؟

قالت جميلة منشغلةَ البال:

ـ ربَّما ينبغي أن يرافقَكِ أحدُنا.

لوَّحتْ نالان بيدها، إذ كانت بحاجة إلى أن تكون بمفردها لبرهةٍ وجيزةٍ كي تستجمعَ أفكارَها. ثمَّ أخرجتْ من سترتها بطحةً، وجرعتْ مقدارًا كبيرًا لتبعثَ القوَّة في أوصالها، وبعد ذلك قدَّمتْها إلى حميراء . وكانت الوحيدةَ بينهم التي يمكن أن تشرب الخمرَ أيضًا . وقالت لها:

. جرِّبيه، ولكنْ على مهل.

ثمَّ توارت عن الأنظار.

وهكذا، بقي الأربعةُ تحت جنح الظلام من غير مصباحٍ يدويّ، بينما كان القمر يتوارى بين لحظةٍ وأخرى من وراء سحابة. فاقتربوا بعضهم من بعض متراصّين.

مكتبة[16.07.20 17:39] ,.@

تمتمتْ حُميراء:

. تدركون الآن أنَّ الأمور تبدأ على هذا النَّحو؛ أعني في الأفلام السينمائيَّة. فأحدُ أفراد المجموعة يترك الآخرين، ثمّ يلقى مصرعَه على نحوٍ مريع. ولا تَحْدث عمليَّةُ القتل إلَّا على بُعد بضع ياردات من أفراد المجموعة، ولكنَّهم لا يعرفون شيئًا عنها بطبيعة الحال. ثمَّ يذهب فردٌ آخر من المجموعة ويلقى المصيرَ نفسَه...

قالت زينب 122:

. اطمئنِّي! فإنّنا لن نموت.

أمَّا حُميراء، وعلى الرَّغم من الحبوب المسكِّنة التي تناولتْها، فقد ازدادت توتُّرًا وعصبيَّةً. وازدادت حالةُ المُخرِّب سوءًا، وقال:

. هذا الشراب الذي أعطتكِ إيَّاه... لِمَ لا نرشفُ رشفةً منه؟

تردَّدتْ حُميراء، وقالت:

. أنت تعلم أنَّ كارثةً تقع حين تشرب.

. لكنَّ هذا يحدث في الأيَّام الاعتياديَّة. أمَّا هنا، فنحن في حالة طوارئ. لقد أخبرتُكُنّ، يا فتيات، عن الرجال في أُسرتي. إنَّني لا أخشى هذا المكانَ بعينه، بل إنَّ الموت هو الذي يُجمِّد الدمَ في عروقي.

من باب المساعدة، اقترحتْ جميلة عليه أن يُدخّن سيجارة ماريغوانا. فأجابها:

- لم يَبقَ لديَّ أيٌّ من هذه السجائر. كيف سأمشي وأنا في هذه الحالة؟ أو أحفر قبرًا؟

تبادلتْ حُميراء وزينب 122 نظرةً سريعة. أمَّا جميلة، فهزَّت كتفيْها.

قالت حُميراء:

- لا بأس. بصراحة، أنا شخصيًّا بحاجة إلى رشفة .

جذب المُخرّبُ البطحةَ منها، وكرع جرعةً كبيرةِ. ثمَّ أعقبها بجرعةٍ أُخرى.

قالت حُميراء:

. هذا يكفي.

ثمّ أخذتْ بدورها جرعةً كبيرةً، وشعرتْ أنَّ سهمًا ناريًّا قد اخترق بلعومَها. فقطَّبتْ جبينَها، وأردفتْ:

. ماذا... ما هذا؟!

قال المُخرِّب:

. لا أدري، ولكنَّه يُعجبني.

ثمَّ انتزع البطحةَ لاحتساء جرعةٍ سريعة أُخرى، فشعر باللَّذة؛ وفي غمضة عين، كرع كمِّيَّةً أُخرى. فما كان من

مكتبة[16.07.20 17:39] ,.@

حُميراء إلَّا أن خطفت البطحةَ من يده، وأحكمتْ إغلاقَها، وهي تقول:

. هيه، كفى! هذا الشراب مُركَّز جدًّا. وأنا لم...

طرق أسماعَهم صوتٌ من بين الظِّلال:

. حسنًا، لنذهبْ! الطريقُ من هنا.

ها هي نالان قد عادت أدراجَها.

قالت حُميراء وهي تتَّجه نحوها:

ـ هاك شرابكِ. أيّ نوع من السموم هذا؟

ـ آه، هل جرَّبتِهِ؟ إنَّه شرابٌ خاصّ، يطلقون عليه اسمَ «الكحول النبيلة». إنَّه شراب الڤودكا البولنديَّة ـ أو الأوكرانيَّة أو الروسيَّة أو السلوفاكيَّة. نحنُ نتشاجر عمَّن اخترع البقلاوة، الأتراك أمِ

اللبنانيُّون أمِ السوريُّون أم اليونانيُّون.... وهؤلاء السلافيُّون يخوضون حروبَهم حول مَنِ اخترع الڤودكا!

تساءلتْ حُميراء مُعبِّرةً عن شكوكها:

. أهذه ڤودكا إذًا؟

ابتسمتْ نالان مبتهجةً، وهي تقول:

ـ من غير ريْب. لكنْ لا ڤودكا أُخرى تُضاهيها، بنسبة كحولٍ تعادل سبعةً وتسعين بالمئة. مشروب فعَّال وعمليّ. فأطبَّاء الأسنان يصفونها لمرضاهم قبل أن يَخْلعوا لهم سنًّا؛ ويستخدمها الأطبَّاءُ في الجراحة؛ ووصل الأمر إلى أن تُنتج المصانعُ العطورَ منها. أمَّا في بولندا، فالناس يشربونها في الجنازات ـ نخبًا للموتى. لهذا، فكَّرتُ أنَّها قد تكون مناسِبة.

قالت زينب 122 وهي تهزُّ رأسها:

ـ لقد أحضرتِ ڤودكا قاتلةً إلى المقبرة؟

أجابت نالان، وهي تشعر بالإساءة:

ـ حسنًا، أنا لم أتوقَّع أن تُعجِبَكِ.

سألتْ جميلة محاولةً تغييرَ دفَّة الحديث وإنهاءَ التوتُّر:

ـ هل تمكَّنتِ من العثور على قبر ليلى؟

ـ نعم، نعم، إنَّه في الجهة الأخرى. هل الجميع مستعدّ؟

لم تنتظر نوستالجيا نالان أيَّ جواب، بل أشارت بمصباحها اليدويّ إلى دربٍ يقع إلى جهة الشمال، وسارت فيه؛ إلَّا أنَّها أخفقتْ في رؤية الابتسامة الغريبة التي هبطتْ على وجه المُخرِّب، وكذلك النظرة التي استقرَّت في عينيْه.

مكتبة[16.07.20 17:41] ,.@

- 35 -

الخطأ من الإنسان

وأخيرًا، أفلحت المجموعةُ في الوصول. مالت الأجسادُ بعضها فوق بعض، وحدّقَت العيونُ إلى قبرٍ مُحدّد، وكأنَّه أحجيةٌ يتعيّنُ أن تُفكَّ رموزُها. وشأن بقيَّة القبور، كان لهذا القبر رقمٌ خاصٌّ به لا

أكثر. ولم يكن منقوشًا على شاهدتِهِ اسمُ التكيلا ولا اسمُ ليلى، لأنَّه لم يكن مُزوَّدًا بأيِّ شاهدةٍ أصلًا، ولا بأيِّ مساحةٍ صغيرةٍ معتنًى بها تحيط الزهورُ بحافّاتها، بل كلّ ما كان فوقَه لوحٌ خشبيّ، بخربشةِ أحدِ عمَّال المقبرة.

زحفَتْ سحليَّةٌ بسرعة من تحت صخرة بعد أن أثار وجودُهم اضطرابَها، وأخذت تفتِّش عن ملاذٍ قبل أن تتوارى عن الأنظار بين مجموعةٍ متشابكةٍ من الأشجار أمامها. سألتْ حُميراء بصوتٍ خفيضٍ أقرب إلى الهمس:

ـ أهذا هو المكان الذي دُفِنتْ فيه ليلى؟

قالت نالان واقفةً وقفةً حادَّةً وهادئةً:

. نعم، فلنحفرْ.

رفعتْ زينب 122 يدَها معترضة:

. ليس بهذه السرعة. ينبغي أن ندعوَ لها أوَّلًا، إذ لا يمكن نبشُ قبر ميّتٍ وإخراجُه من غير طقسٍ مناسب.

قالت نالان:

. حسنًا. باختصارٍ رجاءً، إذ يجب أن نسرع.

أخرجتْ زينب 122 قارورةً من حقيبتها، ورشَّت حول القبر ما فيها من خليطٍ كانت قد أعدَّته في وقتٍ مبكِّر: ملح صخريّ، وماء ورد، وعجينة خشب الصندل، وبذور هال، وكافور. ثمَّ أغمضتْ عينيْها، ورفعتْ كفَّيْها إلى أعلى، وبدأتْ بقراءة الفاتحة. انضمَّت إليها حُميراء، في حين جلس المُخرِّب قبل أن يقرأ دعاءه إذ شعر بالدُّوار. أمَّا جميلة، فرسمتْ إشارةَ الصليب ثلاثَ مرَّات تضرُّعًا وابتهالًا، وكانت شفتاها تتحرَّكان حركةً صامتة.

كان الصَّمت الذي أعقب ذلك مُفعمًا بالحزن والأسى.

قالت نالان:

. حسنًا، حان الوقتُ كي نبدأ.

استخدمتْ نالان كلَّ وزنها، ودفعت المجرفةَ عميقًا في التربة، ضاغطةً بكلّ ما أوتيتْ من قوَّة على حافَّتها بحذائها الثقيل. كان القلق قد ساورها من أن تتجمَّد الأرض، إلَّا أنَّها كانت طريّةً ورطبةً، فأسرعت في العمل، وراحت تتحرَّك حركاتٍ إيقاعيَّة. وسرعان ما أحاطت بها رائحةُ التربة المألوفة والمريحة.

فجأةً، ومضَتْ صورةٌ في ذهن نالان، وتذكَّرتْ أوَّل مرَّةٍ رأت فيها ليلى. لم تكن سوى مجرّدِ وجهٍ من الوجوه، وراء إحدى نوافذ الماخور، أنفاسُها تكسو الزجاجَ بطبقةٍ من الضباب. وكانت تتحرّكُ بلطفٍ وكياسةٍ يكادان أن يُناقِضا محيطها. كانت ليلى بشعرها المنسدل على كتفيْها، وعينيْها الواسعتيْن السَّوداويْن المُعبِّرتيْن، تشبه تمامًا المرأةَ على قطعة النقد المعدنيَّة التي عثرتْ عليها نالان ذاتَ يومٍ أثناء حراثة الحقول. كانت ملامحُها، شأن تلك الأمبراطورة البيزنطيَّة، توحي بقدرٍ من المراوغة والتضليل، متحدِّيةً بذلك الزمانَ والمكانَ. وتذكَّرتْ كيف كانتا تلتقيان في دكَّان لبيع

مكتبة[16.07.20 17:42] ,.@

البورَك، وكيف كانت إحداهما تثق بالأُخرى، وتُفضي بأسرارها إليها .

وفي يومٍ من الأيَّام، طرحتْ ليلى سؤالًا مفاجئًا:

. هل فكَّرتِ يومًا ماذا حدث لعروسِكِ الصَّغيرة التي تركتِها في تلك الغرفة وحيدةً؟

. حسنًا، أنا متأكِّدة من أنَّها تزوَّجتْ بشخصٍ آخر، ولا بدَّ أنَّها رُزقتِ الآن بجيشٍ من الأطفال.

. ليس هذا موضوعَنا. لقد أرسلتْ إليَّ بطاقاتٍ بريديَّة أليس كذلك؟ ينبغي أن تكتبي رسالةً إليها. اشرحي لها ما حدث، واعتذري.

. أأنتِ جادَّة؟ لقد أرغموني على أن أتزوَّج زواجًا زائفًا كان من شأنه أن يُدمِّرني. ولم أهربْ سوى لأنقذ حياتي. أكنتِ تُفضِّلين لو بقيتُ هناك، وعشتُ أكذوبةً طوال عمري؟

. لا، أبدًا. يتعيَّن أن نبذلَ كلَّ ما في وسعنا لإصلاح حياتنا، وهذا ما ندين به لأنفسنا. لكنْ ينبغي الحذر، لئلّا ندمِّر الآخرين في سبيل ذلك.

. آه، يا رب!

نظرتْ ليلى تلك النظرةَ المعهودةَ التي تنطوي على صبرٍ ومعرفة.

رفعتْ نالان يديْها إلى أعلى قائلة:

. حسنًا، لا بأس... سأكتب إلى تلك الزوجة العزيزة.

. وعد؟

واصلتْ نالان الحفرَ في قبر ليلى، أفكارُها تومض لاإراديًّا إلى ذلك الحديث المنسيّ منذ زمنٍ بعيد. وتناهى إلى سمعها صوتُ ليلى يتردَّد في رأسها. كما تذكَّرتْ أنَّها لم تكتبْ قطّ تلك الرِّسالةَ الموعودة.

***

وقف المُخرِّب على حافَّة القبر، يراقب نالان في دهشةٍ تمتزج بالإعجاب، إذ لم يكن يومًا ما عاملًا يدويًّا جيِّدًا. فكلَّما احتاج في البيت إلى تركيب صنبور مياه أو تثبيت رفّ، طلبوا المساعدةَ من أحد الجيران. وكان كلُّ أفراد الأسرة يروْن فيه إنسانًا يَغْرق في التَّفكير في موضوعاتٍ مثيرةٍ للسأم والملل، مثل الأرقام وعوائد الضرائب، في حين أنَّه كان يفضِّل أن يعتبر أنَّه يمتلك عقلًا مُبدعًا؛ فنَّانٌ مُهمَل الشأن، أو عالِمٌ لم يقدِّره أحدٌ حقّ قدره؛ موهبةٌ ضائعة.

ولم يُخبر ليلى قطّ شدَّةَ حسده عن د/علي. ما الشيء الآخر الذي لم يُخبرها عنه؟ تسارعت الذكريات في عقله، كلُّ ذكرى قطعةٌ منفصلةٌ ومميَّزة من قطَعٍ أحجية الصور المقطوعة. هكذا، كانت علاقتُه الطويلة الأمد بليلى، صورةً مملوءةً بتصدُّعات لا سبيل إلى ترميمها؛ قِطَعًا مفقودةً.

ازدادت سرعتُه في العمل بفضل الڤودكا الذي تغلغل في جسده، فراح الدمُ يطرقُ قويًّا في أذنيْه، حتّى كاد أن يُغلقهما كيْ يُبعد صوتَ تلك الطرْقات. انتظَر. ولمَّا وجد أنَّ الطَّرْق لم ينتهِ، دفع رأسَه إلى الوراء كأنَّه يأمل بذلك أن يجد عزاءً في السماء. فلاحظ فيها أغربَ شيء، وارتخت ملامحُ وجهه: كان ثمَّة وجهٌ يحدِّق إليه من سطح القمر. وجهٌ مألوف، ويا لَلدهشة! أطبق عينيْه قليلًا حتَّى ضاقتا. إنَّه وجهه هو! شخصٌ ما رسم وجهَه على القمر. ذُهِل المُخرِّب، وأطلق شهقةً تنمّ عن عدم التَّصديق؛ شهقةً قويَّةً وعاليةً مثلَ صوت سماور يُصدر أزيزًا قبل أن يغلي. أطبق شفتيْه وعضّ

على جانب فمه من الداخل، محاولًا السيطرةَ على نفسه، ولكنْ هيهات!

مكتبة[16.07.20 17:42] ,.@

قال متَّقَد الوجنتيْن:

ـ هل رأيتم القمر؟ أنا هناك، في الأعالي!

توقَّفتْ نالان عن الحفر، وقالت:

. ما خطبُه؟

التفتَ المُخرِّب إليها، وقال:

. ما خطبي؟ لا شيء تمامًا. لماذا تعتقدين دومًا أنَّ ثمَّة خطبًا بي؟

جذبتْ نالان نَفَسًا عميقًا وحادًّا، وتركت المجرفةَ تسقط من يدها، وخطَت خطواتٍ طويلةً ناحيته، وأمسكتْ به من كتفيْه، وأنعمت النَّظرَ في بؤبؤيْ عينيْه، ولاحظتْ مدى اتِّساعهما. ثمَّ التفتتْ بعجالةٍ إلى الأُخريات، وقالت:

. هل كرع شيئًا من الشراب؟

ازدردتْ حُميراء ريقَها، وأجابت:

. لم يكن يشعر أنَّه على ما يُرام.

أطبقتْ نالان فكَّيها، وقالت:

. فهمتُ. ماذا شرب بالضبط؟

قالت زينب 122:

. من شرابك... الڤودكا.

. ماذا؟ هل فقدتنَّ عقلكنَّ؟ إنَّني شخصيًّا أتناول ذلك الشيء بحَذَر. مَن ذا الذي سيهتمّ به الآن؟

أجاب المُخرِّب:

. أنا! أنا أستطيع أن أهتمَّ بنفسي.

أمسكتْ نالان المجرفةَ مجدَّدًا، وقالت:

. تأكَّدن من بقائه بعيدًا عنِّي. إنَّني جادَّةٌ في ما أقول!

قالت حُميراء وهي تجذبه نحوها بكلّ رفق:

. تعال، ابقَ بجانبي .

تنهَّد المخرِّبُ تنهيدةً ملؤها سأمٌ مرهق. ها قد استبدَّ به، من جديد، ذلك الشعورُ المألوفُ لديْه أكثر ممَّا ينبغي، شعورٌ بأنَّ أقرب الناس إليه يُسيئون فهمَه. ولم يكن يملك مخزونًا ضخمًا من الكلمات، إلَّا أنَّه توقَّع من الناس الذين يُحبُّهم أن يقرأوه من خلال صمته. فعندما يريد الكلامَ علانيةً، فإنَّه في أغلب الأحيان يُلمِّح إلى الأشياء تلميحًا؛ وعندما يريد الكشفَ عن عواطفه ومشاعره، فإنَّه يُخفيها على نحوٍ أكبر. لعلَّ الموتَ يثير الرُّعبَ في نفس كل

مكتبة[16.07.20 17:43] ,.@

فرد، ولكنَّه يثير رعبًا أكبر في نفس مَن يَعْلم في قرارة نفسه أنَّه عاش حياةً ملؤها الالتزاماتُ والتظاهرُ والتصنُّعُ، حياةً تصنعها حاجاتُ غيرِهِ من الناس ومتطلّباتُهم. والآن، بعد أن بلغ السنَّ التي توفِّي فيها والدُه ـ تاركًا إيَّاه وأمَّه وحدهما من ورائه، في حيٍّ عقليَّةُ أهلِهِ ضيّقةُ التَّفكير، ويَكْثر فيه القيلُ والقالُ في بلدة ثان ـ فإنَّه يَملك الحقَّ في أن يطرح على نفسه سؤالًا عمَّا سيتبقّى منه حين يَرْحل هو أيضًا.

سأل المُخرّبُ وهو يتأرجح على كعبيْه، وكلُّ جسده يترنَّح مثل طوْفٍ على سطح مياهٍ مُتلاطمةِ الأمواج:

ـ ألم يرني أحدٌ آخرُ وأنا على القمر؟

قالت حُميراء :

. صه يا حبيبي.

. لكنْ، هل رأيتِني؟

قالت زينب 122:

ـ نعم، نعم، لقد رأيناكَ.

فقال:

ـ لقد غاب الآن.

ثمَّ خفض عينيْه، ولاح على وجهه الوجومُ، فأضاف :

ـ أفّ! انتهى. أهذا ما يحدث حينما نموت؟

قالت حُميراء:

. أنت هُنا، معنا.

ثمَّ فتحتْ حافظتَها، وسكبت له بعضَ القهوة. رشف بضعَ رشفات، لكنْ لم يبدُ أنَّ حالته تحسَّنتْ، فقال:

. لم أكن صادقًا تمامًا حين قلت إنَّني لا أخشى هذا المكان. إنَّه مكانٌ يقشعرُّ له بدني.

قالت حُميراء بهدوء:

. وأنا أيضًا. كنتُ أشعر بالشجاعة عندما انطلقنا، ولكنَّني لم أعد كذلك الآن. أنا متأكِّدة من أنَّني سأبقى فريسةَ الكوابيس لمدَّة طويلة.

على الرَّغم من إحساس بقيّة المجموعة بالخجل لعدم مساعدتهم نالان، فإنَّهم وقفوا مشلولين جنبًا إلى جنب، يراقبون كُتَل التراب تُجرَف من الأرض، كتلةً تلو أخرى، محطِّمةً القليلَ من النظامِ والسلامِ اللذيْن كانا يعمّان هذا المكانَ الغريب.

***

بعد أن فُتِح القبر، تَلاصَقَ المُخرِّبُ والفتياتُ حول كومة الرمل، لا يملكون الجرأةَ على النَّظر في اتِّجاه الحُفرة

مكتبة[16.07.20 17:43] ,.@

المظلمة. لم يحنِ الوقتُ بعد.

خرجتْ نالان من الحفرة التي حفرتها مبهورةَ الأنفاس، مغطَّاةً بالطين، ثمَّ مسحت العرقَ الذي كان ينزّ من حاجبيْها، من دون أن تدرك أنَّها لطَّختْ جبينَها بالطين، وقالت:

ـ شكرًا على المساعدة، أيُّها الأوغادُ الكسالى.

لم يردَّ أحدٌ عليها، إذ كانوا أشدّ هلعًا من أن يَقْدروا على الكلام. لقد كانت موافقتُهم على هذه الخطَّة الجنونيَّة، والوثوبُ إلى الشاحنة، أشبهَ بمغامرةٍ، ولو أنَّه الأمرُ المناسب الذي ينبغي عملُه من أجل ليلى. أمَّا الآن، وعلى حين غرَّةٍ، فقد تملَّكهم خوفٌ موجعٌ وحقيقيّ. وكانت الوعودُ التي قطعوها بلا تأثير حين واجهوا جثَّةً في منتصف اللَّيل.

قالت نالان وهي تشيرُ بمصباحها اليدويّ إلى أسفل القبر:

ـ هيَّا، لنخرجْها من هنا.

لاحت جذورُ إحدى الشجرات تحت نور المصباح، تتأرجح مثلَ الأفاعي. وفي قعر الحُفرة، استقرَّ الكفنُ الملطَّخُ بكتلٍ من طين.

سألتْ جميلة حين أفلحتْ في الاقتراب وإلقاءِ نظرةٍ إلى قعر القبر:

ـ لكنْ، أين التابوت؟

هزَّت زينب 122 رأسَها، وقالت:

ـ هذا ما يفعله المسيحيُّون. أمَّا في الإسلام، فنحن ندفن موتانا مُكفِّنينَ بكفنٍ بسيطٍ فحسب. فهذا يضعنا جميعًا على قَدَمِ المساواة عند الموت. ماذا يفعل أهلُكِ في بلدك؟

قالت جميلة بصوتٍ آسِر:

ـ لم يسبقْ أن رأيتُ ميّتًا باستثناء أمِّي. كانت مسيحيَّةً، ولكنَّها تحوَّلتْ إلى الإسلام بعد أن تزوَّجتْ. ومع هذا، فثمَّة خلافاتٌ بشأن الجنازة: فقد أراد أبي أن تُدفَن على الطريقة الإسلاميَّة، لكنَّ خالتي أصرَّت على الدفن وفق الطريقة المسيحيَّة. وتشاجر الاثنان شجارًا مرًّا. وازدادت الأمورُ سوءًا.

أومأتْ زينب 122 برأسها، وغمرها حزنٌ شديد. فقد كان الدِّينُ في نظرها مصدرَ أملٍ على الدوام، ومصدرَ حبٍّ وصمود . مِصْعَدًا نقلَها من قاع الظلام إلى نورٍ روحيّ. وأحزنها كثيرًا أن يكون في إمكان هذا المصعد نفسه أن ينقل الآخرين بسهولةٍ إلى القاع.

كانت التعاليمُ التي دفّأتْ فؤادَها، وقرّبتها من كلِّ البشر، بصرف النَّظر عن المذهب أو اللَّون أو القوميَّة، يُمكن أن تُفسَّر على نحوٍ يُفرّق بين البشر ويشوِّشهم، ويَزْرع بذورَ العداوة وسفك الدماء. لو أنَّ اللَّه استدعاها في يومٍ من الأيَّام، وسنحتْ لها فرصةُ الجلوسِ بين يديْه، فإنَّها تحبّ أن تسأله سؤالًا واحدًا وبسيطًا: «لماذا سمحتَ بأن يُساء فهمُكَ إلى هذا الحدّ البعيد، يا إلهي الجميل والرَّحيم؟«

رويدًا رويدًا، جالت ببصرها إلى أسفل، فارتجَّت رجَّةً عنيفةً أخرجتْها من أفكارها بسببِ ما شاهدتْه. وقالت: كان ينبغي أن تكون هناك ألواحٌ خشبيَّةٌ على كفن ليلى. لماذا بقي جسدُها من غير حماية؟؟

قالت نالان وهي تنفض يديْها من التراب:

مكتبة[16.07.20 17:43] ,.@

. أعتقد أنَّ حفَّاري القبر لم يولوا الأمرَ أهمِّيَّةً.

ثمَّ التفتتْ إلى زينب 122، وأضافت:

. حسنًا، اقفزي إلى القبر.

. من؟ أنا؟

. أنا مضطرَّةٌ إلى البقاء هنا وجذبِ الحبل. لا بدَّ من وجود شخصٍ ما في الأسفل، وأنتِ صاحبةُ أصغرِ بدن.

. لكنّني لا أستطيعُ النزولَ إلى أسفل. وإذا نزلتُ، فلن أتمكَّن من الخروج.

فكَّرتْ نالان في هذه النقطة برهةً وجيزة، ونظرتْ نظرةً خاطفة إلى حُميراء: إنَّها بدينةٌ أكثر ممَّا ينبغي. ثمَّ نظرتْ إلى المُخرِّب: إنَّه ثملٌ أكثر من اللَّازم. وأخيرًا رنت إلى جميلة: إنَّها ضعيفة جدًّا. فتنهَّدتْ، وقالت:

. لا بأس، سأنفِّذ ذلك بنفسي. أعتقد أنَّني بقيتُ في الأسفل مدَّةً طويلةً وكافيةً قبل قليل.

وضعتْ مجرفَها جانبًا، واقتربتْ أكثر، وحدَّقتْ من فوق الحافَّة، فتملَّكتْ صدرَها موجةٌ من الحزن. ففي قاع القبر، تَرْقد أفضلُ صديقاتها، المرأةُ التي شاركتْها حياتَها أكثرَ من عقديْن، بما فيها من أوقاتٍ طيِّبة، وأوقاتٍ سيِّئة، وأوقاتٍ فظيعة.

قالت نالان:

. حسنًا، هذا ما سنفعله. سوف أزحف إلى القعر، ثمّ سترمون إليَّ بالحبل، وسأربطُه بدوري حول ليلى. وبعد أن أعدَّ حتّى ثلاثة، ستجذبونها إلى أعلى. مفهوم؟

قالت حُميراء بصوتٍ خشن:

. مفهوم!

قال المُخرِّب:

ـ كيف سنجذب الحبلَ؟ دعيني أُلقي نظرة.

وقبل أن يتمكَّن أيٌّ منهنَّ من إيقافه، اندفع إلى أمام.

تحت تأثير الفودكا القويّ، تورَّدَتْ سحنتُه الشاحبةُ بظلٍّ أحمر، يُذكِّر بقطعة لحمٍ عند جزّار. كان يتفصَّد عرقًا مع أنَّه خلع سترتَه.

مدَّ رأسه إلى أبعد حدٍّ ممكن، وألقى نظرةً بعينيْن نصف مغمضتيْن إلى القبر، فامتَقَعَ وجهُه.

قبل بضع دقائق، كان قد شاهد وجهَه على القمر. كانت تلك صدمةً له. أمَّا الآن، فلا شيء سوى نسخةٍ شجيَّةٍ من وجهه على الكفن الممدَّد في القعر. هذا بلاغ من الموت! قد لا تَفْهم صديقاتُه ذلك، لكنّه علِم أنَّ عزرائيل يبلِّغه أنَّه سيكون التالي. فبدأ رأسُه يدور، وساوره شعورٌ بالغَثَيان، فترنَّح إلى أمام نصفَ أعمى، وفقد توازنَه. وانزلقتْ قدماه من تحته، وتدحرج إلى داخل القبر.

حدث كلُّ شيء بسرعةٍ هائلة، إلى درجة أنّه لم يتسنّ أيُّ وقت للفتيات كي يفعلن شيئًا، باستثناء جميلة التي أطلقت صرخةً مُدوِّية.

مكتبة[16.07.20 17:44] ,.@

وقفتْ نالان منفرجةَ الساقيْن تمامًا، واضعةً يديْها على ردفيْها، تنظر نظرةً عامَّةً إلى ورطة المُخرِّب، وقالت:

ـ انظرْ إلى حالك الآن. كيف يُمكن أن تكون لامباليًا إلى هذا الحدّ؟

نظرتْ حُميراء خلسةً من فوق حافَّة القبر، وقالت:

ـ آه، يا عزيزي، أأنتَ على ما يُرام؟

وقف المُخرِّبُ ساكنًا في قعر القبر، باستثناء فكّه المرتعشة.

سألته نالان:

. أما زلتَ حيًّا؟

أجاب بعد أن استردَّ قدرتَه على الكلام.

. أشعر... أعتقد... أنَّني داخل قبر.

قالت نالان:

. أجل، نعرف ذلك.

قالت زينب 122:

. لا تفزعْ يا عزيزي. فكِّرْ بالأمر على هذا النحو: أنت تواجِهُ مخاوفَكَ، وهذا مفيدٌ لك.

. أخرِجْنَني من هنا، رجاءً.

لم تكن حالةُ المُخرِّب تسمح له بتقدير أيِّ نصيحة. تحرَّكَ إلى زاويةٍ محاذرًا ألَّا تطأ قدماه الكفنَ، ثمّ تحرّك سريعًا مرَّةً أخرى، فزعًا من مخلوقاتٍ غيرِ مرئيَّة في فجواتِ القبر الحالكةِ الظلمة.

قالت حُميراء:

. هيا يا نالان، ينبغي أن تساعديه.

إلَّا أنَّ نالان رفعتْ كتفيْها وهي تهزُّهما، ثمَّ قالت:

. لماذا أنا؟ ربَّما يفيده البقاءُ هناك. لعلّه يتعلَّم درسًا.

قال المخرِّبُ بصوتٍ متحشرجٍ، وكأنَّ شيئًا صلبًا علق في بلعومه:

. ماذا قالت؟

تدخَّلتْ جميلة:

. إنَّها تناكِدُكَ لا أكثر. سوف تُنقذُكَ.

مكتبة[16.07.20 17:44] .,@

قالت زينب 122:

. هذا صحيح، لا تقلقْ. سأعلِّمُكَ دعاءً يُساعدك...

ازدادت أنفاسُ المخرِّب قوَّةً، وشحب وجهُه شحوبَ الموتى في ظلمة جدران القبر الجانبيَّة، فوضع يدَه على قلبه.

قالت حُميراء:

. آه، يا ربِّي! أعتقد أنَّه سيصاب بنوبةٍ قلبيَّة. مثل والده تمامًا. افعلْنَ شيئًا ما، أسرِعْن !

تنهَّدتْ نالان قائلة:

- حسنًا، لا بأس.

ما إنْ وثبتْ نالان إلى داخل القبر، وأصبحتْ بجانبه، حتَّى طوَّقها بذراعيْه، إذ لم يشعرْ في حياته بمثل هذا الارتياح حين رآها.

- هل يمكنُكَ أن تنزع ذراعيْكَ من حولي؟ فما عدتُ قادرةً على الحركة .

أرخى ذراعيْه من حولها متردِّدًا. كم مرَّةً تعرَّض في حياته إلى تعنيف الآخرين وتوبيخهم له إلى أبعد الحدود؟

في بيت طفولته، على يديْ أمٍّ قويَّةٍ ومحِبَّة، ولكنَّها صارمة؛ وفي المدرسة، على أيدي معلّمِيه؛ وفي الجيش، على أيدي رؤسائه؛ وفي الدائرة، على أيدي كلّ موظَّفٍ تقريبًا. كما أنَّ سنواتٍ من التَّهديد والوعيد، بالصياح أو بالعبوس، سحقتْ روحَه، مخلّفةً بذرةً كان يُمكن أن تنمو شجاعةً بدلًا ممَّا هو عليه الآن.

ندمتْ نالان على نبرة صوتها، فمالت إلى الأمام، وشبكتْ يديْها قائلةً:

- هيَّا، اصعدْ.

. أأنتِ متأكّدة؟ إنّني لا أريد إلحاقَ الأذى بكِ.

. لا تقلقْ لهذا الأمر. كلُّ ما عليكَ فعله هو أن تصعد يا حبيبي.

وضع المخرِّبُ إحدى قدمَيه على كفَّيْ نالان، وإحدى ركبتيْه على كتفها، والقدمَ الثانيةَ على رأسها، وتسلَّق بصعوبةٍ إلى أعلى.

مدَّت حُميراء نفسَها، بمساعدةٍ قليلةٍ من زينب 122 وجميلة، إلى أسفل، وأخرجْنه من القبر.

ما إنْ بلغ المُخرِّب مستوى الأرض حتَّى قال:

. شكرًا لك يا رب!

تذمَّرتْ نالان من أسفل القبر قائلةً:

. أنا أنفِّذ العملَ الشاقَّ، والربُّ يحظى بالتَّقدير.

مكتبة[16.07.20 17:44] ,.@

فقال:

. شكرًا لكِ يا نالان.

. على الرَّحب والسِّعة. والآن، هل في وسع أحدكم أن يرمي إليَّ بالحبل؟

وهذا ما حدث. أمسكتْ نالان به، وراحت تربطه من حول الجثّة، ثمَّ صاحت:

. اسحبوا!

بدايةً، رفضت الجثَّةُ أن تتزحزحَ من مكانها، موطِّدةً العزمَ، كما يبدو، على البقاء حيث هي. إلَّا أنّ المجموعة تمكّنتْ من رفعها إلى أعلى، شيئًا فشيئًا. وحين بلغتْ مستوًى كافيًا من الارتفاع، حملت حُميراء وزينب 122 الجثَّةَ بعناية، ووضعتاها على الأرض، بأقصى ما تَقْدران عليه من رفق.

صعدتْ نالان، وقد لطَّخت الخدوشُ والجروحُ يديْها وركبتيْها، وقالت:

. أفّ! إنَّني منهَكة.

لكنْ لم يسمعْها أحد، فقد كان الباقونَ يحدِّقون إلى الكفن، بعيونٍ مشدوهةٍ غيرِ مُصدِّقة. فحين رُفِعتْ إلى أعلى، تمزّق جزءٌ من الكفن، وبان الوجهُ إلى حدٍّ ما.

قال المُخرِّب:

. هذا شخصٌ ذو لحية.

رفعتْ زينب 122 بصرَها إلى نالان في رعب، إذ أدركت الحقيقة: «فليرحمْنا اللّـه، لقد نبشنا قبرًا غيرَ قبرِ ليلى.«

***

سألتْ جميلة بعد أن أعادوا دفنَ جثّة الرجل الملتحي وسوّوا قبرَه:

. كيف أمكننا أن نقترفَ مثلَ هذه الخطيئة؟

. بسبب الرجل العجوز في المستشفى.

قالت نالان ذلك، وقد شاب صوتَها شيءٌ من الحرج. ثمَّ أخرجتْ قصاصةَ الورق من جيبها، واسترسلتْ:

ـ خطُّ يده هو أسوأُ خطّ. فلم أكن متأكِّدةً إنْ كان الرقم هو 7052 أو 7053. كيف لي أن أعرف؟ إنّها ليست غلطتي.

قالت زينب 122 برقَّة:

ـ لا بأس.

تمالكتْ حُميراء رباطةَ جأشها، وقالت:

. هيَّا بنا. لنحفرِ القبرَ الصَّحيحَ، وسوف نساعدُكِ هذه المرَّة.

مكتبة[16.07.20 17:44] ,.@

قالت نالان وهي تعود إلى طبيعتها في تأكيد ذاتها، وتُمسك مجرفتَها:

. لستُ بحاجةٍ إلى مساعدة.

ثمَّ أشارت بإصبعها إلى المُخرّب، وأضافت:

. عليكنَّ الانتباهُ إليه ومراقبتُه، لا أكثر.

فما كان من المخرِّب إلَّا أن عبس، إذ كان يكرهِ أن يعتبره الآخرون ضعيفَ التَّكوين أو الشخصيَّة. وكما هو شأن العديد من الأشخاص الجبناء، المخلوعي الفؤاد، فقد كان يؤْمن سرًّا، دائمًا وأبدًا، أنّ ثمَّة بطلًا في أعماقه يسعى إلى الظهور علنًا، وأن يكشفَ للعالم قاطبةً حقيقةَ نفسه.

في هذه الأثناء، كانت نالان قد بدأت الحفرَ على الرَّغم من الألم الممضّ بين عظميْ كتفيْها. كما شعرتْ بألمٍ حادّ في ذراعيْها وبقيَّةِ جسدها. ثمَّ اختلستْ نظرةً سريعةً إلى راحتيْها، قلقةً من تيبُّسِ جِلدها. فمنذ أن انتقلتْ ـ عبر رحلةٍ طويلةٍ وشاقّة ـ من مظهر الرجل الخارجيّ إلى مظهر المرأة الداخليّ، الذي كانت عليه قبل ذلك، كانت يداها دومًا سببَ إحباطها إلى حدٍّ كبير. فالأذنان واليدان تمثِّل أصعبَ الأشياء في عمليَّة التَّحوُّل، وفقًا لِما أوضحه لها الطبيبُ الجرّاح. إذ يُمكن زرعُ الشعر، وتغييرُ شكل الأنف، كما يُمكن تكبيرُ الثدييْن، وإزالةُ الشحوم بإعادة ضخِّها في مكانٍ آخر. ما أعجَبَ أن يقدر المرء على أن يصبح شخصًا جديدًا تمامًا؛ إلَّا أنَّ الصعوبة تتمثَّل في إجراء تغييرٍ كبيرٍ في حجم اليديْن أو شكلهما! فلا يُمكن أيَّ عددٍ من المشتغلين بتجميل الأظافر واليديْن تعويضُ ذلك. فضلًا عن أنَّها تملك يديْ فلَّاحة، قويَّتيْن وصلبتيْن، وكانتا مبعثَ خجلها طوال تلك السنين. أمّا في هذه اللَّيلة تحديدًا، فهي مدينة لهما، ومن شأن ليلى أن تفخر بها أيضًا.

حفرتْ نالان ببطءٍ وتأنٍّ هذه المرَّة. أمَّا حُميراء وجميلة وزينب 122 والمُخرِّب، فاشتغلوا جميعًا إلى جانبها بصمت، يرفعون كمِّيَّاتٍ قليلةً من الرمل في كلِّ مرَّة. ومن جديد ، فُتِح القبر؛ ومن جديد، وَثبَتْ نالان إلى داخله؛ ومن جديد، رُميَ الحبلُ إليها.

تبيَّن أنَّ الجثة أخفُّ وزنًا عند إخراجها من القبر، مقارنةً بالجثَّة السابقة. وضعوها بعناية على الأرض، خشيةَ أن يروْا ما لا تُحمد عقباه هذه المرَّة؛ ولهذا، أزاحوا زاويةَ الكفن في حيطةٍ وحذر.

قالت حُميراء بصوتٍ منهار:

- إنَّها هي.

خلعتْ زينب 122 نظّارتَها، ومسحتْ عينيْها براحتيْها .

أمَّا نالان، فقد دفعتْ خصلاتِ شعرها الملتصقة بجبينها المتفصِّد عرقًا، وقالت:

ـ حسنًا إذًا، فلنحملْها إلى حبيبها.

وضعوا الجثَّةَ بحذرٍ في العربة. عدّلتْ نالان من وضع الجذع، ووازنتْه بساقيْها. وقبل الانطلاق، فتحتْ قارورةَ الڤودكا وتناولتْ

جرعةً كبيرة، فشقَّ السَّائلُ طريقَه في المريء وصولًا إلى معدتها، متوهِّجًا في طريقه، لذيذًا ودافئًا، مثلَ نيرانٍ لطيفةٍ وسطَ مُخيَّم.

***

اخترق برقٌ خاطفٌ السماءَ، وضرب الأرضَ على بعد مئة قدم، مضيئًا المقبرةَ برمَّتها. فجفل المُخرِّب بعد أن كان

مكتبة[16.07.20 17:45] ,.@

أصيب بالفواق، وأخرج صوتًا غريبًا قبل أن يتحوَّل إلى هديرٍ ودمدمة.

قالت نالان:

- توقَّفْ عن إصدار هذا الصوت.

- ليس الصوتُ صوتي.

كان صادقًا في كلامه. فقد تجلَّت للعيان مجموعةٌ من الكلاب من مكانٍ مجهول. كان عددُها يناهز العشرة، وربَّما أكثر. وكان ثمَّة كلبٌ أسودُ هجينٌ في المقدِّمة، مُسطَّحُ الأذنيْن، بريقُ عينيْه يشعّ صفرةً، وقد كشَّر عن أنيابه. وأخذت الكلاب تقترب.

تحلّب ريقُ المُخرِّب، وبرزَتْ تفَّاحةُ آدم من تحت بلعومه، وهتف:

. كلاب!

همستْ زينب 122:

. أو ربَّما جنّ.

قالت نالان:

. سوف تعرفين حقيقتَها بعد أن تعضّ عجيزتَكِ.

ثمَّ اقتربتْ من جميلة لتحميها.

سألتها حُميراء:

. وإذا كانت كلابًا مسعورة؟

هزَّت نالان رأسَها.

. هل تشاهدين آذانَها؟ إنَّها مقصوصة. وهي ليست ضارية، وخنثى. وربَّما كانت مُلقَّحةً أيضًا. ليهدأ الجميع. فهي لن تهاجمنا ما لم نتحرَّكْ.

ثمَّ أمسكتْ عن الكلام، إذ خطرتْ في بالها فكرةٌ جديدة. وأضافت:

. ألديكِ شيءٌ من الطعام يا حُميراء؟

. لماذا تسألين؟

. افتحي تلك الحقيبة. ماذا في داخلها؟

أجابت حميراء في البداية:

. قهوة فحسب.

مكتبة[16.07.20 17:45] ,.@

ثمَّ تنهَّدتْ، وأضافت:

. لا بأس. لديَّ قليل من الطعام أيضًا.

كانت حقيبتُها تحتوي على بقايا العشاء.

قالت زينب 122:

. لا أصدِّق أنَّكِ أتيتِ بكلّ هذا! بماذا كنتِ تفكِّرين؟

قالت نالان:

ـ لماذا؟ المؤكَّد أنَّها في نزهةٍ لطيفةٍ عند منتصف اللَّيل في مقبرة.

بوَّزتْ حُميراء وهي تقول:

ـ فكَّرتُ أنَّنا قد نجوع، لا أكثر. إذ ظننتُ أنّها ستكون ليلةً طويلة.

رُميَ الكلابُ بالطعام. وفي غضون ثلاثين ثانيةً، كان قد اختفى . إلَّا أنَّ هذه الثواني الثلاثين كانت كلَّ ما يلزم لإثارة الشقاق بينها. فالطعام لم يَكْفها، فنشب قتالٌ بينها. قبل دقيقةٍ فقط، كانت الكلاب فريقًا واحدًا. وأمَّا الآن، فدبَّ التنافسُ بينها. فما كان من نالان إلَّا أن أمسكتْ بِعَصًا، وغمستْها في صلصة اللَّحم، ورمتها إلى أبعد ما تستطيع، فاندفعت الكلابُ خلفها مزمجرةً.

قالت جميلة:

ـ لقد هربتْ.

لكنَّ نالان حَذّرتْ:

. موقَّتًا. ينبغي أن نحثَّ خطانا، وأن نظلّ متقاربين بعضنا من بعض. أسرعوا، ولكنْ لا تتحرَّكوا بحركةٍ مفاجئة. ولا تفعلوا ما يثير ارتيابَهم. مفهوم؟

بعد أن تزوَّدتْ نالان بإحساسٍ جديدٍ بالهدف، دفعتْ عربةَ اليد إلى الأمام. أمَّا بقيَّة أفراد المجموعة الذين كانوا يحملون أدواتهم، ويجرُّون أقدامَهم المرهَقة، فقد ساروا في اتِّجاه الشاحنة، وعادوا إلى الطريق الذي جاؤوا منه. وعلى الرَّغم من الرياح، فقد انبعثتْ رائحةٌ طفيفةٌ جدًّا من الجثَّة. لكنْ لو كانت الرائحة أشدّ، فلن يأتي على ذكرها أحد، لئلّا يثيروا استياءَ ليلى التي لطالما كانت مولعةً بعطورها.

مكتبة[16.07.20 17:50] ,.@

- 36 -

العودة

عندما حان وقتُ المطر أخيرًا، هطل غزيرًا، سيولًا جارفةً تكتسح الطينَ وتمرّ فوق الأخاديد. حاولتْ نالان أن تناور بعربتها الصَّغيرةِ، بينما سار المُخرِّبُ سيرًا ثقيلًا مرهقًا بجانب جميلة، حاملين مظلَّتهم الوحيدةَ فوق رأس المرأة الشابّة. بدا عليه أنَّه أكثر صحوًا من ذي قبل، بعد أن تبلَّل بالمطر حتَّى جلدِه. سارت حُميراء في أعقابهم، وهي تتنفَّس تنفُّسًا شاقًّا إذ لم تَعْتَدْ مثلَ ذلك الإجهاد البدنيّ، وتشدّ قبضتَها على جهاز استنشاقها. وعرفتْ أنَّ جواربها قد تمزَّقتْ من غير أن تنظر إليها، وأنَّ كاحليْها تعلوهما الخدوشُ وينزفان دمًا. وإلى الخلف، سارت زينب 122 التي كادت

أن تنزلق بحذائها الرَّطب وهي تبذل جهدَها كي تلحق برفاقها الأطولِ والأقوى.

دفعتْ نالان ذقنَها إلى الأمام، وتوقَّفتْ من دون سببٍ واضح، واطفأت المصباحَ اليدويّ.

سألتها حُميراء:

ـ لماذا أطفأتِ المصباح؟ لم نعد نرى أيّ شيء.

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا ـ لأنَّ نور القمر، على شحوبه، كان يضيء الدَّربَ الضيّق.

ـ اهدأي، يا حبيبتي.

لاحت على وجه نالان نظرةٌ تنمّ عن قلقها. كما أنَّ جسدَها تخشَّب في مكانه.

تمتمت جميلة:

. ماذا يحدث؟

مالت نالان برأسها مَيَلانًا غريبًا، مصغيةً إلى صوتٍ تناهى إلى السمع من مسافةٍ بعيدة، وقالت:

. هل تشاهدون تلك الأضواءَ الزرقَ عن بعد؟ ثمَّة سيَّارةُ شرطة وراءِ هذه الأجمة.

حين رشقوا ببصرهم ذلك الاتِّجاهَ الذي يَبعُد ستِّين قدمًا عن بوَّابة المقبرة، شاهدوا السيَّارةَ المركونة.

قالت حُميراء:

. آه، لا! لقد انتهى كلُّ شيء، وأخفقنا إخفاقًا تامًّا.

سألتْ زينب 122 التي وصلتْ إليهم في هذه اللَّحظة:

. ماذا سنفعل؟

لم يكن لدى نالان أيُّ فكرة، إلَّا أنَّها كانت دومًا تَفترض أن نصفَ مهمَّة القائد هي أن يتصرَّفَ بوصفه قائدًا. فقالت من غير أن تفقد شجاعتَها:

. سوف نترك العربةَ في هذا المكان، لأنَّها كثيرةُ الضوضاء، حتَّى تحت هذه الأمطار اللَّعينة. سوف أحمل ليلى ونواصل السَّير.
وعندما نصل إلى الشاحنة، سوف تحتلُّون المقعدَ الأماميَّ برفقتي.
كلُّكم. أمَّا ليلى، فستكون في الخلف، وسوف أغطِّيها ببطَّانيَّة.
وسنخرج من هذا المكان بصمت. وعندما نَبْلغ الطريقَ العامّ،
سأقود بأقصى سرعة،

مكتبة[16.07.20 17:50] .,@

وسينتهي كلُّ شيء. سنعود أحرارًا كالطيور!

سألها المُخرِّب:

. ألن يروْنا؟

. ليس في البداية؛ فالمكان مظلمٌ جدًّا. صحيح أنَّهم سوف يروْننا في نهاية المطاف، ولكنْ سيكون الأوانُ قد فات. سوف نقود الشاحنةَ سريعًا؛ ففي هذه الساعة، لا حركة مرور. سيكون كلُّ شيء على ما يرام، فعلًا.

خطَّة مجنونة أخرى، وافقوا عليها مجدّدًا بالإجماع، إذ لا خيارات أفضل لديهم.

***

رفعتْ نالان جثَّةَ ليلى وحملتْها بين ذراعيْها، قبل أن تضعَها على كتفها.

وفكَّرتْ: «ها قد تعادلنا الآن»؛ إذ تذكَّرت تلك اللَّيلةَ التي تعرَّضتا فيها إلى هجوم الأشقياء.

حدث ذلك بعد وفاة د/علي بمدَّة طويلة. فحين كانت ليلى متزوِّجةً به، لم يخطرْ في بالها قطّ أنَّها سوف تضطرّ إلى العودة إلى العمل في الشوارع يومًا ما. لقد انتهت تلك المرحلةُ من حياتها إلى غير رجعة. هذا ما قالته أمام الجميع، وأمام نفسها، وكأنَّ الماضي خاتمٌ في وسع المرء أن ينزعَه متى شاء! لكنْ، في ذلك الوقت، كان كلُّ شيء يبدو محتملًا. وكان الحبُّ يراقص الشبابَ رقصةَ التانغو. وكانت ليلى سعيدةً، إذ ملكَتْ كلَّ ما تحتاج إليه. ثمَّ رحل د/علي رحيلًا غيرَ متوقَّع، على النحو الذي دخل فيه إلى حياتها، فخلَّفَ ثقبًا في قلبها لن يَشْفى أبدًا، وركامًا هائِلًا من الدُّيون. فقد تبيَّن أنَّ د/علي لم يقترض المال الذي اعتاد أن يدفعه إلى المديرة المُرَّة من رفاقِه، كما زعم، بل من مُرابين.

تذكَّرتْ نالان الآن إحدى الأمسيات في أحد مطاعم منطقة المسجد العثمانيّ، حيث كان الثلاثة يتناولون العشاء في أغلب الأحيان. كان الطعام مكوَّنًا من ورق العنب المحشوّ، وبلح البحر المقليّ (وكان د/علي قد طلب هذه الوجبةَ للجميع، وإنْ كانت

خصِّيصًا لليلى)، وبقلاوة بالفستق، وسفرجل بالكريما (وكانت ليلى قد طلبته للجميع، وإنْ كان خصِّيصًا من أجل د/علي)، وقنّينة عرق (كانت نالان قد طلبتها للجميع، وإنْ كانت خصِّيصًا من أجلها). وعند اقتراب اللَّيل من نهايته، كان د/علي قد ثمل على نحوٍ مدهش، وهو أمرٌ نادرًا ما حدث له، لأنَّه يمتلك ما كان يُطلِق عليه مصطلح «الانضباط الثوريّ». لم تكن نالان قد التقَت بعدُ أيًّا من رفاقه، وكذلك ليلى؛ وهو أمرٌ غريب، لأنَّ زواجهما كان قد مرَّ عليه أكثر من عامٍ آنذاك. ولم يتكلَّم د/علي في هذا الموضوع علانيةً. والأرجح أن يُنْكره إنْ سُئل عنه، غير أنَّ الواضح من سلوكه أنَّه قَلِقَ من ألَّا يكون لرفاقه رأيٌ حسن في زوجته، ولا في صديقاتها المراوغات، الخارجات عن المألوف.

وكُلَّما حاولتْ نالان أن تفتح هذا الموضوع، تنظر إليها ليلى شزرًا، وتجد وسيلةً إلى تغيير دفَّة الحديث. وكانت ليلى تُذكّر نالان بعدئذٍ بأنَّ تلك الأوقات تُسبِّب كدرًا شديدًا وتُدْمي القلوب. فالأبرياء من المدنيّين يُقتلون، وفي كلِّ يومٍ تنفجر قنبلةٌ في مكانٍ ما،

والجامعات تحوَّلتْ إلى ساحات معارك، والميليشياتُ الفاشيّة تجوب الشوارع، فضلًا عن التَّعذيب الممنهج في السجون. إلّا أنَّ نالان خالفتْ رأيَها باحترامٍ شديد، وأرادت أن تفهم نمطَ الثورة التي تكون فيها فسحة صغيرة من بين أحضانها الواسعة، لها ولثدييْها اللذيْن تمكّنتْ من تكبيرهما حديثًا.

في ذلك المساء، كانت نالان قد وطَّدت العزمَ على أن تسأل د/علي عن ذلك. كانوا يجلسون حول طاولةٍ قريبةٍ من النافذة، حيث النسيمُ يرسل عبقَ زهر العسل والياسمين، الممتزجيْن بروائح التبغ والطعام المقليّ واليانسون.

قالت نالان محاولةً أن تتفادى النظرَ إلى ليلى:

. أريد أن أطرحَ عليكَ سؤالًا.

مكتبة[16.07.20 17:50] ,.@

اعتدل د/علي من فوره، وقال:

. عظيم، وأنا أريد أن أوجِّهَ إليكِ سؤالًا أيضًا.

. آه، إذًا فلتكن أنت البادئ يا حبيبي.

. لا، أنتِ أوَّلًا.

. أنا أصرّ عليك.

. حسنًا، إذا سألتُكِ عن الفارق الأكبر بين مدن أوروبا الغربيّة ومدننا نحن، فماذا تقولين؟

رشفتْ نالان رشفةً من كأس الويسكي قبل أن تجيب عن السُّؤال.

ـ حسنًا، غالبًا ما نحتاج نحن النساء هنا إلى أن نحمل معنا دبّوسَ أمانٍ بمشبَك، تحسُّبًا لهجومٍ يشنُّه علينا متحرِّش، فيضطرّنا هذا الغبيُّ إلى وخزه. وإنَّني لا أعتقد أنّ الأمر مشابهٌ لِما يحدث في مدينةٍ أوروبيَّةٍ كبيرة. هناك دومًا استثناءات بلا أدنى ريْب. لكنَّ العلامة الفارقة بين «هنا» و«هناك» ـ استنادًا إلى التجربة العمليَّة ـ تتمثَّل في عدد دبابيس الأمان المستعملة في حافلات النقل العامّ.

ابتسم د/علي:

ـ نعم ربَّما كان هذا أيضًا. لكنَّني أعتقد أنَّ الفارق الأهمّ يكمن في مقابرنا.

رشقتْه ليلى بنظرةٍ تنمُّ عن فضول:

. مقابر؟

. نعم، يا حبيبتي.

ثمَّ أشار إلى قطعة البقلاوة التي لم يلمسْها أحد، وسأل:

. ألن تأكلي هذه؟

دفعتْ ليلى طبقَ البقلاوة إليه، وهي تعرف أنَّه مغرمٌ بالحلوى منذ أن كان صبيًّا في المدرسة.

قال د/علي إنَّ المدافن في كُبرى المدن الأوروبيَّة مخطَّطة تخطيطًا فيه الكثيرُ من العناية، وهي نظيفة وخضراء دائمًا حتّى يكاد المرءُ يظنَّ أنَّها حدائقُ مَلكيَّة. لكنَّ المقابر ليست كذلك في إسطنبول؛ فهي قذرةٌ قذارةَ الإنس الذين يعيشون على سطح الأرض. غير أنَّ القضيَّة ليست قضيَّةَ نظافةٍ وحسب؛ ففي مرحلة من مراحل التاريخ، كانت فكرة الأوروبيِّين الذكيَّة تتمثَّل في إرسال الموتى إلى ضواحي مدنهم. كما أنَّ القضيَّة ليست قضيَّةَ «البعيد عن العين بعيدٌ عن القلب»، ولكنَّها بالتأكيد قضيَّةُ «البعيد عن العين بعيدٌ عن الحياة الحضريَّة». كانت القبور مبنيَّةً وراء أسوار المدينة؛ والأشباحُ مفصولين عن الأحياء. حدث كلّ شيء بسرعةٍ

ومهارة، مثل فصل صفار البيض عن زلاله. وقد أثبتت الترتيباتُ الجديدة فائدَتها الكبيرة. ولمَّا لم يَعُدِ المواطنون الأوروبيُّون مضطرِّين إلى رؤية شواهد القبور . التي تذكِّرهم على نحوٍ مريع بقِصَرِ الحياة وصرامةِ الربّ . فقد شمّروا عن سواعدهم للعمل. وبعد أن أخرجوا الموتَ من مشاغل حياتهم اليوميَّة، بات في وسعهم التَّركيزُ في أمورٍ أخرى: تأليف الموسيقى، وابتكار المقصلة، ثمَّ القاطرة البخاريَّة، فاستعمار بقيَّة أنحاء العالم، وتقطيع أوصال الشرق الأوسط... يمكن أن يتحقَّق هذا كلّه، بل أكثر منه كثيراً،

مكتبة[16.07.20 17:51] .,@

شريطةَ النأي بالذهن عن الفكرة المثيرة للاضطراب والقلق: أنَّ الإنسان ليس سوى فانٍ.

سألتْ ليلى:

. وإسطنبول؟

ردَّ د/علي بعد أن التهم آخرَ قطعةٍ من البقلاوة:

. الوضع مختلف هنا في إسطنبول. فهذه المدينة تنتمي إلى الأموات، لا إلينا.

ففي إسطنبول، يكون الأحياءُ هم السكَّان الموقّتين، والضيوفَ المتطفِّلين، اليوم هنا، وغدًا في رحيل. وهذا ما يعرفه كلّ فرد في

أعماقه. وشواهدُ القبور البيض تستقبل المواطنين عند كلِّ منعطف . على امتداد الطرق السَّريعة والرَّئيسة، أو المراكز التجاريَّة، أو مواقف السيَّارات، أو ساحات كرة القدم . وتنتشر في كلِّ ركنٍ مثل خيط مجوهراتٍ مقطوعٍ. وقال د/علي لو أنَّ ملايين الإسطنبوليّين عاشوا مُخلصين لقدراتهم فسببُ ذلك يرجع إلى مجاورتهم للقبور على نحوٍ يوهن العزيمةَ ويُخمد الهمَّةَ. فالمرء يفقد شهيَّتَه إلى الابتكار حين يجد مَن يُذكِّره باستمرار بأنَّ الحصاد المروِّع يقف عند المنعطف، وبأنَّ منجلَه يتَّقد لمعانًا تحت شمسٍ آيلةٍ إلى المغيب. لهذا السَّبب، لم تُسفِرْ مشاريعُ التَّرميم والتَّجديد عن شيء، وأخفقت البُنيةُ التحتيَّة، والذاكرةُ الجمعيَّةُ مهلهلة مثل منديل ورقيّ. وتساءل د/علي: لماذا الإصرارُ على التَّخطيط للمستقبل، أو تذكُّر الماضي، في الوقت الذي ننزلق فيه ونتزحلق كلُّنا على طريقنا إلى مَنْفذ المغادرة النهائيّ؟ الديمقراطيَّة وحقوقُ الإنسان وحريَّةُ الكلام . ما قيمتها إنْ كنَّا نوشك كلُّنا على الموت في جميع الأحوال؟ ثم أنهى د/علي حديثَه بالقول إنَّ أسلوبَ تنظيم المقابر، وطريقةَ معاملة الموتى، هما أبرزُ الفوارق بين الحضارتيْن.

استغرق الثلاثة في صمت وهم يصغون إلى قرقعة أدوات المائدة والأطباق في مكانٍ آخر من المطعم. ولا تزال نالان لا تعرف سببًا لما قالته بعد ذلك؛ فقد انسابت الكلماتُ من فمها، وكأنَّها تنصاعُ لإرادةٍ خاصّةٍ بها:

. ستلاحظان أنَّني سأكون أوَّلَ مَن يموت بيننا. وأريد منكما أن ترقصا حول قبري، وألَّا تذرفا الدُّموع. دخِّنا السجائرَ، واشربا الكحولَ، وتبادلا القبلات، وارقصا. هذه هي وصيَّتي .

قطَّبتْ ليلى جبينَها، منزعجةً من حديثها. ثمَّ رفعتْ بصرَها نحو المصباح الفلورسنت الذي يومض فوقها، فبانت عيناها الجميلتان الآن بلون المطر. إلَّا أنَّ د/علي ابتسم لا غير . ابتسامةً رقيقةً مفعمةً بالأسى، كأنَّه كان يعلم، في أعماقه، بأنَّه سيكون أوَّلَ الراحلين من بينهم، مهما أطلقتْ نالان من مزاعم.

قال د/علي:

. إذًا، ماذا أردتِ أن تسألي؟

على حين غرَّة، غيَّرتْ نالان رأيها: إذ لم يَعُد بذي أهمِّيَّة ذلك السُّؤالُ عن سبب عدم اللِّقاء برفاقه، أو عن شكل الثورة التي ستَؤول إليه في ذلك المستقبل الزاهر الذي قد يأتي أو لا يأتي. ربَّما لا شيء يستحقّ أن تقلق من أجله في مدينةٍ كلُّ ما فيها يتغيَّر ويتحلَّل. وربَّما الشيء الوحيد الذي يُمكن الاعتمادُ عليه هو هذه اللَّحظة التي انقضى نصفُها قبل قليل.

***

وصل الأصدقاءُ إلى سيَّارةِ الشيڤروليه يَقْطرون من شدَّة البلل. واحتلُّوا المقعدَ الأماميَّ باستثناء السَّائقة؛ فقد كانت نالان منشغلةً في الجانب الخلفيّ بتأمين جثّة ليلى، وتمريرِ الحبال حولها، وشدِّها إلى جانبَي الشاحنة لضمان عدم تدحرجها. وحين اقتنعتْ بما أنجزته، انضمَّت إلى بقيّة المجموعة، وأغلقت البابَ بهدوء، وتنهَّدت الأنفاسُ التي

مكتبة[16.07.20 17:51] ,.@

كانت حبيسةً في داخلها.

- حسنًا، جاهزون؟

قالت حُميراء في غمرة الصمت المطبق:

. جاهزون.

. والآن، لنهدأْ كلُّنا هدوءًا تامًّا. لقد انتهت المرحلةُ الأصعب. وأمَّا هذه المرحلة، فسنتمكَّن من إنجازها.

وضعتْ نالان مفتاحَ السيَّارة في ثقب التشغيل وأدارته برقَّة. بُعِثت الحياةُ في المحرِّك؛ وبعد ثانية، صدحت الموسيقى، ثمَّ شقَّت ويتني

هيوستن بصوتها العذب ظلامَ اللَّيل، متسائلةً إلى أين تذهب القلوبُ المحطَّمة.

قالت نالان:

. تبًّا!

ثمَّ وجَّهتْ ضربةً إلى آلة التَّسجيل . لكنَّ الأوان كان قد فات. كان الشرطيَّان يحدِّقان في اتِّجاه الشاحنة مشدوهَيْن وذاهلَيْن، بعد أن غادرا سيّارتهما كي يتمشَّيا، إذ كلَّت أرجلُهما من طول الجلوس.

اختلستْ نالان نظرةً عابرةً إلى المرآة الخلفيَّة، وراقبت الشرطيَّيْن يسرعان إلى سيَّارتهما. فما كان منها إلَّا ان اتَّكأتْ في مقعدها، وقالت:

. لا بأس، سنُغيّر الخطَّة. تشبَّثوا جيّدًا!

مكتبة[16.07.20 17:51] ,.@

- 37 -

العودة إلى المدينة

أسرعت الشيڤروليه، طراز 1982، في طريقها وهي تهبط التلَّ وتدخل الغابة، ودارَت عجلاتُها فوق طريقٍ زلقٍ بماء المطر، فأخذ الطينُ يترشَّش في كلِّ الاتِّجاهات. ثمَّة مُلصقاتٌ جداريَّة ولوحاتٌ إعلانيَّة ضَرَبها الطقسُ على جانبَي الطريق، وكان أحدُ هذه الإعلانات ممزَّقًا عند حوافِّه، وباتت من الصَّعب قراءتُه: تعالَ إلى كيليوس... إجازتُك الحلمُ... وراء المنعطف تمامًا.

أخرستْ نالان مُسرِّعَ الشاحنة، إذ ترامتْ إلى سمعها صافرةُ سيَّارة الشرطة تصكّ الأسماع، وإنْ كانت لا تزال بعيدة. سيَّارة صغيرة من طراز سكودا تَبذل قصارى جهدها كي تزيد من سرعتها، من دون أن تنزلقَ على الوحل وتتزحلقَ خارج نطاق سيطرة سائقها. وعلى حين غرَّة، شعرَتْ نالان بالامتنان للوحل والمطر والعاصفة، وللشيڤروليه أيضًا. فعند الوصول إلى المدينة، سيصعب التَّفوُّقُ على سيَّارة الشرطة، وسيكون عليها أن تثق بنفسها. وهي تعرف الشوارع الخلفيَّة حقّ المعرفة.

تسمّرَ غَزالٌ في مكانهِ تحت وهج أضواء الشاحنة الساطعة إلى جهة اليمين، حيث تفرَّع الطريقُ، وتُشكِّل أشجارُ التنوب الباسقة غابةً صغيرةً في الوسط. استبدَّت بنالان فكرةٌ مفاجئةٌ حين أبصرت الحيوان، فقادت الشاحنةَ بموازاة حافَّة الرصيف، مؤمِّلةً أن يكون أسفلُ الشاحنة عاليًا بما يكفي، وأسرعتْ مباشرةً في اتِّجاه الغابة الصَّغيرة، حيث أطفأت الأضواءَ السَّاطعةَ من فورها. حدث كلُّ شيء على جناح السُّرعة، ولم يتجرَّأ أيّ من الركّاب على أن ينبس ببنت شفة. انتظروا جميعًا، مُتَّكلين على القدر أو الربّ؛ على قوًى خارج نطاق سيطرتهم. وبعد دقيقةٍ، مرّت سيَّارةُ الشرطة من غير أن تراهم، واتَّجهت إلى إسطنبول التي تبعد عشرةَ أميال.

حينما عادوا أدراجَهم إلى الطريق، كانت شاحنتُهم هي المَرْكبةَ الوحيدة على مرمى البصر. وفي أوَّل تقاطعٍ يصادفهم، كانت إشارةُ المرور تتأرجح تحت الريح على أسلاك مثبَّتة فوقهم، وكان الضوء المنبعث منها يتحوَّل من الأخضر إلى الأحمر. لكنَّ الشاحنة

أسرعتْ، ونهبت الطريقَ نهبًا بأقصى سرعتها. وعلى مبعدة، كانت المدينةُ تنهض، بينما يخترق أفقُها البرتقاليّ السماءَ المظلمةَ.
قريبًا سينبلج الفجر.

قالت زينب 122 بعد أن نفدتْ أدعيتُها، وكانت تجلس إلى حدٍّ ما في حضن حُميراء، نظرًا إلى ضيق المكان:

ـ آمل أنَّكِ تعرفين ماذا تفعلين.

قالت نالان، متشبّثةً بعجلة القيادة بقوَّةٍ أكبر :

. لا تقلقي.

قالت حُميراء:

. نعم، ولماذا القلق؟ إذا ما واصلتْ قيادةَ الشاحنة على هذا النحو، فلن نبقى في هذا العالم مدَّةً أطول على أيِّ حال.

هزَّت نالان رأسَها:

ـ باللّـه عليكم، فلتتوقَّفوا عن هذا الإلحاح. ما إن نصل المدينةَ حتَّى نكون أقلَّ عرضةً للخطر، وسنكون أقدرَ على التخفّي. سوف أعثر على طريقٍ فرعيّ، وحينها نتوارى عن الأنظار!

سرح المُخرِّبُ ببصره خارج النافذة. لقد ضربته آثارُ الڤودكا على ثلاث مراحل: أوَّلًا، استبدَّت به الإثارة؛ ثم

مكتبة[16.07.20 17:51] ,.@

الخوفُ والتوجُّس؛ وأخيرًا الاكتئابُ. خفض من زجاج النافذة، فاندفعت الريحُ إلى الداخل وملأت السيّارةَ المزدحمة. بذل قُصارى جهده كي يحافظَ على هدوئه، إلَّا أنَّه لم يستطع أن يفهم كيف سيكون في وسع المجموعة أن تتخلّص من الشرطة. وإذا ما أُلقي القبضُ عليه رفقةَ جثّةٍ ميّتةٍ ومجموعةٍ من النساء المحتالات

والخطرات، فما الذي سيقوله لزوجته وحماه وحماته المتشدِّدين في تفكيرهم المحافِظ؟

اتَّكأ في مقعده، وأغمض عينيْه؛ فظهرتْ له ليلى وسط الظلام الممتدّ إلى أمام، فتاةً صغيرةً لا امرأةً بالغةً. كانت ترتدي زيَّها المدرسيّ وجوربيْن أبيضيْن، وتنتعل حذاءً أحمر، وكانت أصابعُ قدميْها مخدوشةً قليلًا. وفي حركة سريعة ورشيقة، هرعتْ إلى شجرة الحديقة، وركعتْ، وقبضتْ على حفنةٍ من تراب، ثمّ وضعَتْها في فمها، وراحت تمضغها.

لم يخبرها المُخرِّبُ قطّ أنَّه شاهدها وهي تفعل ذلك، فقد صُدِم صدمةً بالغة: لماذا يتعيَّن على المرء أن يأكل التراب؟ ولم يمضِ وقتٌ طويل حتَّى رأى الجروحَ على ذراعيْها، فضلًا عن جروح أُخرى على ساقيْها وفخذيْها. وفي غمرة قلقه، استفسر منها عن ذلك. إلَّا

أنَّها هزَّت كتفيْها لا أكثر، وقالت: «لا بأس، أعرف متى ينبغي أن أتوقَّف». كان هذا الاعترافُ قد عمَّق من مشاغله وقلقه بسبب حقيقته. كان المُخرِّب يرى ألمَها قبل غيره، وأكثرَ من غيره أيضًا. ودهمه حزنٌ ثقيلٌ وكثيف. قبضةٌ أُطبقتْ على فؤاده تعصره؛ حزنٌ أخفاه عن الآخرين، وغذَّاه طوال تلك السنوات، لأنَّه كان يعتقد أنَّ الحبّ لا يعني شيئًا إنْ لم يكن مداواةً لألم غيره وكأنَّه ألمُه هو. مدَّ يده، فتلاشت الفتاةُ التي تراءت أمام عينيْه كأنَّها حلم.

لقد ساور سنانَ المُخرِّبَ قَدْرٌ كبيرٌ من الندم في حياته، لكنْ ما من ندمٍ يُقارَن بشعوره بأنّه لم يُطلِعْ ليلى قطّ على حبِّه لها منذ تلك الأيَّام الضائعة، منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا. كان يحبُّها مذ كانا طفليْن في بلدة ڤان، يذهبان معًا إلى المدرسة صباح كلِّ يوم في وقتٍ تصحو فيه السماء، زرقاءَ صافيةً، ويعثر أحدُهما على الآخر في أوقات الاستراحة، ويرميان الحجارةَ من فوق حافَّة البُحيرة العظيمة في فصل الصيف، ويَحضنان كوبيْن من السحلب ينبعث منهما

البخارُ في عزّ الشتاء، بينما يجلسان متجاورِيْن على سور الحديقة، يتأمَّلان صُوَرَ الفنَّانين الأميركيِّين .

***

بخلاف الطريق من كيليوس، كانت شوارعُ إسطنبول في هذه الساعة الشرّيرةِ الآثمة ذاتها تمثِّل كلَّ شيء، إلَّا أنَّها لم تكن خالية تمامًا. ومرَّت الشاحنة مقرقعةً ومتجاوزةً العماراتِ السكنيَّةَ، الواحدةَ تلو الأخرى، نوافذُها مُظلمةٌ وخاوية، مثل سنٍّ مفقودة أو عينيْن غائرتيْن. وبين حينٍ وآخر، كان يَظْهر أمامها شيءٌ غير متوقَّع: قطَّةٌ سائبة؛ عاملٌ عائدٌ إلى بيته من مناوبةٍ ليليَّة؛ مُتشرِّدٌ يبحث عن عقب سيجارة أمام مدخل مطعمٍ راقٍ؛ مظلَّةٌ وحيدةٌ تتطاير هنا وهناك في مهبّ الرِّيح؛ مدمنُ مخدّراتٍ يقف في منتصف الطريق يُكشِّر عن أسنانه أمام صورةٍ لا يراها أحدٌ سواه. انحنت نالان إلى الأمام، يقظةً تمامًا، ومستعدَّةً للانعطاف عند أيِّ نقطة. تذمَّرتْ في سرِّها: «ماذا دهى الناس؟ ينبغي أن يكونوا نائمين في هذه الساعة.«

قالت حُميراء:

. أُراهن أنَّ هذا هو ما يفكِّرون فيه تجاهنا.

اختلستْ نالان نظرةً إلى المرآة الخلفيَّة:

. حسنًا، نحن لدينا مهمَّة.

كانت نالان تعاني مشكلةً في الحركة والاتِّجاه، فضلًا عن عسر القراءة. لذا، لم يكن سهلًا أن تَحُوزَ رخصةَ سوْق. وفي حين كان تلميحُ حُميراء قبل قليل فجًّا، فإنَّه لم يكن في غير محلِّه تمامًا. فقد غازلتْ مُدرِّبَ السِّياقة قليلًا. ولكنَّها منذ ذلك اليوم، وعلى مدى سنوات، لم تتسبَّبْ في وقوع أيِّ حادث. وهذا ليس سهلًا في مدينةٍ ينتشرُ في كلِّ ياردةٍ مربَّعةٍ منها سائقو سيَّاراتٍ يحتكرون الطريقَ من دون مراعاة غيرهم، وبأعدادٍ تفوق أعدادَ الكنوز البيزنطيَّة المدفونة

مكتبة[16.07.20 17:52] ,.@

فيها! كما أنَّها فكَّرتْ أنَّ قيادة السيَّارة تشبه الجنسَ إلى حدٍّ ما. فالاستمتاع به استمتاعًا كاملًا لا يتطلَّب العجلة، وإنَّما أخْذَ الطرفِ الآخرِ في الاعتبار: «احترم الرحلة، وتماشَ مع السَّير، ولا تتنافسْ، ولا تحاولْ أبدًا أن تفرض السيطرة». غير أنَّ هذه المدينة تحتشد بالمهووسين والمجانين الذين يجتازون بأقصى سرعتهم إشاراتِ المرور الحُمْر، ويسلكون ممرَّاتِ الطوارئ وكأنَّهم متعَبون

من الحياة. وفي بعض الأحيان، وعلى سبيل المداعبة والمزاح، تقود نالان سيَّارتَها على مقربة من مصدَّات المركبات الأخرى، وتُشعل أضواءها السَّاطعة، وتطلق بوقَها، وتدنو على نحوٍ خطير يُمكِّنها من رؤية انعكاس عيون السائقين عبر مراياهم الخلفيَّة . الكائنة فوق مُعطِّرات الجوّ المتدلِّية وأعلامِ بطولات كرة القدم والسباحة التذكاريّة . ومراقبةِ سحناتهم التي تنمّ عن دبيب الرُّعب في أوصالهم وهم يدركون أنَّ امرأةً تطاردهم، وأنَّ هذه المرأة قد تكون من المتحوِّلات جنسيًّا.

***

حين وصلت المجموعةُ إلى بيبك، لاحظوا سيَّارةَ شرطةٍ مركونةً عند منعطف طريق منحدرٍ يُفضي إلى المقبرة العثمانيَّة القديمة، ومن ثمَّ يتَّجه إلى جامعة البوسفور. أتراها في انتظارهم، أمْ أنَّها سيَّارةُ دوريَّةٍ أخرى في حالة استراحة؟ في الحالتيْن، لا يمكنهم المجازفةُ والسماحُ للشرطة برؤيتهم. لهذا، بدَّلتْ نالان السرعةَ

وانعطفتْ جانبًا، وضغطتْ على المُسرّعِ، فقفزَ مؤشِّرُ السرعة إلى درجة الاحمرار.

سألتها جميلة:

. ماذا سنفعل؟

ثمَّة حبَّاتُ عرقٍ تنزّ من جبينها؛ إذ إنَّ الصدمة النفسيَّة بسبب النَّهار، والإجهادَ اللَّيليّ، قد كلَّفاها ثمنًا باهظًا دفعته من جسدها المرهق.

قالت نالان بصوتٍ خلا من نبرةِ الأمر المألوفة:

. سوف نعثر على مقبرةٍ أخرى.

لقد ضيَّعوا وقتًا أطول ممَّا ينبغي؛ فلن يمضي وقتٌ طويلٌ حتَّى ينبلجَ الصبح. وسيبقون رِفقةَ جثَّةٍ في صندوق الشاحنة، من دون أن يعرفوا أين سيدفنونها.

اعترضتْ حُميراء قائلةً:

. ستشرق الشمسُ عمّا قريب.

خفضتْ زينب 122 من نظراتها، إذ رأت نالان تصارع من أجل العثور على كلمات مناسبة، بعد أن اتَّضح أنَّها فقدتْ زمام السيطرة على الموقف. فمنذ مغادرتهم المقبرة، كانت وخزاتُ ضميرها تؤنِّبها، وشعرتْ باضطرابٍ شديدٍ بخصوص نبش قبر ليلى وإخراج جثَّتها، وساورها القلقُ من أن يكونوا قد ارتكبوا إثمًا في نظر اللَّـه! والآن، بعد أن شاهدتِ ارتباكَ نالان الذي لم تعهدْه من قبل، دهمتْها فكرةٌ أخرى توازي قوةَ الكشف والإلهام. ربَّما كان الأصدقاءُ الخمسة، شأنهم شأن بقيّة الناس، في لوحة منمنمات، أقوى وأذكى وأكثرَ حيويَّةً حين يكمِّل أحدُهم الآخرَ. ربَّما ينبغي أن تسترخي وتتركَ نفسَها تفعلُ ما تشاء، لأنَّ هذا هو دفن ليلى!

سأل المخرِّب وهو يجذب شاربه:

. وكيف سنعثر على مقبرةٍ أخرى في هذه الساعة؟

ردَّت زينب 122 بصوتٍ بالغِ الخفوت، ما جعلهم جميعًا يصغون جميعًا إليها:

مكتبة[16.07.20 17:52] ,.@

. ربَّما لا ضرورة لذلك. لقد تحدَّثنا في هذا الموضوع مرَّةً أو مرَّتين حين كنَّا في الماخور. أتذكَّر أنَّني أخبرتُها عن الأولياء الأربعة الذين يحمون هذه المدينة. قلت لها: «أتمنَّى أن أُدفَن يومًا ما بجانب ضريح أحدهم». وعندئذٍ قالت ليلى: «جميل، أتمنَّى أن تتحقَّق لكِ هذه الأمنية. أمَّا أنا، فلا أتمنَّى ذلك. ولو كان لديَّ

خيار، فلن أرغب في أن أُدفَن على عمق ستّ أقدام تحت الأرض». وقد اضطربتُ حينها إلى حدٍّ ما، لأنَّ ديننا واضح في هذه القضيَّة. وأخبرتُها ألَّا تتفوَّه بمثل هذا الكلام. إلَّا أنَّ ليلى أصرَّت على رأيها.

رفع المخرِّبُ من صوته عاليًا، وقال:

. ماذا تعنين؟ هل طلبتْ أن تُحرَق؟

دفعتْ زينب 122 نظّارتها إلى الوراء، وقالت:

ـ آه، يا إلهي! لا. كانت ليلى تعني البحرَ. وقد أخبرتني بأنَّها سمعتْ مَن يقول لها إنَّها في اليوم الذي وُلِدتْ فيه، أطلق أحدُ أفراد أسرتها سراحَ سمكةٍ كانوا يحتفظون بها في وعاءٍ زُجاجيّ. الواضح أنَّ هذه الفكرةَ كانت تروقها كثيرًا، وقالت إنَّها حين توافيها المنيّة، سوف تذهب وتبحث عن تلك السَّمكة، ولو لم تقدر على السباحة.

سألت حُميراء:

ـ أتعنين أنَّ ليلى أرادت أن تُرمى جثَّتُها في البحر؟

ـ حسنًا، أنا لستُ متأكّدةً من أنَّها كانت تريد أن تُرمى في البحر تمامًا. كما أنَّها لم تتركْ وصيّةً أو أيَّ شيءٍ مماثلٍ من بعدها، لكنْ، أجل.. قالت إنَّها تفضِّل أن تكون في الماء على أن تكون تحت الأرض.

عبستْ نالان من غير أن تشيحَ بنظرها عن الطريق، وقالت:

ـ لماذا لم تخبرينا بذلك من قبل؟

ـ ولماذا أفعل؟ لقد كان مجرَّدَ حديثٍ واحدٍ من تلك الأحاديث التي لا يأخذها أحدٌ على محمل الجِدّ. يُضاف إلى الأمر أنَّ هذا الفعل إثمٌ.

التفتَتْ نالان إلى زينب 122، وقالت:

. لماذا إذًا تُخبرينا الآن به؟

قالت زينب 122:

. لأنَّه يبدو منطقيًّا على حين غرَّة. أفهمُ أنَّ خياراتها قد لا تتَّفق مع خياراتي، لكنِّي ما زلتُ أحترمُها.

استغرقوا جميعًا في تفكيرٍ عميق.

سألتْ حُميراء:

. إذًا، ماذا سنفعل؟

قالت جميلة:

مكتبة[16.07.20 17:52] .,@

. فلنأخذْها إلى البحر.

كانت نبرةُ جميلة تدلّ على صوتٍ فيه خفَّةٌ ويقينٌ في آنٍ، فشعر الباقون أنَّ ذلك هو العملُ الصائبُ الذي يتعيَّن على المجموعة أن تفعله.

وهكذا انطلقت الشيڤروليه سيلڤرادو باتِّجاه جسر البوسفور؛ الجسر نفسِه الذي احتفلتْ ليلى بافتتاحه رفقةَ آلاف الإسطنبوليّين في يومٍ من الأيَّام.

مكتبة[16.07.20 17:53] .,@

القسم الثالث

الرُّوح

- 38 -

الجسر

. يا حُميراء؟

. نعم؟

سألت نالان وهي تحكِم قبضتيْها على عجلة القيادة.

. أأنتِ بخيرٍ يا حبيبتي؟

ردَّت حُميراء وعيناها نصفُ مغمضتيْن:

. آسفة. أشعرُ بقليلٍ من النعاس.

. هل تناولتِ أيَّ شيء في هذا المساء؟

أجابت حُميراء بوهن:

. ربَّما شيئًا قليلًا.

ثمَّ مال رأسُها على كتف جميلة، واستسلمتْ إلى النوم.

تنهَّدتْ نالان قائلةً:

. آه، عظيم!

اقتربتْ جميلة أكثر، وتنحَّت في مقعدها قليلًا كي ترتاح حُميراء قدر الإمكان.

وما إن أغمضت الأخيرةُ عينيْها حتَّى نامت نومًا مُخمليًّا، فرأت نفسَها طفلةً في بلدة ماردين، بين ذراعيْ أختها الأكبر سنًّا، أختها المفضَّلة. ثمَّ لحق بها بقيَّةُ إخوانها وأخواتها، وراحوا يرقصون رقصةً دائريَّةً وسط ضحكات الجميع. وعلى مبعدةٍ، امتدَّت الحقولُ، التي حُصِدتْ جزئيًّا، امتدادًا مُستويًا، ولامستْ أشعَّةُ الشمس نوافذَ

دير القدّيس غابرييل. تركتْ أشقاءها من ورائها، واتَّجهتْ ناحية المبنى العتيق مُصغيةً إلى زفيف الريح يتردَّد في شقوق الصخور، لكنَّ الدَّيْر بدا لها مختلفًا إلى حدٍّ ما. وبينما هي تقترب، عرفت السَّبب: فالدَّير كان مُشيَّدًا بالحبوب، لا بالآجرّ؛ بل بكلّ الحبوب التي ابتلعتها. بواسطة الماء، والويسكي، والكولا، والشاي، وكانت جافَّة تمامًا. تَغضَّن وجهها، ثمّ أجهشتْ بالبكاء.

قالت جميلة:

- لا تقلقي... إنَّه مُجرّدُ حلمٍ لا أكثر.

هدأتْ حُميراء وسكنتْ، وعادت أماراتُ وجهها إلى هدوئها غيرَ متأثِّرةٍ بقعقعة الشاحنة، وانسدل شعرُها، جذورُه سوداءُ فاحمةٌ من تحت ركامٍ أصفرَ كثيف.

مكتبة[16.07.20 17:53] ,.@

شرعتْ جميلة بغناء أغنية أطفال بلسان أمِّها، صوتُها واضحٌ وصافٍ ومؤثِّر مثل سماءٍ إفريقيَّة. فشعر نالان والمخرِّب وزينب 122، بدفء الأغنية من غير أن يفهموا منها كلمةً واحدة. ثمَّة عنصرٌ مريحٌ على نحوٍ غريب في الطريقة التي توصَّلت فيها مختلفُ الثقافات إلى عاداتٍ وأغانٍ متشابهة، وإلى الأسلوب الذي يرتاح فيه الناسُ في مختلف أرجاء العالم وهم بين ذراعيْ أحبابهم في لحظات الكرْب والوجع.

***

حين انطلقتْ شاحنةُ الشيڤروليه مُسرعةً في متَّجه جسر البوسفور، انبلج الفجرُ بكلّ عظمته. لقد مرَّ يومٌ كامل منذ العثور على جثَّة ليلى في حاوية قمامةٍ معدنيَّة.

زادت نالان من سرعة المحرِّك، وشعرُها الرَّطبُ ملتصقٌ برقبتها. فجأةً، صدر عن الشاحنة صوتٌ خشنٌ، وارتجَّت، ومرَّت لحظةٌ شعروا فيها جميعًا أنَّها توشك أن تخذلهم، إلَّا أنَّها تقدَّمتْ بصعوبةٍ مزمجرة. أمسكتْ نالان بعجلة القيادة على نحوٍ أشدّ، بيدٍ واحدة، وربَّتتْ عليها باليد الأخرى متمتمةً:

ـ أعرفُ أنَّكِ مرهَقة يا حبيبتي، وأفهم ذلك.

قالت زينب 122 مبتسمةً:

. أتكلِّمين الشاحنةَ الآن؟ أنت تكلِّمين كلَّ شيء، لكنَّكِ لا تخاطبين الربّ.

. أتدرين ماذا؟ أعِدُكِ بأنَّني سأرحِّب به إذا ما انتهت هذه المهمَّةُ على خير.

قالت زينب 122 مؤشِّرةً إلى خارج النافذة:

ـ انظري. أعتقد أنَّ الربّ هو مَن يرحِّب بكِ.

خارج الشاحنة، انقلب لونُ قطعةٍ من السَّماء على امتداد الأفق إلى بنفسجيٍّ برَّاق، يشبه قشرةَ المحار الداخليَّة، رقيقًا ومتقزّحًا. أمَّا البحر المترامي الأطراف، فكان مُرصَّعًا بالسفن وبقوارب صيد السمك. لاحت المدينةُ ناعمةً كالحرير، وكأنَّها تخلو من أيّ حوافَّ حادَّة.

وإذ اتّجه الأصدقاءُ إلى الجانب الآسيويّ من المدينة، لاحت لأبصارهم قصورٌ منفيّةٌ وفخمةٌ، ومن ورائها قصورٌ أخرى متينةُ البُنيان تسكنها الطبقةُ الوسطى. وعلى مبعدةٍ منها، فوق التلال، انتشرتْ أكواخٌ متداعيةٌ توشِكُ على السُّقوط صفًّا في إثر صفّ. وكانت تنتشر بين هذه المباني قبورُ الأولياء ومراقُدهم ، بحجارتها

القديمة والشاحبة التي تشبه أشرعةً بيضاءَ تطفو على سطح المياه.

تحقَّقتْ نالان بطرف عينها من حُميراء، وأشعلتْ سيجارةً، وانتابها شعورٌ بالذَّنْب أقلّ من المعتاد، وكأنَّ حالةَ الرَّبو تتعطّل لدى مَن ينامون ملء أجفانهم. حاولتْ أن تنفث دخانَ سيجارتها عبرَ النافذة المفتوحة، إلَّا أنَّ الريح دفعته من جديد داخل الشاحنة.

أوشكَتْ أن ترمي السيجارةَ خارجَ الشاحنة حين اعتدل المُخرِّب في جلسته، وقال:

- انتظري! دعيني أغبّ نَفَسًا منها أوَّلًا.

دخّن بهدوء، واستغرق في التَّفكير. وتساءل عمَّا يفعله أولادُه الآن. وانفطر قلبُه لأنَّهم لم يلتقوا ليلى قطّ، إذ كان يعتقد أنَّه لا بدَّ أن يأتي يومٌ يلتمّ شملُ الجميع فيه حول إفطارٍ شهيّ أو غداءٍ عامر، وأنَّ الأطفال سوف يهيمون حبًّا بليلى من فورهم، تمامًا مثلما هام هو بها. إلَّا أنَّ الأوان قد فات الآن، وفكَّر في أنَّ الأوان يفوته في

مكتبة[16.07.20 17:53] ,.@

كلِّ شيء، وأنَّ عليه أن يكفّ عن التظاهر والتواري عن الأنظار، وعن تجزئة حياته، وأن يعثر على طريقةٍ لجمع كلِّ ما لديه من حقائق. ينبغي أن يُعرِّف أصدقاءه بأسرته، ويُعرِّف أسرتَه بأصدقائه. وإذا لم ترحِّب أسرتُه بهم، فيتعيَّن عليه بذلُ قُصارى جهده أن يُفْهِمَها وضعَه، لولا صعوبةٌ تكتنف تحقيقَ هذا الأمر.

رمى بالسيجارة خارج الشاحنة، وأحكم إغلاقَ زجاج النافذة، وضغط جبينَه عليه. شيء ما في أعماقه آخذٌ بالتحوُّل، مستجمعًا قواه.

شاهدتْ نالان من خلال المرآة الخلفيَّة سيَّارتَيْ شرطةٍ تدخلان الطريقَ على مبعدةٍ منها، وتتَّجهان إلى الجسر. فاتَّسعت عيناها، إذ لم تفطن إلى أنَّ الشرطة ستلحق بالشاحنة بهذه السرعة:

. إنَّهما سيَّارتان، خلفَنا.

قال المُخرِّب:

. ربَّما ينبغي أن يَخْرِج أحدُنا من الشاحنة لتشتيت انتباههم.

قالت زينب 122 بسرعة:

. في وسعي أن أفعل ذلك. ربَّما لم أستطع مدّ يد العون في سحب الجثَّة، لكنْ يمكنني أن أنفِّذ هذا. وفي مستطاعي أن أتظاهر بأنَّني جريحة أو ما شابه. وعندئذٍ، يتعيَّن عليهم أن يتوقَّفوا من أجلي.

سألتها نالان:

. أأنتِ متأكِّدة؟

أجابت زينب 122 بثبات:

. أجل. بكلّ تأكيد.

أوقفتْ نالان الشاحنة، فأصدرتْ هذه صريرًا قويًّا ساعدتْ زينب 122 على الترجُّل منها، ثمَّ أسرعتْ في الوثوب داخلها مجدَّدًا.

فتحتْ حُميراء عينيْها قليلًا بعد أن أزعجتها الضجَّة، وتململتْ في مقعدها، وعادت إلى النوم مرَّةً أخرى.

قالت نالان من خلال النافذة المفتوحة:

ـ بالتوفيق، يا حبيبتي، وحظًّا سعيدًا. كوني حذرة !

ثمَّ انطلقت الشاحنة مُسرعةً، بعد أن تخلّت عن زينب 122 من فوق الرَّصيف، وقد وقف خيالُها الضئيلُ بينها وبين ما تبقّى من المدينة!

***

بعد عبور منتصف الجسر، ضغطتْ نالان على فرامل الشاحنة، وحوَّلتْ عجلةَ القيادة إلى جهة الشمال مُسرعة، فتوقَّفتْ بعد أن انزلقتْ قليلًا. قالت من غير أن تعترف بهذا الشيء إلَّا نادرًا:

. حسنًا، أنا بحاجةٍ إلى مساعدة.

أومأ المخرِّبُ برأسه، وتمطّى واعتدل، وهو يقول:

مكتبة[16.07.20 17:54] ,.@

. أنا جاهز.

اندفعَ الاثنان إلى صندوق الشاحنة، وحرَّرا جثَّةَ ليلى من الحبال المربوطة بها. وأخرج المخرِّبُ من فورهِ وشاحَ ليلى من جيبه، وثبَّته بين ثنيات الكفن، وقال:

. ينبغي ألّا أنسى هديَّتها.

رفع الاثنان جثَّةَ ليلى على كتفيْهما، وشاركا في تحمُّل ثقلها، وسارا نحو الحواجز التي ترتفع إلى مستوى الركبة، وعَبَرا فوقها في حيطةٍ وحذر. وحين وصلا الحاجزَ الحديديَّ الخارجيّ، خفضا من الجثَّة ليضعاها فوق السطح المعدنيّ. وإذ التقطا أنفاسهما، وبدا

جسداهما ضئيليْن من تحت الأسلاك الفولاذيَّة الملتوية والهائلة، والمعلَّقة من فوق الرؤوس، تبادلا نظرةً سريعة.

قال المخرِّب، وقد بانت على وجهه غضونٌ قاسية:

. هيّا بنا.

دفع الاثنان الجثّةَ قليلًا من فوق الحاجز، برفقٍ وتردُّد أوَّل الأمر، كأنَّهما يحثَّان طفلةً على دخول صفٍّ في أوَّل يومٍ من أيَّام المدرسة.

. هيه! أنتما!

تجمَّد المخرِّبُ ونالان في موضعيْهما . فقد مزَّق صوتُ رجلٍ سكونَ الجوار، وصكَّ سمعهَما صريرُ عجلات سيَّارة، وتنشَّقا رائحةَ مطَّاطٍ محترق.

. توقّفا!

. لا تتحرَّكا!

ترجَّل شرطيٌّ من سيَّارةِ الشرطة مُصدرًا أوامرَه، ثمَّ لحقه آخر من ورائه.

ـ لقد ارتكبا جريمةً قتل، وها هما يُحاولان التَّخلصَ من الجثَّة!

امتقعِ وجهُ المخرِّب، وقال:

ـ آه، لا. إنَّها ميِّتة منذ مدَّة.

. اخرس!

. ضعهُ على الأرض ببطء.

قالت نالان:

. بل ضعها. انظر! دعنا نوضح من فضلك .

. اسكتي! لا تتحرَّكي أيّ حركة أخرى. هذا تحذير، وإلَّا سأطلق النار!

مكتبة[16.07.20 17:54] ,.@

توقَّفتْ سيَّارةُ شرطةٍ ثانية، وكانت زينب 122 تجلس في المقعد الخلفيّ، بعينيْن ملؤهما الخوف، وبوجهٍ ممتقع. لم تُفلِح في تشتيت انتباه الشرطة مدَّةً طويلة، ولم تسرِ الأمورُ بحسب الخطّة.

ثمَّ ترجَّل رجلا شرطةٍ آخران.

في الجانب الآخر من الجسر، كانت حركةُ المرور تزداد ازدحامًا. فالسيَّارات تمرّ ببطء، والوجوهُ الفضوليّة ترنو من وراء النوافذ: سيَّارةٌ خاصَّة تُقلّ أسرةً عائدةً من قضاء إجازةٍ مُثقلةٍ بحقائب سفرٍ

في جهتها الخلفيَّة، وحافلةٌ من حافلات المدينة نصف مملوءة بمن استيقظ باكرًا من نومه، عاملات خدمات التَّنظيف، بائعات في متاجر، باعة جائلين، وكلُّهم يحدِّقون ببلاهة.

قال الشرطيّ مكرِّرًا:

. قلت، ضعا الجثَّةَ على الأرض!

خفضتْ نالان من بصرها، ولاح على وجهها أنَّها أدركتْ شيئًا ما: فجثَّة ليلى ستأخذها السلطاتُ وتدفنها من جديد في مقبرة الغرباء. وليس في وسعهم عملُ أيِّ شيء. لقد حاولوا، وأخفقوا.

التفتَتْ قليلًا إلى المخرِّب، وهمستْ :

. أنا آسفة. الخطأ خطأي، لقد أفسدتُ كلّ شيء.

. لا تتحرَّكا، ولا أيّ حركةٍ مفاجئة، وارفعا أيديكما!

تقدَّمتْ نالان خطوةً قصيرةً من الشرطة، وهي لا تزال متشبّثةً بالجثَّة بذراعٍ واحدة. أمَّا اليد الثانية، فرفعتْها علامةً على الاستسلام.

- ضعا الجثَّةَ على الأرض!

ثنت نالان ركبتيْها، جاهزةً لسحب الجثَّة في رفق نحو الرَّصيف، إلَّا أنَّها توقَّفتْ. لاحظتْ أنَّ المخرِّب لا يفعل أيَّ شيء. فنظرتْ إليه نظرةً خاطفة، محتارةً وذاهلة.

كان ساكنًا من غير حراك، كأنَّه لم يسمع كلمةً واحدةً ممَّا قالته الشرطة. وإذ أغمض عينيْه تقريبًا، ترشَّحتْ كلُّ الألوان من السماء ومن البحر ومن المدينة برمَّتها، ولاح كلُّ شيء في لحظةٍ من الزمان وقد تحوَّل إلى أسود وأبيض، مثل الأفلام التي كانت ليلى تفضِّل مشاهدتَها، باستثناء طوق هيلا هوپ واحدٍ يدور ويدور

راسمًا دوائرَ وحلقاتٍ بلونٍ برتقاليّ برَّاقٍ وقويّ ومفعم بالحياة. لشدَّة ما تمنَّى أن يعيد عقاربَ الزمن إلى الوراء بحركةٍ واحدة: ليته طلب إليها المكوثَ في بلدة ڤان، والزواجَ به بدلًا من إعطائها المالَ لدفع أجرة الحافلة التي أخذتها بعيدًا عنه. لماذا كان جبانًا إلى هذا الحدّ؟ ولماذا كان ثمنُ عدم التَّفوُّه بالكلام المناسب في الوقت المناسب باهظًا إلى هذه الدرجة؟

وبعزيمةٍ مُفاجِئة، اندفع المخرِّبُ إلى أمام ودفع الجثَّة من فوق الحاجز، وامتزج النسيمُ على وجهِهِ بالملح، فصار له مذاقُ الدمع.

- قِف!!!!

إلَّا أنَّ الصوت ذاب في الهواء. صياح النوارس. ضغطة على زناد. رصاصة أصابت المُخرِّبَ في كتفه. الألم شديد، لكنَّه، ويا للغرابة، محتمل. رنا إلى السَّماء. سماء لامتناهية، وشجاعة مُتسامِحة. وفي الشاحنة، أطلقتْ جميلة صرخةً مُدوِّية.

مكتبة[16.07.20 17:54] ,.@

***

هبطتْ ليلى في الفراغ. سقطتْ من علوٍّ يزيد عن مئتيْ قدم، سقطةً سريعةً ومباشرة. أمَّا تحتها، فتألَّق البحرُ الأزرق، برَّاقًا مثل مسبحٍ أوليمبيّ. وحين هوَت، تفكَّكتْ بعضُ ثنيات كفنها، وطافت من حولها ومن فوقها مثل الحَمَام الذي كانت أمُّها تُربِّيه على السطح، سوى أنَّ الحمام كان الآن حرًّا وما من أقفاصٍ تحبسه!

غاصَت في الماء.

بعيدًا عن هذا الجنون.

مكتبة[16.07.20 17:54] ,.@

- 39 -

سمكة البيتا الزرقاء

خشيتْ ليلى أن تسقط على رأس صيَّادِ سمكٍ مستوحدٍ في زورق ، أو على رأس بحَّارٍ مشتاقٍ إلى بلده، وهو يشهد سفينتَه تنساب من تحت الجسر، أو على رأس طبّاخٍ يُعدُّ الفطورَ لمرؤوسيه على ظهر يختٍ فخم. إلَّا أنَّ شيئًا من ذلك لم يحدث لها، وإنَّما هوَت إلى أسفل وسط لغطِ طيورِ البحر وصفير الرِّيح. كانت الشمس قد

بزغتْ من فوق الأفق؛ ولاحت شبكةُ البيوت والشوارع على الجانب الآخر من الساحل مشتعلةً.

من فوقها سماءٌ صافيةٌ تبتسم اعتذارًا لها عن العاصفة التي هبَّت في اللَّيلة المنصرمة؛ ومن تحتها قممُ الموج والبقع البيضاء وقد تساقطتْ قطراتٌ منها، وكأنَّها من فرشاة رسّام. وعلى مبعدةٍ منها، وفي كلّ الجهات، كانت المدينةُ القديمةُ ماثلةً، كومةً عديمة الترتيب، فوضويَّةً، جريحةً، مؤذيةً، ولكنْ جميلة كدأبها دومًا.

شعرتْ ليلى بخفَّتها، وشعرتْ بالراحة والطمأنينة. ومع كلّ ياردة تهبطها إلى أسفل، يساورها شعورٌ سلبيٌّ آخر: غضبٌ وحزنٌ وحنينٌ وألمٌ وندمٌ ونفورٌ، فضلًا عن الغيرة. غير أنَّها طرحتْ هذه المشاعرَ كلّها جانبًا، واحدًا تلو الآخر. ثمَّ ارتجَّت رجَّةً قويَّةً هزَّت جسدَها برمَّته حين حطَّمتْ سطحَ البحر، وانفلق الماءُ من حولها،

واستعاد العالمُ حيويَّته ونشاطه. لم يشبه ما حدث أيَّ شيءٍ سبق أن مرَّت به. بلا ضوضاء. بلا حدود. جالت ليلى ببصرها من حولها، تشاهد كلّ شيء على الرَّغم من سعته. ولمحت أمامها ظلًّا صغيرًا، ظلَّ سمكة البيتا الزرقاء. السَّمكة نفسها التي أُطلِق سراحُها في الخور الصغير ببلدة ڤان، يومَ ولادتها.

قالت السَّمكة:

ـ يسرُّني أن أراكِ أخيرًا. ما الذي أخَّركِ كلَّ هذا الوقت؟

لم تَحرْ ليلى جوابًا. هل في وسعها الكلامُ تحت الماء؟

قالت سمكةُ البيتا الزرقاء مبتسمةً حين رأت ارتباكَ ليلى:

. اتبعيني.

استعادت ليلى صوتَها مُجدَّدًا، وقالت على نحوٍ خجول، لم تستطع إخفاءه:

. لكنّني لا أعرف العوْمَ. لم أتعلَّمه قطّ.

. لا تقلقي بهذا الشأن، فأنت تعرفين كلَّ شيء تحتاجين إلى معرفته. تعالي معي.

في البدء، سبحتْ ليلى سباحةً بطيئةً ومرتبكة، ثمَّ تحوَّلتْ إلى سِباحةٍ مستويةٍ تنمّ عن ثقة، وسريعةٍ على نحوٍ متزايد. غير أنَّها لم تحاول الوصول إلى أيِّ هدف، إذ ليس ثمَّة سببٌ يدفعها إلى الاندفاع أكثر، وما من شيء يضطرّها إلى الهرب. التفَّت في شعرها، ومن حولها أسرابٌ من أسماك الإبريمس ذات الزعانف الظهريَّة. دغدعتْ أصابعَ قدميْها أسماكُ البينيت البحريَّة المخطَّطة الظهر، وأسماكُ الإسقمريّ الأطلسيَّة. أمَّا أسماك الدولفين، فقد رافقتْها وهي تضرب الموجَ وترشُّه.

سرحتْ ليلى ببصرها إلى هذه البانوراما، إلى هذا الكون المحتشد بالألوان الطبيعيَّة. بدا كلُّ اتِّجاهٍ من الماء بِرْكةً جديدةً من الضياء، يمتزج كلٌّ منها بالآخر. وشاهدت الهياكلَ الصدئة لزوارق الركّاب الغارقة. وشاهدتْ كنوزًا ضائعة، ومراكبَ استطلاع، ومدافعَ أمبراطوريَّة، ومَرْكباتٍ مهجورةً، وحطامَ سفنٍ قديمة. وشاهدتْ محظيّاتٍ دُفِعن دفعًا من نوافذ القصر وهنَّ داخل أكياس، وأُلقي بهنَّ في زرقة البحر، وباتت مُجوهراتُهنَّ الآن عالقةً بالأعشاب، بينما

مكتبة[16.07.20 17:55] ., @

لا تزال عيونُهنَّ تبحث عن معنًى في عالمٍ أنهى حياتَهنَّ نهايةً في منتهى القسوة. ووجدتْ شُعراءَ وأدباءَ ومتمرِّدين من أيَّام العثمانيّين والبيزنطيِّين، أُلقوا في اليمّ العميق، بسبب كلماتٍ غدّارة، أو معتقداتٍ مثيرةٍ للفتن والنزاع. القبيحُ والجميلُ: كلُّ شيءٍ متوافرٌ حولها.

كلُّ شيءٍ عدا الألم. فما من ألمٍ هنا في هذا المكان.

كان عقلُ ليلى قد تعطَّل تمامًا، وأخذتّ جثَّتُها تتفسَّخ، وروحُها تطارد سمكةَ البيتا الزرقاء. إلَّا أنَّها كانت مُرتاحةً لإخراجها من مقبرةِ الغرباء. لقد أضحت سعيدةً لأنَّها صارت جزءًا من هذا الملكوت النابض بالحياة، ومن هذا الانسجام المريح الذي لم يخطرْ في بالها قطّ أنَّه ممكن، ومن هذه الزرقة المترامية الأطراف، البرَّاقةِ مثل ولادةِ شعلةٍ جديدة.

صارت حرَّةً أخيرًا.

مكتبة[16.07.20 17:55] .,@

- 40 -

خاتمة

زُيِّنَت الشقَّةُ الكائنةُ في شارعِ هيري كافكا بالبالونات والرايات واللّافتات، إذ يُصادف اليومِ ذكرى عيد ميلاد ليلى. سألتْ نالان:

. أين المخُرِّب؟

كان لديهم مُبرّرٌ جديدٌ لإطلاق هذا اللَّقب عليه، وذلك بعد أن خرَّب الآن حياتَه تخريبًا نهائيًّا وكاملًا. فبعد أن أطلق الشرطيُّ النارَ عليه حين كان يرمي بجثّة مومسٍ من على جسر البوسفور، وبصحبته صديقاتٌ مُريباتٌ، انتشر خبرُه في كلِّ الصحف. وفي ذلك الأسبوع بعينه، فقَدَ وظيفتَه وزوجتَه ومنزلَه. ولم يعرفْ إلَّا في وقتٍ لاحق أنَّ زوجتَه كانت على علاقةٍ منذ زمن بعيد، ولهذا كانت تغمرها السعادةُ دائمًا حين تراه يخرج من البيت في الأمسيات؛ وهذا ما منحه شيئًا من القوَّة أثناء تسوية قضيَّة الطلاق. أمَّا أسرة زوجته، فلم يَعُد يكلِّمه أحدٌ من أفرادها. إلَّا أنَّ أولاده كانوا يُكلِّمونه لحسن الحظّ، وسُمح له برؤيتهم في عطلة نهاية الأسبوع، وكان هذا كلَّ ما يهمُّه. والآن أصبح يملك ما يشبه كشكًا صغيرًا في البازار الكبير، يبيع فيه أشياءَ رخيصةَ الثمن، وصار يجني نصفَ المال الذي كان يحصل عليه من وظيفته السَّابقة، إلَّا أنَّه لم يتذمَّر.

قالت حُميراء:

. لا بدّ أنّه عالقٌ في زحام المواصلات.

لوَّحتْ نالان بيدٍ مُهذّبةِ الأظافر حديثًا، وأمسكتْ بين أصابعها سيجارةً مُطفأةً وقدّاحَة د/علي، وقالت:

. ظننتُ أنَّه لم تعد لديه سيّارة. فما عذرُه الآن؟

. عذرهُ أنَّه لم تعد لديه سيَّارة، ما اضطرَّه إلى ركوب الحافلة.

قالت جميلة مهدِّئةً:

. سيصل إلى هنا عمَّا قريب. امنحيه بعضَ الوقت.

أومأتْ نالان برأسها وخَطَتْ نحو الشرفة، وجذبتْ كرسيًّا، وجلستْ عليه. وحين رنت إلى أسفل باتِّجاه الشارع، رأت زينب 122 تغادر دكّانَ البقالة حاملةً كيسًا من البلاستيك في يدها، وتمشي بشيء من الصعوبة.

أمسكتْ نالان بخاصرتها، واستبدَّ بها سُعالٌ مفاجئٌ، سُعال ناجم عن إدمان التدخين. كان صدرُها يؤلمها. لقد بدأتْ تشيخ، وليس لها أيُّ مرتّب تقاعديٍّ ولا مدخَّرات، ولا شيء يقيم أودَها. وكان أكثرُ الخيارات حكمةً أمام الأصدقاء الخمسة أن يبدأوا بالعيش معًا في شقَّة ليلى، وتقاسُمَ أعباء الحياة. كانوا ضعافًا منفردين، ولكنْ أقوى في اجتماعهم.

على مبعدة، وراء السطوح والقباب، كان البحرُ يتلألأ مثل زجاج؛ وفي أعماقه، في مكانٍ ما، وفي كلِّ مكان، ترقدُ ليلى. ألفُ ليلى صغيرةٍ تتشبّثُ بزعانف الأسماك وأشواكِ البحر، وتضحكُ من داخل قشور الرخويّات.

كانت إسطنبول مدينةً مائعة، لا شيء فيها يدوم، ولا شيء فيها مُستقرّ. لا بدَّ أنَّ هذا كلَّه قد بدأ قبل آلاف السنين حين ذابتْ الكتلُ

الجليديَّةُ، وارتفعتْ مُستوياتُ البحر، واندفعتْ مياهُ الفيضان، وتحطَّمتْ كلُّ أشكال الحياة المعروفة. وربَّما كان المتشائمون أوَّلَ الهاربين من المنطقة، واختار المتفائلون الانتظار لرؤية ما ستؤول إليه الأمور.

مكتبة[16.07.20 17:56] ,.@

وفكَّرتْ نالان أنَّ إحدى مآسي تاريخ البشر التي لا نهاية لها إنَّما تكمنُ في أنَّ المتشائمين أوفرُ حظًّا بالحياة من المتفائلين، ما يعني، منطقيًّا، أنَّ البشريَّة حَمَلتْ جيناتِ مَنْ لم يُؤمنوا بها.

حين حلَّت الفيضانات، جاءت من كلِّ الجهات، مُغرِقةً كلّ شيء في طريقها ـ حيواناتٍ ونباتاتٍ وبشرًا. وهكذا، تشكّل البحرُ الأسود والقرنُ الذهبيّ ومضيقُ البوسفور وبحرُ مرمرة. وإذ راحتْ المياه تفيض من كلّ الجوانب، فقد خلقتْ بقعةً يابسةً من الأرض، شُيِّدتْ على أثرها عاصمةٌ جبَّارةٌ في يومٍ ما.

إلَّا أنَّ هذه الأرض أرضهم، لم تكن قد ترسّخَتْ على نحوٍ ثابتٍ بعد. فعندما أغمضتْ نالان عينيْها، كان في وسعها أن تَسْمع جريان المياه من تحت الأقدام. وكانت مياهًا تجري وتبحث، ولا تزال تتدفَّق.

مكتبة[16.07.20 17:56] ,.@

- 41 -

ملاحظة إلى القارئ

ثمَّة أشياء كثيرة في هذا الكتاب حقيقيَّة، وكلّ شيء محض خيال.

فـ «مقبرةُ الغرباء» في بلدة كيليوس مكانٌ حقيقيٌّ، ولا يزال حجمُها يزداد باطّراد. ومؤخَّرًا، ارتفعَتْ أعداد مَنْ دُفنوا فيها من اللّاجئين الذين غرقوا في بحر إيجه أثناء محاولتهم العبورَ إلى أوروبا. وكما هو شأن كلّ القبور الأُخرى، فإنَّ قبورهم لا تحمل سوى أرقام، ونادرًا ما تحمل أسماء.

وقد استوحيَتُ شخصّيات سُكّان المقبرة الذين ورد ذكرُهم في هذا الكتاب من قصاصات صحفٍ وقصصٍ حقيقيَّةٍ عن الموتى الذين دُفنوا هناك. ومن ضمنهم الجدَّةُ الزَّنْبوذيَّة التي كانت في رحلةٍ من نيبال إلى نيويورك.

كما أنَّ شارعَ المواخير حقيقيّ أيضًا، وكذلك الأحداث التاريخيَّة الواردة في الرواية، ومن ضمنها مذبحةُ ماي لاي في فيتنام سنة 1968، ومذبحةُ إسطنبول في عيد العمَّال العالميّ سنة 1977. وأمَّا فندق إنتركونتيننتال الذي أطلق القنَّاصون منه النارَ على حشود الناس، فقد صار اسمُه اليوم فندقَ مرمرة.

حتّى سنة 1990، استُغِلّت المادَّة 438 من قانون العقوبات التركيّ لخفض الأحكام الصادرة في حقّ المُغتصِبين بمقدار الثلث إذا استطاعوا إثباتَ أنَّ ضحاياهم عاهرات. ودافع المشرِّعون عن المادَّة بذريعة أنَّ «صحَّة العاهرة العقليَّة أو البدنيَّة لا يمكن أن تتأثَّر سلبًا بعمليَّة الاغتصاب». وفي العام 1990، وفي مواجهة تزايد عدد الاعتداءات على المشتغلات بالجنس، خرجت احتجاجاتٌ غاضبةٌ في مختلف أنحاء البلاد. وبسبب ردّ الفعل القويّ الذي أبداه المجتمعُ المدنيّ، ألغيت المادَّة 438. إلَّا أنَّه لم تطرأ سوى تعديلاتٍ قانونيَّةٍ طفيفةٍ منذ ذلك الوقت، إنْ طرأتْ أيٌّ منها على الإطلاق، بصدد المساواة بين الجنسيْن في البلد، أو على وجه الخصوص، باتِّجاه تحسين ظروف المشتغلات بالجنس.

أخيرًا، وعلى الرَّغم من أنَّ الأصدقاء الخمسة هُم من نِتاج مخيِّلتي، فإنَّ شخصيّاتهم مستوحاة من أشخاص حقيقيِّين . من أهل البلد، ومن قادمين إليه بعد ذلك، ومن أجانب . كنتُ قد التقيتُهم في إسطنبول. وإذا كانت ليلى وأصدقاؤها شخصيَّاتٍ متخيِّلةً تمامًا، فإنَّ الصداقة التي وُصفتْ في هذه الرواية هي، في نظري على الأقلّ ، حقيقيَّة مثل هذه المدينة القديمة، الفاتنة والمضلِّلة.

- 42 -

شكر وتقدير

ثمَّة أشخاصٌ مميَّزون ساعدوني أثناء تأليف هذه الرواية، وأنا ممتنَّة لهم امتنانًا عميقًا.

شكري الصادر من القلب إلى مُحرِّرة الرِّواية المدهشة فينيشيا باترفيلد. فالروائيَّة تَنْعم ببركةٍ حقيقيَّة عند عملها مع محرِّرةٍ تفهمها كما لا يفهمها أيُّ شخصٍ آخر، وتُرشدها وتشجِّعها بالإيمان والحبّ والإصرار. شكرًا لكِ يا عزيزتي فينيشيا .

كما أنَّني مدينةٌ بعظيم الشكر إليكَ يا وكيلي جوني غيلر، الذي يُصغي ويحلّلِ ويرى. فكلُّ نقاش أجريتُه معه فتح نافذةً جديدةً في عقلي.

شكرًا جزيلًا لأولئك الأشخاص الذين قرأوا صابرين النُّسَخَ الأولى من هذا الكتاب، وأسدوا النصحَ إليّ. يا لكَ من صديقٍ مُدهش وروحٍ كريمةٍ يا ستيفن باربر !

شكرًا لكم يا جيسون غود وين، وروان روث، والعزيزة لورنا أوين، لمرافقتكم إيَّاي طوال هذه المدَّة. شكرًا جزيلًا لكِ يا كارولين بريتي؛ فقد كنتِ مساعِدةً ومُراعيةً كبرى لمشاعري.

شكرًا لكَ يا نيك بارلي الذي قرأ الفصولَ الأولى وطلب إليَّ الاستمرارَ في العمل من غير ريب، ومن غير النظر إلى الوراء .

كما أتقدَّم بعظيم الشكر إلى پاتريك سِيلمان وپيتر هاغ اللذيْن وقفا إلى جانبي منذ البداية الأولى. كيف يتسنَّى لي أن أنسى دعمكما الثمين؟

كما أودُّ أن أعبِّر عن تقديري لكلٍّ من جوانا پرايور وإيزابيل وول وسافاير ريس وآنا ريدلي وإيلي سمث من دار نشر پنغوين في المملكة المتحدة، ودايزي مايريك ولوسي تالبوت وسِيارة فينان في كيرتيس براون .

الشكرُ أيضًا لسارةِ ميركوريو التي أرسلتْ إليَّ أجمل الرَّسائل بالبريد الإلكترونيّ من لوس أنجلِس؛ وأنطون مولر على نُصحه من نيويورك؛ وإلى المحرِّرين والأصدقاء في «دوغان كتاب» . فريقٌ جميل وشجاع يسبح ضدّ التيَّار، ولا يرشده إلى ذلك سوى عشقه الكتبَ. كما أنَّني ممتنَّة أيضًا إلى المحبوبين زيلدا وأمير ظاهر، والعزيز أيّوب، وإلى أمِّي شافاك المرأة التي تبنّيتُ اسمها، فأصبح كنيتي منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا.

لقد وافت جدَّتي المنيّة قبل أن أبدأ بكتابة هذه الرواية بوقتٍ قصير، ولم أذهب لحضور جنازتها، لأنَّني لم أشعرْ بالارتياح لفكرةِ السفر إلى وطني في وقتٍ كان فيه الكتَّاب والصحافيُّون والمثقَّفون والأكاديميُّون والأصدقاء والزملاء يُعتَقلون بأكثر التهم التي لا أساس لها من الصحَّة. وقد طلبتْ منِّي أمِّي ألَّا أقلق بشأن عدم

زيارة قبر جدَّتي، إلَّا أنَّني قلقتُ فعلًا وشعرتُ بالذنب، إذ كنتُ قريبةً جدًّا من جدَّتي؛ فهي المرأة التي ربَّتني.

في اللَّيلة التي فرغتُ فيها من تأليف الرواية، كان الهلال ينمو في السماء، ففكَّرتُ في ليلى التكيلا، وفكَّرتُ في جدَّتي. وعلى الرَّغم من أن الأولى كانت شخصيَّةً من نسج الخيال، والثانية حقيقيَّةً حقيقةَ دَمي ذاته، فقد خُيِّل إليَّ أنَّهما التقتا، وأصبحتا صديقتيْن جيِّدتيْن، صديقتيْن ـ غريبتيْن. ففي نهاية المطاف، لا تعني حدودُ العقل شيئًا لنساءٍ يواصلن إنشاد أغاني الحرِّيَّة تحت ضوء القمر.

(1) التكيلا :Tequila شراب مكسيكيّ كحوليّ يُستقطر من نبتةٍ تنمو في أميركا الوسطى. (المترجم(

مكتبة[16.07.20 17:57] ,.@

(2)تعني هذه الأسماء (جريء وشجاع) و(خوذة الحرب) و(مطر مدرار) و(سبيل الوصول إلى اللّـه) على التوالي. (المؤلِّفة(

(3) هو الكونت فرديناند فون زبلن (1838 ـ 1917) الجنرال الألمانيّ الذي صنع هذا المنطاد.

(4) تستخدم شافاك أسماءَ شخوص الرواية تارةً بمفردها مثل: ليلى، سنان، نالان، حميراء.. وتارة مشفوعة بلقب مثل: ليلى

التكيلا، سنان سابوتاج (المُخرِّب)، نوستالجيا نالان (الحنين) وحُميراء هوليوود، تارةً أخرى. (المترجم(

(5) بحسب الكتب الدِّينيَّة، فإنَّ داوود أو دايڤيد (1110 – 970 ق.م) هو ثاني ملوك اليهود واسرائيل، ووالدُ الملك سليمان، وابنُ النبيّ يعقوب. أمَّا غولياث فهو جالوت، الذي قتل داوودَ بحجرٍ. (المترجم(

(6) محمد سياد بري: قائد وسياسيّ صوماليّ، وُلد سنة 1919. رئيس الجمهوريَّة سنة 1969. عُزل من منصبه سنة 1991.

(7) هكذا أوردت المؤلِّفة المثل بهذه الصيغة water ran thicker than blood. وأصلُ هذا المثل هو blood is thicker than water بمعنى أنَّ الدم أشدّ كثافةً من الماء، إذ يُضرب لبيان أنَّ روابط الدم (القرابة) أشدُّ من أيّ روابط أخرى. (المترجم)